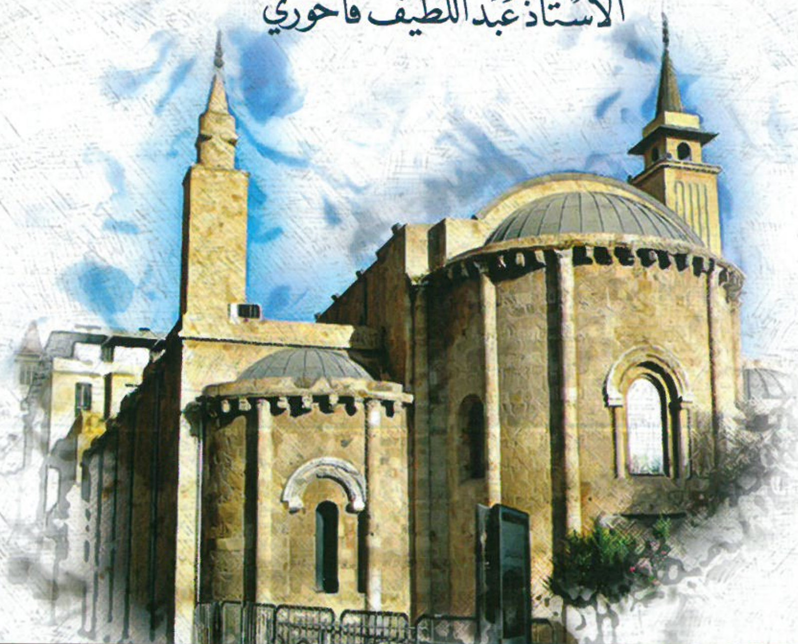
زوايا بيروت

تأليف
الأستاذ عبد اللطيف فاخوري





دار الحديث الكتانية

زوايا بيروت

تأليف

الأستاذ عبد اللطيف فاخوري







المملكة المغربيّة : طنجة - شارع لبنان - إقامة يامنة - الطابق الثالث رقم ٤٧
هاتف ٠٠٢١٢٦٥٦٩٩٣١٤٧
الجمهوريّة اللبنانيّة : بيروت - شارع برج أبي حيدر - ص.ب ٥٥٥٦-١٤ بيروت
هاتف ٨٤١٦٣٦-١-٠٠٩٦١/٢٨٧٨١٩-٣-٠٠٩٦١
e-mail. dar.alkatani@gmail.com

الكتاب: زوايا بيروت

المؤلف: عبد اللطيف فاخوري

الطبعة : الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

الإيداع القانوني : 2018MO3178

ردمك: ٩٧٨-٩٩٥٤-٦٩٨-٢٨-٠

تطلب منشوراتنا من

المغرب: دار الأمان - الرباط - زنقة المأمونية
هاتف : ٠٠٢١٢٥٣٧٢٦٣٧٨٧

الأردن : دار مسك - عمان - العبدلي
هاتف : ٠٠٩٦٢٧٩٦٠٥٤٨٠٠

تركيا : دار الشامي - استانبول - بايزيد
هاتف : ٠٠٩٠٢١٢٥٢٦٠٥٤٦-٠٠٩٠٥٤٢٣٣٢٣١٥٧

القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي
هاتف : ٠٠٢٠٢٢٥٩٣٢٨٢٠





مقدمة

كتب البعض مقالاتٍ متفرِّقة في مساجد بيروتَ وكنائسها، إلا أنَّ تاريخ الزوايا لم يُكتب بعد، مع أنَّ بيروت القديمة عَرفت الكثيرَ مِن هذه الزوايا داخل أسوار المدينة وفي مختلف أحيائها.

وقد دفعني إلى البحث في تاريخ الزوايا أمران:

أولهما: ما ورد في ديوان مفتي بيروت الأسبق الشيخ عبد اللطيف فتح الله عندما أرّخ زيارةً قام بها علامةُ الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري إلى بيروت في شهر ربيع الثاني ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م بقصيدة ذكر المفتي فتح الله في بعض أبياتها المقامات والزوايا التي زارها الكزبري في بيروت وهي:

وزار بها يحيى الحصور يساره	بجامعها المشهور بالذكر يرغبُ
كذا الشيخ شمس الدين أعني شهيدها	بزاوية تعزى إليه وتنسب
كذا ابن عراق والشويخ الذي ابنه	غدوت له سبطًا يُعدُ ويُحسب
وزار بها شيخًا يضاف لسربة	بسورٍ عليها للحماية يضربُ
وزار الرجال الأربعين عليهمُ	يصبّ من الرضوان وبلٌ وصيّبُ



وأم حرام عمة لابن مالكٍ   خديم رسول الله وهو المحبّب
وزار أبا العباس أعني مقامه   هو الخضر الحيّ النبي المقرّب
لدى نهرها السلسال طاب زُلاله   وسال لجينًا وهو يحلو ويعذب
وقد زار أوزاعيّها العارف الذي   له فشا في الشام والغرب مذهب

وزار ضريح... (وتنقطع القصيدة عند هذا الاستهلال)[1].

أما الأمر الثاني: فقد وجدتُ في سجلات محكمة بيروت الشرعية التي تبدأ وثائقها سنة ١٨٤٣م ومن وثائق سابقة، أنَّ بعض الوثائق المذكورة تُحدد مواقع زوايا بيروت ومحتوياتها وعمارتها وشيوخها وأوقافها وما تلي فيها من أذكار وأوراد.

والزاوية غير المسجد وغير المزار، فالمزار هو: ضريح لأحد الأتقياء الصالحين، أو أحد الشهداء المرابطين فوقه قبة، وقيل: «تحتَ كل قبة وَليّ». والزاوية هي: بناء متواضع قد لا يزيد عن غرفة واسعة تُقام فيها الصلاةُ والأذكار وتُتلى الأوراد، سُمِّيت حينًا بالخانقاه وحينًا بالتكية. وسُميت بعضُها مدرسة يتلقّى فيها الأولاد تلاوة القرآن الكريم، ويتعلَّمون التجويد والفرائض والحساب والنحو. والمسجد هو: الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

قامت الزوايا على فكرتَي الزهدِ والورع والابتعاد عن الملذّات من جهةٍ، وعلى التطوع للمرابطة والدفاع عن الثغور والتخوم مع الالتزام بالقرآن الكريم والحديث الشريف من جهة ثانية.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

كان قصدُ الصوفية تربيةَ المريد بتصفية ذاته وتطهيره من شهوة النفس إلى أن اختلط الحق بالباطل والنور بالظلام، فأضيفت إلى الأذكار تلاوة عزائم قال بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه   ولا بكاؤك إن غنّى المغنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر   وتتبع الحق والإسلام والدينا

وكانت الطرق الصوفية المختلفة منتشرةً في بيروت، مثل الخلوتيّة، والبكرية، والقادرية أو الكيلانية، والرفاعية، والشاذلية، والسعدية أو الشيبانية، والنَّقشبندية، والبدوية، واليشرطية. وانتسب كثيرون من أبناء بيروت إلى الطرق المذكورة.

وقد شجعت الدولةُ العثمانية انتشار الطرق الصوفية، فكان لكلِّ طريقةٍ شيخُها وأتباعُها وأعلامُها وزواياها وأوقافها. وكان هؤلاء في القرن التاسع عشر على حد قول الشيخ عبد القادر قباني في ذكرياته هم: الشيخ علي الفاخوري، ثم الشيخ محمد الحوت، ثم الشيخ عبد الله خالد، وآخرهم المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري[1].

ثم عمدت الدولة في القرن التاسع عشر إلى تشكيل «جمعية مشايخ الطرق الصوفية» مِن أجل السَّيطرة عليها وتحديد دور شيوخها. فظهرت في بيروت سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م جمعيةُ مشايخ الطرق الصوفية، وكان لها

---

(١) بيروت حياتها وتحولاتها، عبد القادر قباني، مجلة الكشاف سنة ١٩٢٧ (ص١٩).

وأم حـرام عمـة لابـن مالـكٍ   خـديم رسـول الله وهـو المحبّـب
وزار أبـا العبـاس أعنـي مقامـه   هـو الخضر الحيّ النبي المقرّب
لـدى نهرها السلسال طاب زُلالـه   وسال لجينًا وهـو يحلو ويعذب
وقـد زار أوزاعيّها العارف الـذي   له فشا في الشام والغرب مذهب

وزار ضريح... (وتنقطع القصيدة عند هذا الاستهلال)[1].

أما الأمر الثاني: فقد وجدتُ في سجلات محكمة بيروت الشرعية التي تبدأ وثائقها سنة ١٨٤٣م ومن وثائق سابقة، أنَّ بعض الوثائق المذكورة تُحدد مواقع زوايا بيروت ومحتوياتها وعمارتها وشيوخها وأوقافها وما تلي فيها من أذكار وأوراد.

والزاوية غير المسجد وغير المزار، فالمزار هو: ضريح لأحد الأتقياء الصالحين، أو أحد الشهداء المرابطين فوقه قبة، وقيل: «تحتَ كل قبة وَليّ». والزاوية هي: بناء متواضع قد لا يزيد عن غرفة واسعة تُقام فيها الصلاةُ والأذكار وتُتلى الأوراد، سُمِّيت حينًا بالخانقاه وحينًا بالتكية. وسُميت بعضُها مدرسة يتلقّى فيها الأولاد تلاوة القرآن الكريم، ويتعلّمون التجويد والفرائض والحساب والنحو. والمسجد هو: الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

قامت الزوايا على فكرتَي الزهدِ والورع والابتعاد عن الملذّات من جهةٍ، وعلى التطوع للمرابطة والدفاع عن الثغور والتخوم مع الالتزام بالقرآن الكريم والحديث الشريف من جهة ثانية.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

كان قصدُ الصوفية تربيةَ المريد بتصفية ذاته وتطهيره من شهوة النفس إلى أن اختلط الحق بالباطل والنور بالظلام، فأضيفت إلى الأذكار تلاوة عزائم قال بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه   ولا بكـاؤك إن غنّـى المغنونـا
بـل التصـوف أن تصفو بـلا كـدر   وتتبـع الحـق والإسـلام والـدينا

وكانت الطرق الصوفية المختلفة منتشرةً في بيروت، مثل الخلوتيّة، والبكريـة، والقادريـة أو الكيلانيـة، والرفاعيـة، والشاذلية، والسعدية أو الشيبانية، والنَّقشبندية، والبدوية، واليشرطية. وانتسب كثيرون من أبناء بيروت إلى الطرق المذكورة.

وقد شجعت الدولةُ العثمانية انتشار الطرق الصوفية، فكان لكلِّ طريقةٍ شيخُها وأتباعُها وأعلامُها وزواياها وأوقافها. وكان هؤلاء في القرن التاسع عشر على حد قول الشيخ عبد القادر قباني في ذكرياته هم: الشيخ علي الفاخوري، ثم الشيخ محمد الحوت، ثم الشيخ عبد الله خالد، وآخرهم المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري[1].

ثم عمدت الدولة في القرن التاسع عشر إلى تشكيل «جمعية مشايخ الطرق الصوفية» مِن أجل السَّيطرة عليها وتحديد دور شيوخها. فظهرت في بيروت سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م جمعيةُ مشايخ الطرق الصوفية، وكان لها

---

(١) بيروت حياتها وتحولاتها، عبد القادر قباني، مجلة الكشاف سنة ١٩٢٧ (ص١٩).

رئيس يُعرف بشيخ مشايخ الطرق الصوفية، وكان الشيخ عبد الباسط الفاخوري آخرَ مَن تولاه[١].

ويبدو أنَّ كلَّ طريقةٍ اتخذت لونًا مميَّزًا لرايتِها وسنجقِها، فالعلامةُ الخضراءُ لعبد القادر الكيلاني، والعلامة السوداء للشيخ أحمد الرفاعي، وعلامة نصفها أصفر ونصفها أبيض لإبراهيم الدسوقي، والعلامة الحمراء للسيد أحمد البدوي.

وكأنما هذه الطرق قد سبقت الأحزابَ السياسية، وقد فاقت شهرةُ بعض الشيوخ شهرةَ الآخرين بكثرة مريديهم أو بعلاقاتهم في عاصمة السلطنة، فحصلوا على رواتب وعقارات جعلتهم حلفاء الطبقة الحاكمة.

يُذكر أنَّ مُفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري أصدر سنة ١٨٧٦م رسالة بعنوان «هدية الطالبين وهداية المسترشدين»، قال فيها أنّه وجد في هذا العصر جماعة ينتمون إلى التصوف يبيحون ما حرَّمَ اللهُ، ويحقرون ما عظم الله، يَسعون في الأرض بالفساد، ويأكلون بالباطل أموالَ العباد، يدّعون الوصول، ويقولون بالحلول والإلحاد والاتّحاد، يُموِّهون لبعض الجهلة بخزعبلات وتمويهات، ويفسرون الآيات بما عنّ لهم من هذه المقالات، ويتركون الصلواتِ والصيامَ وسائرَ العبادات[٢].

---

(١) سجل محكمة بيروت الشرعية ١٣٠٤/١٣٠٥هـ رقم ٤٤٤.

(٢) هدية الطالبين وهداية المسترشدين، المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري (ص٢٢٣).

وذكر المُفتي المذكور في مخطوطة له بعنوان «خبايا الدراية» أبياتًا لأبي حيّان في متصوفة زمن هذا الأخير، المُدَّعين بالدعاوى الباطلة ممن ليس مِن القوم ولا من أهل الصلاح جاء في ختامها:

يجرون التيوس وراءَ رجسٍ تقرمط في العقيدة والمقال

وقال المفتي بأنَّ البيت المذكور أذكره بأنه قد وُجِد في مدينتنا بيروت رجلٌ يدعى يحيى، ادَّعى التصوفَ، وقد جَمَعَ هذه الصفاتِ، واتّبعه الجهلةُ مِن أهلِ البلد، فأنكرتُ على ذلك أشد الإنكار، وساعده على أحواله بعضُ أهل الفسوق وأصحاب الغايات والشهوات، فعمِل بعضُ أدباء العصر من أهل بيروت بيتين، وأرسلهما إليّ:

عجبتُ لبلدةٍ رَشقت بنوها أساطين العلوم بمنجيقِ

فكم أسد يموت بها ويحيى بها كلبٌ عقور في الطريق[١]

وكان القرنان الثاني عشر والثالثَ عشرَ وما بعدهما قد شَهِدا ظهورَ عددٍ مِن كبار المتصوفة كعبد القادر الجيلاني، وعمرَ ابن الفارض، وعبد الغني النابلسي وغيرهم. إلا أنَّ التصوفَ تحوَّل في أواخر العهد العثماني إلى أذكار ومدائح أمّنت حاجة الجمهور للتخفيف من ظروفه الاقتصادية ومعاناته. واستفادت الدولة مِن نفوذ شيوخ الطرق وبما لهم من سلطان في قلوب العامة فأمدتهم بالامتيازات.

لا أدَّعي إصابةَ القصد كلّه بتأريخ زوايا بيروت ومزاراتِها، وإنّما ذكرتُ بعضَ الزوايا التي لم تُذكر ولم تؤرخ سابقًا، كزوايا: الشيخ أرسلان وبني الصانع والشهداء وزنتوت... . وقد ذكرتُ شيوخَ الزوايا وأئمتَها

---

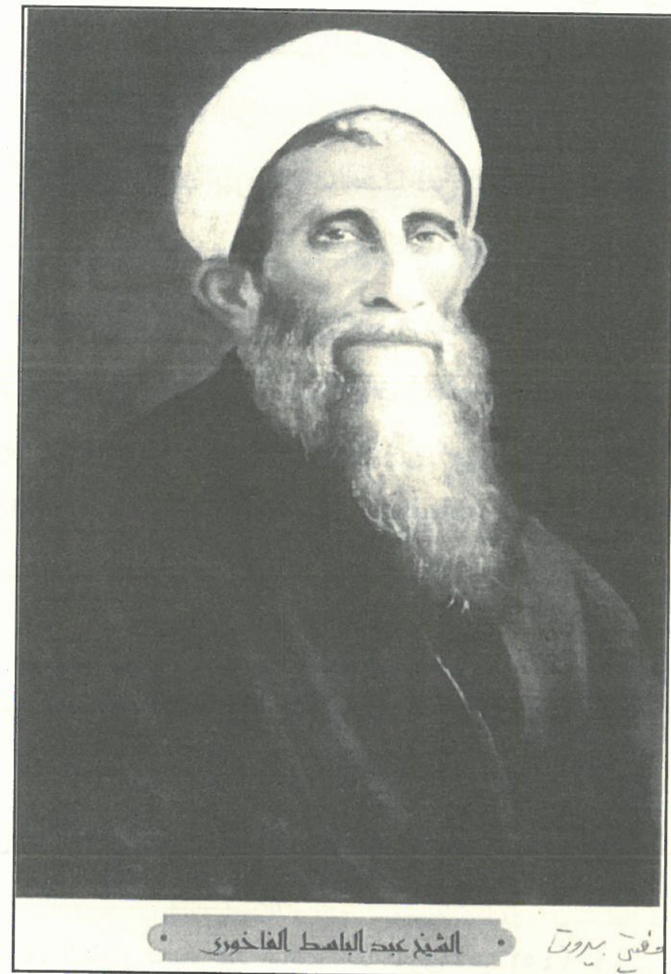
(١) خبايا الدراية، المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري (ص٤٥٣).

ومُتولي أوقافها، وحددتُ مواقعَ بعضِها بما يُمكن رسم خريطة لمدينة بيروت القديمة داخل السور.

وأنا أضع هذا البحث المتواضع بين أيدي الأفاضل من العلماء والمفكرين، لإكمال ما بدأت وتوسيع ما حصرت. والله المستعان.

بيروت في ٦ رمضان المبارك ١٤٣٨هـ   عبد اللطيف فاخوري

١/٦/٢٠١٧م   مؤرخ بيروت



أوّل مَسجد أسسه المسلمون في بيروت
الجامع العمري. جامع البحر. جامع الدباغة

دعاني سماحةُ المفتي السابق الشيخ محمد رشيد قباني عندما اكتشفت مقبرة الصحابة أثناء الحفريات التي كانت تقوم بها شركة كويتية في ساحة رياض الصلح، وذلك مِن أجل البحث في الأمر. وقد قدّمتُ لسماحتِهِ دراسةً مفصلةً ومدعَّمة نُشِرَت في حينه في جريدتَي اللواء (١١و١٢/٣/٢٠١١م) والنهار. وقد أُعلِمتُ فيما بعد أنَّه جرى البحث بين دار الفتوى والشركة المذكورة وبلدية بيروتَ على إعادةِ دفن الرُّفات في حديقة البلديّة العامّة المجاورة لموقع الحفريات وعلى نفقة الشركة. وإلى الآن لم نسمع أو نعرف أو نبلغ عما آل إليه الأمر.

وقد زرتُ في أوّلِ حُزَيران ٢٠١٥م برفقة الصديقَين سُهَيل مُنَيمنة وإبراهيم الصيداني الآثارَ الباقيةَ مِن مسجد بيروت على بُعد أمتار مِن جامع أبي بكر الصديق، وأخذنا الصُّورَ التي تبين موقع الجامع وعقوده ودرجه وبعض جدرانه.

ونُلقي الضوءَ في البحث التالي على الشهود الباقية من هذا المسجد الذي بناه المسلمون في بيروت بعد الفتح، والذي عُرِفَ على مرِّ العصور بعدّةِ أسماء، هي: مسجد بيروت، والجامع العمري، وجامع البحر، وجامع الدباغة. وندعو سماحةَ المفتي لاتخاذ التدابير اللازِمة للحفاظ على هذه الشهود، لما له مِن اهتمام دائم بالتراث الإسلامي في بيروت.

بعد فتح دمشقَ الذي تمَّ في شهر رجب الخير سنة ١٤ للهجرة ٦٣٤ ميلادية، خرجَ يزيدُ بنُ أبي سفيانَ وبصحبته أخوه معاويةُ نحوَ السّاحل، فتمّ فتحُ صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي ثغور ساحلية تمّ فتحها فتحًا يسيرًا وجلا الكثير ممن كان فيها، وذلك في خلافة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي رواية للبلاذري بأن فاتح مدن الساحل هو معاوية[1].

وقد تعرضت بيروت في تاريخها لعدة كوارث إحداها حدثت سنة ١٤٠ ق.م، عندما قام تريفون وزير الملك إسكندر السلوقي بالإغارة عليها ليثأر من أهلها، فخرب أبنيتها وحرقها. وذهب بعض المحدثين كما نقل الأب شيخو إلى أن بيروت بقيت على خرابها نحو مئة سنة.

وفي سنة ٦٤ ق.م استولى الرومانُ على بلاد الشام، واهتموا ببيروتَ، فولّى أغسطوس قيصر صهره أغريبا عليها. وكان هذا الأخير مولعًا بالأبنية العظيمة، فشيّد فيها الهياكلَ والنواديَ والأروقةَ والحماماتِ والموانئَ وميادينَ السِّباق وحديقةً للحيوانات ومسرحًا للمباريات على الشاطىء بالقُرب من محلة ميناء الحصن (علمًا بأنَّ وصف المحلة بالحصن لم يظهر إلا زمن الانتداب الفرنسي، وبعد إجراء عمليات التحديد والتحرير العقارية. وكانت الوثائق الشرعية السابقة تصف المحلة والميناء بالحسن). وقد كشفت الحفريات التي أجريت مؤخرًا لإنشاء بناء حديث عن بعض آثار المسرح المذكور.

---

(١) لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، د. عمر تدمري (ص٣٧).

ومن المؤسسات الرومانية المشهورة: مدرسةُ الحقوق التي ضمَّت طلابًا من مختلف الأنحاء، والتي عَمِل أساتذتها على تقنين العادات والأعراف والتقاليد المحلية وإصدارها ضمن الديجست.

ومن المؤسسات: مبنى المجلس البلدي الذي أقيم عند باب الدركاه. وتميزت تلك الأبنية بضخامة الأعمدة وزخرفة تيجانها. ومنها: الأعمدة المنتصبة بجوار كنيسة مار جرجس المارونية (تُجاه مبنى العازارية)، وكانت هذه الأعمدة ضمن جامع صغير عُرِفَ بجامع الأربعين، كان يفصله عن الكنيسة درج عرفناه باسم درج الأربعين.

إلا أنَّ الزلازلَ التي ضربت المدينة خرَّبت الكثير مِن معالمها، فزلزال سنة ٣٣٤م خرَّب قسمًا كبيرًا منها، ولَحِقَ بها بعض الضرر مِن زلزالَي ٤٩٤ و٥٠٢م، إلا أنَّ زلزال سنة ٥٥١م الذي عمّ مدن الساحل دمَّر كلَّ أنحاء بيروت وأبنيتها، حتى إنَّ البحر جَزَر إلى مسافة ميل من الشاطىء ثم ارتدت أمواجه فأغرقت السفن وانقضت على أبنية المدينة، فلم يبقَ مِن أبنيتها أيّ حجر على حجر، وهلك الكثيرُ مِن أهلِها تحت الأنقاض. وجرت محاولة لإصلاح ما تهدَّم أو ترميمه، إلا أنَّ الحريقَ الذي شبَّ في أحيائها سنة ٥٦٠م أنهى تلك المحاولة، وبقيت آثارها مطمورة تحت التراب والرماد. وقد ظهر أثرُ ذلك الحريق على الحجارة في الحفريات التي جرت سنة ١٩١٤م بأمر من والي بيروت عزمي بك، قرب الجامع العمري الكبير[1].

---

(١) بيروت تاريخها وآثارها، لويس شيخو (ص٥٩).

فَمِنَ المُرجَّح ما ذكرنا أن يكون فتح بيروت كان يسيرًا، لأن الخرائب كانت منتشرة فيها عند الفتح. وعمد معاوية احتياطًا من الغارات البيزنطية على الساحل إلى إقطاع الأراضي لدعم المحاربين الذين رابطوا في الثغور وعلى طول الساحل.

وقد نقل المؤرِّخون بعضهم عن بعض دون تدقيق قولَ اليعقوبي بأنَّ أولئك الذين أقطعهم معاوية الأراضي كانوا مِن الفرس، ومنهم بني الحمرا كذا. وهذا الخبر بحاجة إلى نظر، فَمِنَ المعروف أنَّ الأمويين عمومًا، ومعاويةَ وأحفادَه خصوصًا كانوا معادين للموالي وللعناصر غير العربيّة، فلا يعقل والحالة هذه أن يستعين معاوية بهم لحماية الساحل الذي هو خط الدفاع الأول عن عاصمته في الشام، وبيروت كانت معروفة بأنها مرابط أهل دمشق منذ أيّام خلافة عثمانَ رضي الله عنه، عِلمًا بأن أمهات خلفاء بني أمية كنّ من العربيات على عكس أمهات خلفاء بني العباس.

أما الحمراء فليست لقبًا للفرس الذين جلبهم معاوية إلى البقاع فبيروت، ولكنه نقل قبائل عربية من البصرة والكوفة والعراق، ومِن هذه القبائل المناذرة الذين سكنوا على حدود فارس، وعندما أتى خالد بن الوليد إلى الحيرة صالح أهلها على أن يكونوا عيونًا للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعوانًا.

والحمراء: لقب لمضر بن نزار، وهؤلاء بطن من عدنان، وسبب إطلاق الحمراء عليهم ما رواه القَلْقَشَندي والميداني بأنّه كان لنزار من الولد أربعة: مُضَر وإيّاد وربيعةُ وأنمار، ولمّا حضرت نزارًا الوفاةُ دعا أولادَه

الأربعةَ، وقال لإياد: هذه الجاريةُ الشمطاء وما أشبهها لك. وأعطى ربيعة حبالًا سوداء مِن الشعر، وقال: وهذه وما أشبهها لك، وأعطى القبّةَ الحمراء لِمُضَر وقال: هذه وما أشبهها لك، وأعطى البدرة والمجلس لأنمار. وقال لهم: إنِ اختلفتم فأتوا الأفعى الجرهميَّ مَلِكَ نجران، فأتوه بعد موته وأخبروه بوصيته، فقال: ما أشبه القبة الحمراء مِن مال فهو لِمُضَر، فذَهَبَ بالدنانير والإبل الحمر فسمي «مضر الحمراء» لذلك.

وقال: أما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيلُ الدّهم، فقيل: «ربيعة الفرس». وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد، فصار له الماشية البلق (وهو جنس صغير قبيح من الغنم)، فسُمّي «إياد الشمطاء». وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل، فسُمّي «أنمار الفضل». ويبدو أنَّ بني الحمراء هم بطن من مضر الحمراء المذكورة[1].

يذكر أن العرب أينما رحلوا نقلوا معهم خلافاتهم (ما أشبه الليلة بالبارحة) بين الحزبيتين القيسية واليمنية، وكانت لكل من الفريقين راية، فراية القيسيين حمراءُ عليها رسم قرنفلة قرمزية، وراية اليمنيين بيضاء عليها زهرة الخشخاش البيضاء، ونقلوا أعلامَهم هذه مِن شبه الجزيرة إلى البلاد التي حلّوا فيها، ومنها بلاد الشام وساحلها عامة، وبيروت خاصة.

---

(١) مجمع الأمثال ، الميداني (١٥/١)، وتاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني (ص٣٣).

يؤكِّد ذلك المعركة التي حصلت سنة ١٦٦٦م عند برج الغلغول قرب ساحة عصور (السور) بين القيسية أصحاب الراية الحمراء واليمنية أصحاب الراية البيضاء، وانتهت بمقتل مقدم اليمنية وانكسار عزيمتهم وانهزامهم خارج بيروت، والذين انتصروا سكنوا محلة رأس بيروت، وعرف قسم منهم بآل الحمرا (فصَّلنا ذلك في كتابنا عن رأس بيروت ومزرعة جرن الدب وهو قيد الطبع)[1].

يُذكَر أنَّ الرومَ استردوا بيروتَ سنة ٢٢هـ، وعاد معاوية بن أبي سفيان واستردَّها منهم سنة ٢٤هـ، وتحولت بيروت وغيرها مِن الثغور الساحلية إلى رباط للصَّحابة رضي الله عنهم وللتَّابعين والمجاهدين في سبيل الله.

والرّباط في الثغور يفضل الرباط في السواحل الأخرى لتعرضها للخطر الداهم. نقل ابنُ عساكر عن إبراهيم اليماني قولَه: قَدِمتُ من اليمن فأتيتُ سفيانَ الثوريَّ فقلتُ: يا أبا عبدِ الله، إني جعلتُ في نفسي أن أنزل جُدّة فأُرابط بها كل سنة، وأعتمِر في كل شهر عُمرة، وأحجّ في كل سنة حجّة، أفأقرب من أهلي أحبّ إليك أم آتي الشام؟ فقال لي: «يا أخا أهل اليمن عليك بسواحل الشام، عليك بسواحل الشام، فإن أهل البيت محجّهُ في كل عام مئة ألف ومئتا ألف وثلاثمئة ألف، وما شاء الله من التضعيف، لك مثل حجّهم وعمرتهم ومناسكهم». وقد سمعنا شخصيًا المفتي الشَّهيدَ

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق (٢/١١٧)، وبيروت في التاريخ لإبراهيم كنعان (ص٣٣٠).

الشيخ حسنَ خالد يُردِّدُ الحديث: «مَن اختار ساحلًا مِن سواحل الشام، فقد اختار الجهاد الى يوم القيامة».

ونقل المؤرِّخون أنَّ أبا الدرداء وسلمانَ الفارسيَّ كانا مِن أوائل مَن قَدِم للمرابطة في بيروتَ، وقد أقاما فيها أربعين يومًا التي هي تمام الرباط.

وروي أن أنصاريًا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «أين كنت؟»، قال: في الرباط، قال: «كم رابطت؟»، قال: ثلاثين يومًا، قال: «فهلّا أتممت أربعين».

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «رباط ليلة إلى جانب البحر من وراء عورة المسلمين أحبّ إليّ من أن أوافق ليلة القدر في أحد المسجدين مسجد الكعبة ومسجد رسول الله بالمدينة، ورباط ثلاثة أيام عدل السنة وتمام الرباط أربعون ليلة.

وقد فرض وجود المسلمين في ثغر بيروت وجود مكان للصَّلاة، فَمِنَ البَديهي أن يختار الفاتحون المواقع المرتفعة مِن شاطىء بيروت ليقيموا عليها رباطهم ومسجدهم. إنَّ غياب الوثائق لا يسهل علينا إعادة تركيب خريطة توضح نقاط تمركز المرابطين المسلمين وموقع أول مسجد اتخذوه للصلاة، عِلمًا بأنَّ قلة الوثائق المتوافرة لنا أو ضعف المصادر والتي من المحتمل أن تكون مستحدثة، يجعل البحث لا يخلو من الصعوبة، لا سيَّما متابعة مسيرة المسجد المذكور بعدما رزحت بيروت تحت الحكم الصليبي عشرات السنين.

فَمِنَ المعروف أنه عندما تتعرض سفينة للغرق يتعلق بحّارتُها بقطع متناثرة كما يتعلق المؤرخون بما في كتب الرحلات والتراجم والتاريخ والحديث، ونضطر لعدم إهمال أية معلومة، وإلا لأصبحت صحف التاريخ بيضاء من غير سوء.

لقد اضطررنا إلى جمع الشواهد الشاردة من الأخبار والمعلومات من مظان متنوعة كي نتمكن مِن إعادة جمع ولو صورة قريبة للمتاهة Puzzle وإلى أن تظهر معطياتٌ جديدة يتعين علينا الاكتفاء بما لدينا، وإذا كانت الروايات تستند في العمق إلى حقيقة تاريخيّة، فإنَّ مِنَ الصعب العثور على هذه الحقيقة تحت ركام الكم الهائل من الروايات الهائلة والمتعددة والمتناثرة والمتناقضة في كل موضع، ولكن من غير الجائز رغم ذلك اختراع أحداث لغاية ردم ثغرة غامضة.

لقد اختار المسلمون تلةً عاليةً مشرفة على البحر، وقد تكون قد استعملت قبلهم مرقبًا ونقطة لرصد أية تحركات للعدّو، لكي يبنوا عليها أول مسجد عرفته بيروت.

زعم البعض أن المسلمين وقفوا عند الموقع المرتفع المذكور المطل على البحر خوفًا من «البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، الواسع الفجاج، الداخل اليه مفقود والخارج منه مولود» كما وصفه السندباد البحري في كتاب ألف ليلة. وقد قال الشاعر العربي:

المرء طين والبحر ماء   والطين في الماء ذائب

كما زعم البلاذري بأن صعوبة إقناع الجند في ركوب البحر تفوق ألف مرّة صعوبة حثهم على خوض القتال.

وبرأينا أن الأمر لم يكن خوفًا من ركوب البحر وإنما يجب ان ينظر إليه من الناحية الاستراتيجية التي توجب تهيئة الوسائل والمعدات قبل خوض غمار البحر. ويتضح ذلك جليًا من المراسلات التي جرت بين معاوية وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. فقد كتب معاوية إلى عمر: «يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يُسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص». ونقل الطبري جواب الخليفة: «إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على طول شيء من الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب. والله لمسلم أحبّ إليّ مما حوَتَ الروم، فإياك أن تعرض لي».

وعاد معاوية وكتب إلى الخليفة يبين فيه ضعف تحصينات الساحل، فكتب إليه في مرمّة الحصون وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، ولم يأذن له بركوب البحر. فقد كان عمر يرى تهيئة الأسباب لركوب البحر لضمان إمكانية مساعدة الجيش البحري عند الحاجة.

ثم باشر معاوية بإنشاء أسطول وكتب إلى عثمان يستأذنه في ركوب البحر إلى قبرص وأنه أعد العدة لذلك، فكتب إليه عثمان: «لا آذن لك في ركوب البحر، فإن أبيت ذلك ولم يكن لك بدّ من ركوب البحر فاحمل معك أهلك وولدك حتى أعلم أن البحر هيّن كما تقول. ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم (القرعة)، خيّرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه».

واتجه معاوية من بيروت على رأس الأسطول لغزو قبرص، وخرج معه من الصحابة أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت مِلحان وأبو الدرداء وسلمان الفارسي اللذين كانا مرابطين في بيروت وغيرهم، (للرسام مصطفى فروخ لوحة جميلة تمثل معاوية يركب البحر).

من الطبيعي - وقد اتخذ الصحابة تلة عالية مشرفة على البحر نقطة حراسة ومراقبة ورصد - أن يعمدوا إلى إنشاء مسجد في تلك التلة.

ولا تفيدنا المصادر المتوفرة عن مساحة هذا المسجد وارتفاعه وبنائه، وإن كان من المعقول القول بأنه بني من حجر، وذلك بالنظر لوفرة الأحجار قرب الشاطىء عامة وفي التلة المشار إليها خاصة. وقد كشفت الحفريات التي جرت مؤخرًا توفر تلك الحجارة. وليس لدينا ما يشير إلى بناء مئذنة للمسجد، وإن كان من المرجح أن يكون قد استوحي في بنائه مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة، علمًا بأن ارتفاع موقع المسجد لم يكن بحاجة إلى مئذنة، إضافة إلى قلة عدد المسلمين المرابطين.

يمكن القول بأنه أطلق على المسجد المذكور اسم المسجد العمري، نسبة للخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي تم الفتح زمن خلافته، والتي أطلق المسلمون اسم الخليفة المذكور على المساجد التي بنوها في طرابلس وصيدا وبعلبك.

ونشير إلى أن بعلبك كانت مركز تجمع الجند الذين كانوا يرسلون إلى السواحل للدفاع عنها. وكان منهم الإمام الأوزاعي الذي كان مرابطًا في ديوان الساحل. ووفقًا للدكتور عمر تدمري فإن الأوزاعي اكتتب في

الديوان، وكان يأخذ العطاء كغيره من جند الساحل، وأن المرابطين من أصحاب الديوان أفضل من المرابطين المتطوعين. قال الشعبي حين سئل عن الغزو وعن أصحاب الديوان أفضل أو المتطوع؟: بل أصحاب الديوان، فالمتطوع متى شاء رجع.

المحدثون في مسجد بيروت

ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق[1] أسماء بعض الصحابة والتابعين الذي شوهدوا في مسجد بيروت.

فكان منهم: حيّان بن وبرة المرّي صاحب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد كان يجتمع عليه الناس في مسجد بيروت ليسمعوا منه، وكان يلبس قميصًا قطنيًّا إلى نصف ساقيه وعمامة وقلنسوة صغيرة وثيابًا رثّة.

وروى الأوزاعي أن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم وكان متشددًا ضد المعتزلة، حين قدم إلى بيروت ورأى الأوزاعي ظن أنه منهم فتجنبه، وقال: إني أراكنّ من هؤلاء القوم فلعلك منهم؟ فقال الأوزاعي: لا والله، ما أنا منهم.

وممن نزل بيروت مرابطًا: حسان بن سليمان أبو علي الساحلي، وسعيد بن أبي سعيد البيروتي الساحلي، الذي حدّث في مسجد بيروت (ت١٢٣هـ).

---

(١) (١٠٣/٥١)، (٤٥٣/٦٠).

ونقل الدكتور تدمري أن سلمان الفارسي قال للمسلمين المجتمعين في مسجد بيروت: يا أهل بيروت، ألا أحدثكم حديثًا يذهب الله به عنكم غرض الرباط؟ سمعت رسول الله يقول: «رباط يوم كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا في سبيل الله أجير من فتنة القبر، وأجري له ما كان يعمل إلى يوم القيامة».

روى حسان بن سليمان الساحلي قال: كنت رفيقًا لسفيان الثوري فحبّب إليّ الرباط، فقلت له: إني أحببت الرباط وإني لأحبّ أن ترتاد لي موضعًا أحبس فيه نفسي بقية أيامي، فقال لي: «إن الأوزاعي بالشام فأته، فإنه لن يدخر عنك نصيحة». فأتيت بيروت فبتّ فيها. فلما صليت الغداة مع الجماعة قلت لرجل إلى جانبي: أيّهُم الأوزاعي؟ فأشار إليه بيده، وكان مستقبلًا القبلة. وكان إذا صلى لم يلتفت عن القبلة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت أسند ظهره إلى القبلة، فمن سأله عن شيء أجابه. فقلت: إن يكن عند أحد خير من سفيان فعند هذا الرجل. فتقدمت وسلمت عليه. فقال لي: «كيف تركت أخي سفيان؟»، فقلت له: بخير، وهو يقرئك السلام. ثم قلت: إني كنت رفيقًا له زمانًا، وأخبرته بخبري. فقال: «عليك بصور، فإنها مباركة مدفوع عنها الفتن، يصبح فيها الشرّ فلا يمسي، ويمسي فيها فلا يصبح، قبر نبي في أعلاها». فقلت له: تشير عليّ بصور وأنت في بيروت؟ فقال لي: «سبق المقدور، ولو أنني استقبلت من أمري ما استدبرت ما عدلت بها بلدًا». ونعتقد أن الحديث جرى بعدما انتهى حكم الأمويين وما جرى من حديث بين الأوزاعي وولاه العباسيين.

ومن مرابطي بيروت: حسان بن عطية أبو بكر المحاربي، قال الأوزاعي: «ما رأيت أحدًا أكثر عملًا في الخير منه، وكان إذا صلى العصر يذكر الله في المسجد حتى تغيب الشمس». وكان الأوزاعي يسيء القول في القدرية الذين كان منهم زرعة بن أبي ابراهيم، ولما خرج محمد بن الحجاج يريد بيروت قال له زرعة: إذا أتيت الأوزاعي فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك زرعة من علّمك عِلمك الذي تحسنه؟ قال: فاجتمعت بالأوزاعي وأخبرته بذلك، فقال الأوزاعي: «إذا لقيته فأقرئه السلام وقل له: صدقت، تعلمنا منك، فلما أحدثت تركنا علمك».

ومما نعرفه عن مسجد بيروت ما ذكر في تاريخ دمشق من أن الأوزاعي خرج يومًا من باب المسجد وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف بحذاء درج المسجد، وإلى جانبه دكان يبيع البصل وهو يقول: يا بصل أحلى من العسل، أو أحلى من الناطف، فقال الأوزاعي: «يا سبحان الله، أيظن هذا أن شيئًا من الكذب يباح؟، فكأن هذا ما يرى في الكذب بأسًا». وسنعود إلى درج المسجد والدكاكين المذكورة[1].

ويفيدنا ابن عبد البر في «بهجة المجالس وأنس المجالِس وشحذ الذهن والهاجس» بأن الشيوخ والعلماء وطلبة العلم في بيروت كانوا يتّبعون تقليدًا خاصًا يوم الجمعة، وهو وضع العمامة عند الخروج لصلاة الجمعة. وكان الأوزاعي إذا أراد أن يعتمّ يوم الجمعة يكره أن يُرى معتمًا وحده خوف الشهرة، فيبعث إلى أصحابه: الهقل بن زياد وعلقمة بن يزيد وابن أبي العشرين أن اعتمّوا، فإني أكره أن أعتمّ اليوم.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥/٢٠٤).

وبالفعل حدّث السلاماني في مسجد بيروت عن عمرو بن هشام البيروتي قال: سمعت الأوزاعي يحدث عن حسان بن عطية عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فاستثنى، ثم أتى ما حلف فلا كفارة عليه»[١].

وحدّث السلاماني عن صفوان بن صالح عن إبراهيم بن رحيم عن أبيه عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان عن مكحول عن أبي رهم السماعي عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «كل صلاة تحط ما بين يديها خطيئة».

وحدّث عبد الرحمن بن الفتح الثقفي الذي كان إمامًا ومؤذنًا في مسجد بيروت، عن أبي علي محمود الجرجاني عن سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من قال عند مضجعه من الليل: الحمد الذي علا فقدّر والذي بطن فخبّر والحمد لله الذي ملك فقدّر الحمد لله الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، بات على غير ذنب»[٢].

ومن أئمة مسجد بيروت ومحدثيه: موسى بن عبد الرحمن بن محمد، ويقال: ابن صالح أبو عمران الصبّاغ، أحد القرّاء. قرأ وسمع وحدّث عن كثيرين، وروى عنه كثيرون. ومما روي عنه عن عقبة بن عامر: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «من يطعم الطعام ويقرئ السلام على من عرف ومن لم يعرف».

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/١٠٣).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥/٣٢٣).

كما روي عنه عن عثمان بن هقل عن الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «حبّب إليّ النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة».

يذكر أن بعد سقوط السلطة الأموية وانتقال الأمر إلى العباسيين نقل مركز الخلافة إلى بغداد، البعيدة نسبيًا عن بيروت. الذي يبدو أن دورها الديني قد تأخر بسبب الريبة التي كان العباسيون ينظرون بها إليها، لاعتبار أن هواها وهوى إمامها الأوزاعي مع الأمويين، وهو ما حدا بالأوزاعي إلى أن ينصح مريديه بالإقامة بعيدًا عن بيروت، أي: عن عيون السلطة العباسية الجديدة، حتى قيل: إنه سمع بأذنه من يشتمه، ولعل هذه الريبة دفعت السلطات أو ألزمتها على عدم دفن الأوزاعي في مقبرة سيدنا عمر، أي: مقبرة الصحابة في بيروت، التي تبعد أمتارًا عن بيته الذي توفي فيه (في السوق الطويلة)، وفرضت دفنه في قرية حنتوس، المحلة المعروفة اليوم بالأوزاعي خارج بيروت.

ولا نميل إلى تصديق ما روّج بعد ذلك بزمن طويل ولأغراض سياسية، من أن نعش الأوزاعي سار بالمشيعين إلى حيث دفن، أو أن نعشه حُمّل على جمل سار به إلى موضع دفنه، أو حتى عما يروى من أن الآلاف من مختلف الطوائف ساروا وراء نعشه، وكل ذلك لم يثبت علمًا بأنه لو قدر بتاريخ وفاته توفر وجود الآلاف للتشييع، لما تمكنت السلطات من دفنه في مكان بعيد عن بيروت.

يذكر أن السلطة لم تسمح بدفن الذين شنقوا في ساحة بيروت سنة ١٩١٦م في مقابر البلدة، بل جرى دفنهم في مكان بعيد من محلة الرمل.

ونتج عن فقدان الاهتمام ببيروت إلى أن التاريخ لم يذكر لنا إنشاء مساجد فيها غير مسجد بيروت، أي: الجامع العمري، أي مسجد ورد، وذلك حتى بدء الاحتلال الصليبي لبيروت، واستمرار هذا الاحتلال بين سنتي ٥٠٣ - ٥٨٣ هـ/ ١١١٠ - ١١٨٧م[1].

ومن المرجح أن يكون هذا المسجد قد تعرض للإهمال لقلة عدد المسلمين، ومن المرجح أن ما قيل عن إبقاء الصليبيين لجامع الأوزاعي وفاء لما قام به الإمام بدفاعه عن نصارى الساحل الذين تدخلوا لمن هدمه، من المرجح أن يكون لهذا الخبر خلفية سياسية أيضًا.

فقد ذكر أن الإمام الأوزاعي دفن خارج الحائط القبلي لجامع حنتوس، ولم يكن ضريحه ضمن غرفة (كما هو اليوم)، كما أن جامع حنتوس لم يكن أكثر من غرفة صغيرة مبنية على شكل عقد، أي على طراز البناء الذي كان رائجًا واتخذت مصلى، ولم يكن لها مئذنة أو منبر.

وما ذكر عن وجود مساجد صغيرة قبل الاحتلال الصليبي لبيروت إنما قصد به إمكانية وجود زوايا أو مصليات.

ويمكن القول بأنه خلال فترة الاحتلال الصليبي خفتت أصوات المؤذنين، وتوقفت دروس المحدثين والقراء، واختفت المنابر والمحاريب.

يذكر أنه خلال فترة الحكم الصليبي الأول بنى الصليبيون في بيروت كنيسة كاتدرائية على اسم القديس يوحنا المعمدان. ونشير إلى أن الصليبيين مع احتلالهم لبيت المقدس فتحوا قبر يوحنا المعمدان ووزعوا

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/١٠٣).

عظامه على كنائس المدن التي فتحوها، فكانت جمجمته من نصيب جامع دمشق، وفي الجامع الأموي فيها إلى اليوم مشهد النبي يحيى عليه السلام.

وكان نصيب كنيسة بيروت الكف اليسرى للنبي يحيى عليه السلام كما شاع في بيروت وتناقله البيارتة، وقد أشار إليه مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد الأغر سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٨م فقال:

إن في بيروت كفًّا لنبي الله يحيى   من غدا برًّا بوالديه في الدارين يحيى[1]

وكان مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله قد ذكر ذلك أيضًا عندما أرّخ للزيارة التي قام بها إلى بيروت الشيخ عبد الرحمن الكزبري سنة ١٨١٣م، وذلك في قصيدة ذكر فيها الأماكن التي زارها الكزبري في بيروت وكان منها:

وزار بها يحيى الحصور يساره   بجامعها المشهور بالذكر يرغبُ[2]

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي بيروت سنة ١١٨٧م وجد كنيسة يوحنا المعمدان بحالة جيدة، فصادرها وحولها إلى مسجد عرف فيما بعد بجامع النبي يحيى، أو جامع فتوح الإسلام، أو الجامع العمري الكبير، تمييزًا له عن الجامع العمري (الصغير) القديم.

إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلًا، فقد أعاد الصليبيون احتلال بيروت سنة ١١٩٧م بعد أن هرب منها أميرها المعروف بأسامة مع جماعته وأهله وقد عُيّر بذلك فقالوا:

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٣٠١).
(٢) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

سلم الحصن ما عليك ملامه   لا يلام الذي يروم السلامه
فعطا الحصون من غير حرب   سنّة سنّها في بيروت سامه[١]

فعادت بيروت طيلة الحكم الصليبي الثاني من سنة ١١٩٧م إلى ١٢٩١م دون ذكر لجامع فيها.

ويقول صالح بن يحيى عن بيروت فترة حكم الإفرنج: «كان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا أربعين فيصلِ بهم الخطيب ظهرًا في بعض الأوقات، وفي بعضها يكملون بمن يحضرهم من الضواحي فيصلي بهم جمعة...».

وفي تموز سنة ١٢٩١م دخل الأمير سنجر الشجاعي بيروت، وهو أحد قواد جيش السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون. وعهد إلى التنوخيين الأرسلانيين آل بحتر أمراء الغرب بأمر الدفاع عن بيروت. فجعلوا بيروت مرفأ لدمشق. وكانت تتعرض لغارات بحرية متفرقة من أسطول جنوا الإيطالية. ذكرها مؤرخ آل بحتر صالح بن يحيى حصولها في السنوات ١٢٩٩ و١٣٣٣ و١٣٨٢ و١٤٠٣م. ويشير صالح بن يحيى إلى اهتمام المماليك ببيروت.

فذكر تجديد نائب السلطنة في دمشق الأمير بيدمر سور بيروت على جانب البحر، وبناء تنكز نائب الشام فيها برجًا وحمامًا وخانًا سنة ١٣٤٣م. وأقام السلطان برقوق البرج الكبير. وحضر بيدمر إلى بيروت سنة ١٣٦٥م

---

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٧٦).

وبنى مسطبة (مصطبة) خصصها لصنع السفن، واختار لها موضعًا بعيدًا عن شاطىء البحر منعًا لتعدي أسطول الفرنج عليها[١].

ويقول البيارتة أن موضع مصطبة صناعة السفن كان في إحدى محلات منطقة المصيطبة التي تعرف إلى الآن باسم حي «العمارة» (العمارة تعني العمارة البحرية، أي: الأسطول). ونعتقد أن موقع حي العمارة يقع الآن في النقطة العليا الشمالية من شارع سليم سلام، ويكفي أن يقف الناظر عندها ليدرك أنه كان من السهل إنزال السفينة من هذا المرتفع المنحدر نحو الساحل.

وصالح بن يحيى هو المؤرخ الوحيد الذي أرّخ للفترة المملوكية. ولكن كتابه في الواقع هو تأريخ لأعمال وبطولات أفراد أسرته آبائه وأجداده. وترد في سياقه أحيانًا بعض الأخبار والمواقع بشكل مختصر وغير حاسم. (كما تقدم محطات التلفزة في أيامنا مجموعة من الإعلانات والدعايات تتخللها بعض مشاهد من مسلسل). فيشير مثلًا إلى أن ناصر الدين الحسين عمّر حارة جانب البحر ودارًا وأطباقًا و«مسجدًا»، ولم يتبين موقع هذا المسجد وما إذا كان مسجدًا جديدًا أم أنه ترميم لمسجد بيروت الأول أي العمري؟

يذكر أن ناصر الدين بن الحسين ٦٦٨- ٧٥١هـ/ ١٢٦٩ - ١٣٥٠م بنى دارًا مجاورة للبحر، وجعل أطباقها مسجدًا، فمدحه الشاعر جمال الدين حجي بن شهاب الدين أحمد، مشيرًا إلى هذا المسجد:

---

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص١٠٧).

آنستم الدار الجديدة مغربًا ووحشتم الدار العتيقة مشرقا
ما أبصرت عيناي بحرًا جامعًا في جامع من فوق بحر أزرقا[١]

ولا يستبعد أن يوصف هذا الجامع فيما بعد بجامع البحر، مع بقاء صفته الأصلية الجامع العمري. ويرجح أن بناء هذا الجامع أو ترميمه تمّ في فترة تولي ناصر الدين حسين درك بيروت حوالي سنة ١٣٤٣م.

وإذا صحّ الرسم المعروف لهذا الجامع على أنه جامع الدباغة، فإن هذا الجامع يتميز بأنه أول مسجد في بيروت ضمّ مئذنة مبنية فوق سور المدينة مربعة الشكل فوقها قبة صغيرة وتنفتح في الأجزاء العليا من جدران المئذنة أربعة نوافذ يؤذن منها، وتتخذ أيضًا مرقبًا لمراقبة الشاطىء.

وتكاد هذه المئذنة أن تكون نسخة طبق الأصل عن أول مئذنة بنيت في جامع مدينة فاس العتيقة. مما يوحي بأن مغاربة عرفتهم بلاد الشام عامة وبيروت خاصة أسهموا في بناء الجامع فتركوا بصماتهم فيه، علمًا بأن مئذنة مسجد بيروت لم تكن تحوي شرفة لوقوف المؤذن.

ومئذنة مسجد بيروت المذكور كانت أول مئذنة في بيروت، لأن مئذنة الجامع العمري الكبير أنشئت في محرم الحرام سنة ٩١٤ هـ/ أيار ١٥٠٨م[٢]، وهي تشبه مئذنة الجامع الأموي بدمشق. ومئذنة جامع الأمير عساف السراي بنيت مع الجامع بعد سنة ١٥٢٤م. وبنيت مئذنة جامع الأمير منذر أي جامع النوفرة أو الجامع المعلق مع إنشاء الجامع سنة ١٦٢٠م.

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص١٠٧).

(٢) لوحة رخامية مثبتة فوق باب المئذنة.

زار عبد الغني النابلسي بيروت مرتين: الأولى سنة ١٦٩٤م، والثانية سنة ١٧٠٠م، وقد دوّن وقائع هذه الرحلة الأخيرة في كتاب باسم **«التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»، فذكر مساجد بيروت بقوله**[١]: «والجوامع بها أربعة: الجامع الكبير (أي العمري)، وجامع الأمير منذر. وجامع الأمير عساف، والرابع: جامع البحر، ويسمى الجامع العمري، لأنه كما هو مشهور عندهم (أي البيارتة) من زمان عمر بن الخطاب».

ويضيف النابلسي عن هذا الجامع الأخير قوله: «وهو أصغر من الجوامع التي في بيروت، وهو مرتفع مطل على البحر، يصعد إلى فنائه سلّم حجر نحو خمسة عشر درجة. ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات...».

وقد ذكر الشيخ طه الولي في كتابه: «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت» أن هذا الجامع بقي قائمًا حتى سنة ١٩١٤م، ونقل من كراسة صغيرة للشيخ محيي الدين الخياط (ت ١٩١٤م) بعض معلومات عن هذا الجامع، منها: أن الشيخ الخياط ذكر الجامع بإسم **«جامع التوبة»**، ورجح الشيخ الولي أن ذلك بسبب ما أصاب الجامع أيام الصليبيين من تحويله إلى كنيسة، ثم استرجاع المسلمين له، فأطلق عليه جامع التوبة على عادة المسلمين عندما كانوا يسترجعون المساجد...»[٢].

(١) (ص٤٢-٤٣).

(٢) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، لطه الولي (ص٦٥-٦٦).

وسنعود إلى وصف الشيخ الخياط للجامع العمري، إنما سنقف قليلًا عند اعتباره جامع التوبة. فمما عثرنا عليه في سجلات محكمة بيروت الشرعية وثيقة مؤرخة في ٢٤/ شعبان ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م باع بموجبها عباس ابن الحاج سليمان المصري (والد الشيخ أحمد عباس الأزهري) إلى محمد أحمد رمضان داره الكائنة «في محلة فرن الكنيسة قريبًا من جامع التوبة داخل بيروت... يحدها شرقًا كنيسة الموارنة...».

وبموجب وثيقة مؤرخة سنة ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٦م باعت الحاجة عائشة حسن القيسي إلى الشيخ عبد القادر حسن النحاس وزوجته حليمة محمد يموت البيت الواقع في الدار المعروفة ببني قنبريس الكائنة «في محلة رجال الأربعين قريبًا من جامع التوبة داخل المدينة...».

وفي وثيقة مؤرخة في ٨ ربيع الأول ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٧م وكلت ظريفة زين وأولاد محمد عبد اللطيف سعادة الدبس لبيع حصة في دار «في محلة التوبة قبلتها الطريق السالك الآخذ إلى جامع التوبة...».

وتفيدنا وثيقة مؤرخة في ٦ ربيع الثاني ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٧م انعقاد مجلس شرعي في دار في محلة التوبة جارية بملك المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري[1].

ويستدل من هذه الوثائق أن جامع التوبة الواقع في محلة التوبة هو نفسه جامع رجال الأربعين المجاور غربًا لكتدرائية مار جرجس المارونية في شارع الأمير بشير.

---

(١) سجل ١٣٠٤هـ، تاريخ ٦ ربيع الآخر ١٣٠٤هـ.

وقد ذكر هذا الجامع قنصل فرنسا في بيروت في كتابه: «بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن» (١/١٩٤) فقال: «بقليل من الخيال والاستعانة بالأعمدة الباقية نجد إذا ما اتجهنا صوب الشرق ابتداءً من الأعمدة التي ما تزال منتصبة في المسجد المحمدي الصغير المسمى بالرجال الأربعين آثار هيكل...»، فالأعمدة التي لا تزال منتصبة تجاه مبنى العازارية والمجاورة لكتدرائية مار جرجس المارونية كانت ضمن جامع صغير عرف بجامع الرجال الأربعين.

وقبل إعادة إعمار وسط بيروت كان درج عريض يفصل هذه الأعمدة (أي الجامع الصغير) عن كنيسة مار جرجس عرف بدرج الأربعين، ودرج خان البيض، وكان يؤدي إلى سوق أبو النصر وسوق الأرمن وإلى الأقبية الموجودة تحت الكاتدرائية والتي اتخذها باعة الدواجن مركزًا لتجارتهم.

ومن ذكر بأن جامع التوبة هو جامع الدباغة، نقل ذلك عن الشيخ الولي معتبرًا جامع البحر هو جامع التوبة. وكما قلنا فإن جامع التوبة هو جامع الرجال الأربعين، فلا توجد كنيسة للموارنة تحدّ جامع التوبة (الأربعين) إلا كنيسة واحدة حلت محلها وفي موقعها تقريبًا كتدرائية مار جرجس المارونية الحالية.

يذكر أن هنري غيز كان قنصلًا لفرنسا في بيروت سنة ١٨٠٨م، وخبره يتوافق مع القصيدة التي نظمها مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله عن زيارة الشيخ الكزبري لبيروت والذي قال فيها:

وزار الرجال الأربعين عليهم   يصبّ من الرضوان وبلُ وصيّبُ[1]

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

يذكر أن كنائس الشرق تحتفل بعيد الشهداء الأربعين الذين قتلوا في سبيل الإيمان على زمن الملك ليقينيوس الوثني، وكان أربعون من الجنود الرومان تحت إمرة القائد أغريقولاس، فأبوا السجود للأصنام فحبسهم الملك، ثم جردوا من ثيابهم وضربوا بالسياط حتى سالت دماؤهم فنالوا شرف الاستشهاد.

ومن قواعد المتصوفة صوم أربعين يومًا تسمى الأربعينية، وصف السهروردي كيفية الدخول فيها. وكانوا يختارون لها شهر ذي القعدة وعشرًا من ذي الحجة، وزعم الصوفية أنه لا يزال في الأمة أربعون رجلًا صالحًا على ملة إبراهيم الخليل منهم الأبدال. قال ابن تيمية: إن الأسماء الدائرة على لسان العامة والنساك مثل غوث وأوتاد وأقطاب وأبدال الأربعين لا توجد في كتاب الله ولا هي مأثورة عن النبي ﷺ إلا لفظ الأبدال، فقد روي فيه حديث مرفوع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم - أي: أهل الشام - الأبدال، أربعين رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلًا». وذكر صالح بن يحيى أن محمدًا - ابن الإمام الأوزاعي - كان عابدًا قانتًا وكان يُظن أنه من الأبدال.

وقد أقيمت مزارات ومقامات للأربعين في عدة مدن منها نابلس وحلب ودمشق وبيروت، وكانت محلات بيروت القديمة داخل السور تضم محلة باسم الرجال الأربعين، وإلى عهد قريب كانت سجلات نفوس بيروت تحتوي على محلة باسم الأربعين، جرى مؤخرًا دمجها في نفوس محلة المرفأ.

ونعود إلى الجامع العمري أو جامع البحر، فقد وصفه الشيخ الخياط كما يلي: «المسجد واقع في رأس سوق الخضار، ومرتفع عن الأرض زهاء خمسة عشر مترًا، ويصعد إليه بدرج (يشبه وصف النابلسي للجامع)». ولاحظ الخياط شبهًا بين بناء الجامع وعقوده ودعاماته الحجرية وبناء الكنائس. ولا يمنع أن يتأثر من بنى الجامع أو رممه بطراز الأبنية الكنسية التي كانت موجودة أثناء الفترة الصليبية. ولو كان الجامع كنيسة لكان صالح بن يحيى أشار إلى ذلك كما فعل عندما أشار الى إزالة الوضر (الرسوم) عن جدران كنيسة يوحنا المعمدان عندما حولت إلى الجامع العمري الكبير.

ويشير الخياط: «إلى وجود طريق وسوق تحت الجامع، وأنه في جهته الشرقية ثلاث نوافذ تطل على السوق، وفي الشمالية نافذتان تطلان على السوق أيضًا، وفي غربي الجهة الشمالية سبيل يسيل منه الماء بأنابيب نحاسية».

وذكر الخياط: «أن فوق قنطرة العقد الشمالية المطلة على سوق الخضرة بلاطة منقوش عليها ما صورته: أنشأ محمد باشا خيرات ليس لها عدد. من جملة الخيرات هذا السوق في هذا البلد. وجعله الحين وقفًا للواحد الفرد الصمد. على مصالح الجامع العمري حق للأبد. وأجرى هذا السبيل به يسقي من ورد. وعلا عليه بمسجد وأباحه لمن ركع به أو سجد. راجيًا من الله الثواب في هذه الدنيا وغد. فجزاه جنات النعيم في طيب عيش في رغد. وقف صحيح مؤرخ بأجر وخير لا يرد»[1].

---

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٦٧-٦٨).

يذكر أن محمد باشا تولى بيروت بين سنتي ١٦٦٠ و١٦٧٥م، وبين سنتي ١٦٧٧ - ١٦٧٩م وسنة ١٦٨٠م، وهو محمد باشا الأرناؤوطي، وقد تولاها بأمر الصدر الأعظم محمد باشا الكوبرلي. وكانت بيروت سنة ١٦٦٠م تابعة لإيالة صيدا، وآل الكوبرلي أعيان عرفوا بالكوبرلي نسبة إلى قصبة كوبري في الأناضول التي أقاموا فيها. وقد تولى الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ حتى وفاته سنة ١٦٦١م، وخلفه على الصدارة ابنه أحمد، ثم حفيده مصطفى. وفي عهد محمد باشا الكوبرلي تمّ ترميم جامع الخضر كما سنذكر في محله.

واستمر الجامع العمري أي جامع البحر عامرًا بذكر الله تعالى وموضع اهتمام المسلمين ورعايتهم. ونظرًا لوجود دباغات خارج السور المبني قسم من الجامع على أحد دعائمه، فصار يعرف بجامع الدبّاغة.

ففي سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧م جاء في ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله: «لما بنى أهل الخير والمبرات صحن الجامع العمري، الشهير بجامع الدباغة تجاه البحر الملح الشهير باطن مدينة بيروت المحروسة، بالبلاط والرخام ونظموه بذلك أحسن نظام، طلب من المفتي تأريخ فأجاب بقوله:

إن ذا الصحن روضةٌ من جنانٍ   حيث أضحت تقام فيها الصلاةُ
فهنيئًا لمن بنوه هنيئًا   إذ لهم قد تضاعف الحسنات
ومن الله بالصلاة وأرّخ   بكمالٍ تصبُّ فيه الصِّلات[1]

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٥٠١-٥٠٢).

في أيلول سنة ١٨٧٩م أثنت جريدة ثمرات الفنون على «عثمان أفندي الحجة» مدير أوقاف بيروت وملحقاتها الذي التفت إلى إصلاح الجوامع وتزيينها وترميم مسقفات أوقافها، مما لم نعهده من سواه، وقد حسّن هيئة جامع الدباغة بما جعل فيه من التعمير حتى بدا في صورة حسنة[1].

وفي سنة ١٨٨٧م قالت جريدة بيروت: «رأى مجلس إدارة بيروت أن جامع الدباغة بحاجة الى الإصلاح فقرر وجوب إنفاق تسعين ألف غرش من خزينة الأوقاف في سبيل إصلاحه وعرض ذلك على الولاية»[2].

وفي آذار سنة ١٨٩١م قالت جريدة ثمرات الفنون: «تمّ ترميم بناء الجامع العمري الشريف في محلة الدباغة بنفقة أهل الخير الذي بلغنا رغبتهم عدم التصريح باسمهم، وفي يوم الجمعة الماضي احتفل بالجامع الشريف المذكور بعد الصلاة بتلاوة قصة المولد الشريف بحضور بعض أركان الولاية والوجوه، وتقدم الدعاء لمولانا الخليفة الأعظم، وقد بلغنا أن النفقات المذكورة تجاوزت ٣٥ ألف قرش، فنشكر غيرة الموما إليهم»[3].

وذكرت بعد ذلك: «أنه لا يخفى أن هذا الجامع الشهير الذي مرت عليه السنون والأجيال قد بات متهدم الجوانب وشيكًا على الخراب، حتى صار الأهالي يخشون الدخول إليه للقيام بالفروض الدينية».

(١) ثمرات الفنون (٢٣٧/١٨٧٩).

(٢) جريدة بيروت (٨٧/١٨٨٦م)، و(١٦٩/١٨٨٧م).

(٣) ثمرات الفنون عدد ٨٢٨ آذار ١٨٩١م، وتاريخ المساجد لطه الولي (ص٦٠).

وأضافت الجريدة: «ولما كان بناؤه من عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعت الحمية الدينية أعطاف حضرة صاحب السعادة متصرفنا الهمام إلى ترميمه وإصلاح شأنه، فظهر لديه أن ما يلزم للإنفاق عليه عبارة عن نحو ٨٠ أو ٩٠ ألف غرش طلبها من نظارة الأوقاف الجليلة، فأجابته بأن ليس للجامع المذكور دخلًا يكفي للقيام بالنفقات اللازمة له، فبقي والحالة هذه على ما يعلمه أهل البلدة..». وأملت الجريدة من السلطان عبد الحميد أن يشمل بمبراته هذا الجامع بما يقوم ببناء المتهدم منه.

يذكر أنه عندما افتتح سنة ١٨٤٣م أول سجل رسمي لمحكمة بيروت الشرعية سجلت فيه الأوقاف والأحكار الخاصة بجامع الدباغة، وكان من بينها ما وقفته الحاج حليمة دندن.

وبقي التدريس في جامع الدباغة مستمرًا. ففي سنة ١٨٩٥م وجهت وظيفة التدريس الثانية في الجامع بموجب براءة عالية على العالم الشيخ أحمد بدران شيخ الطريقة السعدية. وفي ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧ هـ/ ١٨٨٠م بعد أن كانت وظيفة الإمامة في الأوقات الخمسة في جامع الدباغة موجهة على الشيخ حسن ابن اعرابي ناصر بمعاش شهري قدره ٢٥٠ قرشًا بموجب براءة شريفة خاقانية مؤرخة في ٨ جمادى الثانية ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م. وقد توفي الشيخ حسن عن ولده الوحيد محمد كمال الذي قدم استدعاء بتحويل وظيفة الإمامية لعهدته، فأحيل استدعاؤه إلى مجلس إدارة لواء بيروت وأجري امتحان له في المجلس بحضور محاسبجي الأوقاف،

ووجدت فيه اللياقة والأهلية للوظيفة المذكورة بالمعاش المذكور، فرفع الأمر بذلك لتوجيه الوظيفة إليه[١].

وأشارت وثيقة شرعية مؤرخة في ١٥ ذي الحجة ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٧م الى أن جهة الخطابة في جامع الدباغة كانت موجهة على الشيخ عبد الباسط علي الفاخوري مفتي بيروت بموجب براءة شريفة خافاتية مؤرخة في ٢٥ رمضان ١٢٨٢هـ ١٨٦٦م. وبعد وفاته صار طلب توجيه الجهة المذكورة على ابنه الشيخ حسن، وحيث توفي الشيخ حسن عن غير ولد فقد تقدم استدعاء من طرف الشيخ عبد الحميد الفاخوري (مواليد ١٢٨٢هـ) وبناء على تحقق أهلية الشيخ عبد الحميد ولياقته للجهة المذكورة وقرابته للمتوفى (صهره) صار عرض توجيه الوظيفة إليه كما عهدت وظيفة التدريس على المذهب الحنفي في الجامع العمري الكبير (النبي يحيى) على الشيخ عبد الحميد الفاخوري[٢].

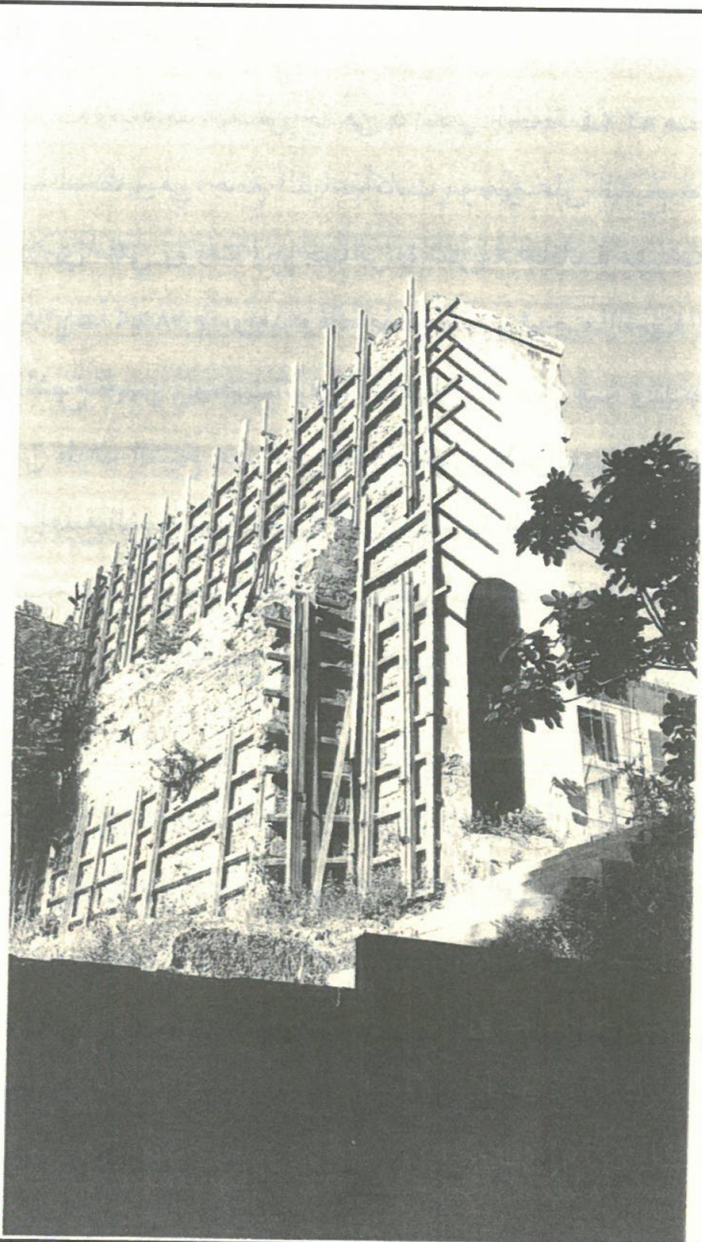
وبحجة تنظيم أسواق بيروت تم هدم الجامع سنة ١٩٣٢م، وبني على بعد أمتار منه في شارع فوش الحالي جامع باسم أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

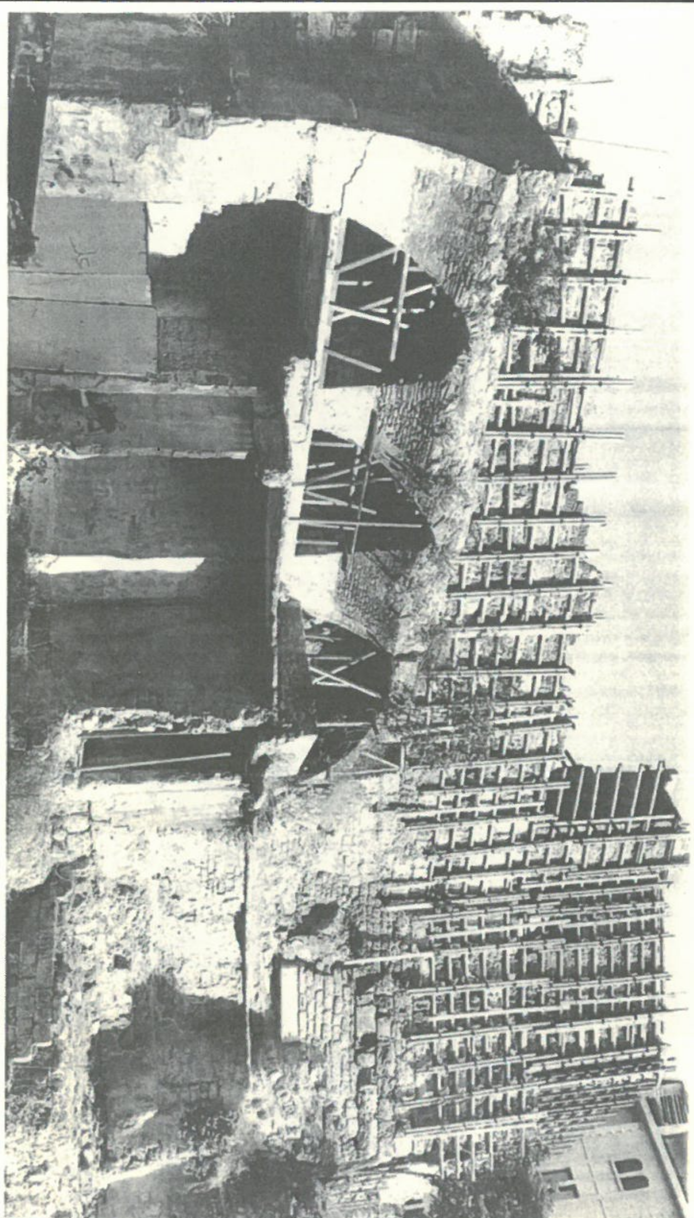
هذا ما تيسر ذكره من أخبار أول مسجد أنشأه المسلمون في بيروت، آملًا الاهتمام بالشهود الباقية منه. اللهم إني قد بلّغت.

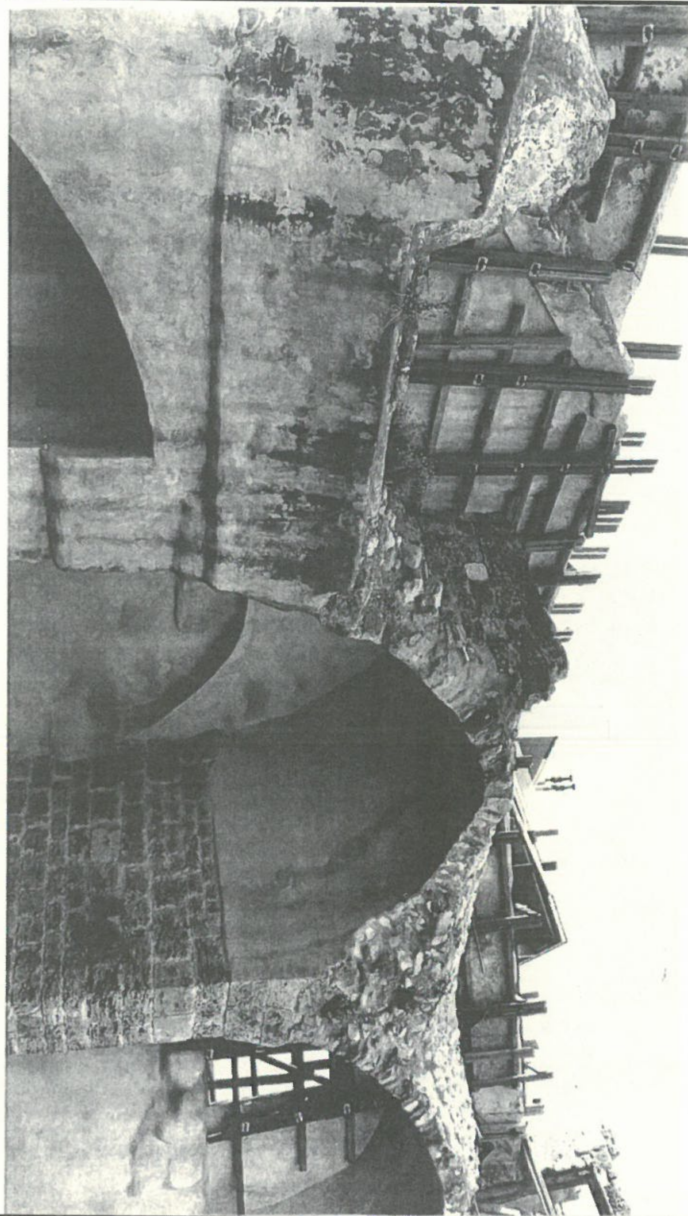
---

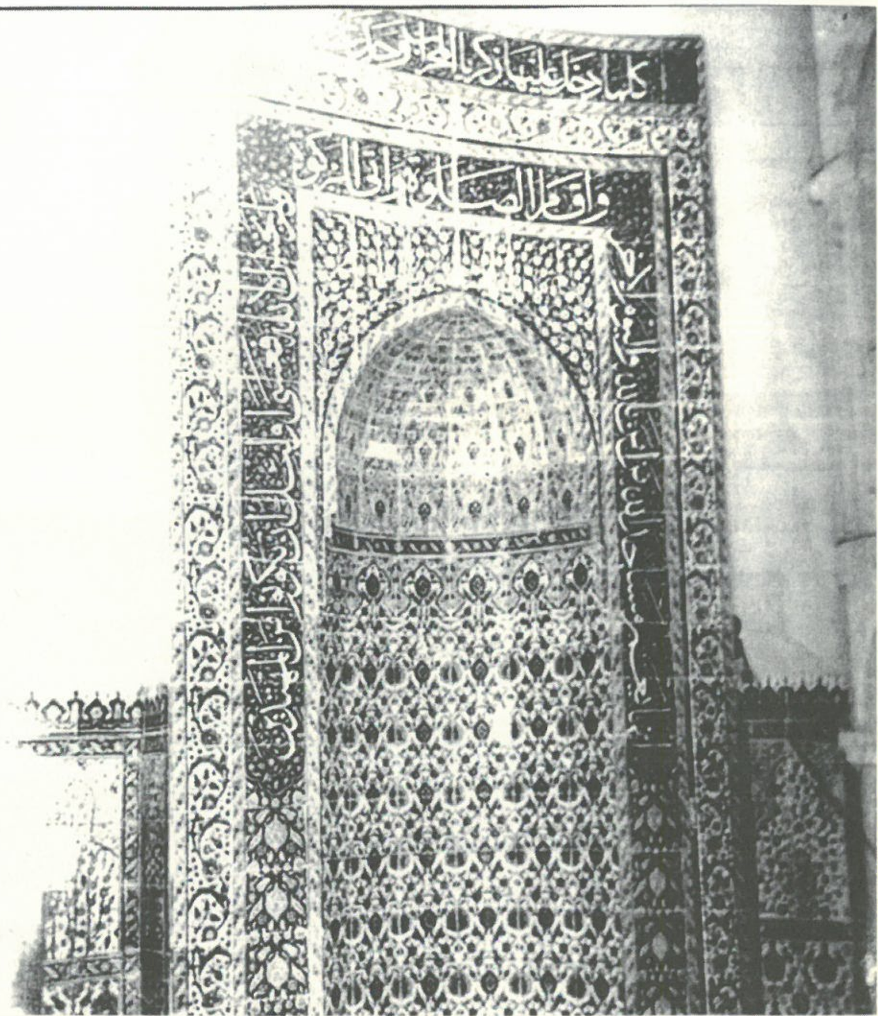
(١) ثمرات الفنون عدد ١٠٤١ سنة ١٨٩٥م.

(٢) سجل ١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م.

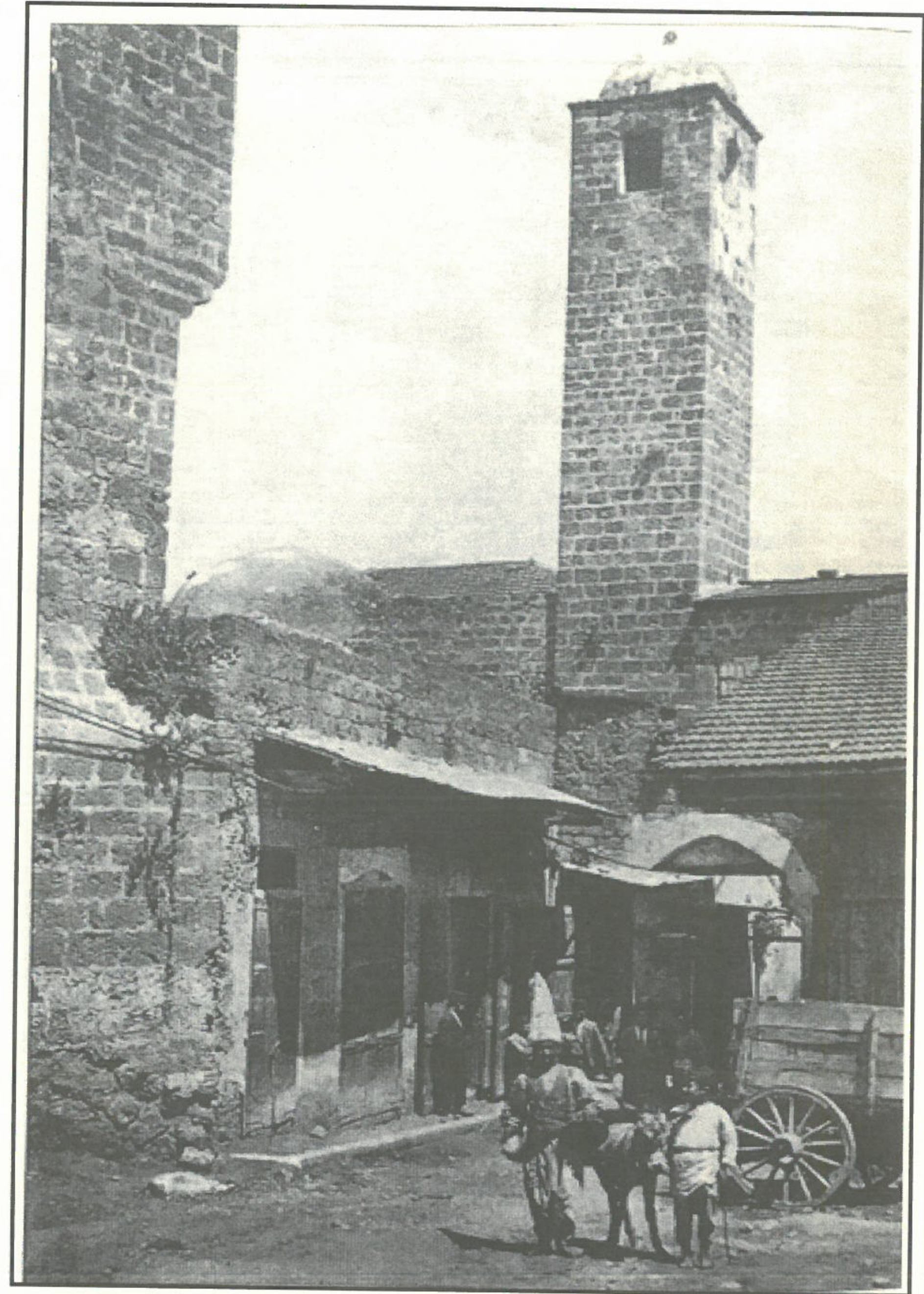








محراب جامع الدباغة



جامع الدباغة



جامع أبو بكر الصديق (جامع الدباغة في العهد العثماني) في شارع المرفأ (فوش)

زاوية/ جامع البدوي

المغاربة والمرابطة في ساحل بيروت

ذكرنا ما حققناه حول أول مسجد أسس في بيروت باسم الجامع العمري، الذي سمي أيضًا جامع البحر وجامع الدباغة. ونتناول الآن ما ورد حول جامع البدوي.

بنيت في محلة المرفأ قريبًا من الشاطىء زاوية (جامع) عرفت بزاوية البدوي، نسبت إلى السيد أحمد البدوي الفاسي المغربي، وتميزت بمئذنة (منارة) مبنية على الطراز الفاسي المغربي، مما يدل على الوجود المغربي القديم في بيروت.

يذكر أن الأندلسيين خاصة والمغاربة عمومًا نزلاء بلاد الشام، لم يكونوا بعيدين عن المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين ثم ضد التتار. فقد شاركوا فيها بشكل مباشر، سواء بتقديم المال لتجهيز المقاتلين، أم بالمشاركة الفعلية في الحرب.

ويذكر المؤرخون اندفاع يوسف بن دوباس المغربي لقتال الصليبيين عند محاولتهم احتلال دمشق سنة ١١٤٩م رغم تقدمه في السن، وعندما نصحه حاكم دمشق بعدم الاشتراك في الحرب خاطبه بتلاوة الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾[1]، فقاتل حتى استشهد بالقرب من الربوة، ودفن في مقبرة باب الصغير[2].

وازدادت أعداد المغاربة في بلاد الشام على عهد صلاح الدين الأيوبي، وقام عدد منهم بالقتال، وقام آخرون بمرافقة الجيش وتقديم الخدمات للمقاتلين. وقدر عددهم بأكثر من ثلاثة الآف رجل على حدّ قول المؤرخ البعلبكي المقريزي في كتابه: «**السلوك لمعرفة دول الملوك**». فكان للمغاربة فضل المشاركة في تحرير عدة مدن منها: القدس وبيروت، وكما قدر الزنكيون والأيوبيون إسهام المغاربة وإخلاصهم في الحرب، فإن تقديرهم استمر كذلك في زمن المماليك.

وتعرضت بيروت لعدة اعتداءات. ذكر صالح بن يحيى أنه في سنة ١٢٩٩م: «وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبطس للفرنج، فيها جماعة كثيرة من المقاتلة، يقال: إن البطس كانت ثلاثين بطسة، في كل بطسة منها نحو سبعمئة. وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر، وتحصل غارتهم على بلاد الساحل. فلما قربوا من البر أرسل الله عليهم ريحًا فغرقت بعض هذه السفن وتكسر بعضها، ورجع من سلم منهم على أسوإ حال، وكفى الله شرهم»[3].

وفي عيد الأضحى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م نزلت سفن إيطالية من جنوى في عهد عز الدين البيسري، وحاول المسلمون صد الغزاة، فقاتلوا

(١) التوبة: ١١١.
(٢) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، علي أحمد (ص٣٠٣).
(٣) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص٢٦).

لمدة يومين، وتمكن الجنويون من دخول الميناء، وانهزم المسلمون وقتل الكثير من الجنود والرجال والأمراء، ونسبت الهزيمة إلى تقاعس أمراء الغرب الذين استدعوا الى دمشق وعوقبوا(١).

وقد كان المغاربة في مقدمة المدافعين عن بيروت. مثل ما حصل سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م عندما هاجمها الإفرنج، وجرى إعلام نائب دمشق بذلك وطلبه المساعدة، وتذرع بالحاجة إلى أمر سلطاني بذلك، ما دعا بعض رؤساء المماليك إلى دعوة الناس للتطوع، فكان على رأس الذين استجابوا لهذه الدعوة القاضي المالكي في حينه، مع مجموعة كبيرة من المغاربة الموجودين في دمشق(٢).

ولم يكن دور المغاربة في المجال العسكري بأقل من دورهم في المجالي الإدارية والاقتصادية والعمرانية، لرضائهم بأجور ضئيلة، ولأمانتهم وإخلاصهم في العمل. فعندما اطلع حاكم دمشق سنة ١٤٢٠م على مرتبات العاملين بالعمارة في الجامع الأموي وجد أن مرتباتهم كبيرة، فطلب الاستعانة بالمغاربة.

وقد كُرم المغاربة في بلاد الشام، واختصوا بالتقدير والمحبة، فابتنوا المدارس والزوايا المخصصة لهم، وكانت لهم مقابر خاصة كذلك. والصحيح أنهم اندمجوا في المجتمعات التي عاشوا فيها، ولكن رغم هذا الاندماج فإن العادات والتقاليد لا يمكن أن تغيب بالكلية، بل تبقى آثارها

---

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص٩٧).

(٢) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، علي أحمد (ص٣٠٧).

بادية في بعض المأثورات والممارسات والنتاج والطبائع. من ذلك نشوء الفرق الصوفية والزوايا الخاصة بهم. ومنها الميزات المعمارية التي تجلت في عمارة المساجد والزوايا.

ومن المتفق عليه أن بلاد الشام عرفت عددًا من رجال الزهد والتصوف الذين اشتهروا بزهدهم من جهة وبمرابطتهم من جهة ثانية، فمع نزوعهم إلى تمثل السلف الصالح في الحياة كالبساطة في العيش وقهر النفس، إلا أن أكثرهم انخرط في الدفاع عن الثغور التي رابطوا فيها ضد ما كانت تتعرض له من أخطار وهجمات.

وقد لاقوا تقديرًا شعبيًّا وتشجيعًا رسميًّا، وكان تأثيرهم واضحًا في بيت المقدس والإسكندرية ودمشق وبيروت. فظهرت الطرق الصوفية كالشيبانية وطريقة أبي مدين في القدس، وطريقة أبي العباس المرسي في الإسكندرية، والطريقة المنسوبة إلى السيد أحمد البدوي في مصر والشام.

ووفقًا للمناوي وابن إياس والذهبي والشعراني وابن تغري بردي وغيرهم فإن البدوي هو: أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد، أصله من بني برّي، وهي قبيلة من غرب الشام. ثم سكن والده المغرب، فولد أحمد بفاس سنة ٥٩٦ هـ، ونشأ فيها. وإثر هزيمة دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين خرجت أسرته من المغرب سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٧م، وحجّ أبوه به وبأخويه سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م، واستقروا بالحجاز.

وفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦-٧م رحل وأخوه حسن إلى العراق، فزار بغداد والبصرة والموصل، ثم رحل إلى سورية وعاد إلى الحجاز، يصوم

النهار ويقوم الليل ويكثر من قراءة القرآن بالقراءات السبع، ثم انتقل إلى مصر، فاستقبله الملك الظاهر بيبرس وأكرمه، ثم استقر في طنطا (كانت تكتب طندتا).

وكان من عادته الجلوس على السطح على عادة الإمام الرفاعي، فعرف أتباعه بالسطوحية. وعرف بالبدوي للزومه اللثام، وكان يلبس لثامين لا يفارقهما قط. واشتهر بالعطّاب لكثرة عُطب من يؤذيه. وعرف بأبي الفتيان لأن زهده وميله إلى التصوف لم يمنعه من أن يكون قاسيًا شجاعًا.

ففي السنة التالية لوصول البدوي إلى طنطا جاء الفرنجة إلى دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، فملكوا المدينة وقتلوا وأسروا بعض أبنائها. ثم جردت حملة عليهم انتهت بهزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع في دار ابن لقمان في المنصورة. واشتهر البدوي حينذاك بتعبئة الجماهير ضد الغزو المذكور، كما اشتهرت فتوته.

قيل: إن امرأة شكت له أن ولدها أسره الفرنجة، فأحضره إليها في قيوده. فأطلق عليه لقب «**مجيب الأسارى من النصارى**». والأدب الشعبي كما يقول أحمد رشدي صالح «يهتم بتصوير عنصر الخارقة في هذا الإطار الأسطوري، وأنه ليس من المستبعد أن يكون الأدباء هم الذين نسجوا.... أو على الأقل كانوا هم العامل الضخم في تخليدها قصصًا وأساطير ومأثورات». وينقل أغنية شعبية تقول: «السيد الليم الشباك مد إيدو وجاب المسلسل من بلاد الكفر بحديدو. والسيد الليم الشبك شرب شربة وجاب المسلسل من بلاد الكفر والغربة». ولا يستبعد أن تكون أمثال هذا الأدب الشعبي من نتاج الحروب الصليبية.

وفيما تختتم أغنية شعبية أخرى بالقول: «نظرة يا بدوي يا جايب اليسره» بما يذكرنا بما كنا نسمعه من أحد المطربين المصريين في بيروت وهو يقول: «الله الله يا بدوي وجاب اليسره»، ويقصد باليسره: الأسرى.

توفي البدوي سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م. وفي القرن الثاني عشر الهجري تم بناء مسجد بجوار ضريحه تحول إلى معهد علمي ديني. وبقيت مؤلفات البدوي مخطوطة. نقل محمد درنيقة عن إبراهيم نور الدين من مؤلفات البدوي: صلوات، ومجموعة من الأدعية والصلوات على الرسول ﷺ، شرحها عبد الرحمن العيدروس في القرن الثامن عشر الميلادي في رسالة بعنوان «فتح الرحمن».

ومن مؤلفات البدوي: «الإخبار في حل ألفاظ غاية الاختصار»، كتبه أحد مريديه سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م، وهو شرح لمتن في الفقه والمعاملات. ومن مؤلفاته أيضًا: وصايا، وهي مجموعة من العظات والوصايا وجهها البدوي إلى تلميذه عبد العال سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م، وهو يحض في وصاياه على التمسك بالقرآن والسنّة[1].

وتفرعت طريقة البدوي إلى فروع عديدة. يذكر أن السلطان أمر سنة ٨٥١ هـ بإبطال مولد أحمد البدوي لما يقع فيه من المفاسد، فشق ذلك على فقراء الطريقة، ووقفوا للسلطان غير ما مرّة، فرسم بإعادته.

من الطبيعي أن يستوطن المغاربة المدن العربية بعد تحريرها. فلا تكاد تخلو مدينة من محلة أو حي يعرف بالمغاربة ومن أسرة مغربية. وكما

(١) جامع كرامات الأولياء، يوسف النبهاني (١/٣٠٩).

نشأ عن الحروب الصليبية في الشرق، كذلك أدى سقوط مدن الأندلس في الغرب إلى تقوية نزعة الجهاد لدى المغاربة الذين يمّم عدد كبير منهم صوب بلاد الشام عامة وثغر بيروت وساحلها خاصة للعمل وللمرابطة. فأنشأوا في بيروت أبراجًا في نقاط متفرقة من شاطىء المدينة للمراقبة ورصد التحركات المعادية. وكان من هذه الرباطات برج حمود عند نهر بيروت شمالي المدينة، والمنسوب إلى أحد أبناء السيد حمود المغاربة، الذين وفدوا إلى ساحل بيروت وتولى بعضهم رئاسة ثغر المدينة.

ومن المرابطين المدعو أبو هدير، الذي أنشأ برجًا ومزرعة في محلة عرفت باسمه قرب مدخل بيروت الشرقي، وكان له ضريح قرب القلعة وبستان طبارة. ويأتي بعده غربًا منارة جامع الدباغة الذي سبق وأشرنا إليها سابقًا[1].

وتأتي بعد هذه الأخيرة قرب الشاطىء أيضًا منارة جامع البدوي. ويليه دار مريسي. والمريسي قد تكون نسبة لأحد المرابطين القادمين من مريس المغربية أو تصغير كلمة المرسى. وكان سبقه بالمرابطة في محلة ميناء الحسن (التي أصبحت بعد الانتداب الفرنسي ميناء الحصن) الشيخ سعيد الجارح الذي استشهد في إحدى المعارك مع قراصنة هاجموا المدينة بقيادة يعقوب الأدرني.

فمن الذي بنى جامع البدوي في محلة المرفأ عند ساحل بيروت؟

---

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٩ و٤٠).

يذكر أن المماليك بعد تحريرهم بلاد الشام أكثروا من الأبنية العمرانية التي أقاموها، ولا سيما في دمشق وحلب وبيت المقدس وبيروت. ويعزى اهتمام المماليك بإقامة تلك المنشآت حسب رأي سوفاجيه Sauvaget إلى أن قلق المماليك على الحياة الدنيا دفعهم إلى الاستقرار في الحياة الأخرى، فحرصوا على بناء الترب ومؤسسات البر ووقفوا عليها الأوقاف لتغفر لهم خطاياهم وتكفر عنهم سيآتهم.

وكان للماليك اعتقاد في رجال الصوفية وحسن أعمالهم، فتشددوا في تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، وكان أكثرهم محافظين على أداء الفرائض وخدمة الدين وأهله والقربى من الخالق، ببناء المساجد والمدارس والزوايا وتكريم العلماء ووقف الأوقاف لتأمين ريع يصرف على تأمين خدماتها.

يذكر أن ولاية بيروت كانت تتبع نيابة دمشق وفق الترتيبات الإدارية المملوكية. وعرفت نيابة دمشق عصرًا ذهبيًّا أثناء تولي تنكز لها، والذي حكمها مدة تسع وعشرين سنة، أنشأ خلالها عددًا من الأبنية الدينية والمدنية في دمشق وحلب وبيروت.

ومن منشآت بيروت التي ذكرها محمد أحمد دهمان: خان ومصبنة وحمام ومسلخ وطاحون وحوانيت وفرن. وذلك إلى جانب أملاكه في دمشق وحمص والبقاع وقارة. وعدا عما له من أوقاف على وجوه البر في صفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة ومصر.

وقد بنى جامعًا كبيرًا في دمشق عرف بجامع تنكز، ودارًا للقرآن والحديث. وقد شرع ببناء الجامع سنة ٧١٧ هـ/ ١٣١٧م، وبلغت مساحته

حوالي ستة آلاف متر مربع، وتميز بمنارة جميلة هي أقدم منارة مملوكية، وبمحراب مزخرف[1].

وذاعت شهرة السيد أحمد البدوي وكثر مريدوه والعاملون بوصاياه، وشجع المماليك على تكريمه وإقامة زوايا على اسمه. فقامت خاتون ابنة باهادور الوكندار، الذي كان أميرًا مملوكيًا على أربعين جنديًا في دمشق، قامت بتمويل بناء الزاوية الأحمدية في غزة (البلدة القديمة). توفيت خاتون في ربيع الأول ٧٣٣ هـ/ كانون الأول ١٣٣٢م، وفي السنة التالية أي سنة ١٣٣٣م أنشئت زاوية أو جامع البدوي في بيروت.

من المؤسف القول أنه قبل قيام الدكتور صالح لمعي مصطفى بدراسة بعض مساجد بيروت دراسة معمارية علمية، لم يقم أي باحث أو مؤرخ أو مهندس ببيان التفاصيل المعمارية والهندسية للمساجد الأثرية القديمة. فقد أزيلت وتهدمت مساجد وزوايا كجامع الدباغة وجامع (أو زاوية) البدوي وغيرها من الزوايا، دون معرفة طراز المسجد وموقعه بالتحديد ضمن خريطة مفصلة. ولا تبين طول المسجد وعرضه وارتفاعه وشكل مئذنته وقبته ومحرابه، ولا الحجارة التي استعملت في بنائه، ولا حتى سنة إنشائه ومن أنشأه وما إذا كان تمّ تجديده أو توسعته.

فجامع البدوي الذي يرد في السجلات باسم زاوية البدوي أزيل عند تخطيط الشوارع في الحرب العالمية الأولى. وقد وردت عبارة وحيدة في

---

(١) ولاة دمشق في عهد المماليك لمحمد أحمد دهمان (ص١٥٦)، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٩/٣٢٧)، والسلوك للمقريزي (٢/٢/٥٠٩).

تقويم الإقبال أنه كانت في الجامع بلاطة كتب عليها أن الذي بناه «**الأمير عز الدين بن أزدمير بن عبد الله الخوارزمي الناصري**».

ورجح الشيخ طه الولي أن يكون عز الدين المذكور هو والي بيروت عز الدين البيسري (الذي ذكره الدويهي بهذا اللقب)، الذي عرف أيضًا بعز الدين الوزيري. ورجح الشيخ طه أيضًا أن بناء الجامع حصل سنة ٧٤٣ هـ/١٣٤٢م أيام نيابة تنكز، وهذا التاريخ لا يستقيم كون تنكز توفي سنة ٧٤١ هـ ١٣٤٠م في حين رجح فؤاد دباس الذي نشر صورة للجامع أثناء تخطيط الطرقات، أن يعود بناء الجامع إلى سنة ١٣٣٣م أي ٧٣٤ هـ وهو أمر مقبول[1].

ويتبين من اسم باني المسجد أنه من أمراء المماليك، فأَزْدَمُرْ اسم شاع أثناء حكم المماليك. وهو خوارزمي أي أن أصله من خوارزم. والناصري لأن والده من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون. وأَزْدَمُرْ بالتركية يعني: النوع الأفضل من الحديد. قدم من المنطقة الغربية لجبال القوقاز (الشركس) مع عدد آخر من المماليك، كجقمق وبيبرس والد برقوق وبيبغا ولاجين، وقد تسلطن بعضهم.

ويبدو أن هذا الاسم بقي معروفًا حتى أيامنا، فقد عرفنا شخصيًا من كان يعمل مساعدًا قضائيًا واسمه أزدمير الباشا، من سكان محلة الطريق الجديدة.

---

(١) دليل بيروت، تقويم الإقبال (ص١٠٨)، وتاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت لطه الولي (ص٨٥)، وبيروت ذاكرتنا لفؤاد دباس (ص٦٥). وذكر سوفاجيه في المجلة الآسيوية سنة ١٩٥٠ معاني أسماء المماليك ومنهم أزدمر (ص٣٦).

ويتوافق بناء الجامع مع ما قلناه حول قيام المماليك بإقامة المنشآت الدينية. ومن المرجح أن عز الدين بن أزدمر المذكور كان من مريدي أو من المعجبين بسيرة أحمد البدوي وشجاعته، فقام ببناء زاوية بيروت سنة ١٣٣٣م، في السنة التالية التي بنت فيها خاتون المملوكية زاوية البدوي في غزة كما أشرنا سابقًا.

ويصح القول بأن مسجد البدوي هو من المساجد التي أسست على التقوى، التي قال التنزيل فيها: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[١].

يذكر أن كتابات بعض المؤرخين المسلمين تخلو من إحساس بالجمال الروحي للمسجد إلا إذا كان ضخمًا عالي البنيان كثير الزخرفة واسع الأركان. ونعتقد أن مسجد البدوي الصغير البسيط العادي لم يكن يقل روحانية وجلالًا وقدسية عن أضخم المساجد، فقد أمّن هذا المسجد حاجة الجماعة بالأمن والعلم والأمان. فكان مكانًا طاهرًا يلتقي فيه العبد بالخالق، وكان ملجأ لأبناء السبيل، ومكانًا للصلاة والذكر، ومدرسة للصبيان لتلقي القرآن وشيءٍ من التفسير والفرائض.

وكان فرصة لأهل البر والتقوى والخير لوقف ما يؤمن ريعًا لهذا المسجد. وكان مع كل ذلك نقطة مرابطة على ساحل بيروت. ولا يمكننا إلا أن نسجل أن هذا المسجد بقي عامرًا بذكر الله تعالى منذ إنشائه سنة ١٣٣٣م إلى حوالي سنة ١٩١٥م، أي: حوالي ستمئة سنة.

---

(١) التوبة: ١٠٨.

ذكر بعض من حدد موقع مسجد البدوي بأنه كان في محلة المرفأ قريبًا من جامع الدباغة. وهذا القول هو من باب التعميم، لأن المعروف لدى البيارتة ولدى غيرهم من المدن التي ترتفع أسعار الأراضي فيها أن الأرض بتفرق بالشبر. والتعميم في الجغرافية يذكرنا بدرس الجغرافية في مرحلة الدراسة التكميلية عندما كان الأستاذ يضع خريطة لأوروبة مثلًا على اللوح ويطلب من أحد الطلاب أن يدله في الخريطة على مدينة موسكو مثلًا (وهي اليوم مالئة الدنيا وشاغلة الناس)، فيقوم الطالب بوضع باطن كف يده اليمنى على الخريطة قائلًا: هنا يا أستاذ؟ مع أن موسكو على الخريطة تبدو كنقطة وسط مساحة شاسعة.

ويمكن تحديد موقع زاوية (جامع) البدوي من خلال عدة مؤشرات، منها: أن محلة المرفأ كانت تتضمن مبنًى للجمرك، وأن الشيخ طه الولي نقل ما ذكرته جريدة المشكاة التي أصدرها خليل سركيس في نيسان ١٨٧٨م أثناء تعطيل جريدة «لسان الحال». نقل ما ذكرته الجريدة المذكورة من المساجد التي كانت في بيروت تلك السنة، وقد استدرك الشيخ طه في كتابه: «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت «استدرك إحصاء جريدة المشكاة»، فذكر أن بيروت كان فيها العديد من المساجد الأخرى التي لم يرد اسمها في الجريدة المذكورة، مثل «زاوية الجمرك»، وقال بأن موقع هذه الزاوية كان في محلة المرفأ حيث كانت بناية فتال، بآخر شارع اللنبي[١].

---

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت لطه الولي (ص٨٥ و٩٣).

وإذا رجعنا إلى أوقاف زاوية البدوي التي سجلت في أول سجل من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت العائد لسنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م نجد أن من أوقاف زاوية البدوي مخزن أسفل الكمرك (الجمرك) قريب من الزاوية، ودكان لصيق باب خان الملاحة، ودكانان لصيق باب الزاوية مشغولان من أحمد حمزة سنو الذي كان له خان باسمه قرب باب الدباغة.

فإذا عدنا إلى الصورة التي نشرها فؤاد دباس في كتابه بيروت ذاكرتنا (ص٤٣) ويظهر فيها خان الملاحة وإلى جواره زاوية البدوي، ثبت لدينا أن زاوية الجمرك هي زاوية البدوي نفسها، وذلك من باب تسمية الشيء بجواره، كما حصل بتسمية جامع البحر بجامع الدباغة، وجامع الأمير منذر بجامع النوفرة.

ويتبين من خريطة معالم بيروت سنة ١٨٣٠م التي نشرها داود كنعان بأن موقع زاوية البدوي كان قرب رصيف الميناء، ويتحدد هذا الموقع بدقة أكبر من خلال صورة الدباس، والتي تظهر جامع البدوي مجاورًا لخان الملاحة الذي كان يدخل إليه عبر ممر عن جانبيه مقاهٍ ويصل إلى بابه المفتوح للشمال. وهذا الخان كان مؤلفًا من طبقتين، طوله ٤٨ مترًا وعرضه ٣٠ مترًا، وبلغت عدد غرفه ومخازنه اثنان وسبعون غرفة.

ويمكن بإجراء مقارنة وفقًا للصورة بين هذا الخان ومسجد البدوي القول بأن طول مسجد البدوي كان يبلغ ٢٤ مترًا، ويبلغ عرضه ١٥ مترًا. وتبدو جدرانه مبنية من حجارة منحوتة وارتفاعه مساوٍ لارتفاع خان الملاحة المجاور.

ويبدو من الصورة التي نشرت للمسجد أثناء تخطيط الشوارع وهدم الأبنية القديمة أن نوافذه قد تكون مفتوحة في أعلى الجدار الشرقي قرب السقف، لأن وظيفتها كانت للإنارة بالنظر لضيق الموقع وتزاحم الأبنية حوله، بما لم يكن يسمح بوجود صحن مكشوف. وأنه لا قبة للجامع وذلك على طراز المساجد الإسلامية الأولى في المدينة المنورة والبصرة والكوفة والفسطاط. وأن مدخله من الجهة الشمالية أو الطرف الشمالي الغربي. ولا تتوافر معلومات حول محراب المسجد، وما إذا كان يحتوي على زخارف. والغالب أن المسجد لم يكن يحتوي على منبر، فلم تكن تقام فيه صلاة الجمعة التي انفرد بها الجامع العمري الكبير.

ومما يلفت النظر أن مئذنة الجامع كانت مغربية الطراز على غرار مئذنة جامع الدباغة، أي: مربعة تنتهي في أعلاها بشبابيك يؤذن منها. كما تشكل برجًا ومنارة لمراقبة الشاطىء ورصد أية تحركات غريبة. وتعلو المئذنة – المنارة – قبة صغيرة تحل محل العمامة غطاء رأس العلماء الأولياء.

ويبدو أثر المعماريين المغاربة في بيروت في بناء هذه المنارة، ولعلهم أرادوا بناءها بهذا الطراز تكريمًا لأحمد البدوي المغربي الفاسي الشامي المصري في آن معًا. وقد سبق وأشرنا عند دراسة جامع الدباغة إلى أن هذه المئذنة المنارة هي نسخة طبق الأصل عن أول منارة بنيت لجامع مدينة فاس القديمة. وكانت المنارة تقوم بوظيفة نقطة مراقبة متقدمة مطلة على البحر وقرب الميناء والشاطى، ترسل منها التحذيرات والإنذارات

بالخطر، فيخرج الناس بالسلاح. فالهدف من بنائها هو المراقبة أكثر من أن تكون للأذان.

ويبدو أن كل طريقة اتخذت لونًا مميزًا لرايتها وسنجقها. فالعلامة الخضراء لعبد القادر الكيلاني، والعلامة السوداء للشيخ أحمد الرفاعي، وعلامة نصفها أصفر ونصفها أبيض لإبراهيم الدسوقي، والعلامة الحمراء للسيد أحمد البدوي. وقد مدح الشيخ أحمد البربير السيد البدوي فقال: «سيدي وأستاذي ووسيلتي إلى الله وملاذي، البدر الذي تلثم بالشفق، والنور الذي لو رآه الصبح لانفلق، وارث السّر النبوي، أبي الفتيان شهاب الدين سيدي أحمد البدوي، متعنا الله بأسراره، وأفاض علينا من شعاع أنواره، وذلك لأن لون رايته أحمر فقلت:

أتباع قطب الأولياء ذي الهمم البدوي الشهم أحمد الشيم
هم سادة العرب جميعًا والعجم وهم ملوك والورى لهم خدم
تراهم مثل البدور في الظلم أو مثل نور قد بدا على علم
فأمّهم لكل خطب قد ألم فإنهم هم الأسود في الأجم
في الحلّ قد أمسى حماهم كالحرم لا يأمن العذاب من لهم ظلم
أما تراهم من بعيد وأمم تخفق في أرماحهم رايات دم

كما قال البربير بأصحاب السيد البدوي ورايته:

عليك بصحب السيد السند الذي له شفق الآفاق كان ملثّما
فهم خير صحب بعد صحب نبينا تراهم نجومًا حيثما الخطب أظلما
إذا أمّهم يوم الكريهة صارخ يلوذ أغاثوه وإن كان مجرما

وقالوا لا تخش بأسًا فإننا لنا راية حمراء مخضوبة دما(1)

أوقاف البيارتة على جامع البدوي في المرفأ

يمكن القول بأن السلوك الحسن والسيرة الطيبة والأعمال الصالحة تجعل سمعة فاعلها مثلها مثل دوائر الماء، يرمى فيه بالحجر على قول ابن الرومي. وهكذا سارت سيرة أحمد البدوي في الآفاق، فملأت الأسماع والآذان وعمت البلدان. فهو شامي من قبيلة سورية، وهو مغربي ولد ونشأ وتعلم وتفقه في فاس، وهو حجازي حجّ وجاور عدة سنين في الحجاز، وهو مصري أقام وجاهد في طنطا. وهو بيروتي بقدر ما قدّره المغاربة عمومًا والبيارتة خصوصًا.

ومن المعروف أن المشايخ النكديين وهم من عرب الحجاز كانوا قد توجهوا مع آخرين لفتح مصر والمغرب. أقاموا في مراكش فسموا بني نكد. وفي سنة ١١٢٠م حضروا إلى الشوف عند الأمير معن الأيوبي، وصاروا من أعوانه. وكان لدى الأمير منصور الشهابي عدد كبير من المغاربة، وكذلك كان منهم كثيرون لدى الأمير بشير الشهابي، ولدى ضاهر العمر، ثم لدى الأمير يوسف الشهابي الذين أرسل عددًا كبيرًا منهم إلى بيروت مع أحمد باشا الجزار، وذلك إضافة إلى كثير من المغاربة الذين أقاموا في بيروت وكانت لهم مواقف مشهورة وأعمال تذكر فتشكر، إلى جانب مؤسسات وزوايا عديدة (كما توسعنا بذلك في بحثنا المقدم سنة ٢٠١٤ إلى مؤتمر المعماريين العرب الخاص في فاس).

---

(١) الشرح الجلي هلى بيتي الموصلي، لأحمد البربير (ص٢٥٦).

ولا نبالغ إذا قلنا بأن المصريين الذين قدموا إلى بيروت على فترات وجدوا في زاوية البدوي ما يخفف عنهم ألم الغربة والبعد عن الديار. ففي سنة ١٨٠٦م إثر نزول الإنكليز في الإسكندرية واتهام محمد علي باشا لشيخها بعدم مقاومتهم، ما دعا الشيخ المسيري إلى القدوم مع ستين من أتباعه وأقربائه إلى طرابلس، فأرسل محمد علي يطلبهم من بربر آغا الذي أدرك قيمة الشيخ الإسكندري وعلمه فطلب من هذا الأخير الانتقال إلى بيروت، وهكذا انتقل هذا الشيخ ورهطه إلى بيروت، ولا يستبعد أن يكونوا وجدوا في زاوية البدوي ملاذاً أولياً لهم.

وفي ٢ نيسان سنة ١٨٣٢م دخل إبراهيم باشا بيروت من باب الدركاه، واتخذت الفرق المصرية خان الملاحة مقراً قبل بناء الثكنات (التكنات)، وتفيد المراسلات الدبلوماسية والقنصلية الفرنسية أن قنصل فرنسا هنري غيز حاول استلام الخان المذكور من إبراهيم باشا فلم يتمكن من ذلك، حتى إنه عرض مبادلة خان الفرنج في صيدا بخان الملاحة، وتبين أن المبادلة غير شرعية، لأن خان صيدا وقف يخضع ريعه لشروط منشئه بينما خان الملاحة هو ملك الحكومة العثمانية. وطرحت فكرة استعماله من قبل الفرنسيين عن طريق كدك أو جدك (وهي إحدى المعاملات الوقفية) دون طائل[1].

ويخبرنا هنري غيز بأن العسكر المصري بعد تركه الخان اتخذ مركزاً لمعالجة المرضى، ثم محل عمل إسكافيي الجيش. ولا شك بأن مجاورة

(١) الوثائق الدبلوماسية والقنصلية، عادل إسماعيل (٥/٢١٧).

العساكر المصريين في خان الملاحة لزاوية البدوي كان مدعاة اطمئنان وسكينة لهم[1].

وكان نفي المصريين إلى بيروت سنة ١٨٨٢م إثر فشل ثورة أحمد عرابي، مناسبة لتوثيق علاقة مريدي البدوي البيارتة مع المصريين. كما ذكر أحد المنفيين عبد الجواد القاياتي في كتابه: «نفحة البشام في رحلة الشام» أن الشيخ عبد الغني الرافعي في بيروت أهدى إليه كتاباً له في الطريق أصله من جمع الشيخ أبي حامد القصبي السيد حسن والد الإمام القصبي الطنطاوي شيخ العلماء بالجامع الأحمدي، وقد سماه الرافعي: «ترصيع الجواهر المكية في تزكية الأخلاق المرضية». يذكر أن أول زيارة قام بها القاياتي بعد رجوعه من بيروت إلى مصر كانت إلى طنطا «لزيارة أبي فراج شيخ العرب السيد البدوي»[2].

وقبل ذكر الأوقاف التي أوقفت لزاوية البدوي نشير إلى أن العالم الشيخ علي الطنطاوي أصله من طنطا جاء جده منها إلى دمشق.

وكان من الطبيعي أن ينتسب بعض البيارتة إلى طريقة السيد البدوي وأن يتبعه كثيرون. يذكر أن الإمام القصبي شيخ الجامع الأحمدي بطنطا شرف بيروت بالبابور الفرنساوي في تموز ١٨٧٩م، فهرع العلماء لاستقباله والسلام عليه، وكان تشريفه في بيت عبد الرحمن وعبد الحميد

(١) الوثائق الدبلوماسية والقنصلية، عادل إسماعيل (٥/٢٧٥، و٣٣٦).

(٢) نفحة البشام، للقاياتي (ص٨١).

العيتاني. ثم توجه بعد ذلك إلى طرابلس وبعد عودته نزل بدار عمر غزاوي في محلة الدباغة، وهرع العلماء مجدداً للسلام عليه(١).

سبق وأشرنا إلى أنه لدى افتتاح أول سجل لمحكمة بيروت الشرعية بعد خروج إبراهيم باشا من بيروت وقد دونت في الصفحات الأولى من السجل الأوقاف والمساجد والزوايا لغاية الثالث من ربيع الآخر سنة ١٢٥٩هـ/ نيسان ١٨٤٣م، فكان من أوقاف زاوية البدوي دكانان لصيق باب الزاوية سكن أي مشغولان من أحمد حمزة سنو، ودكان لصيق بابها سكن محمد الجندي، ومخزن أسفل الجمرك قرب الزاوية سكن يوسف يمين، ودكان في سوق القطن سكن عبدالله طراد، ودكان لصيق باب خان الملاحة سكن حسن الجندي، وقطعة أرض في التكنات قرب باب يعقوب. إضافة إلى أحكار على مخازن أبو مصباح (متسلم بيروت أيام المفتي عبد اللطيف فتح الله). وعلى بستان يوسف عبد الملك، وعلى مخزن بكري قرنفل(٢).

إلا أن أقدم وقفية وصلتنا هي التي سجلت في ٢٩ شوال سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م معلّماً عليها من مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله. وقد طلب من القاضي الشيخ أحمد الأغر تقييد صكها في السجل المحفوظ لدى سيادته بتاريخ الصك، وسجلت في سجل محكمة بيروت الشرعية لسنة ١٢٦٨هـ.

---

(١) ثمرات الفنون عدد ٢٣٥ سنة ١٨٧٩م.

(٢) السجل الشرعي سنة ١٨٤٣م (ص٣١).

والوقفية قدمها السيد درويش ابن المرحوم السيد علي آغا القصار والموقوف «جميع الدكان المعقود بالمؤن والأحجار المعروف بالواقف وساكنه حسن عثمان (الآن) وفي السابق بدكان بني نقولا الجبيلي، الذي هو أسفل دارهم المعروفة بهم الآن وسابقاً بدار المرحوم مولانا العالم العامل السيد محمد أفندي فتح الله الكائنة في الساحة الشهيرة باطن البلدة المذكورة ...، وذلك وقفاً صحيحاً شرعياً، وتأبيداً دائماً سرمدياً، وحبساً مخلداً مرعياً، وصدقة لا يباع أصل ذلك ولا شيء منه ولا يوهب ولا يورث ولا يرهن ولا يملك ولا يستملك، ولا يناقل به ولا ينتقل لا كلًّا ولا بعضاً إلى ملك أحد من الناس أجمعين، بل كلما مر على هذه الصدقة زمان أكدها، وكلما أتى عليها أوان خلدها وسددها ... .

أنشأ الواقف المذكور ضوعفت له الأجور وقفه هذا على نفسه مدة حياته لا يشاركه فيه مشارك، ثم من بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى على مقام وضريح سيدنا القطب الرباني والهيكل الصمداني العلوي سيدنا أحمد البدوي قدس الله تعالى أسراره وروحه ورضي عنه ونفعنا به ونوّر ضريحه الشهير الشريف ذلك المقام والضريح في محروسة طنده البلدة الشهيرة في البلاد المصرية. يصرف ريع الوقف المرقوم على مصالح المقام والضريح المحررين على المسجد الذي ذلك الضريح الشريف فيه، فإذا تعذر صرف ذلك على ذلك والعياذ بالله تعالى يعود الدكان الوقف المحرر وقفاً على الحرمين الشريفين حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة على منوّرها أفضل الصلاة وأتمّ السلام...»(١).

---

(١) السجل الشرعي سنة ١٢٦٨هـ (ص١٥٧-١٥٨).

وجعل الواقف النظر بالوقف والولاية عليه لنفسه مدة حياته، ومن بعده يكون النظر والولاية للسيد مصطفى بن قاسم ابن عم الواقف المحرر السيد مصطفى القصار، ثم من بعد هذا السيد مصطفى فللأرشد فالأرشد من عصبته المتعصبين بأنفسهم من أهله بني القصار...، ويعود لمن له النظر من ريعه كل سنة ستة قروش، ويرسل الباقي إلى المقام والضريح، أو إلى الحرمين الشريفين.

ومن المفيد الإشارة إلى أن عددًا كبيرًا من البيارتة شهدوا على هذا الوقف تقديرًا للواقف والموقوف عليه، نذكر من الشهود: عبد القادر بن مصطفى شبقلو، محمد بن عمر سوبرة، الحاج يحيى **(جعنا)** ابن محمد سعادة، محمد ويحيى ويوسف أبناء الحاج مصطفى شهاب، محمد وخليل أبناء عبد القادر موسى، محمد بن مصطفى النقي، حسين بن صالح آغا النحيلي، محمد صالح بن عبد القادر الغول، إبراهيم بن الحاج محمد الحشاش، محمد بن يوسف حمود، مصطفى بن الحاج أحمد كنيعه (كنيعو)، قاسم ابن حمودة عز الدين.

وتفيدنا وثيقة مؤرخة في غرة ذي العقدة الحرام سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥م أن الدكان الموقوف كائن في زقاق الشيخ رسلان - المجاور لمبنى بلدية بيروت الحالي -، وذلك في معرض نزاع عرضه الشيخ فضل بن الشيخ مصطفى بن قاسم القصار بينه وبين الحاج حسن ابن الحاج محمد القصار، ومؤداه أن ابن عم والد فضل السيد درويش بن علي القصار وقف الدكان على فقراء أحمد البدوي، وجعل التولية بعده لابن عم مصطفى،

وأن والد حسن أقيم متوليًا في ٦ شوال ١٢٦٨ هـ لما توفي والد فضل، وكان هذا قاصرًا، وأن حسن وضع يده على الدكان بعد وفاة والده، فتقرر تولية الشيخ فضل على الوقف[1].

يذكر أن الدكان المشار إليه استملك من قبل بلدية بيروت بسبب توسيع الشارع الجديد (سوق الفشخة) بين السراي وباب إدريس، وذلك لقاء مبلغ خمسين ألف قرش ليشترى به بدلًا عن الدكان، فباع الشيخ فضل بيته لقاء المبلغ المذكور وأصبح البيت موقوفًا بدل الدكان، وذلك في ٢٧ شوال ١٣١٤ هـ/ ١٨٩٧م.

نشير إلى أنه في الثالث من ربيع الأول الأنور سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٩م اشترى الأمير خليل بن الأمير أحمد أرسلان تسع غرف مسقوفات بالجسور والأخشاب الكائن في أسكلة ميناء بيروت تجاه البحر، ويحد البيت المذكور غربًا سطح «الزاوية الشهيرة بزاوية قطب العارفين الفرع النبوي سيد أحمد البدوي...»، وممن شهد على ذلك: المشايخ محيي الدين البكري اليافي، وعلي بدران، ومصطفى الرفاعي، وسليمان مشقية (ومشقية غير عائلة دمشقية؟)، وغيرهم[2].

وكانت وظيفة إمامية صلاة الظهر والعصر في مسجد السيد البدوي قدس سره الكائنة في أسكلة مدينة بيروت موجهة من سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م على الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الرفاعي (مواليد ١٢٤٧هـ)

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ، غرة ذي القعدة رقم ٢٥٤.
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٥هـ، ٣ ربيع الأول.

بمعاش مئة قرش شهريًا. وذلك بعد أن استعفى الإمام السابق الشيخ أحمد عفرة لاشتغاله بالتجارة. وقد توفي هذا الأخير سنة ١٢٨١هـ عن غير ولد ذكر.

وكان الشيخ أحمد الرفاعي فيه اللياقة والأصلحية لهذه الوظيفة، وهو قائم بها، فطلب في ٣ ذي الحجة الحرام ١٢٨٤ هـ إصدار براءة شريفة خاقانية بذلك «داعيًا بتأييد وتأبيد سرير السلطنة العظيمة ذات المقام المنيع الأسمى..»[1].

وتفيدنا الوثيقة المؤرخة في ٢ محرم الحرام سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧م بأن الشيخ أحمد الرفاعي كان متوليًا الإمامية في مسجد زاوية البدوي بموجب براءة مؤرخة في ٢٢ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ، وقد توفي عن أولاد كبار هم: الشيخ مصطفى، وعبد الله، ومحمد أمين، ومحيي الدين، الراشدون، وعن سعد الدين، وخير الدين، وبهاء الدين، ومحمود، القاصرون، وهم من المستثنين من الخدمة العسكرية بموجب براءة سنية.

وقد وجهت على الشيخ مصطفى جهة مشيخة الذكر، وأن عبد الله ومحمد أمين ومحيي الدين لا أهلية لهم للجهة المذكورة، لأن عبد الله ومحيي الدين مستخدمين في كمرك بيروت، ومحمد أمين بالمكتب الإعدادي الطبي في الآستانة لتعليم الطب، ووجد سعد الدين (١٣ سنة) يرجى فيه الأهلية لوظيفة الإمامية لكونه شارعًا في تحصيل العلوم دون بقية

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٤هـ، رقم ٣٦.

إخوته، فأقيم عنه إلى أن يبلغ الرشد الشيخ عبد الله بن الشيخ مصطفى ابن الشيخ عبد القادر الرفاعي، وجعل له أربعون قرشًا.

يذكر أن طريقة السيد أحمد البدوي بقيت موجودة في بيروت، وكان مريدوها يشاركون في المواسم الدينية ووفود استقبال حج شيوخ الطرق أو في تشييعهم، ففي ٣٠ نيسان سنة ١٨٨٧م توفي الشيخ محيي الدين عمر اليافي، فمشى في جنازته مشايخ الطرق الرفاعية والسعدية والخلوتية والأحمدية والصاوية[1].

جامع البدوي الجديد أو جامع الأحمدين في محلة الباشورة

قامت هيئة عمارة المساجد بترميم وتوسعة مسجد الباشورة أو البسطة التحتا (بمشاركة في التمويل من بنك التنمية الإسلامي في جدة). ورغم قدم المسجد وعراقته فلم تتناوله الدراسات التي صدرت حتى تاريخه عن مساجد بيروت. وفي اللوحة الرخامية الصغيرة التي كانت مثبتة إلى يسار الباب الخارجي للجامع نقش مدون عليه تاريخ ١٢٦٢ هجرية/ ١٨٤٥ ميلادية على أنه تاريخ الإنشاء. وفي كراس نشره عبد الرحمن الحوت سنة ١٩٦٦م ذكر أن الجامع أنشىء بمسعى من الشيخ عبد الله خالد وأهل الخير، وأن المئذنة أنشئت سنة ١٢٧٥هـ، وأن البناء اكتمل سنة ١٢٨٢هـ.

وإلى الشيخ عبد الله خالد يعود الفضل في إنشاء أول مدرسة إسلامية شبه نظامية - إذا جاز التعبير -. فقد روى الشيخ عبد القادر قباني أنه حدث فيأيام الشيخ عبد الله خالد أن أحد أبناء العيال أخبره بما يجده أبناء

---

(١) ثمرات الفنون عدد ٦٢٧، نيسان ١٨٨٧م.

المسلمين في مدارس الأجانب، فاهتم بذلك واستصحب عيون المشايخ، ودخلوا على والي الإيالة ولفتوا نظره إلى هذا الأمر وما يتولد عنه.

وكانت النتيجة أن عيّن الشيخ عبد الباسط الفاخوري والشيخ عمر خالد والشيخ عبد الرحمن الحوت لتعليم الصرف والنحو والفقه والتوحيد، وذلك في جامع الأمير منذر (النوفرة)، وكان أن اجتمع عندهم لغاية سنة ١٨٦٣م أكثر من مئة تلميذ. وكان الشيخ عبد الله خالد أحد أربعة (الثلاثة الآخرون هم الشيخ محمد الحوت ومحمد البربير وعبد الله بيهم) الذين أشار خليل الخوري في صحيفة حديقة الأخبار سنة ١٨٦٠م إلى أنهم مع غيرهم ممن شارك من وجوه مسلمي بيروت في استقبال وإغاثة الذين لجؤوا إلى بيروت من نصارى الجبل إبان فتنة سنة ١٨٦٠م. وقد توفي الشيخ عبد الله خالد في محرم الحرام سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، ورثاه الشعراء من كل الطوائف، فقال الشيخ عمر الأنسي:

بني خالد ما في بني الدهر خالد   تعزوا ففي الصبر الجميل فوائد
ولا تحزنوا إن الكرام أعزة   إذاما داهمتهم بالخطوب الشدائد
وإن الذي فارقتموه لواجد   كريمًا له في كل فضل عوائد

إلى أن يقول:

إمام بكى من وعظه كل مسجد   وما برحت حتى بكته المساجد
فيا راحلًا قد كان من زاده التقى   وليس من التقوى على الزاد زائد[1]

(١) بيروت حياتها وتحولاتها، عبد القادر قباني، الكشاف سنة ١٩٢٧م (ص٣٠)، وحديقة الأخبار عدد ١٢٧ أيار ١٨٦٠م، والمورد العذب لعمر الأنسي (ص٩٤).

وفي خزانتنا نسخة من مخطوط للشيخ عبد الله خالد كان يدرس منه في مدرسة جامع النوفرة.

وكانت بيروت إبان احتلال إبراهيم باشا لها ثم بعد خروجه منها قد بدأت تتسع خارج السور، وأخذ العمران يتكاثر في المحلات القريبة من قلب المدينة القديمة كزقاق البلاط والباشورة والمصيطبة. ويبدو أن الحاجة إلى وجود مصلًى في الباشورة دفعت بعض مريدي السيد أحمد البدوي وبعض أهل الخير وعلى رأسهم الشيخ عبد الله خالد إلى تأسيس زاوية في المحلة يجتمع فيه الشيخ وأتباعه، ويتلقى فيها أولاد المحلة دروس القرآن.

ويتبين من الصور القديمة للمحلة أن طريق البسطة/ عصور لم تكن قد شقت، وأن زاوية البدوي الجديدة كانت ضمن حرم جبانة الباشورة، وأنه بعد شق الطريق المشار إليها تم نقل ضريح والي سورية أحمد حمدي باشا من موقعه الأصلي أمام مبنى الكلية السلطانية (كلية البنات المقاصدية) إلى داخل حدود الجبانة.

وتم إنشاء زاوية متواضعة البنيان مقتصرة على بناء بسيط من الحجر الرملي البيروتي الشهير المستخرج من مقالع المصيطبة والزيدانية. والبناء تألف من فراغ معقود بقبو متقاطع، كشفت عنه أعمال الترميم التي جرت مؤخرًا يشبه العقود التي كانت موجودة في المبنى القديم من جامع المجيدية وبعض العقود التي كانت موجودة في السوق الطويلة. ومن المرجح أن يكون هذا القسم المعقود هو القسم الأصلي للزاوية.

وقد أقيمت المئذنة على الدعامة الشرقية الشمالية للعقد المشار إليه. وكان مدخل الزاوية يقع في الجهة الشرقية ويصعد إليها بسلم من عدة درجات. ثم حصلت توسعة الزاوية فيما بعد عن طريق إنشاء قاعة الصلاة الرئيسة للجامع، وذلك قبلي الزاوية القديمة.

وقد أظهرت الحفريات التي جرت سنة ١٩٩٠م كيفية بناء أساس الجامع، وذلك على طراز العقود أيضًا والمبنية بحجارة من الدبش الرملي توضع بينها طبقة من الطين عمل من رمل أحمر وكلس، فتعشق الحجر، ويصبح الأساس صلبًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. والأهم من ذلك أن الحفريات كشفت الجدران والسقف المعقود الذي كانت تشكل بناء الناعورة لبئر الماء النابع التي كانت مسبلة لمنفعة أهالي المحلة وحاجتهم من المياه كما كانت تضخ الماء لميضأة الجامع.

يذكر أن منطقة الجامع وجوارها من كافة الاتجاهات ومنها غربًا حتى المدرسة العسكرية المعروفة اليوم بمدرسة حوض الولاية كانت تسمى قديما «عين الباشورة».

والحوض: هو أحد الأحواض التي وضعتها شركة الماء لحاجة المحلة. والولاية: نسبة لوالي سورية أحمد حمدي باشا التي كان يقيم في الدار الكبيرة ملك آل العريس، والتي أصبحت اليوم حديقة عامة؛ مع الإشارة إلى أن الدار التي يسكن فيها الوالي كانت تسمى دار الولاية.

وقلنا في حينه بأن الناعورة المكتشفة قد تكون العين التي سميت «عين العافوص»، والتي سعى في بنيانها عبد الله ابن الحاج عمر الناطور

سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٩م، كما جاء في التاريخ الذي نظمه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله[١] وقال فيه:

يا حسن عين من زلال ماؤها   منها حلا للواردين الشرب
وبعين عافوصٍ تسمت واغتدت   فيها لبانيها يسر القلب
يجزيه ربّي منه خير الجزا   وينالـه منه الرضا والقرب
هذي وقد حفّت بتاريخ سما   عينٌ بها ماء معين عذب

لا يوجد دليل موثوق يؤكد بناء الزاوية سنة ١٢٦٢هـ، إلا أن الوثائق التي عثرنا عليها من بين آلاف وثائق محكمة بيروت الشرعية تثبت أن الزاوية أنشئت قبل سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧-١٨٤٨م، وكانت تعرف باسم زاوية الباشورة، والزاوية الجديدة.

ففي وثيقة مؤرخة في الخامس من جمادى الثاني سنة ١٢٦٤هـ حضر إلى مجلس الشرع الشريف الحاج حسن ابن الحاج حسين منيمنه وهو بأكمل الأوصاف المعتبرة شرعًا، ووقف وحبس وأبّد وخلد وسرمد وتصدق بما هو له وجارٍ في ملكه ومنتقل إليه بالشراء الشرعي، وذلك جميع الدار الكائنة في مزرعة القنطاري فوق وادي أبو جميل، المشتملة على بيتين متلاصقين، يقابلهما إيوان ومدخل وبيت مونة ومطبخ وبيت براني مسقوف، كل ذلك بالجسور والأخشاب، وعلى فسحة دار سماوية مغروس بها أصلي زيتون وبركة ماء معدة لجمع ماء الشتاء، ويتبع الموقوف قطعة أرض ملاصقة للدار، مشتملة على أغراس توت، وأصل

---

(١) ديوانه (١/٥٠١).

تين وزنزلخت، والمقدرة بستة وعشرين ذراعًا طولاً وعرض ستة أذرع بالذراع المعماري.

ويتبع الموقوف أيضًا قطعة أرض خلف البيوت، تحتوي على أصل سنديان طولها عشرة أذرع وعرضها خمسة أذرع، ويحد الموقوف شرقًا شقيقة الواقف وغربًا ملك السيد محمد الحوت.

وقد أنشأ الواقف الوقف على نفسه وعلى زوجته الحاجة زهرة بنت الحاج إبراهيم الجدع، ومن بعدهما النصفُ لزاوية الباشورة، والنصف لفقراء الحرمين الشريفين حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة.

وقد شرط الواقف أن تكون التولية بعده وبعد زوجته لمتولي الزاوية النصفُ، والنصف الثاني يدفع إلى رجل أمين يكون متوجهًا للحج الشريف يوزع النصف منه على فقراء المدينة، والنصف على فقراء مكة المشرفة.

وقد شهد على هذه الوقفية الشيخ عبد الله خالد، والشيخ علي الطيارة، والحاج محيي الدين الزاهد، وإبراهيم مكّنيها، وشعبان النويري، وخليل الحوت، وعبد الرحمن منيمنه، ويوسف ابن السيد محمد الحوت، وعبد القادر النحاس، وأحمد ناصر زنتوت، ومصطفى شهاب، وكتبها الشيخ مصطفى قرنفل ابن قاضي بيروت الأسبق الشيخ عبد الهادي قرنفل.

وفي وثيقة ثانية مؤرخة في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م ثبتت تولية الشيخ عبد الله خالد على زاوية الباشورة، وذلك عندما باع أحمد بن عبد الله فخري ما هو جارٍ في ملكه «لجناب سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله أفندي خالد»، الذي اشترى منه بمال الزاوية الكائنة في حي

الباشورة عمار الدكان الكائنة في حي الباشورة، التي يحدها شمالاً عبد الله الصفح ومحمد دندن، وغربًا بستان رضوان الدنا، والثمن ستمئة قرش. وكان من ضمن أوقاف الجامع حكر على أرض الحاج علي المصري الكائنة في حي الباشورة.

وفي ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٦ هـ وقفت الحاجة أسما بنت قاسم درويش اثنى عشر قيراطًا من أصل ٢٤ من الحانوت الكائن في سوق الحدادين (أسفل بيت الحوري) على نفسها مدة حياتها، ثم من بعدها ستة قراريط على «الزاوية العامرة بذكر الله تعالى وعبادته الشهيرة بزاوية الباشورة خارج مدينة بيروت المحمية لأجل مصالح الزاوية، والستة قراريط الباقية على من يقرأ القرآن العظيم من حفظة كتاب الله تعالى في مدينة بيروت المحمية، يصرف ذلك له، ويقرأ ما تيسر من القرآن في كل يوم ويهدى ثواب ذلك عصره النبي ﷺ ولأصحابه الكرام، ولصاحبة الوقف ولوالديها ولجميع المسلمين، فإذا انقطع من يقوم بهذه الوظيفة يعود ذلك على الحرمين الشريفين...».

وكان من شهود الوقفية افتخار العلماء الكرام السيد الشيخ محمد الحوت، وفخر الطلبة الكرام الشيخ عبد الباسط الفاخوري، وعمدة المشايخ الكرام الشيخ حسن ناصر زنتوت وغيرهم.

وفي ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٦٦ هـ وقف عبد الفتاح خالد ستة قراريط من دكان يملكه في حي الباشورة قرب الزاوية، وذلك على الزاوية المعروفة بالزاوية الجديدة المستجدة في حي عين الباشورة خارج المدينة

لمصالح الزاوية وما تحتاج إليه من كلي وجزئي، وإذا اندرست يعود ذلك وقفًا على الحرمين الشريفين.

ويتبين من الوثيقة تاريخ ٢٠ شوال المكرم ١٢٨٢ هـ والمتعلقة ببيع ورثة فاطمة كنفاني حصة من خان الكنفاني والعريس (الذي بني محله مبنى سينما أمبير) وجود دكان في الأرض الكائنة في محلة برج الكشاف جارية في وقف زاوية الباشورة (نشرنا صورة الوثيقة في كتابنا منزول بيروت ص١٩٨).

وبقيت الزاوية تعرف بزاوية الباشورة حتى سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م، ففي وثيقة مؤرخة في السابع من ربيع الآخر ١٢٨١هـ وقف الشيخ محمد عمر الفاخوري بوكالته عن درويشة المكناة بأم اعرابي بنت مصطفى قراقيرة قطعة أرض تملكها كائنة في حي الباشورة، يحدها قبلة ملك الوكيل المذكور، وغربًا الحاج أحمد الفيل، وشرقًا زاوية الباشورة، وشمالاً الطريق السالك. ويعود مآل الوقف إلى مصالح زاوية الباشورة.

ومن المؤكد أن توسيع الزاوية واكتمال بناء الجامع تم بين سنتي ١٢٧٩ و١٢٨٢هـ، وانه عرف بجامع الأحمدين نسبة إلى السيد أحمد البدوي إلى والي سورية أحمد حمدي باشا. وجاءت التسمية في تاريخ نظمه الشاعر الشيخ عمر الأنسي[1] قال فيه:

بجامع الأحمدين عج لترى   مظاهر الحق تبهر النظرا
واسلك طريق الهدى إليه فقد   أحياه ذو الفضل أوحد الكبرا

(١) المورد العذب (ص١٥٤).

أحمد باشا والي الإيالة من   أبقى بتجديده له أثرا
فزده حمدًا وقل مؤرخه   بناه لله أفضل الوزرا

يذكر أننا نقلنا في ٥/١/ ١٩٨٦م نقش لوحة مثبتة إلى يمين الباب الرئيس لقاعة الصلاة أربعة ابيات وكلمة التاريخ ١٢٨٢هـ نصها:

بهذا المسجد الأرواح تسقى   زلال القرب بالقدح المقدس
وفي الجهة التي سجدت لديها   رأت صبح الكرامة قد تنفس
جزى الله الذين بنوه خيرا   فمسعاهم به للخير مغرس
ترفع قدره بالذكر أرّخ   ومبناه على التقوى تأسس

(ولا يعرف الناظم).

وأصبحت زاوية الباشورة تعرف بجامع الباشورة منذ أن أقيمت أول صلاة للجمعة فيه، وذلك يوم الجمعة في السادس عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٩٥هـ/ التاسع من شهر أيلول ١٨٧٨م بعد صدور إرادة سنية بوضع المنبر فيه ونصب الخطيب، بحضور متصرف بيروت رؤوف أفندي، ونائب بيروت (قاضيها) عبد الله جمال الدين، ومفتي المدينة في حينه الشيخ محمد المفتي الطرابلسي الأشرفي. وقد خلع النائب بصفته ممثلًا لشيخ الاسلام على الخطيب كسوة فاخرة.

لم يذكر في حينه من كان خطيب الجامع إلا أن ترجمة الشيخ حسن البنا المتوفى سنة ١٨٩٩م تقول بأنه: «كان أقدم معلمي مدارس بيروت، وخطيب جامع البسطة وإمامه. قضى عمره في التعليم، وما من

بيروتي في القرن الماضي (التاسع عشر) إلا وتلقى مبادىء القراءة والكتابة عنده»[1].

ويبين الكشف الذي أجراه ناظر أوقاف بيروت سنة ١٣١٩ (مالية) واردات أوقاف الجامع ومصارفاته كما تبين خطيبه والقيمين عليه كما يلي: إمام الصبح والظهر الشيخ محمود منيمنه، إمام مغرب وعشاء الشيخ حسن مدور، خطيب الشيخ محمد علايا، قيّم محمد سوبرة، مؤذن ظهر وعصر علي الصفح، مؤذن مغرب وعشاء أمين ناصر. مؤذن صبح الشيخ أحمد.

أما المحلات الموقوفة على الجامع فكانت تلك السنة: دكاكين في محلات الباشورة وبرج الكشاف وسوق القطايف وسوق الحدادين وزقاق البلاط. يذكر أن احد الدكاكين موقوفة في ٧ محرم الحرام سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م من محمد رشيد بن محمد الخجه الدمشقي الذي كان متوليًا على جامع الباشورة.

وتقول وثيقة الوقف أنه قرر الوقف بمواجهة محمد بن مصطفى بن محمد منيمنه الناظر على الجامع وعلى الوقف لأجل تسجيله، والموقوف ثلاثة أرباع الدكان التي يحدها قبلة الطريق الآخذ إلى المصيطبة، وشمالاً وغربًا أرض الجامع، وشرقًا الطريق السالك الآخذ إلى حرج بيروت. وكانت آخر وقفية لصالح الجامع جرت سنة ١٩٦٤م من السيدة الفاضلة شفيقة سلامة، وجعلت التولية للسيد صبحي الغزاوي.

---

(١) السجل الشرعي ١٣٠٢-١٣٠٣هـ، رقم ٤٦٥.

عرف الجامع عددًا من العلماء الأعلام، منهم: المفتي الشيخ محمد توفيق خالد جار الجامع وصاحب مدرسة التوفيق، والمفتي الشيخ محمد علايا الذي وجهت عليه خطابة الجامع بموجب وثيقة بالتركية مؤرخة في الرابع من شهر ربيع الأول الأنور سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

وقد تابعت شخصيًا صلاة الجمعة في جامع الباشورة يوم كان الخطيب الشيخ مصطفى اليافي رحمه الله.



زاوية مسجد البدري

[illegible]

الموجود في اعتاب الدولة العلية العثمانية حماها الله وحماها بالبديه

٤٠٩ سجلها
هو انه لما كانت وظيفة الامامة في مسجد زاوية البدوي قدس سره العزيز الكائنة
داخل بيروت موجهة على الشيخ احمد افندي ابن الشيخ عبد الله الرفاعي بمعاش مائة
غرش في كل شهر تصرف له من غلة عقارات وقف الزاوية المذكورة بموجب براءة
شريفة خاقانية مؤرخة في الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ثمانية وتسعين
ومائتين والف وهو متصرف بهذه الوظيفة بالمعاش المذكور ومن مدة توفي
الشيخ احمد افندي المومى اليه عن اولاده ذكور كبار وهم اصحاب المكرم الشيخ
مصطفى افندي وعبد الله افندي ومحمد امين افندي ومحي الدين افندي البالغون الراشدون
وسعد الدين افندي وخير الدين افندي وبهاء الدين افندي ومحمود افندي القاصرون عن
درجتي البلوغ والرشد ... من المستثناية من خدمة العسكرية بموجب
ارادة السنية وقد وجهت على الشيخ مصطفى افندي المذكور جهة ...
الذكر بوظيفة المعينة لهذا لاهلية لتلك الجهة وحرر اعلام ... ولده عبد الله
افندي ومحمد امين افندي ومحي الدين افندي المذكورين لا اهلية لهم للجهة المذكورة
لان عبد الله افندي ومحي الدين افندي هما مستخدمين بمركز بيروت ومحمد امين افندي بمكتب
الاعدادي الطبي بالاستانة العلية لتعليم الطب ووجد سعد الدين افندي الذي
سنه ثلاث عشرة سنة وهو اكبر القاصرين المذكورين يرجى فيه الاهلية
لتوجيه وظيفة الامامة المذكورة لكونه شارعا في تحصيل العلوم

وظيفة الامامة في مسجد زاوية البدوي ١٣٠٥ هـ

وطيفة الامامية في مسجد زاوية البدوية ١٣٠٥ هـ

دو بقية اخوة واد يقم عنه الى ان يبلغ سن الرشد وتحقق فيه اهلية
لذلك الشيخ عبد الله افندي ابن الشيخ مصطفى افندي ابن الشيخ عبد القادر الرفاعي فحينئذ
استحضر الشيخ عبد الله افندي المذكور الى المجلس الشرعي الشريف بحضور رفعتلو الحاج عبد اللطيف
افندي حماده مدير اوقاف بيروت ووجهت وظيفة الامامة المذكورة على عبد الرحمن
افندي المذكور بالمعاش المحرر واقيم وكيلا عنه الى ان يبلغ سن الرشد وتتحقق
فيه اهلية الشيخ عبد الفتاح المذكور عند تحقق اهليته وجعل له العودة
عن ثلث المعاش المخصص للامامة المذكورة في كل شهر وهو قبل
ذلك وبناء عليه قدمت عرض الكيفية مستدعيا باحسان البراءة الشريفة
الخاقانية مبينا توجيه الوظيفة المذكورة على الوجه المعروض لسعد كذا
افندي المذكور داعيا بتأبيد تأبيد الدولة العلية العثمانية الى آخر الدوران
والامر لحضرة من له الامر تحريرا في ثاني محرم
الحرام سنة خمس وثلاثمائة والف

الزاوية الجديدة المستجدة في حي عين الباشورة ١٢٦٦ هـ

وقف درويش علي القصار ~~الذي سلم للجمعية~~

على مقام البدوي بطنطا

تولية حسن محرم رئيس جمعية المقاصد
على وقف بدرة مصطفى العيتاني (من الأوقاف التي سلمت للجمعية)

٢٥

الشواهد الأثرية لمقام ومسجد الخضر في بيروت

ما روي عن العبد الصالح أبي العباس الخضر صاحب موسى عليهما السلام:

قدم الشيخ عبد الرحمن الكزبري بيروت في ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ/ نيسان ١٨١٣م، ومعه نجله الشيخ محمد، وابن عمه الشيخ أحمد، قاصدًا زيارة مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله في رحلة شملت صيدا وطرابلس وجبلة واللاذقية وحمص وحماه. وقد حلّ الشيخ الكزبري ضيفًا في بيت الشيخ فتح الله الكائن في محلة فتح الله بين مبنى البنك العربي (شارع رياض الصلح) ومبنى المالية.

وقد أرّخ المفتي فتح الله الزيارة بقصيدة طويلة فقد للأسف قسم منها. وتكمن أهمية ما بقي منها في أنه يذكر المقامات والزوايا التي زارها الكزبري في بيروت، وفيها ما ورد ذكره للمرة الأولى. وتعتبر القصيدة مصدرًا تاريخيًا، ولا سيما أن الشيخ عبد الغني النابلسي الذي زار بيروت بين سنتي ١٦٩٣ و١٧٠٠م لم يذكر في رحلته سوى إشارات قليلة لبعض معالم بيروت الدينية.

تبدأ قصيدة المفتي عبد اللطيف فتح الله بمدح الشيخ الكزبري ومطلعها:

قدوم به الأفراح تحلو وتعذب　　وقامت به الأرواح تحيا وتطربُ

ثم يشير إلى الفرحة باستقبال الزوار والسرور بلقياهم، ثم ينتقل إلى ذكر الأماكن التي زارها الشيخ الكزبري ومنها:

وزار أبا العباس أعني مقامه　　هو الخضر الحي النبي المقربُ
لدى نهرها السلسال طاب زلاله　　وسال لجينًا وهو يحلو ويعذب[1]

فمن هو أبو العباس الخضر؟

يقول محدث بيروت الإمام الشيخ محمد الحوت في كتابه: «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب»: «حياة الخضر عليه السلام اختلف فيها العلماء، وأثبتها الأولياء والصالحون رضوان الله عليهم. ولم يرد في حياته شيء يعتمد عليه. نعم، ورد أنه يجتمع مع إلياس عليه السلام كل عام في الموسم، ولكن سنده لم يصح. وقد ضعفه المناوي وأنكره ابن حجر والسخاوي».

ويتابع الشيخ الحوت: «وعلى فرض صحته فيدل لحياة إلياس وهو باطل أيضًا. وما روي في حياة إلياس وأن طوله ثلاثمئة ذراع، وأنه يمشي في السحاب، وأنه اجتمع بالنبي ﷺ وأكل معه، فهو خبر باطل».

ويقول: «والخضر عليه السلام نبي على المشهور عند العلماء، وإن لم يكن نبيًّا فهو تابع لنبي، فيجب عليه نصرة نبينا ﷺ واتباعه لو كان حيًّا،

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

ولم يرد ما يدل على حياته في زمنه ﷺ، ولو ورد لما خفي علينا، لأنه من الأمور الغريبة، ولو فرضت حياته في عصر الصحابة لمات. . . .

أما ما ورد من أنه اجتمع بالنبي ﷺ فخبر باطل، وكذا ما روي أنه حضر موت رسول الله ﷺ فإنه موضوع، وكذا ما ورد في موته كحديث: لو كان الخضر حيًّا لزارني، فإنه موضوع أيضًا.

وبالجملة، فكلما ورد في حياته أو موته غير صحيح. وأما اجتماعه بالأولياء رضي الله عنهم فيحمل على روحه، وأنها تتشكل بصورته، فالأرواح لها تصرف بعد الموت كالحياة، ويدل لهذا أن من يراه من الناس يراه هو وحده لا غيره، ولو كان جسمًا لرآه كل حيّ مر به، لأنه آدمي لا ملك ولا جني. . .»[1].

أما المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري فقد ذكر في مخطوطة له بعنوان: «خبايا الدراية» ما سبق لشيخه الشيخ محمد الحوت أن ذكره، ولكنه توسع بالموضوع، فأورد أقوالًا وعدة روايات عن الخضر مختلفة كثيرًا، قال: «فقيل: هو ابن آدم لصلبه، وهذا ضعيف جدًّا لا تقوم به حجة. وقيل: ابن قابيل ابن آدم، وهو قول معضل. وقيل: من سبط هارون أخي موسى، وهو بعيد جدًا. وقيل: هو ابن بنت فرعون، وقيل: ابن فرعون لصلبه، وقيل: هو اليسع، وقيل. . . وقيل. . . وكل هذه الأقاويل لا مستند لها، بل هي منقولة عن الكتب القديمة. وقيل: اسمه عامر، وقيل: إليا، وقيل: معمر بن مالك، وكنيته أبو العباس. . . . قال الثعلبي: هو نبي غير

(١) أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، لمحمد الحوت (ص٢٩٢).

مرسل. وقيل: أرسل إلى قومه فاستجابوا له. وقيل: كان وليًّا، وإليه ذهب جماعة من الصوفية، وبه قال علي بن موسى من الحنابلة.

وقال ابن جرير في تاريخه: أنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذه القصة ذكرها جماعة من المؤرخين...، ولا دليل عليه».

ومما أورده المفتي كذلك: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: نُسِئَ للخضر في أجله حتى يكذّب الدّجال ... . وقال الحسن: وُكّل الخضر بالبحار، وإلياس بالفيافي، وأنهما يجتمعان في الموسم كل عام ... . وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء باتفاق أهل النقل...».

ويضيف المفتي الفاخوري: «وأما ما جاء عن المشايخ فهو مما يتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخًا لا يعرفه يقول له: أنا فلان فيصدقه... . وحديث التعزية، أي: تعزيته لأهل بيت النبي ﷺ فموضوع... . قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ الميثاق إن بعث محمد وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه (أخرجه البخاري)، فلو كان الخضر موجودًا لجاء إليه ونصره بيده ولسانه، وقاتل تحت رايته. ولم يأتِ خبر صحيح أنه جاء إلى النبي ﷺ وقاتل معه.

قال أبو الحسين ابن المناوي[1]: بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك من الأحاديث وكلها واهية السند والإخبار وكلها واهية الصدور والأعجاز، لا

(١) كذا كتب الشيخ عبد الباسط، والصواب: ابن المنادي (الشعار).

يخلو مآلها من أمرين: إما أن تكون أُدخلت على الثقات استغفالًا، أو يكون بعضها تعمد ذلك»[1].

روى رباح بن أبي عبيدة قال: رأيت رجلًا يماشي عمر بن عبد العزيز معتمدًا على يديه، فلما انصرف قلت له: من الرجل؟ قال: رأيته؟ قلت: نعم، فقال: أحسبك رجلًا صالحًا، ذلك أخي الخضر، بشرني أني سأولى وأعدل. والله أعلم بالحقيقة.

وإذا لم تر الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار

روى الغزالي أنه نقل عن عبد الله الخراساني أنه قال: لقيت أبا العباس الخضر عليه السلام بجبال الشام، فعلمني عشر دعوات وعدّها عليّ بيده: ١) اللهم إني أسألك الإقبال عليّ، ٢) والإصغاء إليك، ٣) والفهم عنك، ٤) والبصيرة في أمرك، ٥) والنفاذ في طاعتك، ٦) والمواظبة على إرادتك، ٧) والمبادرة لخدمتك، ٨) وحسن الأدب في معاملتك، ٩) ورد التسليم والتفويض إليك، ١٠) والمغفرة يوم القدوم عليك.

روي أنه لما قدم المنصور حاجًّا خرج ذات ليلة يطوف، فسمع رجلًا يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأرسل المنصور إليه ودعاه فأقبل يعظ المنصور وينتقد عليه جعله حجابًا بينه وبين الناس، واتخاذه أعوانًا ظلمة إن جاءه متظلم حالا بينه وبين الدخول إليه. ومما قال له: كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم الظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف

(١) خبايا الدراية، المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري (ص٤٧٧).

الناس، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي: يا أهل الاسلام، فيبتدرونه: ما لك؟ ما لك؟، فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف. ثم خرج المنصور وصلى وعاد فلم يجد الرجل، فأرسل من يطلبه. فقيل: إنه الخضر عليه السلام.

وفي قصص الأنبياء للنجار: أن الخضر هو صاحب موسى عليهما السلام، وهو المذكور في سورة الكهف.

ويروي البيارتة أن الخضر مرّ بأعرابي يصلي ويقول: عصايتي ولبّادتي وأنا أرعى غنماتي على المرج الأخضر. فوقف الخضر وأخذ يعلمه الصلاة حتى حفظها، وتركه ومشى على الماء. وبعد قليل التفت وراءه فوجد الأعرابي ماشيًا على الماء يناديه: علّمتني الصلاة ولكن نسيت بعضها. فأيقن الخضر أن الرجل من الأبدال لأنه مشى مثله على الماء.

وللخضر مسجد ومقام في سهل نهر بيروت. ولا يبعد كثيرًا عن مزرعة وبرج المرابط أبي هدير. ويرجح أنه أنشئ في أوائل العهد العثماني كمظهر من مظاهر المرابطة في ساحل بيروت، وردًا على الحملات التي كانت تتعرض له بيروت.

مسجد ومقام أبي العباس الخضر في سهل بيروت

ذكر صالح بن يحيى في كتابه: «تاريخ بيروت»[1] عن «زعم قديم مفاده أنه خرج في بيروت تنين عظيم، وأن أهل بيروت قرروا له في كل

(١) (ص٩).

عام بنتًا يخرجونها إليه اكتفاءً لشرّه، وأن القرعة وقعت في سنة من السنين على صاحب بيروت، فأخرج بنته ليلًا إلى مكان موعد التنين، فتوسلت بالدعاء إلى الله، فتصور لها مار جرجس القديس. فلما جاء التنين خرج عليه مار جرجس فقتله. فعمّر صاحب بيروت في تلك المكان كنيسة بالقرب من النهر...».

ويضيف صالح بن يحيى: «بأن لمار جرجس عيدًا مشهورًا عند النصارى وأهل بيروت المسلمين والمسيحيين، يخرجون في ذلك العيد إلى نهر بيروت، ويسمى عندهم عيد النهر، وهو من البدع...».

أما الأب لويس شيخو وهو الباحث المدقق والمتشدد فقد صرح في كتابه: «تاريخ بيروت» «بأن ما يخبر عن استشهاد القديس جرجس فيها (بيروت)، وإنقاذ ابنة ملكها من التنين فهي رواية لا يمكن القطع بها. ويدعي الكتبة وقوعها في عدة أماكن كنيقوميدية ولدّ (قرب يافا) وغيرهما. فضلًا عمّا في قصة التنين من الغرابة»[1].

فإذا كانت قصة التنين وما تبعها من قتله على يد مار جرجس لا يمكن القطع بها على حد قول الأب شيخو - وهي الأصل -، وبالتالي فلا يمكن القطع بأن صاحب بيروت بنى كنيسة عند النهر، لأن هذا الأمر هو الفرع. فمن المتفق عليه أنه إذا سقط الأصل سقط الفرع.

ويمكن تفسير بدعة الاحتفال عند النهر كعيد يقع في الثالث والعشرين من شهر نيسان، بأنه لا يعدو أن يكون شكلًا من أشكال الاحتفال

(١) بيروت تاريخها وآثارها، لويس شيخو (ص١٢٠).

بحلول الربيع عند مياه نهر بيروت، وتجدد الطبيعة بعد سباتها - موتها - الشتوي. وكان من الطبيعي أن يتم هكذا احتفال في سهل كسهل بيروت الذي اخضرّ من جديد، والمسمى فيما بعد سهل سيدنا الخضر عليه السلام. وأن يتم الاحتفال أيضاً عند النهر، أي: قرب الماء الذي أحيا الأرض بعد موتها، والذي جُعل منه كل شيء حيّ.

ولعل تقادم العهد وعدم تدقيق صالح بن يحيى بالروايات التي ينقلها فتأتي مبتورة، لأن غايته من تاريخه ذكر بطولات آبائه وأجداده، ما جعله يخلط بين الروايتين الأصلية والفرعية ويدمجهما معًا: رواية قتل مار جرجس للتنين - التي نفاها الأب شيخو -، ورواية الاحتفال عند النهر وبناء كنيسة عنده.

حتى إن الذين دمجوا فيما بعد بين مار جرجس والخضر لم يلحظوا الفرق بين الشخصيتين: شخصية مار جرجس الذي قتل التنين، وشخصية الخضر الذي تخضرّ الأرض التي يجلس عليها، وهو خوّاض البحور الذي يمشي على وجه الماء ولا يغرق.

أما الذين أرّخوا لبيروت عند الفتح الإسلامي لها سنة ١٤ للهجرة، فلم يشيروا من قريب أو من بعيد إلى وجود كنيسة عند نهر بيروت صار تحويلها إلى مسجد. ولو كان الأمر غير ذلك لكان الصليبيون - ومن توسع في نقل أخبارهم - قاموا عند احتلالهم لبيروت بين سنتي ١١١٠ و١١٨٧م أو بين سنتي ١١٩٧ و١٢٩١م بإعادة مسجد الخضر إلى ما كان عليه، أو كانوا أزالوه كما فعلوا بغيره. وهو أمر لم يأت أحد على ذكره. كما أن أحدًا

لم يشر بعد إخراج الصليبيين من بيروت من قبل المماليك إلى وجود كنيسة عند نهر بيروت حولت إلى مسجد.

ومن المتفق عليه أن من تقاليد الفتوحات قديمًا أن يقوم الفاتحون بالسعي لإحلال عقائدهم الدينية محل المعتقدات المحلية، وأن يعمدوا إلى المعابد المبنية سابقًا والجاهزة فيتخذونها مراكز لإقامة شعائرهم الجديدة. فالبيزنطيون حلوا محل الرومان واستعملوا معابدهم وهياكلهم كنائس. ومن الطبيعي والمرجح أن يستعمل الفاتحون المسلمون المعابد القديمة المتهدمة محلًا مؤقتًا للصلاة لحين إنشاء مساجدهم الخاصة. ولم يثبت تاريخيًا وأركيولوجيًا، كما لم يتبين من الحفريات وجود معبد روماني عند نهر بيروت أو هيكل تحول إلى كنيسة ثم تحولت الكنيسة إلى مسجد في مرحلة أولى ثم أعاده الصليبيون كنيسة وأخيرًا أعاده المسلمون مسجدًا.

وينبغي النظر بحذر شديد إلى الأخبار التي نقلت بعد فتح المماليك لبيروت، والتي تشير إلى تحويل كنيسة إلى مسجد. فينطبق على هكذا أخبار ما قاله سقراط ذات يوم لمن جلس بجانبه صامتًا: يا هذا كلمني لكي أراك. لأن النفس تكشف عن حقيقتها وعما تضمر في نوع الحديث وطريقة السلوك.

ففي «تاريخ بيروت» يذكر صالح بن يحيى: «أن أمراء الغرب عندما تسلموا بيروت اتخذوا كنيسة فرنسيس الأسيزي **داخل السور** منزلًا لهم. وأنها كانت قبل ذلك إسطبلًا، ثم تركوها وصارت خرابًا، فبيعت حجارتها لبني الحمرا بعد سنة ٨١٠هـ، فبنى هؤلاء من الحجارة زاويتهم التي كانت قرب الجامع العمري الكبير» (وليس الزاوية في رأس بيروت).

كما أشار إلى «أن الجنوية – الكتلان – نزلوا من مراكبهم سنة ٧٨٤هـ وطلع منهم شرذمة إلى خرائب قلعة بيروت القديمة – على بعد أمتار من موقع مسجد الخضر – في محاولة منهم لنصب السنجق. وقد فشلت محاولتهم ما دعا ناصر الدين أمير الغرب إلى إبطال كنيستهم «**التي هي داخل البلد**»، (وليس خارج البلد حيث لم تكن توجد كنيسة)[1].

ذكر ابن طولون الدمشقي في كتابه: «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان»[2] أنه في سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م هاجم الإفرنج بيروت في تسعة مراكب، وطلعوا من البحر عند عين البقر قرب المرفإ، وراموا أخذ بيروت، ففاق عليهم المسلمون، فقتل من المسلمين نحو مئة ومن الإفرنج نحو أربعمئة، وهرب الباقون.

وقد ذكر ابن إياس الخبر وأضاف بأن الإفرنج ملكوا بيروت ثلاثة أيام قبل أن يطردوا.

وقد جنح بعض الكتاب الفرنجة وتبنى بعض الكتاب المحليين أقوالهم بأن جامع الخضر الحالي في السهل قرب نهر بيروت كان كنيسة على اسم القديس مار جرجس، وأن علي باشا الدفتر دار انتزعها من أصحابها سنة ١٦٦١م وحولها إلى مسجد. كما أورد هذه الرواية داود كنعان في مجلة الجنان سنة ١٨٧١م في مقال بعنوان: «جواهر ياقوت في تاريخ

---

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص١٠٦)، وتاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٥٠).

(٢) (١٢٢/٢).

بيروت». ورواها البطريرك أسطفان الدويهي في كتابه: «تاريخ الأزمنة»[1]، وهي الرواية التي شكك الأب شيخو بحصول أصلها؟.

وقد أوضحنا بأنه لم يثبت ولم يجزم أحد بوجود كنيسة في موقع مسجد الخضر الحالي عند نهر بيروت، ولعل بعض الصور القديمة التي يبدو منها وجود مغارة في موضع مرتفع نسبيًا عن مستوى سهل الخضر، تجعلنا نجزم بأن موقع تلك المغارة قد يكون عند نهر الكلب لا عند نهر بيروت؟.

ويبدو أن من ادعى ذلك خلط كما سبق وقلنا بين التقاليد الإسلامية المتناقلة في الخضر، والتي يقابلها مار الياس الحيّ في التقاليد المسيحية. ومار الياس الحيّ هو رمز الخضرة ورمز استمرار الحياة وتجددها وانبعاثها بعد سباتها. أما مار جرجس فهو شخصية مختلفة من الممكن أن يكون قد أنقذ ابنة صاحب بيروت وقتل التنين.

وقد ترجم الأب اغناطيوس طنوس الخوري رحلة ميلسن ونقل الشيخ طه الولي[2] عنه قوله: «ولعل قصة مار جرجس صادرة عن تصوره ممتطيًا جوادًا وهو يصرع وحشًا وإلى جانبه ابنه في لباس ملكي يشهد الواقعة. وهذه الطريقة في التصوير ترتقي إلى الأجيال الأولى من عهد النصرانية، ويرمز بهذا الوحش إلى الشيطان عدو الله القديم، يقهره ويدمره محامو الكنيسة بعنادهم وبطولتهم».

---

(١) (ص٥٥٢).

(٢) تاريخ المساجد (ص٥٢، هامش ٢).

وقد أطلعني يومًا الأب جان موريس فييه (ت١٩٩٥م) أحد الآباء البيض في زيارتي له يومًا في مكتبه قرب الأونيسكو في مركز جمعية الدومينيكان على بلاطة جلبها معه من الموصل تمثل قديسًا يطعن برمحه وحشًا. والرسم يشبه رسم مار جرجس على حصانه يطعن برمحه التنين.

يذكر فؤاد دباس أن كنيسة سيدة النورية شفيعة البحارة وصيادي الأسماك الواقعة وسط بيروت (في سوق سرسق القديم) كانت لكل الطوائف، وأنه نتيجة معركة نشبت بين الأوروبيين والعثمانيين استولى هؤلاء على كنائس الموارنة الذين ظلوا يصلون في كنيسة النورية. نشير إلى أن كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس وسط بيروت كانت كنيسة صغيرة أخذت اسم مار جرجس سنة ١٧١٥م، ثم خضعت إلى الترميم والتوسيع حتى أصبحت كاتدرائية.

يشير الدكتور أسد رستم في كتابه: «نحن وروما والفاتيكان» إلى أنه اطلع على وثيقة شرعية تعود إلى سنة ١٦٤٢م تفيد أن متولي مقامات الخضر طلب من القضاء تسليمه كنيسة مار جرجس الكائنة عند نهر بيروت لأنها كانت مقام الخضر، وأن طلبه رد لأنه لم يثبت مدعاه[1].

ويقول الدكتور رستم بأنه نقل نص الحكم عن الوثيقة الموجودة عند رزق الله عرمان ببيروت. ونقل الشيخ طه الولي هذا الخبر أيضًا؟ ومع ثقتنا بتحقيقات الدكتور رستم إلا أننا – كما صرح هو نفسه في كتابه: «مصطلح

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٥٣).

التاريخ» – كنا نفضل لو نشر صورة فوتوغرافية للوثيقة المذكورة، لأن التاريخ يستند إلى الأصول لا إلى الأقوال؟

ويبدو أن من أشار إلى أن كنيسة في سهل بيروت عند النهر هي نفسها جامع الخضر إنما استند إلى تأويل وإساءة تفسير ما كتبه الرحالة الفرنسي لوران دارفيو الذي تواجد في لبنان بين سنتي ١٦٥٨ و١٦٦٥م، والذي شملت زياراته المدن الساحلية. وقد جمع الدكتور أنطوان عبد النور مذكرات دارفيو ونشرها بالفرنسية وقدم لها، وأبدى بعض الملاحظات عليها وسوف نعود إليها.

النصوص الأثرية في مسجد ومقام الخضر عليه السلام

يبدأ دارفيو مذكراته من صيدا، فيشير إلى أن الأميرين علي ومنصور شهاب حضرا إلى المدينة وأرسلا مستشارهما إلى الآستانة محملًا بالهدايا إلى كبير الوزراء (الصدر الأعظم) بهدف منحهما صيدا وصفد. وأن الباب العالي رفض طلبهما، وأن مندوبهما عاد إلى صيدا مع هدايا لهما عبارة عن عدد من العبيد من عازفي الناي والطبل. وصار الأميران يتجولان في البلدة ويتعمدان تحدي واليها محمد باشا وإهانته.

ثم قاما بتحريض الأهالي الذين تجمعوا في الساحة أمام السراي، وقذفوها بالحجارة وكسروا زجاجها ثم انسحبوا. وقد سافر الوالي بعد ذلك بمدة قصيرة إلى الآستانة لانتهاء مدة ولايته. وقد شعر الصدر الأعظم بأن البلاد أصبحت بحاجة إلى شخص قوي للرد على إهانة الأميرين من جهة، ولتفادي نفقات حرب موسعة من جهة أخرى. فحوّل صيدا إلى باشاليك،

وضم إليها صفد وعيّن عليها علي باشا الدفتردار، وزير مالية دمشق، مع أوامر مشددة وسلطات كاملة بملاحقة الأميرين ومعاقبتهما. فغادر الأميران صيدا بسرعة وهربا إلى الجبل[١].

وكان علي باشا البالغ من العمر ٦٥ سنة والمتوسط القامة يتمتع بالدهاء والحنكة السياسية. وكان الصدر الأعظم محمد باشا الكوبريلي (١٦٥٦-١٦٦١م) قد سبق وهزم انكشارية دمشق. وكانت أسرة كوبريلي koprulu قد جددت الإدارة المركزية، واهتمت بالقضاء على الفتن في الدولة، كتمرد والي حلب وانكشارية دمشق.

وعين محمد باشا ابنه أحمد باشا واليًا على دمشق سنة ١٦٦٠م، وأمره بإخضاع الشهابيين وحلفائهم المعنيين. ثم عين السلطان أحمد باشا المذكور في منصب الصدارة العظمى بعد أبيه من سنة ١٦٦١ إلى سنة ١٦٧٦م.

يذكر أن محمد باشا الكوبريلي اهتم بمدينة إدلب، فأقام بها عدة مبان وجعل مواردها وقفًا على الحرمين الشريفين، ونظم أسواقها ورصف شوارعها. قال المحبي عن أحمد باشا: «لم يكن في الوزراء من يحفظ الدين أو قانون الشريعة مثله. شديدًا في أمور الشرع، سهلًا في أمور الدنيا ...، قدم دمشق سنة ١٠٧١هـ وكانت أمورها مختلة النظام، فأصلحها وتقيد في أمور الأوقاف، وأزال ما بها من محدثات الوظائف وغيرها، وركب على أولاد معن وبني شهاب ...».

---

(١) مذكرات لوران دارفيو (٢/٨٨ وما يليها)، وأوراق لبنانية (١/٢٨٧ و٢٩٠)، وخلاصة الأثر للمحبي (١/٣٥٣).

وقد يكون محمد باشا الذي أنشأ سوقًا لأول مسجد في بيروت (الجامع العمري)، والذي أتينا على ذكره في دراستنا عن أول مسجد أنشئ في بيروت، هو محمد باشا الكوبريلي؟

وبالعودة إلى علي باشا الدفتردار نقول: إن التشدد الذي نسب إليه وكيفية ممارسته لسلطته كانت انعكاسًا لسلطة الصدر الأعظم، من أجل وضع حد للفتنة في صيدا وصفد. وتمشيًا مع تشدد أحمد باشا في أمور الشرع.

وقد أشار دارفيو الذي واكب حكم علي باشا أن هذا الأخير استعمل الشدة مع المحرضين على الفتنة، حتى إن الشيخ مصطفى إمام الجامع هرب واختبأ في بيت قديم ما لبث أن سقط عليه فلقي حتفه. وان اسم علي باشا كان يخيف، فقد قبض على بعض أشخاص كان من بينهم من شفع فيهم دارفيو فأطلقهم علي باشا[١].

وانتقل دارفيو إلى بيروت، فيصف البرج الصغير عند المرفإ بأنه مربع ضلعه أربع قامات (٢٦ قدمًا)، وعلوه ست قامات، وتتألف حاميته من اثني عشر عسكريًا على رأسهم آغا. وفيه أربعة مدافع صغيرة، واثنان كبيران واثنتي عشرة بندقية. وأن الباب الغربي للمدينة قديم ومتين ومحكم البناء. ويذكر بعض أخبار المدينة ومنها: أن البيارتة يحبون الغناء مساءً في الحدائق.

---

(١) مذكرات لوران دارفيو (٢/٩٢).

إلا أنه ذكر خبرًا لم يرد عند غيره من الرحالة أو المؤرخين، مفاده أن العثمانيين نزعوا الصليب عن كنيسة مار يوحنا (الجامع العمري الكبير)، ووضعوا مكانه هلالًا، وأن صاعقة حدثت بعد ذلك واقتلعت الهلال، فوضعوا هلالًا جديدًا، اقتلع أيضًا كسابقه، وأن هذا الأمر تكرر أربع أو خمس مرات. وعندها أقنع شخص كان مسيحيًا وأسلم وكان موضع ثقة الناس واحترامهم، أقنع الحاكم والشعب بأن الوسيلة الوحيدة لإبقاء الهلال هي في وضع صليب معه، فصار وضع صليب من الخشب بين قرني الهلال فلم تعد الصواعق تؤثر فيهما. وادعى دارفيو بأنه شاهد الهلال والصليب عدة مرات أثناء وجوده في بيروت سنة ١٦٦٠م[١]؟

ويكرر دارفيو أسطورة مار جرجس وإنقاذه الأميرة «بعد قتل التنين ورميه في حفرة لا تزال ترى حتى الآن...»، وان المسلمين والمسيحيين يسمون مار جرجس «الخضر الياس»، وقد بيّنا خطأ الخلط بين الشخصيتين.

ويزعم دارفيو بأن علي باشا الأرمني الأصل نزع كنيسة مار جرجس من المسيحيين وحولها إلى مسجد بعد أن سمح للمسيحيين بنقل اللوحات وبقية الأغراض من الكنيسة، وانه أعطاهم مقابل ذلك مبلغًا كبيرًا من المال. وأن لعنة اصابته فمرض ونقل إلى الآستانة، وما لبث أن توفي[٢].

---

(١) مذكرات لوران دارفيو (٢/١٤٥-١٤٦).

(٢) مذكرات لوران دارفيو (٢/١٥٩).

ومن المهم الإشارة إلى أن دارفيو ذكر أن علي باشا أمر بوضع لوحة رخامية كبيرة على باب المسجد حفرت عليها أبيات باللغة العثمانية القديمة تؤرخ ما وقع على الجامع من تغييرات. وسنأتي بعد قليل على اللوحة المذكورة والنص الوارد فيها. إنما يجب أن نبدي بعض الملاحظات الأولية منها: أن دارفيو أهمل وصف المسجد، فلم يذكر وجود مئذنة له، ولا ذكر طراز بنائه، ولا ما إذا كانت له قبة أم لا، ولا أشار إلى اتجاهه الذي يكون عادة في الكنائس شرق/ غرب. في حين أن اتجاه المسجد يحدده اتجاه القبلة أي جنوب/ شمال. ولم يبين دارفيو وجود محراب أو منبر. ويغلب على الظن أنه لم يدخله ولم يقترب من موقعه، وأن ما ذكره من الأخبار نقله على السماع.

يذكر أن بعض التفاصيل المتعلقة بمسجد الخضر ذكرها الرحالة الذين مروا في بيروت بعد دارفيو. ففي سنة ١٨٣٨م زار القس ادوارد روبنصون بيروت وأشار إلى أن الكنيسة في أيامه كانت أطلالًا دارسة لم يبق من معالمها إلا بناء قديم من القرميد، (فتكون مختلفة عن المسجد).

وكتب هنري غيز الذي كان قنصلًا لفرنسا في بيروت وزارها عامي ١٨٠٨ - ١٨١٠م، وعاد إليها سنة ١٨٢٨ وبارحها سنة ١٨٢٨م ونشر مذكراته فقال: «إن الكنيسة دكّت أساساتها، والمغارة التي كان فيها التنين سدّ بابها بسبب الانهيارات». فإذا كانت الكنيسة بحالة خراب مما يدل على أن لا ارتباط بينها وبين الجامع والذي كان في حينه عامرًا بذكر الله تعالى. علمًا بان المسجد الحالي لا قبة له، وسقفه يشبه مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

وبالعودة إلى دارفيو وإشارته إلى أن علي باشا الدفتردار حوّل الكنيسة إلى جامع، وأنه وضع لوحة رخامية على باب الجامع بذلك نقول: إنه من المؤسف أن أيًّا من المشرفين على الأوقاف الإسلامية في بيروت لم يكلف نفسه ولا سيما عند القيام بأعمال ترميم أو إصلاح في مسجد أو مقام، بأن يدون محضرًا يذكر فيه النصوص في اللوحات الأثرية المثبتة أو المعلقة في الجامع أو المقام أو يبين ما تحتويه، أو يضع وصفًا لمحتويات المسجد ومساحته ومسطحه وقبته ومئذنته وطراز بنائه والحجر المستعمل في البناء ...، ومن هنا لا يعرف مصير اللوحات التي أزيلت أو استبدلت، علمًا بأن النصوص ذات قيمة تاريخية وأدبية ودينية وسياسية مهمة.

ولا نغالي إذا قلنا بأن الكثيرين ممن يفترض فيهم المحافظة على الأصول والآثار لا يولون هذا الأمر اهتمامهم، إما لجهلهم وعدم إدراكهم أهمية هذه الآثار، وإما إهمالًا وتقصيرًا وعدم أخذهم أو اتباعهم مناهج البحث العلمي التاريخي العصري.

وكان على البحث العلمي والتاريخي والأثري أن ينتظر قيام الكونت دومنيل دو بويسون com te du mesnil du Buisson كي يذكرنا بالنصوص الأثرية التي كانت موجودة في مسجد الخضر، ولا سيما اللوحة التي وضعت بطلب من علي باشا الدفتر دار.

فقد نشر دو بويسون سنة ١٩٢٧م دراسة حول مقام الخضر ومعركة مار جرجس في بيروت. ونقلت نينا جدجيان أن دو بويسون ذكر أن الصليبيين تبنوا أسطورة مار جرجس والتنين ولجوء التنين إلى مغارة بقي اسمها متداولًا حتى سنة ١٥٤٩م باسم «مغارة الأفواه السبعة».

وكان مما ذكره إشارته إلى بساطة الجامع، ووجود انخساف طفيف في أرضيته، بدا له كأنه يدل على وجود قبر (من هنا ذكر كلمة المقام). وذكر بأن ريتشارد بوكوك الأب الأنغليكاني كان سنة ١٧٣٧م في الجامع، وشاهد ما حصل لمرافقه التركي. فقد جلس هذا المرافق أرضًا، وقام خادم الجامع بوضع أسطوانة من الرخام على ظهره فترة من الزمن (كانت هذه الأسطوانة في الجامع عند كتابة بويسون لبحثه)، وقد أخبره خادم الجامع بأن عددًا كبيرًا من المرضى يطلبون تمرير هذه الأسطوانة على أجسادهم لما لها من خاصية في شفاء أمراض الروماتيزم. كما أعلمه بأن بئر الجامع تشفي الإنسان مما به من أمراض صدرية.

أما عن النصوص الأثرية التي شاهدها دو بويسون في جامع الخضر فكانت ثلاث قطع. الأولى: على حافة البئر، وتعود إلى تاريخ تجديد الجامع سنة ١٨٦٥م ونصها: مقام الخضر جدد بناه على القدر ما فيه ترقّى غدا أثرًا فيه فأرّخ به حسنًا جميل الذكر يبقى سنة ١٢٨٢هـ. أو بترتيب آخر:

«مقام الخضر جدد بناه   على القدر وما فيه ترقّى
غدا أثرًا فيه فأرّخ به   حسنًا جميل الذكر يبقى
١٢٨٢»

والنقش الثاني موجود داخل الجامع أعلى المحراب، ونصه بخط نسخي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله».

أما النقش الثالث وهو المهم فقد حفر باللغة العثمانية (التركية القديمة المكتوبة بالأحرف العربية) بشكل نافر على لوحة من الرخام الغامق اللون،

وملصقة في واجهة المسجد فوق الباب، ونصها مؤلف من سبعة أبيات من بحر الرمل، ومضمون تلك الأبيات بالعربية:

مسجد مقام الخضر الذي تحول بمساعدة بني معن إلى وثن.

١- أعاده القابودان (القبطان) باشا سنة ١٠٤٣هـ مسجدًا قامعًا الشرك وأهل البدع.

٢- ولكن سنة ١٠٦٦هـ ملحم وأخوه أعطى الرهبان هذا المكان.

٣- ومستشار الدولة علي باشا صاحب المناقب العالية اطلع على ذلك كله.

٤- وجمع الأعيان والنبلاء لإجراء تحقيق وقد قدموا له شهادة صادقة.

٥- فعندها جرى تطهير هذا المزار من آثار الشرك والكفر، وأعيد بمساعدة المحسن الكبير مسجدًا كما كان.

٦- فأشاد به أهل التقوى وقالوا تأريخًا: هذا معبد أعيد مسجدًا سنة ١٠٧٢هـ. (أي ١٦٦١م).

تشير اللوحة المذكورة إلى سنة ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م، ففي هذه السنة جردت حملة على فخر الدين المعني الثاني بقيادة كجك أحمد باشا برًّا، ومن القبطان جعفر باشا الذي قدم إلى بيروت بحرًا. فانهزم فخر الدين وسيق إلى إسطنبول[١].

---

(١) موقع معركة القديس جرجس في بيروت، دوفيل دو بويسون، مقالات جامعة القديس يوسف سنة ١٩٢٧ (عدد ١٢ ص٢٥١).

أما الإشارة إلى سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م فلأن الأمير ملحم بن يونس بعد القبض على عمه فخر الدين قام بمحاربة والي دمشق، وهزمه ونهب بيروت وصور وعكا.

اهتمام البيارتة بترميم مسجد الخضر وحفظ أوقافه

وبقي مزار الخضر مزارًا معروفًا طيلة المدة التي انقضت بعد زيارة الشيخ عبد الرحمن الكزبري إلى بيروت سنة ١٨١٣م.

ففي سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١م ذهب المفتي الشيخ أحمد الأغر إلى مقام سيدنا الخضر عليه الصلاة والسلام للزيارة مع جملة من أحبابه، وكان جالسًا في عليّة هناك، ومن جملة من معه رجل يلقب بالمحب وآخر يلقب بالبواب، فتجاذبا باب العلية المحررة شكل المداعبة، فانخلع الباب، أي: غلقه، ووقع على البواب، فتفاءل في ذلك ببيتين على الارتجال وهما قوله:

أنت المحبّ وهذا الحِب بواب ... حارت بحسنكما المحبوب ألبابُ
لا بدع إن صار في طرف الهوى لكما ... سرّ عظيم إليه يسجد الباب[١]

وفي الرحلة الطرابلسية[٢]: أن عبد الغني النابلسي زار بيروت سنة ١٧٠٠م وتوجه منها إلى طرابلس، وقال: «لاحت لنا ونحن سائرون قبة عظيمة يقال لها مقام الخضر عليه السلام. فوصلنا إليها فرأيناها من أحسن

---

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١١٢).

(٢) (ص٤٣).

الاماكن والمقام، وهي عالية منيرة، وبجانبها منارة صغيرة، وأمامها بئر عليه قبة صغيرة أيضًا، فسرنا في ذلك المكان وقد فاض علينا الخير فيضًا، حتى وصلنا إلى جسر عظيم يقال له جسر بيروت ...».

وزار النابلسي بيروت سنة ١٦٩٣م ودون رحلته في «الحقيقة والمجاز في رحلة مصر والشام والحجاز». وكان قادمًا من طرابلس فقال بعد أن ذكر نهر الكلب: «إلى أن زرنا مقام الخضر عليه السلام بالقرب من ذلك المكان...».

وكان أول عمل قام به والي بيروت عبد الخالق نصوحي بك ابن عبد الحق فور وصوله إلى بيروت واليًا عليها سنة ١٨٩٤م أن قام بعد أدائه ركعتَي شكر لله تعالى في الجامع العمري الكبير، قيامه بزيارة مسجد الخضر عليه السلام، وإعطاء أمره بتوسيع المسجد[١].

وفي السنة التالية رأى ضرورة إصلاح المقام وترميمه، فألف لجنة من ناظر الأوقاف ومن الشيخ محمد طبارة وأبو عمر الداعوق ومحمد أياس ومهندس الولاية أمين عبد النور من أجل ذلك. وكانت إدارة سكة الحديد قد خصصت مبلغ خمسين ليرة ذهبية سنويًا للمقام الشريف لقاء الأراضي التي أخذتها من وقفياته، ما ساعد على إنجاز العمل المقرر إنجازه[٢].

ولا نعرف كيفية الترميم ولا ما جرى إصلاحه، إنما يمكن القول بأن من نتيجة ذلك إلغاء القبة الكبيرة التي سبق للرحالة النابلسي أن أشار إليها

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ٩٩٣، سنة ١٨٩٤م.

(٢) ثمرات الفنون، عدد ١٠٤٠، سنة ١٨٩٦م.

وشاهدها سنة ١٧٠٠م. وعندما قامت الدولة الفرنسية المنتدبة بإجراء المسح العقاري أعطت رقم ٣٥٣ للعقار الذي يقوم عليه المسجد الحالي.

يذكر أنه بعد خروج إبراهيم باشا من بيروت سنة ١٨٤٠م وعودة السلطة العثمانية المركزية إليها، جرى فتح أول سجل لمحكمة بيروت الشرعية، وذلك سنة ١٨٤٣م/ ١٢٥٩هـ، وقد تمَّ فيه تدوين «أوقاف وأحكار مقام سيدي الخضر أبي العباس الكائن خارج مدينة بيروت»، وكان من ضمنها قطعتي أرض: قطعة قبلي المقام طولها ١٢٥ ذراع بناء وعرضها ٧٥ ذراعًا. وقطعة شمالي المقام بنفس مساحة القطعة السابقة. وبحساب هاتين القطعتين يتبين أن مساحة الأرض الموقوفة على المقام تفوق ثمانية عشر ألف ذراع مربع، ولا يعلم ماذا بقي منها إلى الآن ولا كيف تستغل[١].

كما ورد في السجلات الشرعية اسم عبد الرحمن ومحمد، وقد وصفا بعبارة «خدام الخضر». يذكر أن وقف الخضر هو من الأوقاف المضبوطة، وكان المتولي عليها توفيق الخضر.

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٢م اجتمعت لجنة التصنيف العامة لأرباب الوظائف الدينية لأجل وضع أسس تصنيف المعاهد المضبوطة والملحقة، وقررت أن تضع دائرة الأوقاف يدها على جميع غلة وقف مقام الخضر. وطلبت من تربة دار مقام الخضر عليه السلام تسليمها كافة الغرف عدا غرفتين مع منافعهما لأجل سكنه. كما طلبت حضوره للدائرة ليبين لها عدد الغرف المأجورة، وبدلات أجورها وأسماء

---

(١) السجل الشرعي سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م (ص٥٣).

مستأجريها، كي تتمكن من استلامها بصورة رسمية مع الأراضي غير المغروسة التابعة للوقف.

كما أبلغه مدير الأوقاف الشيخ خير الدين النحاس بعد ذلك بأسابيع بأن لجنة التصنيف استبدلت اسم وظيفته التربدارية باسم مؤذن وخادم مقام الخضر، براتب شهري قدره ٨٢٥ قرشًا سوريًا.

وبعد اعتراض قدم من توفيق الخضر في السادس من كانون الأول سنة ١٩٣٢م أجابه مدير الأوقاف الإسلامية بأن «وقف مقام الخضر كان يدار زمن الحكومة العثمانية من قبل متوليه والدكم. ثم بأثناء الحرب وقبل احتلال الحلفاء تنازل والدكم عن التولية، وصدر أمر نظارة الأوقاف بإدارة المقام بمعرفة الدائرة وبتعيين والدكم تربة دار للمقام المشار إليه. ومن ذلك التاريخ، أي: من قبل الاحتلال، والدائرة تديره بمعرفتها بصورة الضبط القطعي، وكانت ولم تزل وارداته ومصارفاته كلها تدخل في ميزانية الدائرة. وتوفيقًا للقرار رقم ٤٩٥ مكرر الصادر من فخامة المفوض السامي يقتضي إبقاء يد الدائرة على هذا الوقف كالسابق».

وفي خزانتنا كتب مدير الأوقاف الشيخ خير الدين النحاس وعقود أجارات أراضي الوقف العائدة للسنوات ١٩٢٩ و١٩٣٢ و١٩٣٣م.

ومحلة الخضر إحدى محلات بيروت القديمة، والتي أخذت اسمها من وجود مقام منسوب إلى الخضر عليه السلام فيها. كما حمل السهل الممتد حول المقام الاسم نفسه. فعلى سبيل المثال «اشترى الشيخ يوسف شبلي عبد الملك في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٣هـ/ ١٧٤٧م من

جرجس الصغير قطعة الأرض البور السليخ الكائنة بسهل مقام سيدنا الخضر عليه السلام الشهير ظاهر مدينة بيروت، يحدها شرقًا وقف طاميش...».

وفي السادس والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م اشترى غنطوس إبراهيم جدي من وردة مطر قطعة أرض «مفرزة من بستان أبي زين القاضي، الكائن ذلك بأرض سهل مقام سيدنا الخضر عليه السلام الشهير ذلك خارج المدينة المذكورة ...، يحدها شرقًا نهر بيروت. كما اشترى العودة الكائنة بالطليبيات، يحدها شرقًا نهر بيروت وقِبلة وقف بطرك الموارنة...».

وفي الخامس من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م اشترى مصطفى حسين خليفة المصري وصليبا يوسف الحايك مناصفة العودة المعروفة بالخوري يوسف الحتي «الكائنة بسهل مقام سيدنا الخضر عليه السلام ...، يحدها شرقًا وقف طاميش، وغربًا برج أبو هدير ...».

وفي أول محرم الحرام سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م اشترى رزق الله وجرجس التويني ومرتا نقولا الجبيلي من الشيخ يوسف شبلي عبد الملك جميع البستان «الكائن في سهل سيدنا الخضر خارج بيروت المشتمل على أغراس توت وفواكه، وعمار سبعة بيوت وناعورة وآلة قزّ وعل ثورين بقر ودولاب حلالة. ويتبع المبيع العودة المعروفة بعودة الزيتونة، يحد المبيع شرقًا بورة بني السيد حمود، ويحد العوْدة قبلة وغربًا وقف الرهبان، وشرقًا وقف سيدنا الخضر...». يلاحظ أن وقف الرهبان يحد العودة من جهة، ويحدها وقف الخضر من جهة ثانية.

وفي غرة ربيع الأول سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م طلبت نسطاس يعقوب البرباري سندًا بقطعة أرض بتصرفها «كائنة بمحلة الخضر خارج بيروت، يحدها شمالًا بعضه وقف رهبان دير طاميش، وغربًا وقف الخضر عليه السلام ...».

وفي آخر شوال سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م جرى تعداد عقارات جرجس التويني، فكان من ضمنها: «قطعة أرض كائنة بمحلة قبيبات العروس (جمع تصغير لفظة قبة) من محلة الخضر خارج بيروت، المشتملة على أغراس متنوعة وثلاث دكاكين وقبوتين، وخمس أود وبناء كرخانة معدة لعمل الحرير ونشر الشرانق وحلها ...، وقطعة أرض كائنة بمحلة القبيبات المذكورة مشتملة على ناعورتي ماء وتسع أود وقبوين ...، وكذلك قطعة أرض كائنة بمحلة الخضر يحدها شمالًا طريق آخذ إلى النهر، وشرقًا وقف الخضر...».

يذكر أنه تمت في الخامس من شهر رمضان المبارك مصالحة بين فاطمة حسن المدور وورثة سعد الدين النقاش، شهد عليها عدة شهود، منهم: المفتي الشيخ محمد الحلواني، والإمام الشيخ محمد الحوت، والشيخ محيي الدين اليافي، ومصطفى آغا القباني، ومصطفى بيهم العيتاني، ومحمد علي آغا المكوك، وأحمد ناصر زنتوت، وكذلك «عبد الرحمن ابن السيد عمر عبد السلام - خادم الخضر».

وبموجب الوثيقة المؤرخة في التاسع من شهر ذي القعدة سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٤م اشترى رئيس دير طاميش زكي الخراط بمال وقف الدير

للدير من الحاج محمد ابن الشيخ عرابي ناصر زنتوت وإخوته العودة المشهورة قبلهم بعودة بني النقيب، «الكائنة بسهل مقام الأستاذ الأكرم سيدي الخضر أبو العباس عليه السلام القريب من محلة الكرنتينا الشهير ما ذكر خارج مدينة بيروت المحدودة قبلة بوقف الدير المرقوم، وغربًا بوقف الدير أيضًا ...».

وبموجب وثيقة مؤرخة في الرابع عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٥م اشترى يعقوب نصر الله البرباري من ناصيف وخليل الياس عبود قطعتي أرض كائنتين «بسهل مقام سيدنا الخضر عليه السلام، قريبًا من نهر بيروت، المفرزة إحداهما من عودة السيد أحمد المكوك، والثانية معروفة بالحاج عبد اللطيف الجزايرلي، يحد الأولى شرقًا عودة بوقف مقام الخضر، ويحد الثانية غربًا وقف الخضر».

❋ ❋ ❋ ❋

زاوية/ جامع شمس الدين

الشيخ شمس الدين من قونية إلى المرابطة في بيروت

لا تمدنا الوثائق التاريخية المعروفة بأخبار عن المساجد التي أقيمت خلال الحكم المملوكي الممتد بين سنتي ١٢٩١ و١٥١٧م. إلا أن البعض ذكر أن شمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس القونوي بنى مسجداً عرف بجامع شمس في سوق البازركان وبالتحديد في باب إدريس قرب مبنى المقاصد.

ونقل الشيخ طه الولي عن الشيخ محيي الدين الخياط أن شمس الدين الخطاب مدفون في الجهة الشرقية من باب الجامع، وهو من جملة الذين استشهدوا في الحروب الصليبية، وأنه كان مكتوبًا فوق الضريح:

لشمس الدين مولانا محمد   كرامات له بالفضل تشهد
أمير مات في الدنيا شهيداً   وفي هذا الضريح لقد توسد

ورجح الشيخ الولي بأن يكون شمس الدين هو محمد بن إلياس القونوي نقلًا عن ابن العماد الحنبلي في كتابه: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب». وذكر أن أحمد أمين الحبال أخبره بأن وقف هذا الجامع كان يعرف باسم «وقف القونوي»[١].

---

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٧٧ هامش ١، وص٧٨).

ومن المتناقل في بيروت إطلاق صفة الشهيد على شمس الدين المذكور، ففي سنة ١٨١٣م عندما حلّ الشيخ عبد الرحمن الكزبري ضيفًا على مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله، كما سبق وذكرنا قصيدة المفتي التي ذكرت المزارات التي زارها الكزبري، فقد جاء في أحد أبيات القصيدة:

كذا شمس الدين أعني شهيدها   بزاوية تعزى إليه وتنسبُ[١]

فالمفتي فتح الله يطلق صفة الزاوية وليس المسجد على المزار المذكور.

وفي رواية مقبولة ذكرها القس حنانيا المنيّر في كتابه: «الدر المرصوف في تاريخ الشوف»[٢] خلاصتها: أن ابن ملك البندقية حضر إلى بيروت بجماعة من الإفرنج، فاحتسب المسلمون تدخل قوم البنادقة شيئًا فشيئًا فيملكون عليهم البلد، وكان فيهم شيخ أعمى يقال له الشيخ شمس الدين، فحضر ومعه جماعة من المسلمين حتى دنا منه فسأله صدقة. وبينما اشتغل عنه بإخراج ما يعطيه هجم عليه وأخذ بعنقه، فوثبت عليه أصحابه واعترضهم المسلمون، فلم يصلوا إليه حتى مات. ونُعي إلى الملك الذي جهّز عمارة بحرية عظيمة، فدخل بيروت وقتل خلقًا كثيرًا من أهلها.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

(٢) (ص٥١).

يذكر أن الساحة التي كانت موجودة بين تقاطعي شارع ويغان والمعرض اللنبي كانت تعرف بساحة الشهداء، وهم الذين استشهدوا أثناء الحروب الصليبية، وهذه الساحة قريبة من موقع زاوية شمس الدين.

اسمه ولقبه وسيرته

فيما كان «مولانا» جلال الدين الرومي يدرّس ويؤلف ويدور مع مريديه في رقصته المولوية المشهورة في قونية، خرج كما ذكر ابن حجر في «الدرر الكامنة»[١] وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» محمد بن يوسف بن إلياس أبو عبد الله الرومي القونوي الحنفي من قونية الذي ولد فيها سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، وقدم دمشق شابًّا، وكان يحب الفروسية وآلات الحرب، وباشر القتال في نوبة بيروت، وبنى فيها برجًا.

واشتغل بالعلم والعبادة إلى أن فاق أهل زمانه، وارتفع صيته وصنف التصانيف المفيدة. وكان يكاتب بيدمر نائب الشام فيما يعرف لمن يقصده من الناس من الحوائج.

وكتب إلى السلطان برقوق عند تولي السلطنة كي يغير اسمه، وكتب له: «أما بعد، فإن برقوق اسم هجين لا يليق بالملك، وقد استخرت الله تعالى وسميتك أحمد، ولقبتك بنظام الملك، فأشِع ذلك في عملك». وقد سبق لبرقوق أن اجتمع به في دمشق وأخذ عليه البيعة في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان له فيه اعتقاد[٢].

---

(١) (٦/٤٦-٤٧).
(٢) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت (ص٧٨).

وذكر الدكتور عمر تدمري[١] بأن الشيخ كان يتردد إلى صيدا وبيروت للمرابطة، وأنه اشترك في القتال في واقعة جرت عند ثغر بيروت ضد الفرنج الصليبيين سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، وأنه بنى برجًا على ساحل بيروت، وبنى مسجدًا عرف بمسجد شمس الدين، هدمته المديرية العامة الأوقاف الإسلامية سنة ١٩٤٩م، ورفعت مكانه بناية تجارية، وعلقت فوق مدخل البناء لوحة كتب عليها «المديرية العامة للأوقاف الإسلامية العامة بناية وقف شمس الدين».

وقد سبق لصالح بن يحيى أن ذكر غارة الفرنج سنة ١٣٨٢م على بيروت.

أما اللقب شمس الدين فهو من الألقاب المركبة مع كلمة الدين، (وهناك ألقاب مركبة مع كلمة الدولة)، التي ظهرت مع بداية القرن الرابع (العاشر للميلاد). فمنها أسماء تدل على النور، مثل: بهاء - الدين - وضياء ونجم ونور وشهاب وشمس. ومنها أسماء تدل على العزة والفخر، كفخر الدين وجلال وجمال وكمال وعز وصلاح ومحيي وناصر وتقي وسعد.

وقد استعمل اللقب المضاف إلى الدين في كثير من البلاد، كالمغرب وبغداد وغزنة والقاهرة وتركستان. وظل مستعملاً في عصر السلاجقة، وعمّ استعماله في أنحاء العالم الاسلامي أثناء حكم المماليك، حيث جرى البحث في الصلات بين اللقب والاسم.

---

(١) الرباط في ثغور الشام، مجلة الفكر الإسلامي (عدد ١١، سنة ١٩٨٧م).

وقد حاول القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» تصنيف هذه الصلات، فقرر أن اسم «محمد» كان يغلب التلقيب فيه بشمس الدين وناصر الدين. وقال: إن الغالب في ألقاب الترك في الجند التلقيب بسيف الدين، وأن المولدين يقولون في لقب أبي بكر سيف الدين، ولقب عمر ركن الدين.

ونقل حسن الباشا[1] أنه ربما كانت الصلة في بعض الأحيان على أساس تاريخي، كأن تكون الصلة بين محمد وبدر الدين هي إشارة إلى غزوة بدر أولى غزوات النبي محمد ﷺ.

ومن المهم أن نشير إلى أن للشيخ علي بن ميمون المغربي الفاسي (دفين قرية مجدل معوش قرب جزين) كتاب لا يزال مخطوطًا بعنوان: «بيان غربة الاسلام بواسطة صنفَي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام وما يليها من بلاد الأعجام» كتبه سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، وصلتنا نسخة منه كتبت في ذي القعدة سنة ١٠٨٤هـ/ ١٦٧٤م، انتقد فيه بدع أدعياء الفقه والفقر لأنهم «أبدلوا الاسم باللقب البدعي، فقد أبدلوا اسمَ محمد بشمس الدين، وأبي بكر بتقي الدين، وعمر بزين الدين، وعثمان بفخر الدين، وعلي بنور الدين ...، واعتبر ذلك من محدثات الأمور المنهي عنها. فلو كانت الألقاب أفضل من الأسماء لكان أولى وأحق أن يتحلى بها أفضل خلق الله وأصحابه من بعده».

---

(١) الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار (ص٣٦٠).

ويضيف ابن ميمون: «قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]، ولم يقل شمس الدين رسول الله، إذ لو كان شمس الدين عند إلهه أفضل لسمّى به أكرم خلقه. فمرتكب إبدال اسم محمد بلقب شمس الدين فقد أبدل السنّة بالبدعة، وباع النفيس بالخسيس، واشترى الضلالة بالهدى ...».

يذكر أن الألقاب المركبة مع كلمة «الدين» تستعمل في أيامنا أسماءً لا ألقابًا. وفي بعض الحالات لا يتفق الاسم مع المسمى، فمحيي الدين قد يكون محيي البدع، وتقي الدين قد لا يكون متصفًا بالتقوى وبالدين.

بناء جامع شمس الدين القونوي

إن الوثائق الشرعية المتوافرة تشير حينًا إلى زاوية شمس الدين، وأحيانًا إلى جامع شمس الدين.

ويمكن تفسير ذلك بأن زاوية أقيمت على اسمه لوجود تربته فيها. ثم صار عمار الجامع، فأضيف إلى اسمه.

أورد السجل الأول لمحكمة بيروت الشرعية سنة ١٨٤٣م أوقاف الجامع الجديد (شمس الدين)، فكان منها دكان «وقف جناب المرحوم حسن آغا الذي عمر الجامع إلى قراءة كل يوم أربعة أجزاء»، ولم يعرف من حسن آغا المذكور ولا سنة بنائة الجامع؟ ومن المرجح القول بأن وصف الجامع بالجديد يدل على أنه بني بعد زمن طويل على استشهاد

---

(١) الفتح: ٢٩.

الشيخ شمس الدين، وعلى أنه بني في العصر العثماني. ولا يدل لفظ الجديد على وجود جامع قديم في الموقع نفسه[١].

ويستدل على ذلك من مئذنة الجامع الأسطوانية التي تنتهي بشرفة لوقوف المؤذن، على طراز مساجد بيروت التي بنيت في العصر المذكور. ويبدو من الرسم الذي نشره الدكتور سهيل منيمنة مشكورًا على موقعه «مساجد بيروت» أنه مأخوذ أثناء توسيع شوارع بيروت وهدم الأبنية القديمة الذي بوشر به سنة ١٩١٤م وبالتحديد في شارع الفشخة الذي أصبح يسمى بالشارع الجديد، (وسمي أثناء الانتداب بشارع ويغان).

وقد لا تكون ثمة علاقة بين تسمية سوق الفشخة بالشارع الجديد وبين وصف الجامع بالجديد؟ تأمل؟ وإن كان من غير المستبعد أن يكون البرج الذي أشار ابن العماد الحنبلي إلى أن شمس الدين بناه في ساحل بيروت قد اتخذه مركز مراقبة ودفاع وزاوية ومصلى. وقد دفن فيه عند استشهاده سنة ٧٨٨هـ، أو أنه اتخذ كمصلى بعد وفاته. فيمكن اعتبار هذا المصلى - الزاوية بمثابة الجامع القديم؟.

ومدخل الجامع مؤلف من ثلاثة قناطر، يمكن اعتبارها بمثابة فناء له، وهي تشير إلى صغر مساحة الجامع. ولا يبدو أنه كانت للجامع قبة، كما أنه يلاحظ أن ثمة مسافة فاصلة بين القناطر المذكورة وبيت البناء الذي ترتفع عليه المئذنة. وهذا يؤكد أن الجامع أقيم بعد وفاة الشيخ شمس الدين، ولا سيما إذا اعتبرنا ما ورد في الوثيقة الشرعية من أن تربة شمس الدين في الجامع.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٨٤٣م (ص٣٢).

ومما يؤسف له ما سبق وذكرناه مرارًا من قصر نظر بعض الذين عاشوا مرحلة هدم الأبنية القديمة، ولم يلتفتوا إلى وجوب توثيق تاريخ تلك الأبنية وطراز عمارتها، وما تتميز به من خصائص، ولم يجدوا فائدة في رسم مسطحها وشكلها ومحتوياتها، ونقل وحفظ ما قد تحوي من لوحات وكتابات باعتبارها جزءًا من تاريخ العمارة في بيروت.

موقع جامع شمس الدين ومتوليه وأوقافه

ويمكن تحديد موقعه بالتحديد في بعض الوثائق. ففي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م اشترى عبد الغني وسعيد ولدَي أمين الميقاتي من أحمد بن بدر عز الدين وخليل وغندور ولدَي يوسف زين عز الدين القبو المعقود بالأحجار والمؤن الواقع سفلي دار ورثة مصطفى العريسة، يحده قبلة زاوية الشيخ شمس الدين، وشمالاً قيسارية الأمير يونس، وغربًا سلم دار بني الكوش..»[١].

وفي ٢٦ جمادى ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م فصل القاضي الشرعي في نزاع حول حانوت كائن في سوق البازركان بالقرب من قيسارية الشيخ شاهين، وزاوية الشيخ شمس الدين يحده شمالاً بيت كسبية[٢].

وتفيد الوثيقة المؤرخة في ١٩ رمضان المبارك سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م أن محمد صالح كسبية ومحمود وسليم ولدا عبد الرحمن البرفت

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٢هـ (ص٢٣٨).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ (ص٣٥).

كسبية باعوا إلى الحاج خليل بن إبراهيم أبي خليل الحص الأرضية العلوية، وفي داخلها تقيسة وأربعة قراريط من فسحة الدار، شركة إخوة البائعين الكائن «داخل الدار المعروفة بدار بني كسبية الملاصقة لجامع الجديد الشهير بالإمام الجليل والولي الشهير الشيخ شمس الدين الكائن باطن مدينة بيروت...»(١).

وفي ٦ جمادى الأولى ١٢٨١ هـ/١٨٦٤م باع عبد الله وحسن ولدا الحاج سعيد الميقاتي إلى مصطفى عبد الغني الميقاتي ١٢ قيراطًا من القبو المعقود سفلي دار بني العريسة في سوق العطارين، يحده قبلة جامع شمس الدين، وشمالًا قيسارية الأمير منصور، وشرقًا قبو بني قصابية، وغربًا العريسه(٢).

وبموجب الوثيقة نفسها باع عبد القادر علي البابلي وكيلًا عن بنته أنيسة (زوجة خليل الحص العيتاني) إلى الحاج محمد المتولي على الجامع المذكور الأرضية الواقعة في معبور الزاروب، وأرضية ثانية (غرفة أرضية).

وفي ٢٣ صفر الخير ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م «اشترى محمد خضر ابن الأستاذ الشيخ عبد الله خالد من شقيقه عمر ثمانية قراريط من العلية الواقعة ضمن دار معروفة سابقًا ببني الكوش، الكائن في سوق البازركان. يحد العلية قبلة سطح جامع شمس الدين، وشمالًا وشرقًا بني الكوش، فكمل به ستة عشر قيراط شركة شقيقه عبد الحميد...»(٣).

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ (ص٦٩).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٥٣١.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٣٤٤.

وفي ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م باع عبد الحميد ابن عمدة العلماء الكرام المرحوم الشيخ عبد الله خالد إلى الحاج قاسم ابن المرحوم عبد اللطيف درويش ثمانية قراريط من العلية الواقعة ضمن دار بني الكوش في سوق البازركان، يحدها قبلة سطح جامع شمس الدين، وشمالًا وشرقًا حسن الكوش شركة محمد خضر خالد بالثلثين الباقيين ...»(١).

محمد عبد الله القوتلي متولي وقف جامع شمس الدين

بموجب الوثيقة المؤرخة في ١٤ صفر الخير ١٢٦٧ هـ/ ١٨٥٠م باع خليل ابن إبراهيم الحص العيتاني الى الحاج محمد ابن السيد عبد الله القوتلي المتولي على وقف جامع الجديد الشهير بالشيخ شمس الدين العامر بذكر الله تعالى وعبادته، وهو اشترى منه بمال وقف الجامع للجامع البيت الواقع علوي زاروب بني كسبية المصعد إليه من داخل زاروب بني كسبية، يحده قبلة طريق سالك، وشمالًا الدار، وشرقًا أسطحة (سطوح) دكاكين قيسارية العطارين، وغربًا الجامع المرقوم.

أوقاف جامع شمس الدين

يذكر أن في نظارة الأوقاف في الآستانة في ١١ ربيع الثاني ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م صار عرض توجيه التدريس العام في جامع شمس الدين الكائن في بيروت على الشيخ محمد سعيد أفندي ابن حسن أفندي الجندي من علماء بيروت بمعاش شهري خمسة وسبعون قرشًا، حيث وجد بعد الامتحان

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٤٤٠.

مستحقًا وأهلًا لذلك، بعد أن كان ذلك موجهًا على الشيخ عبد القادر الخليلي المتوفى قبلًا بدون ولد، وبقيت وظيفة التدريس نحو عشر سنوات معطلة، وتنظم بذلك إعلام تركي العبارة بإمضاء وختم فضيلتلو محمد سعيد أفندي نائب بيروت أسبق، ثم من برهة أخرجت صورته من سجل المحكمة المحفوظ، وقدمت إلى جانب نظارة الأوقاف الجليلة في الآستانة العلية، فورد الاستعلام من جهة النظارة المومى إليها عن الجامع المذكور وكيفية أوقافه.

ولدى إحالة ذلك إلى رفعتلو محمد عطا أفندي محاسبه جي أوقاف بيروت حرر الجواب عن ذلك مفصلًا، وملخصه أن الجامع المذكور هو الجامع الجديد، وإنما أضيف إلى شمس الدين لوجود تربته فيه، وهو من الغزاة والمجاهدين، وأن وقفه ليس من الأوقاف الذرية، وإنما هو من الأوقاف المشاعة المضبوطة، وليس له وقفية، والجامع معمور تقام فيه الصلوات الخمس، وواراداته بلغت في سنة إحدى وتسعين رومية ١١٠٥٠، تنزلت منها مصارفه البالغة ٦١٥٨،٣٠، فبقي فضلة ٤٨٩١،١٠.

هذا خلاصة الجواب، وهو واقعة الحال لا شبهة في شيء من ذلك. وبناء تجاسر هذا الداعي بتقديم عرض الكيفية داعيًا بتأييد وتأبيد سرير الخلافة العظمى ذات المقام المنيع الأسمى. وفي كل حال يبقى الأمر لحضرة من له الأمر. تحريرًا في التاسع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ثلاث وتسعين ومايتين وألف»[١].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٣هـ رقم ٢٣.

وقد يبدو من هذا النص أن تربة شمس الدين سبقت إنشاء الجامع.

يذكر أن فاطمة بنت عبد القادر الجبيلي الشهير بأبي راسين وقفت عدة عقارات منها عشر قراريط ونصف في دكان بسوق العطارين، يحدها قبلة دكان بني بلوز، وشمالًا دكان وقف زاوية الشيخ شمس الدين (وثيقة مؤرخة في ٢١ رجب الفرد ١٢٨١ هـ).

ومن أوقاف الجامع: دكان وقف الحاج سعيد درويش، لصيق جامع الأمير منذر، ودكان وقف الشيخ محمد البواب لصيق الدكان السابقة، ودكان وقف حسن بكداش تجاه قهوة النوفرة، ودكان وقف عبد القادر قرنفل بسوق العطارين، وثلاثة دكاكين وقف الشيخ صالح طبارة قبلي جامع الأمير منذر. وصدقات (قروش): (٣) على قبو ملك الحشاش، و(٢) على ملك الحاج محمد قريطم، و(١٠) على بيت الحاج محمد موسى، و(٦) على بيت بشارة مغبلص، و(٢) على بيت طنوس العكاوي، و(٧) على بستان الحاج أحمد العريس، و(٣) على بيت ملك المجبّر[١].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٨٤٣م (ص٣٢).





الشيخ سعيد حسن الجندي

الجامع الجديد أضيف إلى شمس الدين لوجود تربته فيه وهو من الغزاة والمجاهدين

الجامع الجديد الشهير بالامام الجليل والولي الشهير الشيخ شمس الدين ١٢٦٦ هـ

زاوية الشيخ رسلان/ أرسلان التركماني

لم نكن نبالغ عندما قلنا بأن تاريخ بيروت لم يكتب بعد. فقد عثرنا على ما يؤكد وجود زاوية قديمة في وسط بيروت باسم زاوية الشيخ رسلان أو أرسلان. لم يسبق لأحد ممن كتب في تاريخ بيروت أو ذكر زواياها ومساجدها أن أشار إلى وجود الزاوية المذكورة أو عرف شيئًا عنها. وها نحن نذكر شيئًا عنها يكتب لأول مرة على أمل أن يعثر على تفاصيل أخرى عنها أو عن غيرها من الزوايا. وقد اكتشفنا وجود زاوية أخرى باسم زاوية الصانع سندرسها فيما بعد.

في خزانتنا صورة وثيقة شرعية مؤرخة في غرة شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥م، منظمة ومسجلة لدى مجلس الشريعة الغراء، لدى متوليه فخر قضاة الإسلام محرر القضايا والأحكام الحاكم الشرعي الموقع خطه وختمه أعلاه دام فضله ونال مناه. وقد ورد في أعلى الوثيقة «نمقه الفقير إليه عز شأنه السيد محمد سعيد البزره (البزري) عفي عنه».

ثم تذكر الوثيقة بأن من رغب بالصدقة الجارية «فخر الأماثل والأقران عمدة الأماجد الفخام ومفخر السادة الأشراف العظام السيد صالح سعادة ابن المرحوم السيد محمد ابن الشيخ حسن سعادة البيروتي...» بأنه وقف

وأبّد وحبس وتصدق ما له بيده وملكه وتحت مطلق تصرفه النافذ شرعًا وآيل إليه البعض بالإرث الشرعي والبعض بالشراء الشرعي بموجب حجة شرعية مخلدة بيده إلى حين صدور الوقف منه...».

ثم تعدد الوثيقة الأراضي والدكاكين والبيوت التي وقفها صالح سعادة، وكان منها: «الدكان الكائنة سفلي بيت سيسون، **لصيق باب زاروب الشيخ رسلان** عليه الرحمة والرضوان، المعقودة بالمؤن والأحجار، يحدها قبلة الطريق السالك، وفيه أغلاقها، وشمالًا بيت سيسون، وشرقًا دكان وقف نبي الغزّ (الأغر)، **وغربًا زاوية الشيخ رسلان**...»[1].

وهذه هي المرة الأولى الذي نعرف فيها بوجود زاوية باسم الشيخ رسلان. وقد اطلعنا على من كتب عن زوايا بيروت فلم يذكر أحدهم وجود هذه الزاوية. وهذا يجعلنا نعيد ما سبق وأشرنا إليه من أن النقل الخاطىء المفرغ من أي تحليل أو بحث نقدي وغياب الوثائق والنقص في البحث والتحري دفع الكتاب إلى نقل ما كتبه من سبقهم بطريقة النقل التام الأعمى، أي: بطريقة - الكزّ - التي كان يلجأ إليها بعض طلبة المدارس.

والشيخ رسلان معروف في بيروت خاصة وفي بلاد الشام عامة، وسنعود بعد قليل إلى زاويته.

ولد الشيخ رسلان أو أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري الدمشقي سنة ٤٧٠ هـ في قلعة جعبر قرب مدينة الرقّة مالئة الدنيا

(١) دفتر مديرية الأوقاف الإسلامية (ص٣٥-٣٦).

وشاغلة الناس اليوم؟ واشتهر باسم الشيخ رسلان التركماني. وأرسلان بالتركية أسد.

كان أبوه من الجنود المقاتلين ضد الفرنجة، ولا سيما أن القرن الهجري السادس شهد وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، فقام الشيخ رسلان بتأسيس رباط عند سور دمشق اتخذه مركزًا يعلم فيه الشبان فنون القتال والجهاد. فاشتهر بالمقاومة. وبقي تأثيره الروحي قرونًا عديدة في بلاد الشام كلها.

كما سار صيت جهاده في الآفاق والبلدان، إلا أن المقاومة لم تصرف الشيخ رسلان عن التأليف فوضع رسالة في التوحيد جاء فيها:

أنت الغيّاث لمن ضاقت مذاهبه   أنت الدليل لمن حارت به الحيلُ
إنا قصدناك والآمال واثقة   والكل يدعوك ملهوفٌ ومبتهل
فإن عفوتَ فذو فضلٍ وذو كرمٍ   وإن سطوتَ فأنت الحاكم العدل[1]

وقد شرح رسالته في التصوف شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، كما مدحه الشيخ عبد الغني النابلسي بقوله:

عن أرسلان جاء علم الحقائق   حيث أهدى رسالة للخلائق
كل حرف منها يشير لمعنى   سائق نحو ذروة المجد شائق
وعليها طلاوة وبهاء   حيث حازت أسرار كل الطرائق
نفع الله ربنا بهداها   في طروس كأنهن حدائق[2]

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٨٢).

(٢) موسوعة ويكابيديا، أرسلان الدمشقي، وجامع كرامات الأولياء، يوسف النبهاني (١٢/٢).

توفي الشيخ رسلان سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦م، وله ضريح في دمشق بناه سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩م أحمد بن محمد المعروف بالزريابي قاضي المالكية ومفتيهم بدمشق (١٠٠١ - ١٠٥٠ هـ)، وأجرى مالًا للشباك قبالة الضريح، وقال يمدح الشيخ رسلان:

رسلان يا كهفنا لدى درك المنى   وغياثنا وملاذنا والمطلبُ
وإذا ألمّ بك الزمان بنائب   فانهض إليه فهو باز أشهب

وقال فيه أيضًا:

أرسلان قد أظمأت نفسًا تعشّقت   بحب إله العالمين تعشقا
وأرويت مذ أوريت زند ولاية   وأسقيت أهل الشام كأسًا مروّقا

ومحلة الشيخ رسلان من أقدم محلات بيروت القديمة إن لم تكن أقدمها. ولم يذكر أحد أن الشيخ رسلان أقام أو مرّ فيها. ويمكن التأكيد بأن أصداء مقاومته للصليبيين وصلت إلى بيروت، لأن انتقال المقاومين من دمشق إلى بيروت ذكر في فترات مختلفة من الصراع. كما أن أخبار المقاومين في بيروت كانت تصل إلى دمشق.

وقد تكون التسمية عائدة إلى اشتهار علاقة الشيخ رسلان بنور الدين زنكي الشهيد، أو أن ذلك حصل بعد رسالته التي شرحها شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، علمًا بأن رسالة الأنصاري في التعلم والتعليم كانت تدرس للتلامذة في بيروت أوائل القرن التاسع عشر من قبل الشيخ محمد الحوت، ولعله جرى تداول رسالة الشيخ رسلان عندما زار الشيخ عبد الغني النابلسي بيروت سنتي ١٦٩٣م و١٧٠٠م.

يذكر أن موقع زاوية الشيخ رسلان كان إلى الشمال من الجامع العمري الكبير قرب الساحة الشهيرة في بيروت، أي ساحة شهداء الحروب الصليبية، وقرب زاوية الشهداء هذا في حال لم تكن هذه الزاوية الأخيرة هي زاوية الشيخ رسلان؟

ويعود قدم تسمية المحلة بالشيخ رسلان، إضافة إلى ما نقلناه من وثيقة وقف صالح سعادة، إلى ما ورد في ديوان الشيخ عمر اليافي الخلوتي (١١٧٣– ١٢٣٣ هـ) (١٧٥٩ – ١٨١٨ م) من رسائله لمريديه في بيروت الذين كان منهم الشيخ علي الفاخوري ومحمد ناصر تعبانه وأيوب المجذوب والشيخ أحمد طباره (صهر اليافي) ومحمد الغندور وعبد القادر وعبد الغني ومحمد سعادة وعلي الغريب ومحمد الزاهد ويحيى القصار ومحمد البكداشي وغيرهم.

ونفترض أن رسائل الشيخ اليافي لمريديه ببيروت حصلت في أوائل القرن التاسع عشر. فقد أرّخ اليافي سنة ١٢١٧ هـ/ ١٨٠٢م عذار صهره الشيخ أحمد طباره. ورد على الشيخ علي الفاخوري بقصيدة مطلعها:

منك الكتاب يا علي   وافى كروض مقبل
وفاح من مضمونه   عبير نفح المندلِ

وقال فيها بعدما أخبره الشيخ علي بوفاة والده:

أما الذي ذكرته عن والدٍ منتقل   لرحمة الله ورضوان القديم الأزلي
فقد علمتَ قبله حكم القضاء المنزّل   ....

وأرسل اليافي إلى محمد ناصر تعبانه البيروتي قصيدتين قال في الأولى:

حبيب القلب أضحى فيه حاضر   وعيني عينه واللحظ ناظرْ
ينادمني بغيب القلب مني   بباطنه ولي بالقرب ظاهر

إلى أن يقول:

وما لي من نصير غير حِبّي   محمد من غدا لي خير ناصر[1]

وتفيدنا وثائق محكمة بيروت الشرعية أن الشيخ علي الفاخوري (والد المفتي الشيخ عبد الباسط) كان يقيم في محلة الشيخ رسلان (آخر الزاروب الذي يحمل اسم رسلان ايضًا) في بيت كبير كان البيارتة يستعيرونه لإقامة أفراح أولادهم، كما ذكر الشيخ عبد القادر قباني.

وتتضمن أوقاف الجامع العمري الكبير (المسجلة في أول سجل لمحكمة بيروت الشرعية لسنة ١٢٥٩ هـ ص ١٨) بيتًا في آخر زاروب شيخ الإسلام – الذي نعتقد بأنه لقب للشيخ رسلان – سكن الشيخ علي الفاخوري[2].

ويشير جوزف رستم من خلال دراسة له حول أحد سجلات الوقف السني ناقلًا ذلك عن دفتر الوقف في الأرشيف باسطنبول عائد لسنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م إلى أن الشيخ علي الفاخوري كان متوليًا أحد أوقاف

(١) ديوان عمر اليافي (ص٨٣ وما يليها).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٨٤٣م (ص٨٨).

الجامع العمري. وفي الدفتر أيضًا أن السيدة صفية بنت الشيخ محمد الفاخوري تسكن في زاروب الشيخ رسلان المذكور[١].

وتفيدنا الوثيقة المؤرخة في الثامن من شهر رجب الفرد سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٤م بأن «علي حسن الكوش باع إلى عبد الكريم الظريف بيتًا في الدار المعروفة ببني تعبانه الكائن في زقاق ومحلة الشيخ رسلان، ويحد البيت قبلة ملك ناصر تعبانه، وورثة أخيه سليم...»[٢] (يذكر أن بعض الكتاب أخطأ في قراءة الشهرة تعبانة فاعتبرها قباني. وقد أوضحنا ذلك في كتابنا: البيارتة حكايات أمثالهم ووقائع أيامهم)، علمًا بأننا عرفنا ذلك لأن والدة الأديب الراحل عمر فاخوري كانت عائشة تعبانه، وقد تعرف عليها والده عبد الرحمن الذي كانت عائلته تقيم أيضًا في زاروب الشيخ رسلان. كما تزوج حسن فاخوري (شقيق عبد الرحمن) من أسماء سبليني التي كانت عائلتها تقيم أيضًا في الزاروب المذكور، وكانت عائلتها تملك معصرة السبليني.

وتبين لنا من خلال الوثائق الشرعية أن كثيرًا من عائلات بيروت القديمة كانت تقيم أو تملك عقارات في محلة الشيخ رسلان. منهم على سبيل المثال بيت علي شبقلو في زاروب شيخ الإسلام الكائن عند الساحة الشهيرة. وكانت دكان الشيخ فضل القصار في الزقاق المذكور. وكذلك

---

(١) العمران والسكان في بيروت القديمة، جوزيف رستم، مجلة التاريخ لجامعة البلمند عدد ٢٥ سنة ٢٠١٢م.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ (ص٧٥ رقم ١٢٦).

بيت الحاج حسن الكبّه الذي باعه أولاده في رجب سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م إلى مصطفى القيسي، وكان يحدّ البيت شمالاً دير السنطة.

ومن البيوت في الزاروب بيت الحاج محمد السروجي وبيت الدهان ودار بني الجربان (مصطفى) باعه ولداه. إلى جانب العديد من بيوت آل الفاخوري. ودار كبيرة ملك موسى ديمتري نصور سرسق.

وقد ضمّ الزاروب أماكن وأسواقًا، منها سوق الفشخة وزقاق سوق البياطرة التي كانت فيه زاوية الخلع (زاوية الشيخ محمد الفاخوري)، وسوق القطن، فضلًا عن عقارات كانت بتملك محمد أياس وحسين مصطفى النقيب ومحيي الدين بيهم وجرجس التويني وسلوم بسول وغيرهم[١].

نشير إلى أنه ورد ذكر بعض الأبواب الداخلية لمحلات وأزقة بيروت القديمة، وذلك كأحد الاحتياطات الأمنية (إضافة إلى أبواب المدينة الخارجية)، كباب إده في محلة رجال الأربعين. فكان لزاروب الشيخ رسلان باب أيضًا (كما ورد في وقف صالح سعادة). وكما تفيدنا وثيقة مؤرخة في شهر شعبان سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م والتي باع بموجبها سليم ابن الشيخ محمد الميقاتي دكانًا واقعًا «**تجاه باب زاروب الشيخ رسلان في محلة الفشخة...**».

---

(١) وثائق في السجلات الشرعية: ١٢٨١هـ رقم ٤٨٦. وسنة ١٢٧٩هـ تاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٧٩هـ. وسنة ١٢٨٤هـ رقم ٢٣٥. وسنة ١٢٩٨هـ رقم ٢٦٦. وسنة ١٢٩٠هـ/ ١٢٩١هـ (ص٥٩-٦٠). وسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص١٨-١٩)، ومنزول بيروت (ص٨٢ و٢٧٧).

نشير إلى أن البيارتة تناقلوا ما كان يروى من كرامات الشيخ رسلان، وكانوا يرددون في المواقف الصعبة «**شي لله يا شيخ رسلان يا حامي برّ الشام**». وقد سمى الكثير منهم أبناءه باسم رسلان، منهم رسلان دية، ورسلان سنو، ورسلان بن علي بن محيي الدين الجارودي، ورسلان دمشقية (والد بدر) الذي تولى مهمة مستنطق بيروت، ورسلان بن الحاج مصطفى نجا أحد مختاري محلة مزرعة الغابة.

ومن ذكريات والدي رحمه الله حول ضيق زاروب الشيخ رسلان أن جدّته لأبيه الحاجة صفية بنت الشيخ محمد الفاخوري عندما كانت ترغب بالسفر (بالانتقال) إلى محلة الأوزاعي صيفًا وكانت وسيلة النقل الجمال، فلم يكن باستطاعة الجمل الدخول في الزاروب إلى بيتها. فكان يقف عند باب الزاروب ويتم حمل الأغراض والأمتعة اليه.

نشير إلى أن الوثائق الشرعية أوردت الشيخ باسم رسلان وليس أرسلان.

روى النبهاني أن الشيخ أحمد الرفاعي زار النخيل الذي له وعيّن واحدة وقال لأصحابه: إذا استوت هذه أهديناها إلى الشيخ ارسلان. فمر بها بعد مدة فرأى أكثرها قد راح. فسألهم فقالوا: لم يطلع إليها أحد، لكن في كل يوم يجيء إليها باز أشهب يأكل منها ولا يقرب غيرها ثم يطير. فقال لهم: الباز الأشهب هو الشيخ أرسلان، فلذلك يقال له الباز الشهب. يذكر أن عبد القادر الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية لقبه أتباعه أيضًا بالباز الأشهب.

ولم نجد تفسيرًا لغياب أي ذكر لزاوية الشيخ رسلان بعد سنة ١٨١٥م ولا عند افتتاح اول سجل لمحكمة بيروت الشرعية سنة ١٨٤٣م. ولعل السبب في ذلك يعود إلى عدم وجود أوقاف للزاوية المذكورة أو ريع لها، وبالتالي عدم وجود أئمة ومتولين للزاوية؟ أو لعدم انضمام الشيخ رسلان إلى إحدى الطرق الصوفية؟ وانتفاء وجود ضريح في الزاوية. ما أدى مع مرور الزمن إلى عدم الاهتمام بها. علمًا بأن انتفاء وجود الضريح وما قد ينسب لصاحبه من كرامات لا تجعله مزارًا لتقديم النذور، ولا سيما من النساء.

علمًا بأن الشيخ رسلان الذي شارك في الدفاع ضد الصليبيين وحث مريديه على المقاومة، لم يكتف كما فعل غيره من الانصراف إلى تسليك المريدين وتحفيظهم الأوراد والأحزاب، وتنزيل الألفاظ على ألحان الأغاني الشائعة؟

وكما اختفت الزوايا ومنها زاوية الشيخ رسلان عندما تمّ أثناء الانتداب الفرنسي هدمها بحجة التخطيط المدني، اختفت كذلك محلة الشيخ رسلان وغيرها من محلات بيروت القديمة بمناسبة أعمال التحديد والتحرير والمسح العقاري سنة ١٩٢٦م وما يليها. وجمعت تلك المحلات كلها تحت اسم منطقة المرفأ. وفي ذلك تأكيد لما قلنا من أن شركة المرفأ الفرنسية التي قيل إنها تعمل لمصلحة المدينة، جعلت المدينة بكاملها تعمل لمصلحة الشركة...

زاروب وزاوية الشيخ رسلان من وقفية صالح سعادة

زاويـة الشّهـداء

في الثاني والعشرين من شهر رجب الخير سنة ٦٩٠ هـ/ الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ١٢٩١م دخل جيش السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بقيادة الأمير سنجر الشجاعي بيروت دون مقاومة. وأُتبعت بيروت إلى نيابة دمشق، وسميت إحدى محلات بيروت «الأشرفية» على اسم السلطان الأشرف خليل المذكور. وعهد إلى أمراء الغرب من آل بحتر التنوخيين تولي حماية بيروت والدفاع عنها.

إلا أن انتصار المماليك لم يفت في عضد الصليبيين الذين لم يستكينوا لهزيمتهم، بل حاولوا مرارًا العودة إلى بيروت، كما أشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت».

ففي شهر شعبان سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م وصلت إلى ساحل بيروت حملة للفرنجة مؤلفة من ثلاثين مركبًا حربيًا في كل منها سبعمئة مقاتل، ولدى اقترابهم من شاطىء البلدة هبت ريح عاتية أغرقت بعض المراكب وتكسر الآخر، وذكر قول رئيس ميناء بيروت في حينه: «والله لي خمسون سنة ألازم هذه البحر، فما رأيت مثل هذه الريح التي جرت على هذه المراكب، وليست من الريح المعروفة عندنا».

وفي عيد الأضحى سنة ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٣م اقتربت سفن حربية جنوية ودخلت ميناء بيروت، فنشبت معركة حامية تصدت جماعة من المسلمين لقتالهم، فاستشهد بعضهم، ولكن الغزاة انهزموا إلى الأزقة الداخلية المتعرجة لأحياء بيروت، وتبعهم المسلمون فقتلوا العديد منهم. إلا أن الجنويين انسحبوا عندما شاهدوا سقوط السنجق الذي حاولوا نصبه على القلعة.

وقد حاول الجنويون سنة ١٣٨٢م احتلال بيروت مجددًا، ونزلوا من المراكب إلى الساحل، إلا أنهم فشلوا وولوا الأدبار بعد استشهاد عدد من البيارتة وجرح آخرين.

وفي سنة ١٤٠٣م حاول الجنويون مرة ثالثة احتلال بيروت، فقدموا بأسطول مؤلف من ستة وأربعين مركبًا ما ألقى الرعب في قلوب أهالي البلدة، فرحلوا نساءهم وأولادهم إلى الجبل. ونزلت عساكر جنوى في محلة السنطية فجرًا، واحتلوا بيروت حتى العصر، ونهبوا المدينة وأحرقوا الدور والسوق، واستشهد بعض مقاتلة بيروت.

ونتج عن هذه الغزوات الصليبية المتكررة على بيروت استشهاد العديد من مقاتليها. ويمكن القول بأن حضور الغزاة بحرًا أمكنهم من التسلل إلى داخل بيروت، ولاسيما أن الواجهة البحرية كانت تحتوي على عدة أزقة ضيقة وملتوية، تجعل الدخول منها واحتلالها سهلًا، إلا أنها أيضًا تجعل البقاء فيها أمرًا مستحيلًا، لأن ضيق الأزقة وتعرجها التي لا يعرف التنقل فيها إلا أهلها تجعل الدفاع عنها أمرًا سهلًا.

ومن المرجح أن أحد هذه الأزقة والزواريب كان يبدأ من شاطىء البحر ويمر بين البيوت وصولًا إلى النقطة التي يتقاطع فيها حاليًا شارع ويغان (سوق الفشخة قديمًا) مع شارع اللنبي/ المعرض، وأن المعركة الحاسمة حصلت عند النقطة المذكورة، ما جعل البيارتة يطلقون عليها اسم «ساحة الشهداء». (أما ساحة البرج التي اطلق عليها أيام الانتداب الفرنسي ساحة الشهداء فكان القصد من الشهداء الذين شنقوا فيها في السادس من أيار بعد محاكمتهم من قبل الديوان العرفي في عاليه والحكم عليهم بالإعدام).

وكان من الطبيعي أن يتم دفن جثامين الذين استشهدوا في المعركة في ناحية من نواحي الساحة. وأن تبنى في تلك الناحية زاوية عرفت على مر الزمن باسم زاوية الشهداء.

وقد اشتهرت الساحة على مرّ الزمن بحيث صار يشار إليها بأنها «الساحة الشهيرة»، ففي الخامس عشر من شهر ربيع الأول الأنور سنة ١٢٦٢ هـ/ ١٨٤٦م باع عبد الله بن الشيخ محمد الفاخوري بوكالته عن أمه سعدية بنت علي شبقلو وعن خالتيه حبوب وصالحة وعن امرأة خاله أسماء بنت زين عز الدين إلى علي بن محمد شبقلو أسهمًا في دار واقعة داخل زاروب شيخ الإسلام الكائن عند «الساحة الشهيرة» ... . وقد عرف الشارع المذكور أيضًا باسم زاروب الشيخ رسلان.

وفي الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣م حصلت مصالحة في المجلس الشرعي بين محمد وعلي وخالد

القوتلي ورقية علي فروخ وسعدية مصطفى كنيعه على أحد عشر قيراطًا في دكان بني القوتلي الكائن ذلك في «الساحة قريبًا من الفشخة الشهير باطن المدينة ...»[١].

وفي التاسع والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٦م باع محيي الدين محمد شبقلو إلى عمر وعبد الله حسين بيهم العيتاني أسهمًا شائعة في الدكان المعروفة ببني شبقلو، المعقودة بالمؤن والأحجار، الواقعة سفلي دار الحنيكاتي الكائنة «بالساحة الشهيرة» باطن المدينة ... الخ.

يذكر أنه دوّن في أول سجل من سجلات محكمة بيروت الشرعية سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م أربع دكاكين موقوفة لزاوية الشهداء، منها دكان لصيق الزاوية وقف صالح السبليني.

كما ورد في السجل المذكور من ضمن أوقاف الجامع العمري الكبير دكان تجاه دار الشيخ أحمد الأغر (مفتي بيروت الأسبق) في «الساحة»، ودكان لصيقها في «الساحة المذكورة» سكن الشيخ أحمد فتح الله. ودكان أسفل بيت بني الجمال لصيق «قهوة الشهداء»، وقف قديم بساحة الشهداء. ودكان تجاه قهوة الشهداء وقف قديم بالساحة. وثلث منزول بيت الجبيلي لصيق زاوية الشهداء. ودكان وقف قديم بساحة الشهداء سكن عبد الله علم الدين. ودكان لصيق معصرة بني السبليني في «الساحة»، ودكان في «الساحة».

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٥٣-٥٤).

ويبدو أن موقع ساحة الشهداء في وسط البلدة القديمة جعل منها ممرًا لوصول الأهالي إلى بيوتهم ودكاكينهم ومقرًّا للباعة، فكثرت الدكاكين في الساحة، وكثر تزاحم الأقدام عند الزاوية، ما جعل إحدى الأمكنة لأن تتحول إلى مقهى من جهة، وما أدى الى نشوء سوق تجاري من جهة ثانية.

وقد ورد ذكر نسبة السوق إلى الزاوية في الوثيقة المؤرخة في آخر شهر محرم الحرام سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧م، والتي باع بموجبها سعيد محمد علي العجم إلى شقيقه محمد وإلى حسن مصطفى النقيب حصة شائعة في كامل الدكان الكائنة في «سوق زاوية الشهداء» داخل المدينة، يحدها غربًا دار «أبي عسكر» ... .

يذكر أنه بموجب الوثيقة المؤرخة في التاسع عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠م باعت سلمى علي الجمال نصف الإيوان الواقع في محلة زاوية الحمراء القريبة من زاوية الشهداء. وذكر بأن الإيوان يحده شمالاً دار أبي عسكر ... .

كما أنه بموجب الوثيقة المؤرخة في الرابع عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م باعت كلثوم بنت الحاج محمد القصار ممثلة بوكيلها عبد الغني ابن الشيخ حسين مشقية (وأسرة مشقية غير أسرة دمشقية؟) إلى محمد سعد الدين اللازقي (كان المرحوم أمين اللادقي يقول: الله يلعن يلّي لزقنا) قيراطين وعشر القيراط من عليّة وبيتين واقعين في دار بني القصار الكائنة في زقاق ومحلة الحدرة، وكذلك من قبو أسفل

الدار ، وإيوان وغيره ويحد ما ذكر «قبلة الطريق السالك ، وتمامه زاوية بني القصار ، وشمالاً وغربًا الطريق السالك وشرقًا حارة أبي عسكر ...».

يذكر أنه بعد تحديد المناطق والأملاك ومن ضمنها زاوية القصار أصبح سوق العطارين والبازركان ضمن محلة الحدرة ، وهي المحلة الكائنة إلى الجنوب من الجامع العمري الكبير.

أما أبو عسكر فهو: يونس نقولا الجبيلي. كان أيام أحمد باشا الجزار متوليًا جمرك بيروت. قيل: إنه كان محبًا للجميع ، محبوبًا من الجميع ، حتى إنه كان ينهض كل يوم من داره إلى الديوان ، فحيثما مرّ في الأسواق قامت إليه الناس مسلمين ومسيحيين تحييه ، فلا يملك أن يرد التحية بكامل ألفاظها فيقتصر على البعض.

وفي ذكريات الشيخ عبد القادر قباني أن البيارتة «كانوا يستعيرون دار أبي عسكر (قرب الجامع العمري) فيضعون الكراسي ويسرجون القناديل والمصابيح ، ويدعون الناس لسهرات أفراحهم ... ، ثم صاروا يؤمون منزل الشيخ علي الفاخوري (والد المفتي الشيخ عبد الباسط) في زاروب الشيخ رسلان ، والذي كانت داره فسيحة وغرفها كثيرة...».

ويشير تقويم الإقبال إلى أن موقع زاوية الشهداء كان تحديدًا في عقار موقوف تابع لأوقاف الجامع العمري الكبير ، وملاصق للجزء الشمالي الغربي من الجامع المذكور ، وكان هذا الجزء قبل الحرب اللبنانية كما يعرف المخضرمون مركزًا لمحلات نجار إخوان لبيع ماكينات الطباعة.

ويذكر شفيق طبارة بأن الشيخ محيي الدين عفره جلس في زاوية الشهداء ، ثم حولها إلى مدرسة للبنين.

يذكر أن الشيخ محيي الدين عفرة كان مقيمًا بالقرب من زاوية الشهداء ، وبالتحديد في زاروب الشيخ رسلان (خلف مبنى البلدية) ، بدلالة أن فاطمة عبد الرحمن الجربان عندما باعت إلى أحمد صالح الداعون عليّة في الدار المعروفة ببني الجربان في زاروب الشيخ رسلان ، كان أحمد بن محيي الدين عفرة أحد الشهود الذين عرّفوا عن فاطمة المذكورة (وثيقة مؤرخة في الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م) ، ووثيقة مؤرخة في الثالث من شهر صفر الخير سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧م).

ويبدو أنه لم يكن في أوقاف زاوية الشهداء من مطمع لأحد في تولي مصالحها لقلة ريعها ، ما سهل تحويلها إلى مدرسة ، ثم انقراضها واندثار ذكرها مع الزمن ، وهو أمر نصادفه كثيرًا وللأسف في تاريخ بيروت. وهو أمر لا يدعو إلى العجب وينطبق عليه قول الشاعر:

تعجبين من سَقمي ... صحتي هي العجبُ

زاوية الشيخ حسن الراعي القطناني

أورد السجل الشرعي الأول الذي افتتح سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣ م، الأحكار المرتبة إلى «زاوية سيدنا السيد الشيخ حسن الراعي قدس سره ونور ضريحه آمين...». والأحكار عبارة عن عدد من الغروش، مرتبة على دور ودكاكين في أماكن مختلفة من بيروت القديمة عائدة لقاسم قدورة ويوسف وحسن بدر وبني الدباس وحسن الناطور وسعيد الداعوق ومصطفى حمادة ونعمة الكركبي ونقولا فريج وبني الهبري والحنيكاتي ونقاش. إضافة إلى نصف رطل زيت. والحكر يلتزم به مالك العقار ومن ينتقل إليه الملك[1].

لا يعرف بالتحديد تاريخ بناء الزاوية المذكورة، وقد أرجع الشيخ طه الولي بناءها - بدون ثبت - إلى سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، وأنها بنيت في بيروت من أيام الصليبيين. كما لم يترجم أحد للشيخ حسن فيذكر مولده ووفاته[2].

وقد ترجم الشيخ يوسف النبهاني للشيخ حسن القطناني ناقلاً بعض أخباره عن السراج الدمشقي والشيخ أبي بكر اليعفوري، ومنها أن قرية قطنا

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٥١).

(٢) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، طه الولي (ص٧٨).

(قرب دمشق) كانت من إقطاع أمير كان يعتني شرب المنكر، فنهاه الشيخ حسن مرارًا عن فعله حتى أطاعه.

وذكر النبهاني[١] أن الشيخ حسن رجل جليل القدر، كثير الأحوال، وأنه من قرية قطنا المذكورة. وقد ذكر شفيق طبارة في مقالته عن زوايا بيروت أن الزاوية «تنسب إلى الشيخ حسن الراعي المغربي، وفيها درّس...»[٢]. ويبدو الأصل المغربي من خلال إسهام المغاربة في الدفاع عن بلاد الشام ضد الغزوات الصليبية والمرابطة في ثغورها، إلا أنه لم يثبت أن الشيخ حسن درّس في الزاوية المنسوبة إليه. وقد يكون أحد تلامذته أو مريديه أو أحد أبنائه قد درّس فيها.

ويرجح هذا الرأي الأخير ما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي عندما زار بيروت للمرة الأولى في شهر صفر الخير سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، فقد قال في رحلته المسماة «الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز»: «ذهبنا إلى ساحل البحر، فزرنا هناك تلك المقبرة مع السيد أحمد، وفيها قبر الشيخ جبارة من أولاد الشيخ حسن الراعي المشهور قبره في دمشق بقرية قطنا»[٣].

وجاء كلام النابلسي بعد زيارته زاوية الشويخ المطلة على البحر (أي جامع المجيدية)، ومدرسة الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (في السوق الطويلة)، فتكون المقبرة المشار إليها هي مقبرة السنطية.

---

(١) جامع كرامات الأولياء (٣٩٦/١).
(٢) من معابد بيروت الزوايا، شفيق طبارة، أوراق لبنانية (٥٠١/١).
(٣) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٨٠).

ويستدل من ذلك إلى قدم هذه المقبرة البيروتية. علمًا بأن قول النابلسي عن الشيخ جبارة بأنه «من أولاد الشيخ حسن الراعي» لا يعني بالضرورة أن الشيخ جبارة هو من ابناء الشيخ حسن الصلبيين، وإنما من أبنائه القلبيين الذين درسوا يومًا ما في الزاوية، وأقاموا في بيروت، ودفنوا في مقبرتها.

وتجدر الإشارة إلى أن ورود إشارات تدل على قدم السنطية، ومن دفن فيها من العلماء منهم علي ابن أبي علي اللحام الذي أرخ المفتي عبد اللطيف فتح الله وفاته سنة ١٨١٢م ودفنه في السنطية، كما أن الإمام العلامة الشيخ محمد المسيري الإسكندري توفي في بيروت سنة ١٨٢٣م ودفن في السنطية، فأرخ وفاته المفتيان عبد اللطيف فتح الله وأحمد الأغر، فقال فتح الله:

إن هذا الضريح روض نعيم … في جنان الخلود ذات القصورِ
حله عالم إمام جليل … وشهير يا له من شهير
هو للعلم شمسه اليوم غابت … وتوارت ذا الآن بعد ظهور
ذا المسيري محمد بحر علم … مفرد الدهر قد خلا عن نظير
صبّ ربي عليه أرخ وأوحى … رحمة الله للإمام المسيري[١]

ونظم المفتي الشيخ أحمد الأغر:

هذا ضريح فيه أضحى نازلا … محمد من بالمسيري اشتهر
العالم العامل من في عصرنا … أمسى لأرباب العلوم هو القمر

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١٠٣٢/٢)، و(٥٠٥/١) رثاء أبي علي اللحام.

زره تفز بالخير من بركاته   مع كل ما ترجوه في نيل الوطر
مذ كان في العلم وأرخ جبلًا   قد فاز في مقعد صدق يا بشر[1]

يذكر أن المفتي الشيخ أحمد الأغر توفي في شهر أيار ١٨٥٨م ودفن في جبانة السنطية. وفي سنة ١٨٨٥م دفن فيها الحاج عبد الله حسين بيهم. وكان آخر من دفن فيها من الأعلام عمر الداعوق رحمهم الله.

يقول الشيخ طه الولي عن موقع الزاوية في كتابه «تاريخ المساجد والمواقع الشريفة في بيروت» (ص٧٨): بأن الزاوية تقع داخل سور بيروت القديمة، قرب باب إدريس، ويعود في (ص٩١) من الكتاب نفسه فيحدد موقع الزاوية في الجهة الغربية الشمالية من ساحة رياض الصلح. بينما يحدد شفيق طبارة موقع الزاوية بأنه: «في شارع فخر الدين الحالي، وفي موضع الإطفائية اليوم». وشارع فخر الدين أصبح شارع المصارف، وموضع الاطفائية بني مكانه مبنى البنك العربي.

وبعد هدم الزاوية بحجة تخطيط شوارع بيروت لم يبق من زاوية الراعي إلا ما شاهده شفيق طبارة من آثارها رتاج الباب، أي: بلاطة كتب عليها: زاوية الراعي. وتأكيدًا لما ذكر حول موقع زاوية الراعي نستعين ببعض الوثائق الشرعية القديمة[2].

ففي الوثيقة المؤرخة في الحادي عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠م باع الياس جرجس مفرج العشي إلى يوسف الترك

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٣٠١).
(٢) شفيق طبارة، ن. م. ص ٥٠١.

وولده سعد الدين الإيوان والتخت الذي يعلوه الكائن داخل دار موسى دراج الكائنة في محلة شويربات باطن المدينة المحمية «المقابلة لزاوية سيدنا الأستاذ الشيخ حسن الراعي قدس سره»، يحد الدار غربًا بيت النجار والمكوك[1].

وفي الوثيقة المؤرخة في العشرين من شهر رمضان المبارك ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م باع عبد الله محمد قزاز إلى محمد ابن الحاج حسن سلام ربع أسهم البيت والعلية «فوقه» ضمن الدار القائمة في محلة حمام الصغير داخل المدينة، يحدها غربًا سطح زاوية الشيخ حسن الراعي...[2].

وفي الوثيقة المؤرخة في الثامن عشر من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٩م باعت زينب وزليخة بنتَي الحاج طالب زريق دارهما الكائنة في سوق باب يعقوب داخل المدينة ...، يحدها شمالًا زاوية الشيخ حسن الراعي، وشرقًا ملك بني دندن، وقبلة بني الجدي[3].

يذكر أن سوق باب يعقوب ينسب إلى باب يعقوب المطل على ساحة عصور (السور) رياض الصلح حيث اتخذ المنجدون دكاكينهم بجوار الباب، وكان يدخل من الباب المذكور إلى محلة شويربات ومحلة الحمام الصغير أو حمام الشفاء.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ (ص٢٠).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ رقم ٣٣٣.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٥هـ رقم ٤٧.

ويرجح أن باب يعقوب فتح أثناء حكم أحمد باشا الجزار. وقد روينا بأن معركة جرت عند الباب بين المدعو يعقوب الأدرني (من أدرنه) وبين الشيخ سعيد الجارح، وأن الأدرني قتل عند الباب، وأن الشيخ سعيد جرح وحمل جرحه النازف إلى ميناء الحسن، حيث سقط وأقيم ضريح عند موضع وفاته عرف بالشهيد.

أمكن من مراجعة آلاف الوثائق معرفة من تولى أوقاف زاوية الراعي وتعاطى مصالحها ولوازمها. ويبدو من وثيقة مؤرخة في غاية شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٤ هـ/١٨٧٧م أن المتولي عن الزاوية كان السيد عبد الله الناطور، وذلك قبل أربعين سنة من تاريخ الوثيقة المذكورة، أي حوالي سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨م[1].

وذلك بمعرض منازعة حصلت عندما ادعى الشيخ عبد الحميد بن عمر يموت بوصفه الناظر على وقف زاوية الشيخ حسن الراعي بموجب حجة شرعية من صاحب الفضيلة مصطفى رشدي أفندي نائب بيروت (قاضيها) سابقًا، على أسعد فارس زلزل بوصفه وصيًّا على جبران جرجس العنحوري، قائلًا بدعواه أن قطعة الأرض الكائنة في محلة المحافر خارج المدينة (يذكر أن المقصود بالمحافر مقالع الحجارة الرملية في المصيطبة، لأن الطريق الممتدة من مركز الإطفائية الحالي في الباشورة صعودًا خلف كلية المقاصد للبنات مرورًا بمدرسة حوض الولاية كانت تعرف بطريق المحافر)، والتي تبلغ مساحتها ١١٥٦ ذراعًا وقفها على مصالح الزاوية

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٤هـ رقم ١٦٣.

المذكورة الشيخ علي الفاخوري وأخوه السيد محمد والحاج مصطفى أولاد الشيخ حسن الفاخوري، والشيخ عبد القادر والسيد خالد والشيخ محيي الدين أولاد السيد عمر الفاخوري منذ أربعين سنة، وأن الأرض تسلمها من الواقفين السيد عبد الله الناطور متولي الزاوية وقتئذ. وأن المتولين كانوا يضعون أيديهم عليها ويتصرفون بها بدون معارض ولا منازع إلى نحو خمس سنوات وضع المدعى عليه يده عليها.

فادعى هذا الأخير بأنه اشترى العقار من عمر درويش الغزاوي وعلي حسين الشخيبي، وقد آل اليهما من عبد الله وأحمد ولَدَي محمد كنعان الصيداوي، وأن هذين الأخيرين اشترياه من أحمد وصفية وعائشة محمد الجمال والحاج حسن الجمال وأولاده محمد وحسين وحسناء وفاطمة، ومن زهرا ومنصورة علي العانوتي وآمنة النحاس وزينب محمد الغلاييني ...، وقد ردت الدعوى لعجز المتولي عن بيان كون الوقف المذكور مسجلًا أو له قيد في السجلات أو في دفاتر الأوقاف ...».

متولو أوقاف زاوية الراعي

ثبت من المنازعة التي أشرنا إليها حول وقف قطعة أرض في محلة المحافر (المصيطبة) بأن متولي الزاوية كان في سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨م تقريبًا السيد عبد الله الناطور. ومن المرجح أن عبد الله عمر الناطور المذكور بنى سنة ١٢٢٣ هـ/ ١٨٠٩م عين العافوص التي كانت فوق عين الباشورة خارج بيروت، منه ومن أهل الخير، وقد سعى في بنيانها فأرخ المفتي عبد اللطيف فتح الله ذلك بقوله:

يا حسن عينٍ من زلال ماؤها ... منها حلا للواردين الشربُ
وبعين عافوص تسمّت واغتدى ... فيها لبانيها يُسرّ القلب
يجزيه ربّي منّة خير الجزا ... وينالـه منه الرضا والقرب
هذي وقد حفت بتاريخ سما ... عين بها ماء معينٌ عذب[1]

يذكر أن الناظر والناطور هو: حافظ الكرم والزرع والنخل، وقيل: هو أعجمي، وأنه من كلام أهل السواد، وليس بعربي محض. وفي «محيط المحيط» للمعلم بطرس البستاني أن حافظ الحمام ناطور أيضًا؟ ذكر بعض المخضرمين بأن موقع حمام البسطة القديم كان قرب مقبرة الباشورة، وقد استملك وأزيل عند شق اتوستراد فؤاد شهاب. وتم نقل الحمام إلى الجهة الشمالية المقابلة لجامع الباشورة (البسطة التحتا).

وتولى بعد عبد الله الناطور على زاوية الراعي الحاج حسين ابن علي المناصفي. ففي الثالث عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م حضر إلى المجلس الشرعي بمدينة بيروت بعد أن توفي الشيخ حسين بن علي المناصفي الناظر على زاوية الشيخ حسن الراعي الكائنة باطن المدينة بالقرب من باب يعقوب، فشغرت من ناظر يقوم بمصالحها ويستغل أوقافها وأحكارها، فحضر حسين بن يوسف زريق وسعيد بن محمد البهلول وأحمد بن علي العانوتي وأحمد بن عبد القادر الأزهري ومحمد بن أحمد دوغان وأحمد بن محمد الحشاش وخليل ابن الحاج طالب المصري، والتمسوا إقامة الشيخ عبد الحميد ابن الحاج عمر يموت

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٥٠١).

ناظرًا ومتوليًا على الزاوية المذكورة بوجه الحسبة، حيث كان فيه الأهلية لما ذكر، وهو ذو صلاح وتقوى.

فأجابهم لملتمسهم ونصب وأقام الشيخ عبد الحميد المذكور ناظرًا ومتوليًا على الزاوية وأذن له أن يتعاطى جميع مصالحها ولوازمها، ويضع يده على مستغلاتها من أوقاف وأحكار، ويراعي ما فيه الأصلحية والأنفعية لجهة الزاوية المذكورة، ويراقب تقوى الله تعالى في السر والعلانية.... وشهد على الوثيقة عبد الرحمن النحاس ويوسف الأسير وإبراهيم الأحدب وخليل الأغر وأبو حسن قاسم الكستي ...[1].

وذكرت الوثيقة المؤرخة في الثامن عشر من شهر ربيع الأول ١٣١١ هـ/ ١٨٩٣م أن الشيخ عبد الحميد ابن الحاج عمر يموت ناظر ومتولي زاوية الشيخ حسن الراعي قرب باب يعقوب توفي قبل سنتين، وشغرت الزاوية من ناظر يقوم بمصالحها ويستغل أوقافها وأحكارها، فحضر لدى المحكمة الحاج أحمد بن علي بن مصطفى العانوتي وخليل ابن الحاج طالب ابن الحاج حسن المصري ومحمد نجيب بن عبد الفتاح بن أحمد البوتاري ومحمد بن حسن ابن الحاج عبد القادر زين وحسن بن الحاج علي بن عمر يموت، والتمسوا إقامة الحاج سعد الدين ابن الشيخ عبد الحميد المذكور ناظرًا ومتوليًا على الزاوية بوجه الحسبة، حيث كان فيه الأصلحية واللياقة لما ذكر، فأقيم ناظرًا ومتوليًا، وأذن بأن يتعاطى مصالحها ولوازمها، ويضع يده على مستغلاتها.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ رقم ٥٦.

ويتبين من دفتر الأوقاف العائد لسنة ١٣١٦ (مالية) أن مصاريف الزاوية بلغت ٩٤٢ قرشًا سنويًّا موزعة كما يلي: ٣٦٠ للإمام الحاج سعد الدين يموت (أي ٣٠ قرشًا شهريًا)، ١٢٠ للمؤذن مصباح العانوتي، ٦٠ للفراش والقيم مصطفى الغلاييني، ٣٦ قنديل وإبريق، ٦٧ بترول غازي، ١٢٤ حصير وكليم، ١٨٥ تعميرات.

تولية سعد الدين عبد الحميد يموت على زاوية الراعي

زاوية الحمرا

(١) زاوية ابن الحمرا أقدم زوايا وسط بيروت

في كتابه «تاريخ بيروت»[١] ذكر صالح بن يحيى (... - ١٤٤٦م) أن أمراء الغرب بعد تحرير بيروت من الصليبيين كُلِّفوا بأمن بيروت. فانقسموا ثلاثة أبدال (فرق) اتخذوا منزلًا لهم في مبنى كنيسة شرقي بيروت داخل الصور (السور) كانت معروفة على اسم فرنسيس الأسيسي الأسيزي (١١٨٢- ١٢٢٦م). ويضيف صالح بن يحيى بأن المبنى كان كبيرًا، فجعلوه إسطبلًا وبنوا فوقه أطباقًا. كما ذكر بأن الكنيسة كانت وقت كتابة تاريخه خرابًا اشتراها بنو الحمرا، ففضوا حجارتها وبنوا منها مدرستهم، وذلك بعد سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م.

ويشير بعض الرحالة الفرنجة إلى أنه بعد جلاء الصليبيين عن بيروت اتخذ تجار جنوى من الكنيسة فندقًا كانوا ينزلون فيه عندما يقدمون إلى المدينة، سواء للتجارة أو كمحطة في طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين. وقد بقيت كذلك بعد دخول المماليك إلى بيروت، بدليل أن انطون دو طرويا زار بيروت سنة ١٤١٤م وأشار إلى قيام الفرنسيسكان بخدمة الكنيسة، وكانت إقامتهم في دير بجوارها.

---

(١) (ص١٠٦-١٠٧).

وكرر الشيخ طه الولي في كتابه «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة» ما ذكره صالح بن يحيى، إلا أنه أضاف في الحاشية: «وبنو الحمرا أصلهم من الفرس، وقد جلبهم إلى منطقة البقاع الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لأسباب سياسية وعسكرية ...»[1].

ورواية نقل الخليفة الأموي قومًا من الفرس إلى سواحل الشام بحاجة إلى مراجعة. فبنو الحمرا الذين ذكرهم صالح بن يحيى هم من أمراء الغرب، ويعودون في أصولهم إلى القبائل العربية اليمنية التي اضطرت تحت ضغط القبائل القيسية إلى مفارقة مواطنها الأصلية على ضفاف الخابور إلى البقاع ومشارف بيروت.

أما كون بني الحمرا من الفرس وأن معاوية بن أبي سفيان نقلهم وأسكنهم في الساحل دفاعًا عنه فأمر فيه نظر.

فمن المعروف أن الأمويين عمومًا ومعاوية وأحفاده خصوصًا كانوا معادين للموالي وللعناصر غير العربية، فلا يعقل والحالة هذه أن يستعين معاوية بهم لحماية الساحل الذي هو خط الدفاع الأول عن عاصمته في الشام. وبيروت كانت معروفة بأنها مرابط أهل دمشق منذ أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه. وقد زارها الخليفة الأموي الوليد بن يزيد حوالي سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٣م، وقال فيها:

إذا شـــئت تصـــابرتُ   ولا أصـــبر إن شـــئتُ

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت (ص٤٩ هامش ٢).

ولا والله لا يصبـــــــــــــ   ـــرُ فـــي البرّيـــة الحـــوتُ
ألا يـــا حبـــذا شـــخصٌ   حمـــت لقيـــاهُ بيـــروتُ[1]

أما الحمراء فليس لقبًا للفرس ولا للذين جلبهم معاوية إلى البقاع فبيروت كانوا من الفرس، ولكن معاوية نقل قبائل عربية من البصرة والكوفة (العراق). والحمراء لقب لمضر بن نزار، ونزار بطن من عدنان.

وسبب إطلاق الحمراء عليهم رواه القلقشندي في «نهاية الأرب» والميداني في «مجمع الأمثال» بأنه: «كان لنزار من الولد أربعة: مضر، وإياد، وربيعة وأنمار. ولما حضرت نزارًا الوفاة دعا أولاده الأربعة، وقال لإياد: هذه الجارية الشمطاء وما أشبهها لك، وأعطى ربيعة حبالًا سودًا من الشعر وقال: وهذه وما أشبهها لك، وأعطى القبة الحمراء لمضر وقال: وهذه وما أشبهها لك، وأعطى البدرة والمجلس لأنمار، وقال لهم: إن اختلفتم في شيء فأتوا الأفعى الجرهمي ملك نجران.

فأتوه بعد موته وأخبروه بوصيته. فقال: القبة الحمراء من مال فهو لمضر، فذهبت بالدنانير والإبل الحمر فسمي «مضر الحمراء» لذلك. وقال: وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيل الدهم، فقيل: «ربيعة الفرس». وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد، فصار له الماشية البلق، وهو جنس صغير قبيح من الغنم، فسمي «إياد الشمطاء». وقضى لأنمار بالدراهم وبما فضل فسمي «أنمار الفضل». ويبدو أن بني الحمراء هم بطن من مضر الحمراء المذكورة.

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص١٥).

نشير إلى أن أول إشارة لزاوية الحمرا وردت عندما زارها المتصوف المغربي الفاسي علي بن ميمون، الذي كان قد ترك بلده ولازم الغزو والجهاد على السواحل، وكان رأس العسكر كما ذكر نجم الدين الغزي في كتابه «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة».

دخل ابن ميمون بيروت في أول القرن العاشر، واجتمع فيها بالشيخ محمد بن عراق. ويقول الشيخ يوسف النبهاني: بأن اجتماع ابن ميمون مع ابن عراق تم أول مرة في زاوية ابن الحمرا الواقعة قبالة جامع النبي يحيى عليه السلام، أي: الجامع العمري الكبير.

ويذكر أن ابن عراق دعا ابن ميمون إلى طعام، ثم عزما التوجه إلى زيارة مقام الإمام الأوزاعي في حنتوس (التي تعرف الآن بمحلة الأوزاعي). وفي أثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان. فعاب عليه ابن ميمون، فقال له: أتحسن لعب الخيل أكثر مني؟ قال: نعم. فنزل ابن عراق عن فرسه وتقدم إليها ابن ميمون فحلّ الحزام وشدّه وركب، ولعب على الجواد فعرفوا مقداره في ذلك.

يذكر أن محمد بن عراق دخل بيروت سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩-١٥٠٠م وسمع وهو فيها برجل من الأولياء يسمى سيدي محمد الرايق، فزاره ودعا له. ومن المرجح أن اجتماعهما تم في زاوية الحمرا، وذلك على غرار اجتماع ابن عراق مع ابن ميمون فيها. وقال له الرايق: إن أحببت البركة من يد أهلها فعليك بأحد ثلاثة: رجل في بيروت يسمى الشيخ عفان، ورجل

بطرابلس يسمى الشيخ ياسر، ورجل بصيدا يسمى الشيخ عمر بن المبيّض. فيسر الله تعالى له اجتماعه بالثلاثة[1].

وبقي ابن عراق في بيروت بين سنتي ٩٠٦ و٩١٠هـ، ثم عاد إليها سنة ٩٢٣هـ، فبنى دارًا لعياله ورباطًا للفقراء، لم يبق منها سوى قبة الزاوية التي عصت على معاول الهدم والتخريب، وبقيت قائمة صامدة في أسواق بيروت.

وكان علينا انتظار قدوم الشيخ عبد الغني النابلسي لبيروت سنة ١٧٠٠م كي نعرف شيئًا عن عمارة زاوية الحمرا. ففي تلك السنة قال النابلسي: «وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات ...، منها زاوية تسمى بزاوية ابن الحمرا يقام فيها الذكر والأوراد. وبها حفّاظ تقرأ. وهي متسعة، بها إيوان به محراب كبير. وفيها بركة ماء، بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير، ويصبّ في تلك البركة حتى تقول:

امتلأ الحوض وقال قطني   مهلًا فقد ملأت بطني»[2]

أما بالنسبة إلى موقع الزاوية، فنشير إلى أن أدق تحديد لها جاء على لسان الشيخ يوسف النبهاني عندما قال: «إنها واقعة قبالة جامع النبي يحيى عليه السلام». وتأتي دقة هذا التعيين من كون الشيخ النبهاني كان رئيسًا لمحكمة الحقوق في بيروت لعدة سنوات.

(١) الكواكب السائرة للغزي (١/٤٩ وما يليها، و٢/٨٢ وما يليها، و٣/٥٩ وما يليها)، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني (ص١٨٨).
(٢) التحفة النابلسية، النابلسي (ص٤١-٤٢).

وزيادة في تحديد موقع زاوية الحمرا وبيان جيرانها نستعين ببعض الوثائق الشرعية. منها وثيقة مؤرخة في غرة ربيع الثاني سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م، والتي باع بموجبها عبد العفو وعبد الستار ومحمد قرنفل الدار المعروفة بوالدهم الشيخ عبد القادر قرنفل والتي كانت مشهورة سابقًا بالحاج محمد الطوبجي (المدفعي) الكائنة في محلة الجامع الكبير.

وتصف الوثيقة المبيع بالدار التي تعلو معصرة السبليني المصعد إليها بسلم حجر، ومشتملة على إيوان يعلوه تخت خشب، وأوضه (غرفة) يعلوها تخت، ومن داخله تقيسة ومربع لجهة الغرب، ومطبخ يلاصقه تقيسة تعلو الأولى (أوضحنا في كتابنا «منزول بيروت» معنى التقيسة)، وعلى أودتين وفسحة سماوية وممشى يتوصل منه إلى «سطح زاوية الحمرا» المحكور، أي: السطح من متولي الزاوية ...

وبينت الوثيقة حدود الدار: «يحدها قبلة سوق البوابجية والطريق السالك، وشمالًا زاوية الحمرا، وشرقًا الطريق السالك وفيه الباب، وغربًا بيت طربيه ودار وقف جامع السرايا ...»[1].

وفي وثيقة مؤرخة في السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م باعت خديجة بنت علي الجمال إلى ابنتها عائشة أحمد عيتاني زوجة هاشم بن محمد التلجي أسهمًا في بيتين واقعين في دار بني الجمال الكائنة في «محلة زاوية الحمرا داخل المدينة ...»[2].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٠هـ (ص١٣٥).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٥٦٦.

وتشير الوثيقة المؤرخة في التاسع عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٧٠م إلى أن سلمى بنت علي الجمال باعت إلى عبد القادر مصطفى شبقلو الإيوان المسقوف المكشوف بابه لجهة القبلة، الواقع في الدار المعروفة ببني الجمال، الكائنة في محلة زاوية الحمرا داخل المدينة، يحده قبلة وشرقًا فسحة الدار، وغربًا ملك بني كتوعة.

وفي غرة شعبان سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م باعت ملكة بنت الشيخ مصطفى الرفاعي بيتًا في دار بني المكوك الكائنة في زقاق الغربا التابع لمحلة الدباغة. يحد البيت غربًا وقف زاوية الحمرا، وشمالًا محمد إبراهيم حرب وإخوته، وشرقًا ملك الشيخ إبراهيم ومحمد ولدَي محمد حمود[1].

ويبدو أن بعض الزوايا كانت تستقبل غرباء أو عائدين من أداء فريضة الحج، فقد حصل في السابع والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م أن توفي في زاوية الحمرا الحاج أحمد بن الشيخ عبد الكريم المكي[2].

أوقاف الزاوية إمامها ومتوليها

سجلت في أول سجل شرعي افتتح سنة ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣م لمحكمة بيروت الشرعية الأوقاف الخاصة «بزاوية الحمرا العامرة بذكر الله تعالى من بيوت وأحكار»، فكان منها وقف من الشيخ عبد الرحيم ابن الحاج محمد المكوك، الكائن لصيق بيت السيد حمود (سبقت الإشارة إلى هذه الدار)،

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٠هـ رقم ٨٧.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٩هـ (ص١٨٠).

وحكر على بيت قاسم حرب وإخوته في دار المكوك. وحكر على بيت مصطفى المكوك. وحكر على دكان قاسم السبليني لصيق الزاوية. وحكر على بيت عبد القادر قرنفل ومثله على بيت الجمال.

ويلفت النظر ما ورد في الأوقاف من اسم سليمان «مشقيه» الساكن في بيت دعبول، ومن حكر على مخزن «أبو حسن مشقيه» (وأسرة مشقيه غير أسرة دمشقيه كما سنبين في محله)[١].

وكما سبق وذكرنا حول أوقاف زاوية المجذوب، فإن الشيخ عبد الهادي قرنفل قاضي بيروت الأسبق وقف جلًّا عند عين الباشورة على أن يكون ثلث ريعه لزاوية الحمرا.

ولم يعرف من تولى إمامة زاوية الحمرا ومصالحها قديمًا. وقد ذكر أن الشيخ محمد أديب محرم (المتوفى سنة ١٨٧٨م) شيخ السجادة القادرية في بيروت كان إمامًا لزاوية الحمرا لمدة خمسين سنة.

وما علمناه من أول سجل شرعي أن متولي زاوية الحمرا كان في الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م الشيخ مصطفى ابن المرحوم الشيخ عبد القادر الرفاعي، وذلك استنادًا إلى الوثيقة التي باع بموجبها عمر ابن الشيخ محمد الفاخوري بوكالته عن خالته حافظة بنت الشيخ مصطفى دندن إلى المتولي المذكور، وذلك أسهمًا شائعة في دكان كائنة بمحلة شويربات بسوق الشعارين[٢].

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٥٣).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٣هـ/ ١٢٦٥هـ (ص٤٥).

ولتأكيد أهمية زاوية الحمرا نشير إلى أن والي سورية أحمد حمدي باشا لدى قدومه إلى بيروت سنة ١٨٨١م أدى فريضة العصر في جامع النبي يحيى (العمري الكبير)، وحضر بعد الصلاة إلى الزاوية الحمراء وجلس مستمعًا تلاوة القرآن الكريم إلى أن أتم الحافظ جزءًا[١].

ومن المرجح أن الذكر والأوراد التي كانت تنشد في الزاوية هي على الطريقة الرفاعية. فقد اتسع نفوذ شيوخ الطرق الصوفية عامة والطريقة الرفاعية خاصة، وكثر مريدو هذه الأخيرة بعدما تبوأ الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي مركزًا متقدمًا في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني. يؤيد ما ذكرناه أن شيوخ الرفاعي تولوا عدة زوايا، منها زاوية المجذوب، كما تولى أحدهم زاوية البدوي وكان لا يزال قاصرًا.

يذكر أن الشيخ عبد الله الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية طلب سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م من المفتي الشيخ أحمد الأغر نظم بيتين ليكتبهما على راية عملها باسم القطب أحمد الرفاعي، فأجابه لمطلوبه ونظم البيتين:

إن الرفــــاعي شـــيخ ... لـــه مزيـــد الدرايـــه
علـــت لـــه وهـــو قطـــب ... علـــى الكواكـــب رايـــه[٢]

ثم بعد ذلك طلب مريدو الشيخ الرفاعي من الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي بيتين لهلال شيخهم فنظم:

(١) ثمرات الفنون عدد ٣٤٤ سنة ١٨٨١م.
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١٩٣).

إذا ذكرت لابن الرفاعي مناقب ... بدت وهي في خد الحقيقة خالُ

كفاه من الرحمن فضلًا بأن غدا ... له في سماء الذاكرين هلال[1]

كما نظم الشيخ عمر الأنسي السقعان موشحة للذكر في زوايا الرفاعية لازمتها:

يا سر الوجود يا سامي الرحاب ... يا غوث المريد نحن في الأعتاب

يا ختام الرسل يا جمال الفضل ... يا شريف الأصل يا أبا الأنجاب

يا منار السعد في الهدى والرشد ... يا وفيّ العهد يا عليّ الباب

شيخنا الرفاعي الطويل الباع ... لم يزل يراعي ذمة الطلاب

نحن في حماه قد حمانا الله ... وهو في علاه كوكب الأقطاب[2]

وقد أصاب زاوية الحمرا في وسط بيروت ما أصاب غيرها من زوايا بيروت، فزالت بعد تخطيط الطرق، وضم ما بقي منها إلى الجامع العمري الكبير.

(٢) زاوية الحمرا الجديدة في رأس بيروت

من الطبيعي أن تنشأ من الاستقرار في أرض معينة حاجة الجماعة إلى مكان لممارسة عبادتها وتأدية فروضها الدينية.

من المعابد الإسلامية ما كان يسمى بالمدرسة أو الزاوية. وتعني: البناء الصغير المتواضع المخصص لإقامة الصلاة اليومية العادية خلا صلاة الجمعة التي كانت تقام في المساجد الكبيرة الجامعة فقط. وقد عرفت

(١) ديوان قاسم الكستي: مرآة الغريبة (ص٥٦).

(٢) ديوان عمر الأنسي: المورد العذب (ص٣٢٦).

بيروت القديمة هذه الزوايا والمدارس التي قيل إن بعض أهل الثروة أقاموها لتمكين التجار من القيام بواجباتهم الدينية بالقرب من أماكن عملهم، وكأني بهم يغلّبون دور التجارة بما يعكس رغبة التجار بعدم الابتعاد كثيرًا عن محلاتهم ولو لعدة دقائق والذهاب إلى أقرب مسجد لأداء الصلاة؟

وكانت الزوايا عبارة عن غرفة صغيرة تعلوها أحيانًا قبة. والزاوية كانت دائمًا خالية من المئذنة والمنبر، وكانت بعض الزوايا مقرًّا لأهل الطرق الصوفية، لإقامة حلقات الذكر وإنشاد الأوراد، وأطلق على بعضها لفظ تكية، قد يجد فيها أبناء السبيل شيئًا مما يساق إلى الزاوية من طعام ولباس. وقد أشرنا إلى بعض زوايا بيروت في كتابنا «منزول بيروت».

وقد خلط الذين كتبوا عن مساجد بيروت وزواياها بين زاوية الحمرا أو الزاوية الحمراء التي كانت مجاورة للجامع العمري الكبير داخل المدينة، وبين جامع رأس بيروت أو جامع الحمرا. وذهب البعض إلى أن زاوية رأس بيروت/ الحمرا بنيت سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧م.

وزاوية الحمرا أو مدرسة الحمراء داخل المدينة منسوبة كما قال صالح بن يحيى إلى أحد أمراء آل الحمراء. نقل الشيخ طه الولي في كتابه «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة» ما ذكره صالح بن يحيى، إلا أنه أضاف بأن بني الحمرا استعملوا حجارة مبنى الكنيسة «في بناء زاويتهم التي ما تزال موجودة في محلة رأس بيروت، حيث يقع اليوم شارع الحمرا، نسبة إلى بني الحمرا الذين قدموا إلى بيروت من بقاع العزيز...».

كما يقول بأن بني الحمراء نقلوا الحجارة من باطن بيروت إلى منطقتهم كرم الحمرا من رأس بيروت، واستعملوها في بناء مدرستهم التي عرفت فيما بعد باسم زاوية الحمرا، وهي الزاوية التي عرفت في أيامنا باسم جامع الحمراء. وقيل: إن الشيخ محمد المغربي كان مدفونًا فيها»".

أما القول بأن بني الحمرا بنوا بحجارة الكنيسة زاويتهم التي هي في رأس بيروت، فلا يتفق مع الوقائع التي ذكرها صالح بن يحيى، ولا مع الحقيقة التاريخية، لأن بني الحمرا بنوا مدرستهم - أي: زاويتهم - التي اشتهرت باسم زاوية الحمرا في وسط بيروت القديمة، وبالتحديد إلى الغرب من الجامع العمري الكبير، ولم يتحملوا مشقة نقل الحجارة إلى رأس بيروت، أي إلى منطقة كانت قليلة السكان.

والذين زاروا بيروت ذكروا زاويةً لبني الحمرا في تلك المنطقة، أي وسط بيروت القديمة (وقال البعض: إن فيها ضريح الشيخ محمد الحمرا؟). مع الإشارة إلى أن زاوية الحمرا في رأس بيروت هي حديثة العهد نسبيًّا، وتعود إلى أواسط القرن التاسع عشر، كما ذكرنا في كتابنا عن رأس بيروت.

وقد سبق وأشرنا إلى أن الشيخ عبد الغني النابلسي سنة ١٧٠٠م زار الزاوية الحمراء الكائنة داخل بيروت بجوار الجامع العمري الكبير، ووصفها بالتفصيل، ولم يذكر وجود زاوية ثانية باسم زاوية الحمرا في أي مكان آخر من بيروت. ولم يرد ذكر لوجود مساجد وكنائس في مزرعة رأس بيروت قبل سنة ١٨٦٠م.

ومن المرجح أن محلة رأس بيروت لم تكن آهلة بالسكان، فلم تنشأ الحاجة إلى بناء جامع لصلاة الجمعة. فصلاة الجمعة هي فرض عين على كل مكلف.

وشروط صحتها ستة: الأول: إقامتها في أبنية مصرًا كانت أو قرية، فلا تقام في الصحراء وإن كان فيها خيام. الثاني: إقامتها بأربعين مسلمين مكلفين من أحرار الذكور، مستوطنين بمحل إقامتها لا يظعنون شتاء ولا صيفًا إلا لحاجة. الثالث: وقوعها في وقت الظهر. الرابع: وقوعها جماعة في الركعة الأولى. الخامس: أن لا يسبقها ولا يقارنها بتحريم جمعة أخرى بمحل إقامتها إلا إن عسر اجتماع الناس بمكان واحد. السادس: تقدم خطبتين على صلاتها. ومن شروط الخطبتين: وقوعهما وقت الظهر، وأن تكونا عربيتين، وأن يكون الخطيب قائمًا عند القدرة، وأن يُسمع أربعين ممن تنعقد بهم الجمعة الخ.

فكان على من يريد أداء صلاة الجمعة من سكان رأس بيروت أن يقصد أحد المساجد الجامعة المنتشرة داخل المدينة القديمة.

وفي حين ذكر عبد الرحمن الحوت أن جامع الحمراء أنشأه بنو الحمراء سنة ٧٩٣ هـ دون بيان سنده في ذلك. وفيما ذكر الشيخ طه الولي بأن في الجامع ضريحًا يظن أنه للشيخ محمد المغربي أحد الصلحاء البيروتيين. وتابعه بذلك آخرون بدون تدقيق.

كما ذكر أيضًا بأن ضريح ابن الحمراء هو في الزاوية الحمراء الكائنة باطن بيروت غربي الجامع العمري، إلا أن أدق تعبير ورد فيما قاله معروف

الصيداني من أن أقدم جامع في رأس بيروت هو جامع «**الزاوية**»، وأن أرض هذا الجامع ملك للحاج حسن عيتاني. وفي قول آخر: إن حسن عيتاني هو من بنى الجامع؟

وقد ثبت لدينا أن جامع الحمراء في رأس بيروت بني أساسًا كزاوية عرفت بزاوية الحمراء (ومن هنا تسمية الجامع باسم جامع الزاوية). وأن إنشاء هذه الزاوية كان قبل سنة ١٨٦٣م بزمن قصير، كما يتبين من الوثيقة الشرعية المؤرخة في آخر شهر رمضان المبارك سنة ١٢٨٠ هـ، والتي تنص حرفيًا أنه «في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت حضر الحاج خليل ابن السيد إبراهيم الحص، ووقف وحبس وتصدق بما هو له وجارٍ في ملكه بوجه الشراء الشرعي بموجب حجج بيده، وذلك الموقوف هو النصف شائعًا اثنا عشر قيراطًا من أصل أربع وعشرين قيراطًا من كامل الجلول الثلاثة المتلاصقات، المشتملات على أغراس تين، الكائنات في المكان المعروف بجبّ النخل في مزرعة رأس بيروت المعلومات الحدود والجهات، وشهرتها في محلها تغني عن تحديدها، شركة الشيخ إسماعيل الخوري بالنصف الثاني، وقفًا صحيحًا شرعيًا على **مصالح زاوية الحمرا الحادثة البناء الكائنة في مزرعة رأس بيروت**.

أخرج الواقف المرقوم وقفه المحرر عن ملكه، وأبانه عن حيازته، وجعله وقفًا منجزًا لا يملك بوجه من الوجوه الشرعية أبد الآبدين. وشرط النظر فيه لنفسه مدة حياته، ومن بعده لمن يكون له التكلم على الزاوية

المرقومة، ثم أشرك معه في النظر لأجل التسجيل السيد علي بن عبد الله القوتلي. وعنّ له الرجوع عن وقفه المحرر، فعارضه السيد علي القوتلي المرقوم بالصحة واللزوم، وترافعا بهذا الخصوص لدى الحاكم الشرعي المومى إليه، فحكم بصحة الوقف المرقوم ولزومه اعتبارًا لقول من يقول به عالمًا بالخلاف، ومنع الواقف المرقوم من دعواه الرجوع حكمًا ومنعًا صحيحيين شرعيين. وبناء عليه تحرر ما هو الواقع في غاية شهر رمضان المبارك سنة ثمانين ومايتين وألف»[1].

وعبارة «**الحادثة البناء**» الواردة في وثيقة الوقف تفيد أن زاوية الحمراء كانت قد أحدثت (أي: بنيت) بزمن قريب من تاريخ إنشاء الوقف الحاصل سنة ١٨٦٣م. ويمكن القول بأن بناء الزاوية يعود إلى حوالي سنة ١٨٦٠م، وأنها تحولت إلى جامع بعد ذلك، ثم بنيت المئذنة.

ولم تذكر المصادر تاريخ بناء المئذنة أو تحول الزاوية إلى جامع. بل من الثابت أن صاعقة انقضت في كانون الأول سنة ١٨٨٣م على المئذنة المذكورة فذهبت بجانب زاوية من رأسها، ثم سقطت على حلقة البئر المجاورة فزعزعتها ونحّتها عن مكانها.

وتأكيدًا لما ذكرناه نقول: إن مساجد رأس بيروت الأخرى قد بنيت بعد جامع الحمراء بزمن غير يسير. فجامع الداعوق أشرف محمد أبو عمر الداعوق سنة ١٩٠١م على إنشائه. ويقع في شارع بلس قبل مخفر حبيش بمسافة قصيرة، وكان بوشر العمل به سنة ١٩٠٠م.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٠هـ نهاية شهر رمضان.

في حين ذكر كتيب صادر عن رابطة آل الصيداني في بيروت (ص٤٠) بأن «حسنة أحمد اللبان زوجة عبد الرحمن الصيداني قدمت الأرض سنة ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١م لبناء المسجد، وأوكلت إلى عمر الداعوق الإشراف على البناء مما جعل الجامع يعرف بإسم جامع الداعوق...».

ونميل إلى ترجيح الرأي الأول لاستقامته مع خبر الإنشاء، ومع معاملات التحديد والتحرير العقارية العائدة لسنة ١٩٢٨م. فقد ورد في المحضر الخاص بالعقار ٢٥٨ رأس بيروت عبارة: «إن هذا الجامع موقوف من قبل محمد بك أبو عمر الداعوق منذ ثلاثة وثلاثين سنة، وذلك بدون سندات».

أما جامع قريطم الكائن في محلة جب النخل شارع قريطم حاليًّا، فقد بناه محمد مصباح قريطم على قطعة أرض أوقفها الشيخ عبد الرحمن الحوت. وقد ذكر البعض أن الجامع أنشىء سنة ١٩٠٩م، بينما تفيد لوحة رخامية مثبتة على حائط الجامع بأن تاريخ البناء هو سنة ١٣١٠ هـ، أي ١٨٩٢م.

ويبدو أن هذا التاريخ الأخير أقرب للحقيقة، لأن ريحان الزنجي عتيق مصطفى القبرسي وقف في ١٠ رجب ١٣٢٥ هـ/ آب ١٩٠٧م قطعة أرض كان يملكها في محلة الباشورة على أربعة جوامع، هي: جوامع المصيطبة، والأشرفية، والقنطاري، وقريطم. مما يدل على أنه عند إنشاء هذا الوقف سنة ١٩٠٧م كان جامع قريطم مبنيًّا.

أما جامع خليل شهاب فقد بني سنة ١٩٥٦م. وأنشىء جامع شاتيلا (الوادي) سنة ١٩٦٣م. وأنشيء جامع دار المريسة (عبد الله بيهم) سنة ١٨٨٧م.

ومما يلفت النظر أن بناء الزاوية قد يكون متزامنًا مع بناء كنيسة السيدة (النياح)، لأنه لم تكن في رأس بيروت كنيسة أرثوذكسية قبل عام ١٨٦٠م، وكان على المؤمنين – كما قال ميشال جبران ربيز – أن يقصدوا للصلاة كاتدرائية القديس جاورجيوس في وسط بيروت عند البرلمان، أو كنيسة مار الياس بالطينة في الأونسكو قرب المدافن. وأنه لتفادي مخاطر الطريق ومشقتها سيما عند دفن موتاها وهب آل ربيز وبخعازي في عهد المطران ايروثيوس قطعة أرض في محلة المكحول لبناء كنيسة ومدفن. وقد انتهى بناء كنيسة السيدة سنة ١٨٦٠م. ودشنت مكانًا للعبادة في ١١ شباط عام ١٨٦١م (وثمة لوحة في الكنيسة تشير إلى أن التكريس تم في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٦١م)، وأعطيت الكنيسة اسم كنيسة سيدة النياح، ثم أضيف إليها رواق بقناطر يعلوه ما يسمى «**بالشعرية**»، أي مقصورة أوجدت في الكنائس القديمة كي تصلي فيها النساء يوم كان الاختلاط مكروهًا، وقد تمت توسعة الكنيسة سنة ١٩٣٠م[1].

نشير إلى أن الشعريات كانت تتخذ من قضبان الخشب المخروط، وتشكل حواجز بين موضع وآخر لحجب الرؤيا، وكان استخدام الشعريات

(١) الكنيسة والمجتمع الأرثوذوكسي، ميشال جبران رينيه، رأس بيروت سنة ١٩٩٥.

أو الشعاري عرفًا سائدًا في بيروت أواسط القرن التاسع عشر، كما بينا في كتابنا «حقوق الجوار في الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية».

من المستغرب في محلة يفترض أن تكون مأهولة بالسكان ولا سيما من عائلات يتجاوز عدد أبنائها الآلاف، أن لا ينشأ فيها إلا الزاوية المشار إليها، والتي تحولت إلى جامع لم يكن يتسع لأكثر من خمسين مصليًا، وكان على ما زاد عنهم أن يصلي على رصيف الجامع.

ومن المستغرب ثانيًا أنه لم يتبين وجود طلب مماثل لما طلبه أهالي المصيطبة سنة ١٨٨٥م عندما سألوا والي بيروت أحمد حمدي باشا أن يعين خطيبًا للجامع (المصيطبة) «لوجود مسلمين في المحلة يصعب عليهم حضور الجمعة والعيدين في داخل البلدة، لا سيما وقت الشتاء والحرّ الشديدين...».

ومن المستغرب أخيرًا أن يبقى الجامع/ الزاوية على حاله القديم رغم ترميمه سنة ١٩٥٢م وترميم المئذنة سنة ١٩٦٦م، وأن لا يلتفت إلى توسعته وضمّ مساحات إليه تصل إلى حدود شارع الحمراء، بل بقي منزويًا في شارع فرعي، وقد هدم مؤخرًا وأعيد بناؤه على المساحة الأصلية نفسها، وغلبت التجارة على العمارة، ولم يترافق مع ارتفاع أسعار الأراضي وجني الملايين مع تقديم أوقاف لمصالح الجامع. ويبدو من ظاهر العمارة الجديدة للجامع أنها أوغلت كثيرًا في الحداثة حتى غلبت على روحانية المكان.

الشيخ مصطفى الرفاعي متولي زاوية الحمرا **وسط بيروت**

زاوية الحمرا الحادثة البناء الكائنة في مزرعة رأس بيروت

[illegible]

زاوية الحمراء - داخل المدينة

الزاوية العمرية/ جامع الدركاه

الدركاه اسم لإحدى محلات بيروت القديمة

زاوية الدركاه أو جامع الدركاه كان يعلو باب الدركاه. وقد تميز بقدمه وطراز بنائه ومئذنته الخشبية الفريدة كما سنبينه في هذه الدراسة. مشيرين إلى الرابطة بين اسمه وموقعه ومحيطه وجواره، كإحدى نقاط المرابطة والمراقبة على سور بيروت القبلي.

ففي ٢٢ رجب سنة ٦٩٠هـ/ ٢٣ تموز ١٢٩١م دخل سنجر الشجاعي بيروت بطلب من السلطان المملوكي الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، ورفع علم السلطان على قلعتها وربوعها. وأتبعت بيروت بنيابة دمشق، وقد تولى حكمها عدة ولاة أكثرهم من أبناء المماليك الأتراك، كسيف الدين ابن ازدمر وناصر الدين البيدمري وآرغون.

وعمد المماليك إلى تحصين بيروت وشحنها بالمقاتلة. وازدهر مرفأ المدينة ونشط تجارها في إنشاء الخانات والقيساريات. وبسبب تكاثر المسلمين فيها ولا سيما المغاربة منهم، بتكاثر إنشاء المساجد، كما أن توقع أخطار الغزوات أدى إلى تكاثر الزوايا التي كانت المرابطة فيها جهاداً. وتحولت كنيسة القديس يوحنا المعمدان إلى مسجد باسم الجامع العمري

الكبير، أو جامع النبي يحيى، أو جامع فتوح الإسلام (الفتح الثاني لبيروت)، والبيارتة يقولون: الجامع الكبير، تمييزًا له عن الجامع العمري الصغير أو جامع البحر أو جامع الدباغة الذي أنشىء على اسم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله كما سبق وأوضحنا.

وفي عهد المماليك أنشىء أيضًا جامع البدوي، وزوايا المجذوب، والمغاربة، والحمراء والشهداء، كما سنبين في حينه.

يدلل صالح بن يحيى على قدم المدينة مما يشاهد في ظاهرها وباطنها من بقايا الأعمدة واللقى الأثرية[١].

وقد بقيت بيروت بوضعها القديم حتى سنة ١٨٣٢م عند احتلال إبراهيم باشا لها. كما بقيت غالب أحيائها وأبنيتها وفقًا للنظام الهندسي للمدن الذي طبقه المماليك، والذي يتمثل في زواريب ضيقة متعرجة كالمتاهة لا يعرف المرور فيها إلا أهلها. وكان بعضها مغطًّى بقناطر من البيوت المبنية بالحجر الرملي المستخرج من مقالع المصيطبة والزيدانية.

وهذه الهندسة حمت المدينة من الغزوات عدة مرات. فقد حمتها سنتي ١٧٧٢ و١٧٧٣م عندما حاصرها الأسطول الروسي طيلة أربعة أشهر وقصفها من ساحة البرج بالمدفعية لإخراج أحمد باشا الجزار منها، كما حمت المدينة سنة ١٨٢٦م عندما قصفها الأسطول اليوناني، ودخل بعض أفراد جيشه إلى المدينة، وتولى المفتي الشيخ أحمد الأغر تنظيم المقاومة الشعبية والدفاع عنها.

---

(١) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى (ص٨).

من المتفق عليه أن غالب سلاطين المماليك كانوا من أصل تركي. يتكلمون التركية، وكذلك نوابهم ومساعديهم. فمن الطبيعي أن يتركوا أثرًا من لغتهم التركية في النسيج المُدني والإداري، فتأخذ محلة أو أكثر من محلات المدن اسمًا ينبي عن الأصل التركي.

فمن محلات بيروت القديمة ورد ذكر محلة «القيراط»، والقيراط قبطية. قال البستاني: يونانية معرب كيراتون، استعملها المولدون في الحساب، وهم يقسمون المتجزئات إلى أربعة وعشرين قيراطًا، واستعملت أيام المماليك كوحدة في التوزيع الإقطاعي[١]. فكان الخراج يقسم إلى أربعة وعشرين قيراطًا توزع أجزاؤها على القرى توزيعًا مناسبًا. ففي عهد المماليك اختص السلطان بأربعة قراريط وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد.

يذكر أن السلطان سليمان القانوني عين سنة ١٥٦٧م لجنة لمسح أراضي السلطنة بما فيها بيروت، فدونت أسماء المالكين في سجلات، وأصدر السلطان سنة ١٦٠٢م إرادة سنية بحفظ السجلات في نظارة الدفتر الخاقاني، ومنحها القوة الثبوتية.

وقد قسمت أراضي السلطنة الأراضي معتمدة الدرهم والقيراط والحبة، فكان يجري تخمين الأملاك باعتبار محصولاتها من أجل فرض الضريبة عليها، وجعل كل جزء منها قيمته ٢٤٠٠ غرش، يساوي الدرهم المساحي الواحد. وقسم الدرهم إلى ٢٤ قيراط، والقيراط إلى

---

(١) محيط المحيط، مادة (قيراط).

٢٤ حبة، والحبة هي حبة (بزرة) الخروب التي كانت تستعمل في وزن الذهب[١].

وكانت محلة القيراط تمتد من شرقي مبنى العازارية إلى ساحة الدباس وطريق النهر شمالاً وحتى محلة الدحداح (اليسوعية) جنوبًا. وكانت أكثر أراضيها حدائق مزروعة بالخضار التي تسقى من مياه نبع «الكراوية» (الذي كان تجاه مبنى سينما الغومون بالاس في شارع بشارة الخوري)، والذي كان يستمد ماءه من ينابيع رأس النبع.

وسميت المحلة بالقيراط أخذًا من وحدة القياس التي اعتمدت لتوزيع مياه النبع المذكور على أراضي المحلة، وعلى ما سوف يجر منها بعد ذلك إلى الدركاه.

وقد أبقى الأتراك العثمانيون بعد انتقال السلطة إليهم سنة ١٥١٦م وما يليها في بلاد الشام (ومنها بيروت سنة ١٥١٧ م) على الأسماء التركية التي اشتهرت أيام المماليك. ولا يتبين بالتحديد الزمن الذي أطلقت فيه بعض الأسماء التركية على محلات في بيروت القديمة. نذكر منها محلات شوران وقرا وجاق وشونة الجن والدركاه.

ففي وثيقة مؤرخة في ٢٠ شعبان سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م سجلت مقاسمة بين ورثة أحمد الحشاش وأولاده وزوجته أمينة بنت أحمد حماده السردار على عمار واقع في جنينة بني الحشاش، وقد حدد موقع الجنينة أنه كائن في محلة «قرا وجاق».

---

(١) النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، إبراهيم علي طرخان (ص٩٥ وما يليها).

يذكر أن كتّاب الدواوين في العصر المملوكي ثم العثماني كانوا يحذفون الهمزة من أوجاق لتصبح وجاق. وقرا بالتركية تعني: أسود، ووجاق تعني: موقد من حديد يحرق فيه الحطب للتدفئة والطبخ، كما ذكر أحمد أبو سعد[١].

ويقول الدكتور أحمد السعيد سليمان: أن الوجاق يعني: الموقد، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه النار، ثم على أهله، ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد، ثم أطلق على صنف من أصناف الجند[٢].

ذكر الجبرتي أن السلطان سليم الأول بعد فتح مصر ترك فيها أربعة وجاقات، ثم زادها السلطان سليمان القانوني وجاقين سنة ١٥٢٤م، ثم صارت سبعة وجاقات سنة ١٥٥٤م.

ولعل المقصود بمحلة قرا وجاق الكائنة في محلة باب إدريس فرقة من الجنود بلباس أسود؟

أما شونة الجن فقد ورد في وثيقة مؤرخة في ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٦٣ هـ/ ١٨٤٧م أن آمنة بنت عبد القادر حرب النقاش زوجة صالح إدريس باعت إلى حنّة نقولا الصالحاني قطعة مفرزة من جنينة بني إدريس، يحدها قبلة ابن البائعة، وشمالاً ملك موسى بسترس، وشرقًا ملك حنّة، وغربًا سور البلد والشونة المعروفة «بشونة الجن»[٣].

---

(١) قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية (ص٢٨٩).

(٢) تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، أحمد السعيد سليمان (ص١٩٤).

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٣هـ (ص٧٨).

والشونة تعني: خان، أما الجن فهي من التركية Algin بمعنى مريض واهن، أو عاشق ولهان، وليست من الجنون. وقد ذكر الأمير حيدر في تاريخه في حوادث سنة ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٦ -٦٧م «الجُنُ» علي بيك الذي قتله الجزار عندما كان واليًا على قرية جهة البحيرة (مصر). كما ورد اسم حسن الجن كشاهد في وثيقة شرعية بيروتية تعود إلى سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

وشوران من محلات بيروت التي بقيت محافظة على اسمها التركي القديم، وهي واقعة بين الحمام العسكري والروشة. قيل: إن شوران تحريف لكلمة شوار. وقيل: بل سميت شوران نسبة إلى مجلس شورى البحر الذي كان يعقد عندها لمعرفة أحوال البحر. وبرأينا أن التسمية تحتمل عدة تفسيرات، فالشوار عند العامة هو: المكان المشرف على هبوط كطرف السطح ونحوه. يذكر أن الجزء المطل على البحر الممتد من النادي الرياضي صعودًا حتى مقهى دبيبو وصولًا إلى الروشة هو بمثابة شوار.

وشوران: وادٍ في ديار بني سليم، وهي من المدينة المنورة على ثلاثة أميال. وقيل: هو جبل عن يسارك وأنت ببطن عقيق المدينة تريد مكة، وأنه جبل مرتفع فيه ينابيع كثيرة.

وكان أهالي رأس بيروت يتحدثون عن وجود عيون مياه على امتداد شاطىء شوران حتى عين التينة، ولعل القبائل العربية التي نزلت في رأس بيروت وجدت في شاطىء شوران ما يذكرها بمواطنها الأصلية وبشوران الحجازية، فأطلقت اسم شوران على هذا الجزء من شاطىء بيروت.

وشوران موضع بأود، يقال: شرتُ الدابة شورًا: إذا عرضتها للبيع، ويعقب صاحب معجم البلدان قائلًا: «ولعل هذا الموضع كانت تعرض فيه الدواب». ولم يذكر أحد أن الدواب كانت تعرض للبيع في أرض شوران (عرفت منطقة عين التينة موضعًا عرف بسوق الخميس).

وفي سيناء موضع يسمى شور، ذكر في سفري التكوين والخروج، فسره المؤرخون بأنه معلم أو علامة حدود لمصر مع البحر الأحمر. ومحلة شوران البيروتية هي حاجز بين البحر والتلال المشرفة، كالظهر الأحمر وجبّ النخل.

أما برأينا فالتسمية بشوران تعود إلى زمن المماليك أو العثمانيين، وهي تركية فارسية من شور، وتعني: مالح/ مملح/ ملحيّ. ذكر المعمرون من البيارتة أن الشاطىء الممتد بين رأس التحويلة وموقع الحمام العسكري كان يسمى «الملاحة»، وأنه كان من عادتهم جلب مياه البحر إلى الجُوَر (جمع جورة) الواقعة بين الصخور، ويصار إلى جمع الملح الباقي فيها بعد تجفيف الشمس للمياه.

وصار التأثر بالقواعد العثمانية في جمع المفرد، فجمعوا شور على شوران، كما جمعوا مبعوث على مبعوثان (مجلس المبعوثان العثماني)، ومؤخرًا جمع طالب على طالبان، وقد أشرنا بالتفصيل إلى ذلك في كتابنا عن مزرعة رأس بيروت، وهو قيد الطبع.

أربع زوايا بجوار سور بيروت القبلي

يذكر أن عددًا من الزوايا والمساجد كان يتوزع على سور بيروت القبلي ما بين بوابة يعقوب (ساحة رياض الصلح) وساحة البرج (جامع محمد الأمين)، منها زاوية الشيخ حسن الراعي، وإلى الشرق منها جامع أو زاوية وتربة شيخ السربة (يقول البيارتة الشربة)، ثم يليه شرقًا جامع أو زاوية الدركاه، وبعد ذلك جامع الرجال الأربعين/ التوبة، وأخيرًا زاوية أبي النصر.

وكانت هذه الزوايا والجوامع بمثابة نقاط مرابطة لمراقبة منطقة جنوبي المدينة، قياسًا على الرباطات والجوامع التي توزعت في شمال المدينة تجاه البحر، كالدباغة والبدوي والمجيدية ودار المريسة فيما بعد.

أما الدركاه فمن الفارسية التركية: در Dar تعني: باب مدخل. وكاه تعني: قصر. وكان مصطلح دركاه عالي Dergahi Ali يستخدم للدلالة على القصر السلطاني، وكان متسلم بيروت في القرن التاسع عشر عبد الفتاح آغا حماده يلقب «بسرّ بوابين دركاه عالي»، أي: المسؤول عن حفظ أمن المدينة من خلال إشرافه على حرّاس بواباتها.

أما ما هي الدركاه والباب المؤدي إليها؟ فمن المرجح أن الدركاه أي القصر وفقًا للأب شيخو هو: مبنى المجلس البلدي الروماني الذي أنشأه هيرودوس أغريبا قرب باب الدركة.

يؤيد ذلك الأعمدة الغرانيتية المنتصبة بجوار كنيسة مار جرجس المارونية وتجاه مبنى العازارية، والتي كانت ضمن الجامع الصغير المعروف بجامع الرجال الأربعين. يذكر انه شرع في سنة ١٨٧٣م بعمارة كنيسة مار جرجس المارونية في شارع الأمير بشير، فعثر العمال أثناء الحفر على عمود من الرخام طوله ستة أذرع ولم يتمكنوا من إخراجه، واستنجدوا بقبطان الفرقاطة الفرنسية التي كانت قرب الشاطىء، فأرسل خمسين رجلًا عملوا على إخراجه.

ويتبين من التحقيقات التي قام بها الباحث الفرنسي كوللينه لمدرسة الحقوق الرومانية البيروتية، أن معهد تعليم الحقوق في بيروت كان ملحقًا بمعبد أو مجاورًا له. وأن جالية بيروت الرومانية قلدت في ذلك ما جرى في العاصمة روما. ورجح أن يكون المعهد قد أقيم في القرن الرابع بجوار معبد جوبيتير الذي كان موضعه في موقع دير راهبات المحبة التي أقامته الأم جيلاس، وأصبح اليوم مبنى العازارية[١].

وقد أقيمت في القرن الخامس عدة أبنية جميلة في بيروت من قبل أوستايت، منها بازيليك (كاتدرائية) مؤلفة من قاعة فسيحة بين صفين من الأعمدة (خمسة من كل جهة) من الرخام الأبيض، تتخللها لوحات من الفسيفساء.

وقد ذكر أحد طلبة معهد الحقوق المدعو زكريا أيام دراسته وجود ثلاث كنائس كنيسة القيامة أو كنيسة انستازيا، وكنيسة أم الرب (داخل

(١) تاريخ مدرسة الحقوق في بيروت، بول كوللينه (ص٥ وما يليها).

البلدة قرب المرفأ)، وكنيسة يهوذا. وقد تكرست الأولى في ربيع سنة ٦٤٠م، وضمت عدة أبنية منها كلية للحقوق.

ورجح الأب جوليان أن الكاتدرائية لا يمكن أن تبعد عن موقع هيكل جوبيتير، فتكون البازيليك قد أنشئت جنوبي الطريق الروماني القديم بين طرابلس وبيروت، والذي يبدأ حاليًا من شارع غورو شرقًا مرورًا بشارع الأمير بشير.

وقد أجريت حفريات قرب كنيسة مار جرجس المارونية الحالية أظهرت وجود كنيسة بيزنطية، مما يبرر القول بأن البازيليك بنيت شمالي شارع الأمير بشير، أي على السور الجنوبي لبيروت.

يذكر أن إلحاق معهد الحقوق بمعبد أو هيكل أو كنيسة عرف قديمًا وكذلك في العصور الوسطى، ونجد له شبهًا في المدن الإسلامية في المدارس الملحقة بالجوامع. ويتبين من الحفريات أن الهياكل القديمة حلت فيها الكنائس والكاتدرائيات. واستعملت كجدران داعمة للأسوار. وقد حلت الأسوار العربية محل الأسوار الصليبية، وهذه الأخيرة حلت محل الأسوار الرومانية.

وتكون تسمية الدركاه وباب الدركاه في محله، لأن الباب المذكور يؤدي إلى القصر الروماني، أي المجلس البلدي، أي: إلى البازيليك الذي حلت محل المجلس المذكور، وهو ما يفسر وجود عبارة دينية اكتشفت على حجر عند باب الدركة تقول: «أيها الداخل افتكر بالرحمة». وبالقرب من الدركاه أقيم جامع الدركاه أو الزاوية العمرية[1].

(١) بيروت في التاريخ، داود كنعان (ص١٣-١٤).

ومحلة الدركاه قديمة في بيروت، ويستدل على قدمها من عدة أمور، منها: اسمها التركي، كترجمة للقصر الروماني القديم. ولو كان المقصود بالقصر (الدركاه) سراي الأمير فخر الدين أو أي قصر غيره لكان أطلق لفظ الدركاه على باب السراي.

ومن أدلة قدمها ورود اسمها سنة ١٨١٨/ ١٨١٩م في وقائع بيروت. فقد كان محمد السراج قد أوصى بكل ماله لكونه لا وارث له أن يعمر ويرمم ويصلح قناة بيروت، وأن يعمر له بركة ويوقف لها دكانان، وذلك أواخر سنة ١٢٣٤ هـ/١٨١٨م، وبوشر بعمار القناة سنة ١٢٣٥ هـ/ ١٨١٩م وعمرت البركة في ساحة التتن في سوق قيسارية الأمير منصور (البازركان)، فعمل المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله تاريخًا لعمارة القناة ليوضع فوق البركة هو التالي:

يا حسنها خيرية أوصى بها — حتى له بالخير ربي يختم
أوصى بها السّراج وهو محمد — لا زال في روض الجنان ينعّم
يا شاربون يحقّ أن تدعو له — أرّخ بها وعليه أن تترحموا[1]

يذكر أن المفتي المشار إليه كان يقيم في محلة فتح الله القريبة من باب الدركاه، وقد آل منزله بعد وفاته إلى الشيخ محيي الدين اليافي.

وقد أكد إبراهيم العورة في تاريخ ولاية سليمان باشا العادل الخبر قائلًا بأن السّراج أوصى بإعطاء اثنين وعشرين ألف غرش من تركته لجلب «ماء الدركة» لبيروت. وبعد وفاته أمر سليمان باشا متسلم بيروت وقاضيها

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٢/٩٥٩).

ومفتيها بأخذ المبلغ من التركة وجلب الماء للبلدة. ولكن إبراهيم العورة أشار إلى أن الوصية بعمل «سبيل ماء الدركة» كانت سنة ١٨١٤م. يذكر أنه صار جر الماء من نبع الكراوية[1].

وذكر في حوادث سنة ١٨٣٢م أن إبراهيم باشا دخل بيروت من باب الدركاه. وتكرر اسم محلة الدركاه أو الدركه في الدعوة للانتخابات البلدية التي جرت في بيروت.

ففي سنة ١٨٦٤م شكلت أربع دوائر، لكل منها رئيس وثمانية أعضاء ومختاران. وقسمت بيروت إلى أربعة أقسام، أولاها: محلات البلدة القديمة، فكان من بينها الدركة ورجال الأربعين والتوبة الخ.

وفي سنة ١٨٨٠م ذكرت الأسماء نفسها في الأقسام الأربعة، وأضيف إليها كلمة «بيراكنده» التركية، وتعني: المحلات المتفرقة.

حددت مدة الانتخابات البلدية بعشرة أيام، كان يوم الأربعاء ٢٤ أيلول مخصصًا لعدة محلات، منها التوبة ورجال الأربعين والدركة.

وفي حزيران سنة ١٩١٣م حددت مدة الانتخاب بتسعة أيام، كان موعد محلتي التوبة والدركة في ١١ حزيران.

وبعدما خضعت البلاد للانتداب الفرنسي أجريت عمليات المسح الإجباري والتحديد والتحرير العقاري، فاختفت أسماء المحلات القديمة (غُيّبت)، وأُعطي له كلها اسم محلة المرفأ. وبقيت محلة واحدة تحمل في

(١) تاريخ ولاية سليمان باشا العادل، إبراهيم العورة (ص٢٢٨).

الدوائر الرسمية اللبنانية اسمان. ففي دوائر النفوس (الأحوال الشخصية) تسمى دار المريسة، وفي الدوائر العقارية سميت «عين المريسة».

أشرنا سابقًا إلى أن السور القبلي لبيروت شهد وجود أربعة جوامع أو زوايا بدءًا من زاوية الراعي، ثم زاوية شيخ السربة، فجامع الدركاه عند باب الدركة، ثم جامع التوبة أو الأربعين، وأخيرًا زاوية أبي النصر.

وقد غلبت قديمًا شهرة جامع الدركاه على بقية الزوايا نظرًا لما رافق باب الدركاه ومحيطه من إنشاءات وواقعات، ويتبين من الصورة الباقية لجامع الدركاه ارتباطه بباب الدركاه، فهو مبني لصيق الباب.

ذكر أن موقع الباب وبالتالي الجامع، كان عند رأس شارع اللنبي الذي كان يفترض أن يبدأ من رأس شارع المعرض جنوبًا وحتى البحر شمالًا، إلا أن تنظيم المعرض التجاري في الشارع المذكور سنة ١٩٢١م غلّب اسمه على جزء من الشارع الممتد من تجاه التياترو الكبير نزولًا شمالًا حتى مفرق شارع ويغان، وأصبح شارع اللنبي يمتد من هذا المفرق نزولًا حتى البحر.

الزاوية العمرية في الدركاه ومئذنتها

اعتبر باب الدركاه - الدركه لدى البيارتة - من أجمل أبواب بيروت، ذكر أن له ثلاث صور أخذت من داخل السور، اثنتان للمصور مونغور Mongort، والثالثة للمصور لو هو Le Houx. ويستدل منها أن بناءه كان مربع الشكل، مؤلف من قسمين: خارجي يعلوه برجان مربعان

يجمع بينهما حائط، والقسم الداخلي في واجهته أربع نوافذ بيضاوية. وفي أعلى الباب موقف للمدافعين عن المدينة، مع صفين من الكوى المعّدة لرمي السهام والرماح. وكانت شرفات الباب مروسة بالتدريج. وعلى ارتفاع ثلاثة أمتار وجد مكان مخصص للحرس، يحتوي على سبع كوًى لرمي القذائف.

وقد ذكرنا سابقًا بأنه عثر على كتابة باليونانية فوق رتاج باب الدركاه ونصها «أيها الداخل افتكر بالرحمة»، لعلها كانت في كنيسة بيزنطية. ومثلما غلب اسم الدباغة على الجامع العمري القديم الصغير (أو جامع البحر) غلب اسم الدركاه على الجامع المبني عند الباب، فعرف بجامع الدركاه، بينما هو في الحقيقة كان يعرف «**بالزاوية العمرية**».

ففي سنة ١٢٥٩/ ١٨٤٣م افتتح أول سجل شرعي لمحكمة بيروت الشرعية، وجرى قيد أوقاف المساجد والزوايا في الصفحات الأولى من السجل، فمما ورد فيه «علم بيان أوقاف وأحكار زاوية العمرية المعروفة بزاوية الدركه لصيق باب البلد باطن مدينة بيروت». وذكرت بعد ذلك الأوقاف والأحكار ولنا عودة إليها[1].

وقد قال بعض من ذكر هذه الزاوية أنها بنيت في القرن العاشر الهجري (يعني بين سنتي ٩٠٠ و١٠٠٠ هـ)، وهذا التعميم يتنافى مع ذكر وقائع التاريخ، علمًا بأن المؤرخين المسلمين الذين أرخوا للوقائع بالسنين كانوا أيضًا يذكرون الوقائع بالشهور وأحيانًا بالأيام. والتعميم الذي أشرنا

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٥٣).

إليه يؤكد ما نقوله من أن تاريخ بيروت لم يكتب حتى تاريخه، وأنه غيّب إن لم يكن عمدًا، فمن باب الإهمال لأسباب لا مجال لذكرها هنا.

وبمعزل عن وصف زاوية الدركاه بالزاوية العمرية التي أشرنا إليه، فإن الإشارة اليتيمة إلى الزاوية العمرية جاءت سنة ١٨٧١م. ففي تلك السنة كتب داود كنعان في مجلة الجنان عدة مقالات تحت عنوان «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت». وقد عمد إبراهيم نعوم كنعان ابن شقيق داود، إلى إعادة نشر المقالات المذكورة وأضاف إليها جزءًا ثانيًا عن بيروت بين سنتي ١٨٧١ و١٩٢٢م، ثم نشر الجزءان في كتاب «بيروت في التاريخ». معلقًا على بعض الأماكن الجغرافية.

المهم فيما كتبه داود كنعان إشارته إلى وجود سبيل في السوق الطويلة يعود إلى القرن العاشر الهجري بني لزاوية الأوزاعي ولزاوية ابن عراق، وأن نص لوحة تأريخ السبيل كانت كما يلي:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**.

أنشأ هذا السبيل المبارك برسم الزاوية العمرية المعروفة بزاوية سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي نفعنا الله ببركاته. أنشأه (أي: السبيل) لوجه الله تعالى أحد العمدة الشريفة من المرحوم مولانا السلطان سليم خان تغمده الله برحمته. أنشأه أضعف العباد سليمان الصوباشي والكاتب ببيروت، تقبل الله بإشارة الفقير إليه تعالى المستمد المدد من الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد بن عراق تغمده الله برحمته ونفعنا ببركاته. وعمر هذا السبيل بإشارة الفقير السيد الجليل

الشريف الشيخ عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت، تقبل الله ونفعنا ببركاته، بتاريخ ثامن شهر ذي القعدة الحرام سنة ٩٣٥». الموافق ١٤ تموز سنة ١٥٢٩ مسيحية[١].

ويستدل من هذا النص عدة أمور: فالسبيل أنشيء برسم الزاوية العمرية. وأن الزاوية العمرية معروفة بزاوية الإمام الأوزاعي، وأن إنشاء الزاوية بطلب من أحد عمدة السلطان سليم خان (سليم الأول)، وأنشأها الصوباشي والكاتب ببيروت بمدد من محمد بن عراق، وبإشارة الشيخ عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت.

فيجمع تاريخ السبيل بين الأوزاعي ومحمد بن عراق والسلطان سليم والصوباشي في بيروت وعبد الرحيم المرابط فيها. وكل ذلك برسم الزاوية العمرية. والعمرية على اسم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد أشرنا في دراستنا لأول جامع عمّره المسلمون في بيروت بعد الفتح أنه سمي بالجامع العمري (جامع البحر/ جامع الدباغة)، تيمنًا بالخليفة عمر بن الخطاب، كما سميت عدة مساجد في المدن الإسلامية التي فتحت أيام خلافته باسمه.

ومما يلفت النظر أن إبراهيم كنعان علّق في هامش الصفحة ٢٠ على لوحة السبيل. فقال: «إن السبيل تحول إلى زاوية الإمام الأوزاعي بعد أن كانت مياه الدركه (أي: مياه بيروت المعروفة بالكراوية) تصل إليه بدواة

---

(١) بيروت في التاريخ لداود كنعان (ص٢٠)، وتاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت لطه الولي (ص١١٨ وما يليها).

جرى إلغاؤها والاستعاضة عنها بقساطل حديدية تجري بها مياه نهر الكلب».

ويفهم من هذا التعليق أن المياه كانت تصل إلى السبيل من مياه الدركه، أي أن هذه المياه الأخيرة كانت تؤخذ من رأس المعرض إلى السوق الطويلة؟! أو أن مياه السبيل كانت تجمع في دواة (حوض) مأخوذ ماؤها من الدركه؟ وذلك حتى وصول مياه نهر الكلب وجرّها إلى السوق الطويلة بعد سنة ١٨٧٥م.

ونعتقد أن ثمة خطأ مطبعي بحيث وردت لفظة دواة بدل «رُواة»، ولعل المقصود بأخذ الماء من ماء الدركاه نقله بالروايا، مفردتها راوية (كالقربة)، وتجمع على رُواة، أي أن مياه الدركاه كانت تنقل بالقُرَب إلى السبيل على طريقة السقائين في نقل المياه.

ولعلّ تسمية زاوية الدركاه بالعمرية يعود إلى قربها من مقبرة الصحابة، أو مقبرة سيدنا عمر التي أثبتنا موقعها في قطعة الأرض الواقعة خارج باب الدركاه، والممتدة من مبنى التياترو الكبير مرورًا بالأرض التي بدء بإنشاء مبنى لاند مارك عليها واكتشفت فيها رفات الصحابة والتابعين، وتتمتها قطعة الأرض التي أقيم عليها فيما سبق مبنى الأسكوا، كما أثبتنا في دراسة سابقة (نشرت في اللواء في ١١ و١٢/٣/ ٢٠١١م). وسميت بالعمرية مثلما سمي أول جامع بعد الفتح الأول لبيروت باسم الجامع العمري، ثم أعيدت تسمية كنيسة النبي يحيى بعد الفتح الثاني سنة ١٢٩١م باسم الجامع العمري الكبير[١].

---

(١) انظر مقبرة الصحابة.

أما تحديد تاريخ إنشاء الزاوية من قبل داود كنعان ثم من الشيخ طه الولي فلعله استناداً إلى أن بناء السبيل لمصالح الزاوية تم أيام سلطنة السلطان سليم خان، أي سليم الأول الذي تسلطن سنة ٩١٨هـ، وفتح بلاد الشام وبيروت سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وتوفي سنة ٩٢٦هـ. فالإشارة إليه في لوحة السبيل تبرر القول بأن الزاوية العمرية أنشئت بين سنتي ٩١٨ و٩٢٦هـ.

وتبدو الإشارة إلى تعمير السبيل باقتراح من عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت ذات أهمية كبيرة، فمنذ حرب الاسترداد الإسبانية وبدء سقوط المدن الأندلسية نشأت حركة مرابطة من قبل المغاربة والأندلسيين في بلاد الشام عامة وسواحلها خاصة. وكان قسم كبير منهم قد حارب في جيش صلاح الدين، واتخذ آخرون مركزاً لرباطهم في ساحل بيروت. وأوضحنا الأثر الذي تركه المغاربة في بيروت، ولا سيما في العمارة التي تجلت في مئذنتي جامع الدباغة وجامع البدوي (راجع دراستنا حول الجامعين المشار إليهما). وقد تجلى هذا الأثر أيضاً وبشكل ظاهر في مئذنة الزاوية العمرية أو جامع الدركاه على غرار القديمة في بيروت ومآذنها.

وعلى ما أهمله المؤرخون من تفاصيل حول طرز بناء المساجد القديمة في بيروت، فقد امتد إهمالهم إلى الزاوية العمرية. ولولا أن أحد المصورين الفنانين الأجانب الذي أعجبته جمالية مئذنة الزاوية العمرية فأنتج بطاقة بريدية لما عرفنا موقع الزاوية ولا جمال مئذنتها.

ويبدو من ظاهر الصورة أن قسماً من مبنى الجامع ملاصق لباب الدركاه ويرتفع فوقه. وتبدو نافذة في الجدار القبلي للجامع. وترتفع فوق البناء مئذنة مربعة على غرار مئذنتي الجامع العمري القديم (جامع البحر) وجامع البدوي. وبدنها مشابه لمئذنة الجامع العمري الكبير المربعة التي أنشئت سنة ١٥٠٨م.

يذكر أن المؤذن يؤمر وفقًا لقواعد الحسبة إذا صعد المنارة أن يغضّ بصره عن النظر إلى دور الناس، ويؤخذ عليه العهد في ذلك، ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذن في أوقات الصلوات. وأن يستقبل القبلة ويلتفت في الحيعلتين يميناً وشمالاً، وصدره إلى جهة القبلة. ورفع الصوت في الأذان ركن من أركانه حديث «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد». إلا أن مئذنة جامع الدركاه تتميز عن بقية المآذن بشرفتها الجميلة وبمادة بنائها.

فبدن المئذنة مبني من ألواح خشبية. أخبرني أحمد سليم فليفل رحمه الله أن مؤذن جامع الدركاه عندما يحين وقت الأذان كان يضرب بعصاه جدران المئذنة كي ينبه النساء المقيمات في جوار الجامع لاتّخاذ الحيطة والاحتجاب (ذكرت هذه الملاحظة في كتابي منزول بيروت[1]).

والذي يؤكد الخبر المذكور أن ملحني الأناشيد الوطنية محمد وأحمد فليفل (وهذا الأخير زوج عمتي سلوى) كانا في صغرهما يتوجهان من منزلهما في الأشرفية قاصدين منزل نسيبهما الحاج حسن بن

---

(١) (ص٢١٨).

مصطفى فليفل الكائن قرب باب الدركاه، كما تفيدنا وثيقة شرعية مؤرخة في الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م[١].

وأن أحدهما محمد رحمه الله كان يقصد منزل جده لأمه ديب صبرا في محلة التوبة قرب باب الدركاه ليصحبه إلى الجامع العمري الكبير فيسمع من جده ويردد معه الأناشيد الدينية.

كما تتميز مئذنة جامع الدركاه بأن شرفته التي يقف عليها المؤذن كانت مختلفة عن الشرفات التقليدية، فقد استعيض عن الشرفة بنافذتين (من كل جهة)، تعلو كل نافذة منهما قنطرة على شكل حدوة الفرس (في حين كانت نوافذ مئذنة جامعي البدوي والدباغة عادية). ويعلو القناطر غطاء مخروطي.

ومن المعروف أن القناطر بشكل حدوة فرس شاعت في أبنية المغرب العربي والأندلس. وتبدو هذه المئذنة بشرفتها ونوافذها تقليداً لأبراج المغرب والأندلس ولقصورهما. ولعل الأندلسيين والمغاربة الذين نزلوا في بيروت ورابطوا فيها حملوا في ذاكرتهم تقاليدهم وتراثهم الشعبي والمعماري، فظهرت فيما أسهموا فيه من أبنية ومساجد. ولما كان باب الدركاه يعني باب القصر، فقد جاءت هذه المئذنة وشرفتها ونوافذها تقليداً للقصور الأندلسية والمغربية.

يؤيد ذلك أن ابن طولون الدمشقي[٢] أشار في حوادث سنة ١٤٩٢هـ إلى قدوم مقاتلة من غرناطة مع عائلاتهم. كما يؤيده أن ريتشارد أيتنغهاوزن

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣١٠هـ (ص١٦٠).
(٢) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (١/١٤٣).

في كتابه عن فن الرسم العربي أشار إلى وجود مخطوط في مكتبة الفاتيكان يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي اكتشفه ج. ليفي ديلا فيدا كتب في المغرب أو الأندلس، وهو يتضمن حكاية شعبية بعنوان بياض ورياض. ويحتوي المخطوط على لوحات تظهر أبراج قصور وحدائق تشبه في بنائها وشرفاتها ونوافذها شرفة ونوافذ مئذنة جامع الدركاه[١].

ويمكن تقدير ارتفاع الجامع والمئذنة من الرسم المعروف له، والذي نقدره بخمسة عشر متراً بعد الأخذ بعين الاعتبار ارتفاع باب الدركاه والأبنية المجاورة للجامع، علماً بأن ارتفاع الغرف في الأبنية البيروتية القديمة لم يكن يقل عن أربعة أو خمسة أمتار. أما جدران الجامع فمبنية من الحجر الرملي المستخرج من مقالع الزيدانية والمصيطبة.

أوقاف الزاوية العمرية ومتوليها وإمامها

كانت محلة باب الدركاه عامرة بالسكان والدكاكين وازدهرت لقربها من باب المدينة القبلي الذي كان قديماً أحد أبواب بيروت الأربعة الذي شكل نقطة التقاء بين القادمين إلى المدينة والخارجين منها في الاتجاهات المختلفة. وقد أشارت السجلات الشرعية إلى كثرة الأزقة في المحلة، وكثرة المنشآت الدينية والمدنية التي أقيمت فيها.

فمن أزقة محلة الدركاه زقاق دندن، باعت فيه في ٢١ رمضان المبارك ١٢٩١ هـ/١٨٧٤م وردة جرجس النقاش داراً يحدها قبلة دار الحاج سعيد مرعي بليق، وشمالاً الحاج خليل الناعماني، وغرباً خالد يموت[٢].

(١) الرسم العربي، ايتنغاوزن (ص١٢٦-١٢٧).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ (ص١٠٧).

ومن زواريب المحلة زاروب الطمليس، وفيه دار عمر وعبد الرحمن وفاطمة أولاد أحمد فانوس، التي يحدها شمالاً دار بني النحاس، وشرقًا بني البهلوان ودار بني العريس، وغربًا ورثة مصطفى النقيب وقبلة طريق سالك. وقد جرت قسمة هذه الدار في ٢٨ رجب الفرد سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م[١].

وفي ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٧ هـ/١٨٨٠م جرت قسمة مهايأة سكن دار بين الحاج عباس بن مصطفى بن صالح الجدايل وبين زينب وعائشة ونفيسة وسعدى بنات مصطفى بدر وفاطمة مصطفى العطشان[٢].

ومن أزقة باب الدركاه الزقاق الجديد الذي بيعت فيه في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٤م بعض الأسهم الشائعة في دار بني يموت، التي يحدها قبلة وشرقًا كنيسة الروم (المسكوبية)، وشمالاً طريق سالك، وغربًا دار عبد الله قليلات[٣].

وورد ذكر «كنيسة الروم الكائنة باطن المدينة قبيل باب الدركه» في وثيقة مؤرخة في ١١ شوال ١٢٦٦ هـ/١٨٥٠م، وكان وكيلا الكنيسة في حينه قسطنطين رزق الله وميخائيل فارس طراد[٤].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ (ص٧٦).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٧هـ رقم ٦٠.

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ رقم ٢.

(٤) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ (ص٦٥).

ونشأ سوق باب الدركاه نسبة إلى الباب المذكور قريبًا من قهوة العسس (الحرس)، جرت فيه في ١١ شوال ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٤م مبايعة لأسهم في دكان إلى أولاد سعد الدين شعر[١].

ونشأ بالقرب من باب الدركاه سوق الحياكين، باع في ٢٦ رمضان ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م الحاج عبد الغني خليل خطاب أسهمًا شائعة في داره إلى الشيخ أحمد بن سليمان خطاب[٢].

ومن مؤسسات محلة باب الدركاه الحمام الجديد الذي أنشأه أحمد حمزة سنو والياس سلوم (ذكرنا أخبار هذا الحمام في كتابنا منزول بيروت). والخان الصغير أو خان ثابت، المواجه للباب، والذي بني محله فيما بعد مبنى التياترو الكبير.

أوقاف الجامع والمتولي

لم يتبين من كان المتولي قديمًا على أوقاف الزاوية العمرية/جامع الدركاه، ولا من توالى على إمامة الجامع. ويتبين من وثيقة مؤرخة في ٢١ من ذي العقدة سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨م «أن مجلسًا شرعيًّا حضره صالح ابن الشيخ سعيد بن قاسم الرفاعي والحاج عبد الحليم بن مصطفى بن محمد قليلات والحاج محمود بن صالح بن مصطفى التمراوي والحاج حسن بن مصطفى فليفل وهم من سكان محلة باب الدركاه، وأخبروا أن الشيخ سعيد الرفاعي الذي كان متوليًا على زاوية الدركاه توفي منذ ثلاث عشرة سنة في

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٠هـ رقم ١٦.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ (ص١٧٦).

بيروت (أي حوالي سنة ١٢٩٢ هـ)، ولم يقم متول خلافه، والتمسوا إقامة متول ليتعاطى مصالح الزاوية وأوقافها. فتقرر إقامة الشيخ عبد الله ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ عبد الله الرفاعي الذي هو قائم بمصالحها من حين وفاة عمه الشيخ سعيد إلى الآن، متوليًا على الزاوية وأوقافها، ليقوم بمصالحها ولوازمها...»[1].

وكان المتولي مقيمًا قرب الجامع. ففي وثيقة مؤرخة في ٣ ربيع الثاني سنة ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م جرت مقاسمة الدار الكادك المعروفة بدار الشيخ قاسم الرفاعي الكائنة في محلة قناة الدركاه بين سعيد ابن الشيخ قاسم الرفاعي أصالة ووصاية على ولدي أخيه محيي الدين ومحمد ولدي الشيخ عبد الرزاق الرفاعي، وبين عباس مصطفى الجدايل أصالة وولاية على بنته خديجة بنت فاطمة بنت الشيخ أحمد الرفاعي، والبيت هو قبوان سفليان معقودان بالمؤن والأحجار، يعلوهما قبوان آخران معقودان، «ويعلوهما فسحة دار سماوية فيها بيتين للشرق وللغرب، ومطبخ ومرتفق مسقوفان بالجسور والأخشاب، ويعلو البيت الغربي تخت من الخشب»[2].

ذكرنا افتتاح أول سجل لمحكمة بيروت الشرعية سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م وذلك بعد خروج إبراهيم باشا وعودة الحكم العثماني. وكان لكل من القضاة الذين تولوا قضاء بيروت قبل تلك السنة، سجله الخاص يحتفظ به في بيته ولا ينتقل إلى من يحل محله في القضاء. ومنذ سنة ١٢٦٧هـ/

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٥هـ رقم ٢٢٠.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ (ص٨١).

١٨٥٠م أصبحت بيروت مولوية دورية يعين نائبًا (أي قاضيًا) عليها من خريجي معهد القضاة في الآستانة. وكان بيرمي زاده بن خليل هو أول نائب.

وقد سجلت في السجل الأول المذكور أوقاف المساجد والزوايا في بيروت، ومن ضمنها «أوقاف وأحكار زاوية العمرية المعروفة بزاوية الدركه لصيق باب البلد باطن مدينة بيروت».

وكان من ضمن هذه الأوقاف دكان بالقرب من الزاوية. ومن الأحكار حكر على دار الحاج مصطفى بدر في زاروب الطمليس (قرشان ونصف)، وحكر على دكان عبد الغني سعادة في السوق الجديد (رطل زيت واحد)، وحكر على بيت عبد الوهاب دندن عند قناطر بني دندن على الحاج أحمد الداعوق النّجار والحاج مصطفى زنتوت (رطل زيت واحد)، وحكر على دار صابات اليان بالقرب من باب الدركه (قرش ونصف).

ولا يبدو أن رطلي زيت يكفيان لإنارة الزاوية ولا قروش الأحكار تسد نفقات صيانة الزاوية وأجرة خدمها وإمامها ومتوليها. والحكر هو: مال مرتب على عقار أو دكان لمصلحة مسجد أو زاوية أو مؤسسة خيرية، وينتقل الالتزام بدفع قيمته لمن ينتقل إليه المال المقرر الحكر عليه.

وأكبر حكر لمصلحة الزاوية العمرية بلغت قيمته اثني عشر قرشًا، وأصله أنه في ١٥ رمضان المبارك سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦٢م وبموجب وثيقة شرعية باع علي بن محمد عيد الإدلبي رئيس مجلس تجارة بيروت بوكالته عن الفريق محمد طاهر باشا مأمور موقع بيروت سابقًا إلى أحمد حمزة سنو

والياس سلوم مناصفة «الجنينة المصوّنة الكائنة في محلة باب الدركاه داخل المدينة، المشتملة على أغراس متنوعة، يحدها قبلة سور المدينة، وشمالًا وشرقًا طريق سالك، وغربًا طريق سالك، وشمالًا بركة الدركاه ... وقد أخذ المشتريان علمًا بما هو مرتب على الجنينة وقدره اثني عشر قرشًا في رأس كل سنة حكرًا لجهة الزاوية الملاصقة لباب دركاه المدينة».

يذكر أن السيدين سنو وسلوم أقاما على هذه الأرض الحمام المشهور بحمام الدركاه.

وأهمية هذه الوثيقة أنها تحدد موقع بركة الدركاه التي سبق وأشرنا إليها. ويذكر في هذه المناسبة أن الشيخ عبد **الله العلايلي** أخبرنا يومًا بأن عمّه الذي كان فيه بعض اللطف، كان يردد دائمًا عبارة «والدركه فيها بِركة».

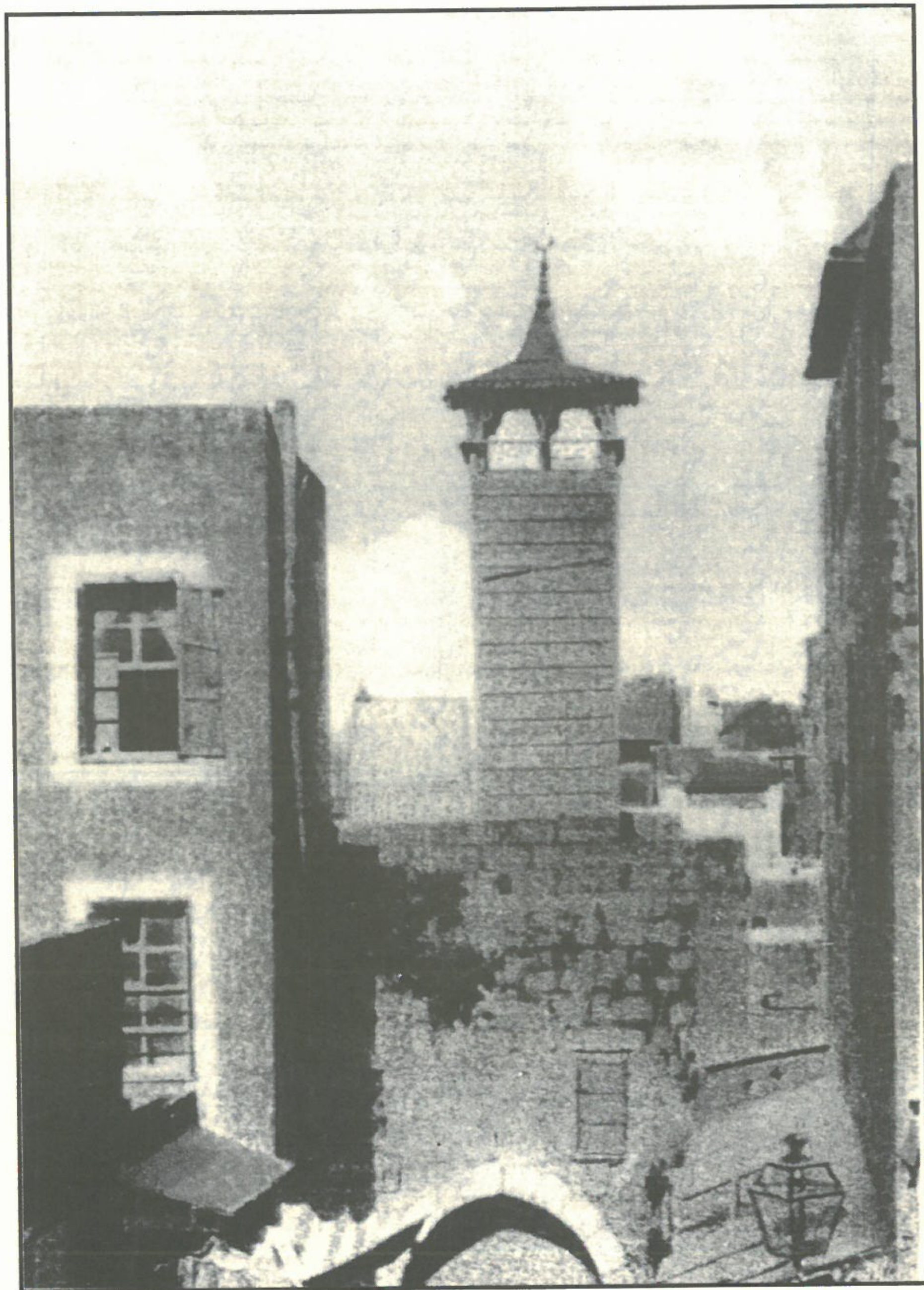
كما وجدنا في السجلات الشرعية حجة شرعية مسجلة بتاريخ ٥ شعبان ١٣٢٣ هـ/١٩٠٦م يتبين منها أن خالد آغا الأرناؤوط وقف أربعة قراريط من قطعة الأرض المشتملة على تسع دكاكين، وفوقها ثلاث خانات الواقع ذلك في محلة الفاخورة بزقاق مينة البصل، على من سيرزقه الله من الأولاد ومن بعدهم يعود وقفًا على جامع رأس بيروت، الذي اهتم ببنائه مصباح قريطم، وعلى جامع القنطاري، وعلى جامع الحرش، وعلى «زاوية الدركاه»، وعلى جامع الأشرفية. وجعل التولية لنفسه وإذا عاد الوقف الى الجوامع فتكون النظر والتولية لحسن أفندي الحلبوني ثم الى أولاد هذا الأخير وعقبه».

وليس في دفتر الأوقاف القديم بيان بأئمة الجامع وبوارداته ونفقاته. ومما هو معلوم إضافة إلى متوليه أن إمام جامع الدركه كان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الشيخ حسن بن محمود بن الشيخ عبد القادر الفاخوري.

وبعد أن فتح شارع اللنبي - شارع المعرض فيما بعد - جرى إعطاء إدارة الأوقاف العقار الواقع في الزاوية الغربية القبلية لشارع المعرض الحالي، فأقيم عليه محلات منها واحد شغله الصيدلي محمد نجا، ومحل باسم مطعم فلسطين، وقد قام المهندس بهجت عبد النور بتحضير رسم لجامع جديد إلا أنه لم ينفذ وبقي حبرًا على ورق؟



جامع أو زاوية الدركاه



تولية آل الرفاعي على زاوية الدركاه

زاوية/ جامع الرجال الأربعين

مدح مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله[1] علامة الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري عندما زار بيروت سنة ١٨١٤م ونزل في دارة المفتي، وذلك في قصيدة ذكر فيها المفتي المزارات التي زارها الكزبري في بيروت ومما قال فيها:

وزار الرجال الأربعين عليهم   يصبّ من الرضوان وبل وصيّبُ

يذكر المخضرمون من اللبنانيين الذين عرفوا بيروت قبل النكبة التي حلت بها سنة ١٩٧٥ درجًا عريضًا جنوبي مبنى العازارية يسمى درج الأربعين، وكان هذا الدرج يؤدي إلى ساحة السمك وإلى سوق أبي النصر، وسمي أيضًا درج خان البيض، لأنه كان يوصل إلى الأقبية التي اتخذها باعة الدواجن والبيض مركزًا لتجارتهم، والكائنة تحت كاتدرائية مار جرجس المارونية.

وكان الواقف على الدرج المذكور يشاهد إلى يساره أعمدة ضخمة منتصبة ضمن حفريات أجريت في تلك المنطقة بجوار باب الدركاه. وقد تعددت أسماء تلك المحلة والمقصود واحد، فمن أسمائها: سواري الأربعين، ورجال الأربعين، ودرج الأربعين، ومقام الأربعين، وجامع الأربعين.

---

(١) ديوانه (١/٣٩٠).

والثابت أن الأعمدة المذكورة كانت ضمن الجامع الذي كان قائمًا في موقعها وعرف باسم جامع الرجال الأربعين. وقد أشار إليه هنري غيز[1] قنصل فرنسا في بيروت في أوائل القرن التاسع عشر عندما تكلم عن الرواق الروماني من الأعمدة فقال: «بقليل من الخيال والاستعانة بالأعمدة الباقية نجد إذا ما اتجهنا صوب الشرق ابتداء من الأعمدة التي ما تزال منتصبة في المسجد المحمدي الصغير المسمى «الرجال الأربعين» آثار هيكل قد تكون هذه الصفوف من الأعمدة تؤلف أروقته».

وقد كان الباب القريب من الدركاه يسمى بوابة الرجال الأربعين، لقربه من المحلة المعروفة بهذا الاسم. وكلام غيز الذي كان في بيروت سنة ١٨٠٨م يتوافق مع إشارة الشيخ فتح الله لزيارة الشيخ الكزبري للرجال الأربعين سنة ١٨١٣م، ما يفيد بأن الأعمدة - البادية اليوم - كانت ضمن جامع أو زاوية الرجال الأربعين. ولم يذكر ما إذا كانت للجامع قبة أو منبر أو مئذنة؟

نشير إلى أن الفكر الإنساني اخترع العدد للتعبير عن علاقة كمية، ثم رأى فيه البعض قوى سحرية عبر عنها برموز، فأصبح لبعض الأرقام (٣-٧-١٣-٤٠) علامات سرية ذات خواص مختلفة. ووصل الأمر في الكلمات إلى بيان عجائب الأعداد المتحابة، ومعنى المتحابة على ما قاله ابن خلدون: أن أجزاء كل واحد من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساويًا للعدد الآخر صاحبه، فتسمى لأجل ذلك متحابة.

---

(١) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن (ص١٩٤).

والتوسع في هذا الموضوع بحاجة لدراسة خاصة لا يستوعبها المقام، إلا أننا سنشير إلى بعض الأربعينيات التي لا تزال تعيش بين ظهرانينا. جاء في الآية الكريمة: (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة)، فاعتبر سن الأربعين سن كمال العقل ووفور الرأي ووقت الإنابة، ولهذا كان يوحى إلى أكثر الأنبياء على رأس الأربعين.

وفترة النضج هذه المحددة بأربعين سنة امتدت إلى أربعينيات عديدة، فأربعين الميت: انتهاء فترة الحداد، وأربعين النفساء: إيذان بخلاص المرأة من مخاطر ما بعد الولادة، وأربعين المرافىء - كرنتينا -: الفترة اللازمة لظهور المرض. ونشير إلى أربعينية الشتاء والصيف. وقد انعكست الأربعين في موروثاتنا الشعبية فقلنا: من عاشر القوم أربعين يومًا يا بيصير منهم يا بيرحل عنهم، وقيل للنفساء: «تكملي أربعينك بخير».

وقد ورد ذكر الأربعين في الكتاب المقدس بسفر العدد وفي غيره من الأسفار. وفي إنجيل متى (الإصحاح الرابع) إشارة إلى صيام المسيح عليه السلام أربعين نهارًا وأربعين ليلة. وفي القرآن الكريم ورد ذكر الأربعين في سورة الأعراف (آية ١٤٢)، وسورة البقرة الآية (١).

ويعرف المشتغلون بالدراسات الإسلامية أهمية موضوع (الأربعون حديثًا) في التراث الأدبي الإسلامي العربي والتركي والفارسي. والأصل من الحديث الضعيف: «من حفظ على أمتي أربعين حديثًا من أمر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء». وهذا الحديث أصل آلاف الرسائل والمجموعات التي جمعت (الأربعون حديثًا).

فتعددت الأربعينيات في أصول الدين وفي الفروع وفي الآداب وفي الزهد، ومنهم من جمع أربعين حديثًا في إثبات الصفات أو في المواعظ أوفي العبادات. وفي اللغة الفارسية عرفت الأربعون حديثًا باسم (جهل حديث)، ومنها ما نظمه الشاعر عبد الرحمن الجامي، وكذلك ظهر أكثر من نتاج باللغة التركية.

وآخر من صنف الأربعينيات مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري في مخطوطة له بخزانتنا بعنوان: «الأربعينيات»، صنف فيه الأحاديث في أربعين بابًا في كل باب أربعون حديثًا، وابتدأ فيه بالأربعين حديثًا التي جمعها الإمام العلامة أبو زكريا يحيى النووي رحمه الله تعالى. وفي كثير من الأحاديث بيان لأحكام فقهية ولعبادات وعقوبات كتحديد الجار بأربعين دارًا من كل جهة، وعقوبة شرب الخمر بأربعين جلدة، ونصاب زكاة الأربعين شاة، واعتبار طلب العلم كعبادة متعبد أربعين عامًا[1].

ودخل العدد الأربعين في الطلاسم والأوفاق. وبقي العدد (أربعون) في ذاكرة العالم بالغرب كما الشرق «كأربعينية الملك»، وهو: نظام ينسب إلى فيليب أوغست، ويقضي بمنع مباشرة أي ثأر ضد أهل المعتدي قبل مرور أربعين يومًا على الاعتداء.

ونشير إلى أن الأكاديمية الفرنسية التي أنشأها ريشيليو سنة ١٦٣٥م ووضع أنظمتها مؤلفة من أربعين عضوًا، ووضع فيها الكرسي الواحد

(١) الأربعينيات، عبد الباسط فاخوري، المقدمة.

والأربعون المخصص لمشاهير الأدباء الذين كان يجب أن يكونوا في الأكاديمية ولم يدخلوها لسبب ما.

أربعون الصوفية والأبدال

للصوفية أربعون شيخًا، وصوم أربعين يومًا، وفي أقوالهم: إن بناء أمرهم على أربعة شروط: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والعزلة عن الأنام. ومن قواعدهم: صوم أربعين يومًا.

وصف السهروردي كيفية الدخول في (الأربعينية) كل سنة مرة: بأن يتجرد الإنسان من الدنيا، ويخرج عما يملكه، ويغتسل، ويصلي ركعتين، ويتوب، ويقعد في خلوته لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة والجماعة. وقوته في الأربعينية من الخبز والملح قدرًا معينًا، ينقص منه كل ليلة دون اللقمة. ومنهم من كان لا يعمل في تقليل القوت، ولكن يعمل في تأخيره بالتدريج. واستكمال الأربعين له أثر ظاهر في ظهور بشائر الحق والمذاهب السنية. وكانوا يختارون للأربعين شهر ذي العقدة وعشرًا من ذي الحجة.

ومن جهة ثانية قسم الصوفية الولاية إلى مراتب، أعلاها مرتبة القطب وهو الغوث، والنقباء، فالأوتاد، والأبدال، والأخيار، فالمريد. قال ابن تيمية: إن الأسماء الدائرة على لسان العامة والنساك مثل غوث وأوتاد وأقطاب والأبدال الأربعين لا توجد في كتاب الله، ولا هي مأثورة عن النبي ﷺ إلا لفظ الأبدال، فقد روي فيه حديث مرفوع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم - أي: أهل الشام - الأبدال، أربعين رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلًا». وقد ذكر صالح بن يحيى في كتابه

«تاريخ بيروت» أن محمداً ابن الإمام الأوزاعي كان عابداً قانتاً، وكان يظن فيه أنه من الأبدال.

ويقول البعض بأن الأربعين هم شهداء أعدموا أيام الوثنية، لأنهم اعتنقوا المسيحية، ويقول آخرون: إنهم من الصالحين الذين انقطعوا لعبادة الله. وقد تكون محلة رجال الأربعين سميت ذكرى لهم. علماً بأنه يوجد قرب نابلس مقام الأربعين، وكذلك زقاق الأربعين في حلب، حيث مقام أربعين صالحاً، وفي غيرها من المدن.

ورد ذكر محلة الرجال الأربعين في عدة وثائق شرعية، منها وثيقة مؤرخة في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٦م اشترى بموجبها الشيخ عبد القادر النحاس (والد عبد الرحمن نقيب الأشراف) وزوجته حليمة محمد يموت من عائشة حسن القيسي البيت الواقع في دار بني قنبريس الكائنة في «محلة الرجال الأربعين قريباً من جامع التوبة داخل المدينة»[1].

وفي العاشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٥م اشترى عبد الله عبد الغني الجيزي من اندراوس وحبيب وسوسان وخزنة ومريم وسعدى بطرس صليبا داراً كائنة في «زقاق الحياكين التابع لمحلة الرجال الأربعين داخل المدينة، يحدها قبلة عمار المطران اغابيوس، وشرقاً كنيسة الطائفة المسكوبية، وغرباً عمار وقف دير البشارة ...»[2].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٦م ٢٥ ذي القعدة.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م ١٠ شعبان.

يذكر أنه بتاريخ الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م استمع الشيخ عبد القادر النحاس في «مطرانية الروم الكاثوليك الكائنة بمحلة الرجال الأربعين إلى التماس بتعيين فيليب روفائيل فرعون وصيّاً على ماري روز واليس بنتي عمه ميخائيل فرعون»[1].

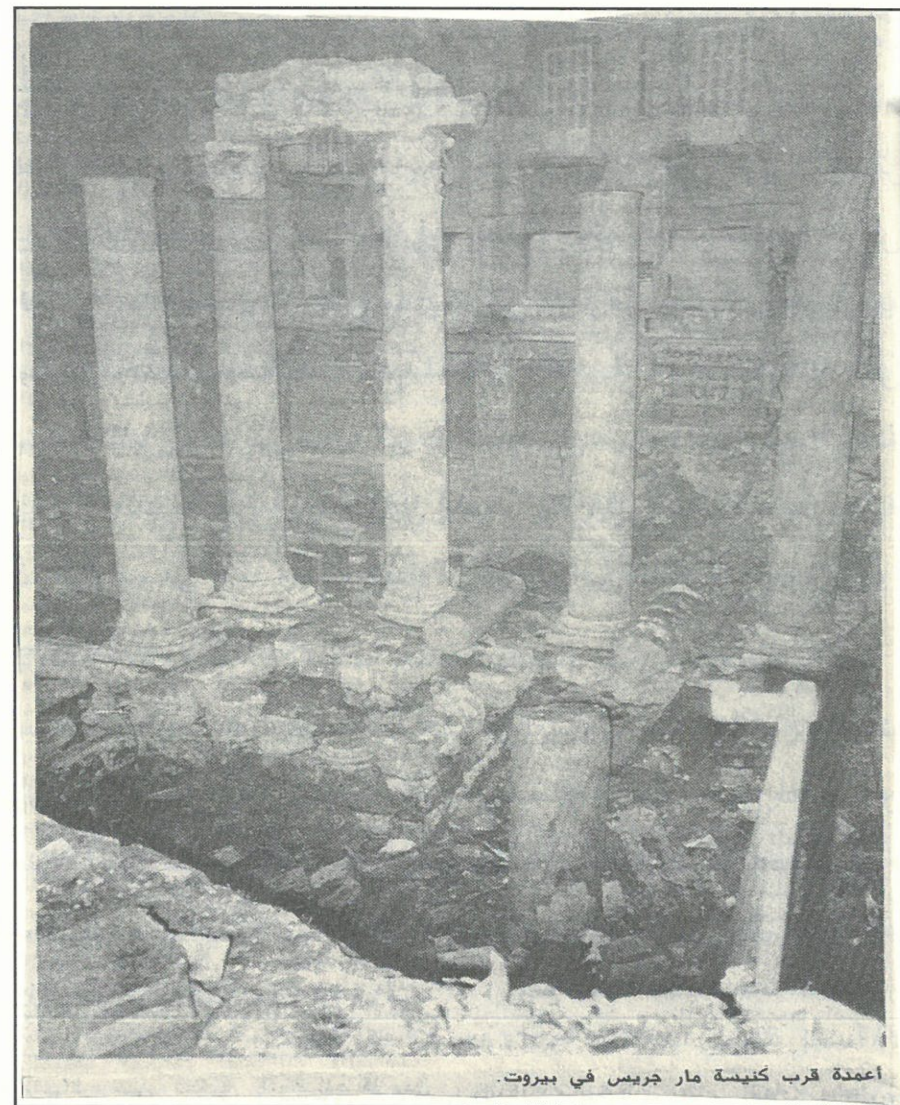
وحصلت في شهر محرم الحرام سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م منازعة ادعى بموجبها المحامي خليل الحسامي بوكالته عن المطران بطرس شبلي عاد المتولي على وقف فقراء كنيسة مار جرجس المارونية، على ميشال ضاهر عون بأن هذا الأخير يتعرض لعقارات تخص الوقف، من ضمنها «أرض كائنة في محلة الرجال الأربعين مشتملة على دار وحارة علوية، وعلى أربعة وأربعين مخزناً، يحدها قبلة وغرباً حائط الكنيسة. وأرض مشتملة على خمسة دكاكين كائنة في محلة الرجال الأربعين ...، وأرض في المحلة المذكورة مشتملة على أربعة دكاكين أيضاً ...». وقد أجاب المدعى عليه بأن العقارات هي ملكه وملك أشقائه، وموروثة عن المطران طوبيا عون. (سجل ١٣٢٧-١٣٣٦هـ).

وعندما جرت انتخابات البلدية في بيروت سنة ١٨٦٤م قسمت بيروت إلى أربعة دوائر انتخابية، كانت محلة الرجال الأربعين من ضمن أحداها. وفي سنة ١٨٨٠م حددت مدة عشرة أيام للانتخاب، وخصص يوم لمحلات حمام الصغير ومحلة الدركة ومحلة التوبة ومحلة رجال الأربعين. وكذلك في انتخابات سنة ١٩١٣م.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م ١٥ ربيع الأول.

ومع المسح العقاري الذي أجرته سلطة الانتداب الفرنسي لبيروت اختفت محلة الرجال الأربعين وغيرها من محلات بيروت القديمة، وحلت محلها جميعها محلة المرفأ. وكانت إلى أمد قريب توجد في سجلات النفوس في بيروت محلة باسم الأربعين.



أعمدة قرب كنيسة مار جريس في بيروت.

زاوية شيخ السربة الملاصقة لسور بيروت

أهداني الأديب عرفان حمور رسالة بعنوان: «الصريخ من تشويه التاريخ»، ضمنها ملاحظات على بعض ما دوّن في تاريخ العرب؟ وقال فيها: «إن تاريخنا لم يكتب بعد، فما يزال مطمورًا تحت التراب ينتظر يوم يُبعثُ حيًّا».

وقوله هذا ينطبق على تاريخ بيروت الذي لم يكتب بعد، فقد قصّر أبناؤها في تدوين تاريخ مدينتهم وأهلهم على ما فيه من الفضائل والمكارم والأمجاد، ما يثمر الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، وعلى ما فيه أيضًا من أخطار وزلّات ما يفيد العبرة والموعظة. ويعزى تقصيرهم إلى أسباب مختلفة وذرائع غير مقبولة، ولعل أهمها انصرافهم إلى التجارة، وانغماسهم في تنميتها وتثمير أموالهم وشعارهم «الإشارة إلى محاسن التجارة».

وزاوية شيخ السربة من المعالم التي لم يبقَ في سجلات بيروت منها سوى اسم محلة منسوبة إلى الشيخ المذكور. وقد وردت أول إشارة إليه سنة ١٨١٤م عندما زار بيروت علامة الشام ومحدثها الشيخ عبد الرحمن الكزبري قاصدًا زيارة من فيها من نبي أو ولي وصالح، وقد نزل ضيفًا في بيت مفتي بيروت في حينه الشيخ عبد اللطيف فتح الله المفتي، فمدحه المفتي بقصيدة (نشرت في ديوانه)، ذكر فيها الأماكن والمزارات التي زارها الكزبري في بيروت، فقال فيها:

لقد زار بيروتًا وشرّف أرضها فقامت على الدنيا تتيه وتعجَبُ

ثم يذكر المساجد والزوايا التي زارها الكزبري فكان منها:

وزار بها شيخًا يُضافُ لسربة بسورٍ عليها للحماية يُضربُ[1]

والسِّرب في لسان العرب هو: الجماعة، والسُّربة هي: القطعة من الناس والنساء والقطا. وفي «محيط المحيط»: السُّربة: الجماعة، وقد تعني بها العامة: الجماعة الكثيرة كما تعني «الطريقة»، والسِّرب: الطريق والقلب[2].

إن إشارة المفتي فتح الله إلى زيارة الكزبري لشيخ السربة تحمل أكثر من دلالة، منها: أن زاوية الشيخ المذكور كانت قديمة، فلم يشر إلى اسم الشيخ وكنيته. ومنها: أن الشيخ المشار إليه كان أحد الصالحين من أهل بيروت، فخُصّ بالزيارة. ومنها: أن القصيدة تثبت أن الزاوية كانت موجودة وقت حصول الزيارة وعامرة بذكر الله تعالى.

وأخيرًا، فإن إضافة السربة إلى الشيخ لا تعدو أن تكون إشارة إلى طريقة الشيخ الصوفية، وهو شيخ المريدين المعمى عنهم بالسِربة. وثمة دلالة ينبغي ذكرها، وهي: أن الشيخ المذكور لم يتقرب من حاكم أو سلطان، ولم يتقبل تكريمًا أو هدية من أحد كما حصل مع غيره من بعض شيوخ الطرق والمتصوفة في بيروت.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

(٢) لسان العرب، مادة (سرب).

ويمكن القول مع قليل من الحذر بأن إضافة السربة إلى الشيخ فيه توصيف لممارسة الذكر في الزاوية، قياسًا على ما ورد في ديوان العرب، ففي معلقة امرىء القيس:

فعنَّ لنا سِربٌ كأن نِعاجَه عذارى دوارٍ في ملاءٍ مُذيّلِ

والدوار: ضم كان العرب يدورون حوله، فهل يكون شيخ السربة من أهل الطريقة المولوية تأمل؟

ويمكن القول بحذر قليل أيضًا بأن شيخ الطريقة المقصود يقود سربه - أي: مريديه - إلى الحقيقة ونور الإيمان، مثلما فعلت الطيور في رسالة الطير للغزالي، وفي قصة «**منطق الطير**» لفريد الدين العطار النيسابوري، ورسالة الطير لابن سينا، التي تختلف عن غيرها بأن لابن سينا وجود في الرسالة وهو يطير مع الطير. كما لشيخ السّربة وجود في الطريقة وهو يقود السِرب ويرشده إلى سواء السبيل، فالشيخ هو المرشد، وهو سبب الوصول إلى حضرة الحق. وهو يأخذ العهد على المريدين، ويتعهدهم بالعناية والتربية والتلقي، فقد سبق له أن خبر خفايا الطريق.

وقد وصف شاه نقشبند دور الشيخ المرشد بقوله: «مثلُ أهل الله مثل الصياد الحاذق (تورية الصياد والسرب)، الذي يدخل الحيوان الوحشي في شبكته، ثم يوصله بحكمة إلى مقام الاستئناس».

ومنذ إشارة المفتي فتح الله إلى شيخ السربة سنة ١٨١٤م لم نرَ ذكرًا له إلا بعد سنة ١٨٤٣م، عندما تمَّ افتتاح سجلات لمحكمة بيروت الشرعية، فورد في بعضها ذكر لمحلة شيخ السربة وتربة شيخ السربة الخ.

ويبدو أن عامة بيروت استثقلت لفظة السربة فقالت شيخ «الشربة»، وهو ما دعا الشيخ طه الولي إلى أن يورد في مساجد بيروت في أواخر العهد العثماني جامع باسم «شيخ الشربة»، (تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت ص ١٠٤ و٢١٩)، علمًا بأن الصحو والسكر والذوق والشرب هي من مصطلحات الصوفية، وما يجري في كلامهم مستخدمين الرمز في أشعارهم ولا سيما في الغزل والخمر والمحبة مجازًا، ولعل الشيخ عمر اليافي الخلوتي كان أكثر من ذكر الخمرة في موشحاته وقدوده.

وبالعودة إلى بيت الشعر الذي ذكر فيه المفتي فتح الله زيارة الكزبري لشيخ السربة، يتضح من عجز البيت موضع زاوية الشيخ المذكور بقوله: «بسور عليها (بيروت) للحماية يضرب»، مما يدل على أن موقع زاوية شيخ السربة هو بجوار سور بيروت، أو في أية نقطة من هذا السور إن لم يكن ملاصقًا له. ونقول بأن المقصود الجهة القبلية (الجنوبية) من السور.

ومن المهم الملاحظة هنا بأن هذا السور الجنوبي كان يجاور عدة زوايا، منها زاوية الراعي، والزاوية العمرية (جامع الدركاه)، وزاوية التوبة، وجامع الرجال الأربعين، وأخيرًا زاوية أبي النصر (كما أوضحنا في مقالات سابقة).

وقد تدل كثرة الزوايا في هذه الجهة من السور على أن المرابطة بجواره كانت مقصودة من أجل الدفاع عن المدينة في حال تعرضها لاعتداء من هذه الجهة، علمًا بأن غالب الاعتداءات البرية على بيروت كانت تأتي من هذه الجهة الجنوبية.

وقد وردت في سجلات محكمة بيروت الشرعية وثائق عديدة تذكر محلة شيخ السربة ومقام شيخ السرية وتربة شيخ السربة وقبة شيخ السربة. ففي أول سجل افتتح سنة ١٨٤٣م تمّ فيه تسجيل أوقاف بيروت، فورد من ضمن الأماكن الموقوفة على الجامع العمري الكبير «بيت في قرب **درج شيخ السربة**، داخله دار ومربعين ومرتفق»[١].

وفي وثيقة مؤرخة في السادس من شهر صفر الخير سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧م باعت لوسية انطوان نوح الحلبي إلى روزه حرمة كريكور مصرلي أغلي – أي: ابن مصر –، والمبيع مربعين مسقوفين بالجسور والأخشاب كائنة بالقرب من «**مقام شيخ السربة** الشهير ذلك، لصيق سور البلدة باطن المدينة ...»[٢].

وفي وثيقة مبايعة أخرى في التاريخ نفسه بيع بيت يحده قبلة السور، وشمالاً طريق سالك، وغربًا مقام شيخ السربة.

وتفيد الوثيقة المؤرخة في الثالث عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م أن الشيخ محمد المفتي الطرابلسي الأشرفي، مفتي بيروت باع إلى جرجس طراد وجرجس وخليل وسليم نعمة سابا، قطعة أرض في جوار باب يعقوب داخل المدينة، يحدها شرقًا «**تربة شيخ السربة**»، ما يفيد بأن شيخ الزاوية – أي شيخ السرب – كان مدفونًا في هذه الزاوية[٣].

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ (ص١٨).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٤هـ (ص٩٦).
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٢٥.

وفي السابع عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م باع جرجس شاهين طراد وجرجس نعمة سابا إلى عمدة العلماء الكرام محمد أفندي مفتي بيروت، وهو اشترى منهما اثنا عشر دكانًا متلاصقات كائنات في جوار شيخ السربة، لصيق باب يعقوب داخل المدينة، يحد الدكاكين قبلة طريق الكروسه (Carrosse العربة)، وشمالاً طريق سالك، وفيه أبوابها، وشرقًا طريق محدث ملاصق **لقبة شيخ السربة** ... بيع وفاء حكمه حكم الرهن، بمبلغ ١٩٧ ليرة عثمانية»[١].

وفي ربيع الآخر سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م باع الحاج محمد بن صالح سوبرة إلى عبد الرحمن وسعيد حسن بليق دارًا في «محلة شيخ السربة داخل المدينة ...»[٢].

وفي الرابع عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠م قُدم معروض لأعتاب الدولة العلية العثمانية صانها وحماها رب البرية «مفاده ورود أمر من نظارة أوقاف همايون يتضمن طلب نقيب الأشراف في بيروت الشيخ عبد الرحمن النحاس إعطاءه بطريق الإجارتين البيت الجاري في وقف الجامع العمري الكائن في «**محلة شيخ السربة**»، وأن المومأ إليه من العلماء المستحقين للرعاية، وصار تخمين البيت من قبل لجنة خبراء بمبلغ سبعة آلاف قرش معجلة، وخمسة وعشرين قرشًا مؤجلة من رأس كل سنة ...»[٣].

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٢هـ رقم ١٣٠.
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٤٧٥.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٦هـ رقم ٢٠٥.

كما بيعت في العاشر من شهر ربيع الأول ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠م دار سليم ثابت إلى إسكندر جبور العشي الكائنة في «محلة شيخ السربة»[١].

وحضر الشيخ يوسف الأسير في الثاني عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م إلى بيت في «محلة شيخ السربة قريبًا من باب يعقوب داخل المدينة ...»، واستمع إلى وكالة[٢].

وكما لم يذكر أحد هوية الشيخ فلم يرد أي ذكر لشكل بناء مقام شيخ السربة ولا محتوياته، إلا أننا عرفنا من خلال دفتر الأوقاف الخاص بالمديرية العامة للأوقاف الإسلامية القيد المسجل في سنة ١٣١٦ مالية/ ١٩٠٠م بأن لمقام شيخ السربة «قبة»، وأن مساحته سبعة وثلاثين ذراعًا مربعًا ونيف[٣].

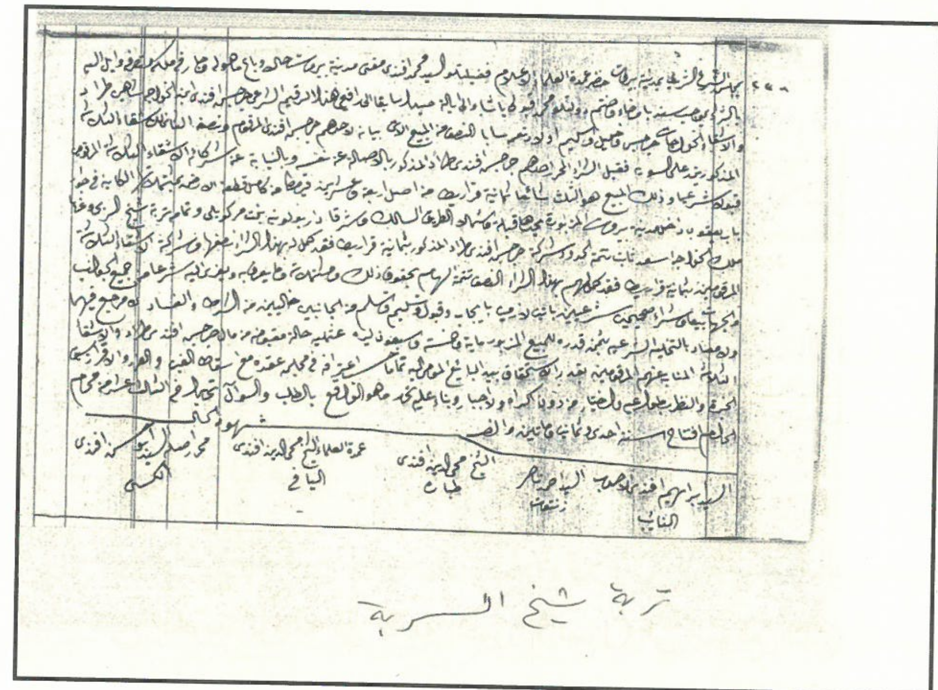
ولعل غياب المعلومات عن الشيخ وزاويته مرده إلى كون الزاوية لم تحظ بأوقاف وأحكار، فلم يكن لها ريع، وبالتالي لم ينازع أحد أحدًا لتنصيب نفسه متوليًا عليها.

ويبدو أن محلة شيخ السربة كانت تحتوي على بئر وصفتها الصحف «ببئر شيخ الشربة الواقعة في محلة الصور (السور) في الموقع الذي أنشئ عليه مبنى البنك العربي»، وكان يؤخذ منها الماء للحمام الصغير، وآلت إلى ملك محمد علي باشا أياس، وذلك عندما نزل رجل سنة ١٩١٣م

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٧هـ رقم ٤١٢.
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ رقم ١٧٧.
(٣) دفتر مديرية الأوقاف (ص١٠٢).

لتنظيف البئر بعد أن كانت قد اغلقت مدة طويلة ، انقطع خبره ونزل الثاني وفقد أيضًا واضطر الأمر الى إحضار كلابة لانتشال جثة الاثنين[1].

والمؤكد أن هذا الجامع/ الزاوية/ المقام/التربة هدم أثناء الحرب الأولى لحساب توسيع الطرق؟؟ والمرجو ممن يعرف شيئًا عن هوية شيخ السربة نشره وبيانه.



ترجمة شيخ السربة

(١) لسان الحال عدد ٧٣٢٤ سنة ١٩١٣م.



باب يعقوب

زاوية التوبة القادرية
بناها السلطان عبد المجيد في وسط بيروت

قيد في الصفحة ٥٢ من أول سجل من سجلات محكمة بيروت الشرعية والذي يعود إلى سنة ١٨٤٣م ما يلي: «**علم بيان أملاك وإيرادات زاوية التوبة بسوق الفوقاني، زاوية سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني العامرة بذكر الله تعالى**»[١].

وقد وردت الإشارة إلى جامع التوبة ومحلة التوبة في عدة وثائق مما ساعدنا على تحديد موقع الزاوية بأقرب ما يكون إلى الواقع. علمًا بأن الذين ذكروا الزاوية أو المحلة والذين كتبوا عنها اكتفوا بالنسبة إلى موقعها بقولهم: إنها في «**باطن بيروت**»، مع أن هذا الباطن يشمل المدينة القديمة كلها التي كانت ضمن السور، متناسين المثل البيروتي القائل: إن الأرض بتفرق بالشبر. ومثلهم في ذلك مثل الطالب الذي طلب منه أستاذ مادة الجغرافية أن يدله على مدينة موسكو على الخريطة الكبيرة المعلقة على اللوح، فوضع الطالب باطن كف يده اليمنى على الخريطة وقال بلهجة الواثق المنتصر: هنا يا أستاذ؟ مع أن موسكو على الخريطة كانت تبدو كنقطة في بحر من الدول والمدن.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٥٢).

وقد ذكر الشيخ طه الولي في كتابه: «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت»[١] نقلًا من كراسة صغيرة للشيخ محيي الدين الخياط (ت١٩١٤م) أن «**جامع التوبة**» هو جامع الدباغة. وهو ما يناقض الواقع والوثائق، ويخالف التاريخ والجغرافية معًا.

فمما عثرنا عليه في سجلات محكمة بيروت الشرعية وثيقة مؤرخة في الرابع والعشرين من شهر شعبان ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م باع بموجبها عباس ابن الحاج سليمان المصري (والد الشيخ أحمد عباس الأزهري) إلى محمد أحمد رمضان داره الكائنة «في محلة فرن الكنيسة قريبًا من جامع التوبة داخل بيروت ...، يحدها (الدار) شرقًا كنيسة الموارنة...»[٢]. وهي الكنيسة التي حلت محلها وبقربها كتدرائية مار جرجس المارونية الحالية في شارع الأمير بشير تجاه مبنى العازارية. ولم يذكر أحد بوجود كنيسة للموارنة في محلة أخرى من بيروت القديمة.

وبموجب وثيقة مؤرخة سنة ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٦م باعت الحاجة عائشة حسن القيسي إلى الشيخ عبد القادر حسن النحاس وزوجته حليمة محمد يموت البيت الواقع في الدار المعروفة ببني قنبريس الكائنة «في محلة رجال الأربعين قريبًا من جامع التوبة داخل المدينة...»[٣]، ومحلة رجال الأربعين هي المحلة التي كان يقع فيها الجامع الصغير الذي ذكره قنصل

---

(١) (ص٦٦).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ رقم ٢٧٢.

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٢هـ رقم ١٤٨.

فرنسا في بيروت في النصف الأول من القرن التاسع عشر هنري غيز، وكان الجامع يحتوي على الأعمدة الغرانيتية الأربعة التي لا تزال منتصبة بجوار الكاتدرائية تجاه مبنى العازارية أيضًا، وإلى يسار الدرج القديم المعروف بدرج الأربعين.

وفي وثيقة مؤرخة في الثامن من شهر ربيع الأول ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٧م وكلت ظريفة زين وأولاد محمد عبد اللطيف سعادة الدبس لبيع حصة في دار «في محلة التوبة، قبلتها الطريق السالك الآخذ إلى جامع التوبة ...»[١].

وتفيدنا وثيقة مؤرخة في السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٧م انعقاد مجلس شرعي في دار في محلة التوبة جارية بملك المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري[٢].

وفي الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م وقف محمد ابن الشيخ صالح الطرابلسي عدة عقارات دونت في ثلاث وثائق مستقلة، سلّمت إحداها المخصصة لوجوه البرّ إلى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية فور تأسيسها. وشملت هذه الوقفية ستة عشر قيراطًا من الدكان الكائنة في «**صايح الدركه بالقرب من جامع التوبة داخل المدينة**» يحدها قبلة دكان ملك بني سعادة، وشمالاً وشرقًا معصرتهم. (والدركه أو الدركاه كانت المحلة التي تضم شارع المعرض الحالي وجامع

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٤هـ رقم ٢٣.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٤هـ رقم ٦١.

الدركاه وحمام الدركاه، كما ذكرنا في بحثنا حول زاوية الدركاه أو الزاوية العمرية). وشملت الوقفية الثانية دكانًا داخل المدينة «**سفلي جامع التوبة**»، ودكانًا ثانية «يعلوها دار بني سعادة، يحدها شمالاً معصرة بني سعادة ...»[١].

يذكر أنه في ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٤م وقف الحاج مصطفى بن قاسم الحلواني عدة عقارات منها الدار الكائنة «**بمحلة التوبة داخل بيروت، يحدها قبلة الطريق السالك الآخذ إلى عصور ...**». (وعصور تعني: ساحة السور، أي: ساحة رياض الصلح حاليًا)[٢].

وتشير الوثيقة المؤرخة في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٦م إلى أن محمد سعيد سربيه اشترى من عبد الجليل دندن دكانًا كائنة «في سوق البقر قريبًا من جامع التوبة داخل المدينة، يحدها قبلة الطريق السالك، وشمالاً دار عباس المصري، وغربًا دكان عباس المذكور ...»[٣]. (وقد سبق وذكرنا أن دار عباس المذكور والد الشيخ أحمد عباس الأزهري كائن في محلة الدركاه قريبًا من زاوية الدركاه).

ونخلص إلى القول بأن جامع التوبة لم يكن جامع الدباغة، وأن موقعه هو في جنوب المدينة القديمة قرب السور وقرب الرجال الأربعين

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ رقم ٣٤٧.

(٢) دفتر مديرية الأوقاف (ص٤٣).

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٢هـ رقم ٢١٢.

والدركاه، وليس في شمالي المدينة عند الدباغة قرب المرفأ. والمخضرمون يذكرون سوقًا صغيرة للخضار (وقد أدركنا شخصيًّا هذا السوق) إلى الغرب من الأعمدة المنتصبة قرب كنيسة مار جرجس المارونية، وكان يُدخَل إلى السوق المذكورة من طريق ضيقة متجهة نزولًا إلى الشمال باتجاه سوق اللحامين وبائعي العفشة. وكانت هذه الطريق موازية لشارع المعرض، وكانت قديمًا تغلق بباب عرف بباب إده المنسوب إلى الشاعر الياس إده. وسوق الخضار المشار إليه هو المقصود بالسوق الفوقاني.

ويقتضي التنويه بأن محلة التوبة كانت مجاورة لمحلة جلول المنسوبة إلى أحمد جلول، أحد الأعضاء الأربعة والعشرين الذين عينهم إبراهيم باشا كمجلس شورى لبيروت.

يؤكد ذلك أنه في الخامس والعشرين من شهر رجب الفرد سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م باع الحاج أحمد جلول إلى خديجة الغزاوي زوجة عمر صفصوف الدار الكائنة في محلة جلول المشتملة على «أماكن تسعة، وإيوان ومطبخ وفسحة ومنافع شرعية، يحدها قبلة طريق سالك وتمامه ملك عباس المصري...؟»[1].

يؤكد صلة محلة جلول بزاوية التوبة: أن من ضمن أوقاف زاوية التوبة «ربع علّية داخل بيت الشيخ أحمد جلول، وثلاثة قروش حكرًا على بيت الشيخ أحمد المذكور. ودكانًا مشترى السيد محمد الطرابلسي، وثلاثة أرطال زيت على السيد عبد اللطيف العشي...».

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨١هـ رقم ٧٤٥.

ويستدل من هذه الوثائق أن جامع التوبة كان مجاورًا من الجهة الغربية لجامع الرجال الأربعين الكائن إلى الغرب من كاتدرائية مار جرجس المارونية في شارع الأمير بشير، وهو مرتفع ومطل على سوق اللحامين.

الشيخ علي الكيلاني في بيروت

في شهر ربيع الثاني ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣م زار بيروت الشيخ عبد الرحمن الكزبري ونزل في بيت المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (كان بيت فتح الله قرب موقع مبنى وزارة المالية في ساحة رياض الصلح، وقد آل هذا البيت إلى الشيخ محيي الدين اليافي). ويذكر المفتي في قصيدة مدح بها الشيخ الكزبري بعض الأماكن التي زارها هذا الأخير في بيروت، ولم يكن من بينها زاوية التوبة، مما يدل على أن تسمية المحلة بالتوبة سبقت إنشاء الزاوية في تلك المحلة.

ومما يجدر ذكره أن الشيخ عبد اللطيف فتح الله ذكر في قصيدة مدح الكزبري التي أشرنا إليها بيتًا قال فيه:

كذا ابن عراق والشويخ الذي ابنه   غدوت له سبطًا يعدّ ويحسبُ

ما يعني أن ابن الشويخ القادري كان جدّ المفتي فتح الله لأمه.

يذكر أن عبد القادر الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية لقبه أتباعه بالباز الأشهب. وقد كان للطريقة القادرية مريدون كثر في بيروت منهم المفتيان عبد اللطيف فتح الله وأحمد الأغر. ففي الرابع عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٢٣٤ هـ/ ١٨١٨م زار بيروت علي الكيلاني مفتي حماه وشيخ

السجادة الكيلانية فيها، ونزل في بيت المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله، فأخذ عنه طريقة الشيخ عبد القادر الكيلاني ومدحه بقوله:

هـو ابـن لياسـين فطـه محمـد ... عليـه صـلاة الله والآل والصـحب
كذا جدّه السلطان في كـل مـوطن ... وقطب ذوي العرفان ناهيك من قطبِ
وذا أشهب البازات من غير مجهل ... تسامى على الـدنيا وبازاتها الشـهب

كما نظم المفتي فتح الله موشحًا على طريقة الأندلسيين في مدح الشيخ علي المذكور.

وعندما أرسل الكيلاني لفتح الله الإجازة بالطريقة القادرية مدحه فتح الله بقوله:

بإجـازة غـرّاء قـد شـرّفت مـن ... شيخي الجليل الماجد الشهم السري
شـيخ الطريقـة والحقيقـة شمسُها ... بـدر الشـريعة ذي الجبيـن الأزهـر
وأتـت إلـيّ وإنهـا لإجـازة ... جافـت لصـحتها مقـال المفتـري
تحوي الطريـق القـادري مسلسلًا ... بشـموس فضـل مثلهـا لـم يسـفر
قبّلتهـا بفـم احترامـي مظهـرًا ... تعظيمهـا للنـاس لـم أتسـتّر[1]

وكان الكيلاني قد أرسل مع إجازة فتح الله إجازة إلى القاضي الشيخ أحمد الأغر فقرظها فتح الله أيضًا بقصيدة مطلعها:

أبّـد الله حسـن هـذا الزمـان ... وسـقاه مـن مائـه الهتّـانِ

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/١٦٨).

ومدحه بقصيدة قال فيها:

حفيـد إمـام الأوليـاء وقطـبهم
علـيهم لـه الـرحمن سـلطنةً أعطـى
هـو القطب عبـد القـادر العـارف الـذي
له وهو في كيلان قد عنت الأقط (**الأقطاب**)

كما خلف الكيلاني القاضي الشيخ أحمد الأغر وألبسه الخرقة القادرية فقال:

مدينـة العلـم غـدت ... فـي غـرّة أصـحابها
قـم فادخلهـا آمنًـا ... إن عليًّـا بابهـا

وقال يمدح الشيخ عليًّا:

كم كنت في سري أقول هل بقي ... في عصـرنا النحيـل مـن إنسـانِ
ليـل تمـام فـي الوفـا أجلـو بـه ... مـن ظلمـة قلبـي مـع إنسـاني
أجـابني سـرّي نعـم وافـاكم ... أبـو الحسـن عليًّـا الكيلانـي[1]

تاريخ بناء الزاوية

لم يذكر الشيخ الولي ولا الشيخ الخياط أنهما اطلعا على سجلات محكمة بيروت الشرعية ولا سيما الوثائق التي ذكرناها والتي تحدد بالضبط موقع زاوية التوبة. أما من أرّخ للزاوية مؤخرًا ذكرها عرضًا - رغم اطلاعه الواسع على السجلات الشرعية، فقد نقل ما ذكره الشيخ الولي بدون أدنى

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٥٧).

تحقيق أو تدقيق. علمًا بأن سجلات مديرية أوقاف بيروت لا تلحظ أوقافًا لما يسمى «**جامع التوبة**» بل لزاوية التوبة.

ولم يشر أحد ممن كتب عن الزاوية إلى تاريخ بناء زاوية/ جامع التوبة أو إلى من بناها. والمرجح أنها بنيت بعد سنة ١٢٢٨ هـ/ وقبل سنة ١٨٤٣م. يذكر أنه لم يرد قبل سنة ١٨٣٩م **إلا** ذكر **محلة التوبة**، ومنذ التاريخ المذكور بدأ يرد ذكر **جامع التوبة**.

ويمكن البناء على ما جاء في رسالة بعث بها الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب الأشراف في طرابلس وشيخ السجادة القادرية الكيلانية فيها بعد زيارة قام بها إلى بيروت في شهر كانون الأول سنة ١٨٨٣م، وقال فيها: «سرنا ليلًا إلى الزاوية القادرية التي بنيت من جيب المرحوم السلطان الغازي عبد المجيد خان نور الله ضريحه، فوجدناها زاوية لطيفة، وعلى جدارها يخفق العلم القادري، وهناك جمع من تلامذة السيد الشريف الأمير المرتضى الجزائري يقرؤون في كل ليلة طرفًا من أوراد حضرة جدنا الغوث الأعظم قدس سرّه»[1]. والمقصود بالغوث الأكبر الشيخ عبد القادر أو الجيلاني.

توفي الأمير محمد المرتضى في كانون الثاني سنة ١٩٠٢م. وبما أن السلطان عبد المجيد تولى الحكم بين سنتي ١٨٣٩ و١٨٦١م، وبما أن أوقاف زاوية التوبة القادرية سجلت في السجل الشرعي سنة ١٨٤٣م، فتكون زاوية التوبة قد بنيت بين سنتي ١٨٣٩ و١٨٤٣م.

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ٤٥٩ لسنة ١٨٨٣م.

ويظهر أن بعض السلاطين دعم بناء وإنشاء الزوايا. فقد سبق وذكرنا مساعدة السلطان محمود للشيخ عمر اليافي شيخ الطريقة الصوفية الخلوتية، ومساعدة السلطان عبد العزيز للشيخ محمد أبي النصر اليافي في بناء زاوية أبي النصر. كما أشرنا إلى تكاثر زوايا الطريقة الرفاعية بعد انضمام أبي الهدى الصيادي الرفاعي إلى خاصة السلطان عبد الحميد.

ويبدو أن المصالح كانت متبادلة: السلاطين يستميلون شيوخ الطرق الصوفية ومريديهم فيبنون لهم الزوايا والتكايا، ويجرون لهم الهبات والمرتبات، ويعفونهم من الجندية. وبالمقابل كان شيوخ الطرق يباركون السلاطين ويدعون لهم ويبايعونهم.

وفي سنة ١٨٧٥م فتح الشيخ عمر البربير مدرسة أطلق عليها اسم المدرسة القادرية[1].

واشتهر الشيخ محمد أديب محرم شيخ السجادة القادرية في بيروت المتوفى سنة ١٨٧٨م، وقد ألبس ولده الشيخ مصطفى عمامته، إشارة لتثبيته بالخدمة القادرية. وقال الشيخ قاسم الكستي في رثائه:

هو السيد الشهم التقي الذي حوى … مكارم أخلاقٍ بها المرءُ يكرمُ
وحاز طريق القادرية فاقتدى … بصاحبها وهو الإمام المعظم
هنيئًا لعبد حاز من ربه الرضا … كما حازه الشيخ الأديب محرّم[2]

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ١ لسنة ١٨٧٥م.

(٢) ديوان ترجمان الأفكار، قاسم الكستي (ص١٢١)، ولسان الحال، عدد ٨١ تاريخ آب ١٨٧٨م.

وكان لكل طريقة لون مميز لرايتها وسنجقها، فالعلامة الخضراء لعبد القادر الكيلاني، والسوداء للشيخ أحمد الرفاعي، والحمراء للسيد أحمد البدوي كما سنفصله في محله. وقد أعفي شيوخ القادرية على غرار الرفاعية من الخدمة العسكرية.

وقد نظم الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي بيتين لراية الطريقة القادرية الكيلانية هما:

هذه راية قطب ذكره ... ملأ الدنيا بسرّ باهرِ
فلها أقبل وقبّلها وقل ... أنا محسوب لعبد القادر[1]

وللشيخ قاسم أبو الحسن الكستي في عبد القادر الكيلاني قوله:

هو الباز عبد القادر الجهبذ الذي ... تسامى به قصر العراق معاليا
وأمسى لفرط الشوق في طلب المنى ... يزاحم بالجري العتاق المذاكيا

أتى حين من الدهر كان فيه شيوخ الطريقة القادرية مقربين من السلطان، ففي سنة ١٨٣٠م قام مدرس البخاري الشريف بمكة المشرفة الشريف الحسين اليمني الكيلاني بزيارة الآستانة، ثم مرّ في بيروت على المفتي الأغر الذي مدحه بقوله:

بيروت ثغرها ابتسم ... وغرّها الأنس اغتنم
من حيث قد شرفها ... المولى الشريف المحترم[2]

---

(١) ديوان ترجمان الأفكار، قاسم الكستي (ص١٨٣).
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١٩٠).

وكان شيوخ القادرية في طرابلس ولا سيما محمد بدر الدين نجيب الزعبي وأحمد سلطان مريد نجيب الزغبي يترددون على الآستانة للقاء مشايخ القادرية فيها والأخذ عنهم.

ومما يؤكد رواية الشيخ عبد الفتاح الزعبي بنسبة بناء زاوية التوبة القادرية إلى السلطان عبد المجيد، الأحداث التي جرت عقب تولي السلطان المذكور سدة السلطنة سنة ١٨٣٩م. ففي سنة ١٨٤٠م حاصر جيش السلطان مدعومًا من بعض قطع الأسطول الإنكليزي بيروت وساحل لبنان وأجبروا إبراهيم باشا على الانسحاب من بلاد الشام، فعادت السلطة العثمانية المباشرة إلى بيروت. وقد مدح المفتي أحمد الأغر السلطان عبد المجيد بعدة قصائد بالمناسبة منها قوله:

أبّد وأيّد يا حميد ... سلطاننا عبد المجيد
وخصّه طول المدى ... بالنصر والفتح المديد

ومنها موشح مطلعه:

أيد اللهم واحفظ يا حميد ... دائمًا سلطاننا عبد المجيد

ومنها قوله:

أهل برّ الشام راشوا ... بعد أن ماتوا وناشوا
وبظل العدل عاشوا ... فيه والعيش الرغيد[1]

---

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢٢١ و٢٦٦).

وفي سنة ١٨٤٠م وبعد انسحاب إبراهيم باشا من بيروت عيّن السلطان عبد المجيد عبد الفتاح آغا حمادة متسلمًا (حاكمًا) على بيروت، وأنعم عليه بنيشان من الماس كثير اللمعان، فمدح المفتي الأغر حمادة بموشح على طريقة الأندلسيين مطلعه:

رقص الكون مذ اهتزّ الحمى   طربًا واخضرّ بعد اليبسِ
وبه ثغر الأغر ابتسما   كابتسام الروض بعد العبس[1]

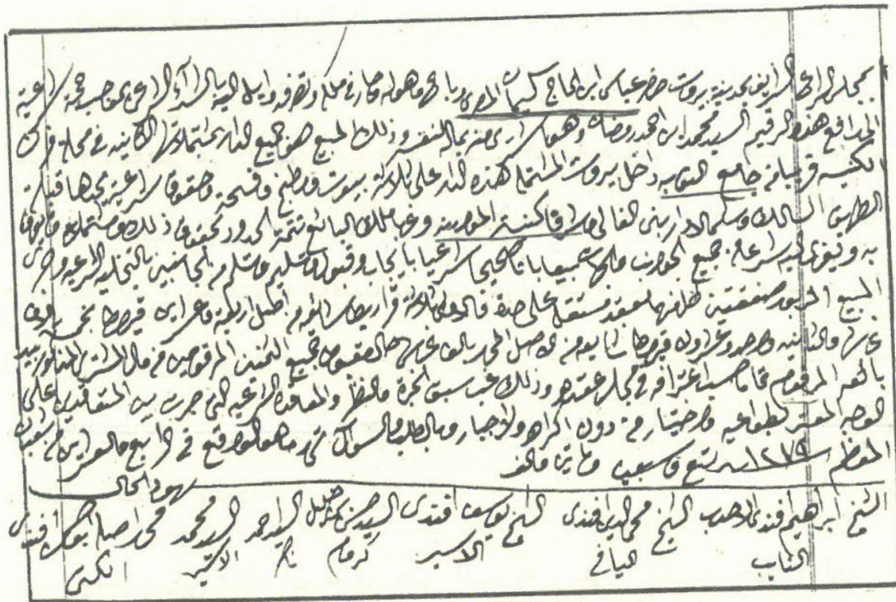
وفي السنة نفسها (١٨٤٠ م) أرخ الأغر ولادة مولود لمحمد ابن عبد الفتاح آغا حمادة سماه عبد القادر تيمنًا باسم الشيخ أبي عبد الرزاق محيي الدين عبد القادر الكيلاني وقال في التأريخ:

سمّاه والده والسعد خادمه   والعزّ ناظره والله يرعاه
تبركًا باسم محيي الدين عبد القا   در الجليل وحبًّا فيه سمّاه[2]

وقد طبعت مكتبات بيروت عدة مؤلفات حول الطريقة القادرية منها سنة ١٨٩٣م كتاب «السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني» للشيخ محمد المكي بن عزوز شيخ الخلوتية في تونس. ومنها سنة ١٨٩٤م كتاب «الكواكب الدرية في المناقب القادرية» لمحمد رشيد الميقاتي، وهي همزية في ألف بيت. ومنها سنة ١٨٩٥م كتاب «الكوكب الزاهر في مناقب الغوث عبد القادر» لأبي الهدى الصيادي الرفاعي. وفي سنة ١٨٩٥م كتاب «الفيوضات والدلائل» جمعه محمد علي القباني من فيوضات الجيلاني ودلائل الجزولي.

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢٨٩).
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢٢٧).

أما نفقات زاوية التوبة لسنة ١٣١٦ (مالية) فقد بلغت ٤٦٥٧ قرشًا سنويًا، منها ٣٠٠٠ للإمام والخطيب الشيخ أحمد بدران (شيخ الطريقة السعدية الجباوية)، و٢٠٠ لتالي قرآن كريم، و٤٥٩ للمؤذنين الشيخ أحمد وعبد الباسط حرب، و٢٩٧ للقيّم والفرّاش حسن، و٦٠ للصويولجي (مسؤول الماء)، و٢٨٥ ويركو، و١٣١ حصر، و١٤٩ بويا ودروند، و٤٠ إبريق وغاز وقنديل[1].



جامع التوبة قرب كنيسة الموارنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص١١٦).

زاوية/ مسجد/ مدرسة المجذوب

قدوم الإمام محمد المجذوب من فاس إلى بيروت وبنيانه فيها زاوية

الوثائق الخاصة بزاوية المجذوب أو بغيرها من زوايا بيروت قليلة جدًا بل نادرة. ولا يعود السبب في ذلك برأينا فقط إلى إهمال البيارتة حفظ وثائقهم لقَدَريَّتهم وعدم إدراكهم أهمية ذلك أو لانصرافهم إلى تجارتهم التي برعوا فيها، ولكن من الإنصاف القول بأن حفظ الوثائق والمستندات وأرشفتها وتناقلها يفرض توفر ظروف مادية وأمنية مستقرة وثابتة. كما يفرض وجود مرجعية ومركز خاص بذلك. حتى إن الآثار والمخطوطات التي كانت محفوظة في بعض المساجد والزوايا تناولتها الأيدي وسطت عليها.

يضاف إلى ذلك أن ما مرّ على البيارتة وعلى المدينة خلال العصور المختلفة من احتلال وتخريب وتهديم وحصار واحتلال وتهجير وزلازل أدى إلى فقدان الكثير من الآثار المادية والتراث الفكري والفقهي. ولولا القلة من الوثائق الشرعية القديمة الموجودة قبل سنة ١٨٤٣م والكثيرة المتوفرة بعد ذلك، لما أمكن معرفة خطط بيروت وأوضاعها الاجتماعية والسكانية. ونتمنى أن تتمكن مرجعياتنا الدينية يومًا من تجنيد مجموعة من علماء التاريخ والاجتماع والهندسة والتراث لإعادة كتابة تاريخ بيروت

والبيارتة من خلال تلك الوثائق وما يتيسر من كتابات الرحالة، علمًا بأن بعض النقاط التاريخية القديمة لا تزال موجودة، ويمكن اعتبارها علامات ومراكز استدلال لرسم الخرائط، وهذه النقاط تتمثل في المساجد والكنائس والزوايا والمدافن.

قسم مؤرخو التصوف جمهرة المتصوفين إلى قسمين هما المأخوذين في طريق المحبين (الذين يحبون الله)، والمأخوذين في طريق المحبوبين (الذين يحبهم الله). الأولون يسعون بالمجاهدة، والآخرون يكشف لهم من غير سعي منهم، وإن الله يجذبهم عن الحس بما حولهم إليه. على أن الجذبة إذا كانت ترد ثم تنقطع فإنها تسمى حالًا. أما إذا دامت وأبقي المتصوف على جذبته ما رُدّ إلى الاجتهاد بعد الكشف فيسمى مجذوبًا، أي أن من يغلبه الحال باستمرار كان مجذوبًا. فالمجذوب عند الصوفية هو: من ارتضاه الله لنفسه واصطفاه لحضرته. والمجدوب عند الناس هو المغفل البسيط وهكذا يبدو الفرق بين الذال والدال؟

وقوة التصوف الإسلامي الدائمة ليست في الانعزال المترفع المحزون المتمثل بصيحة مجذوب، بل هي في الشوق إلى التضحية في سبيل إخوانه، وبجعل حياته الروحية نموذجًا يحتذيه أصحابه ومريدوه وسائر الأمة. فكان للطرق الصوفية الدور الكبير في نشر الدعوة الإسلامية خارج دار الإسلام. وكان لها الدور الفاعل والإيماني في المرابطة والجهاد للدفاع عن الثغور، ولا سيما في القرنين الهجري الثامن وما بعده.

فالرباطات كانت في أصلها زوايا للصوفيين المرابطين فيها، ولا سيما في الشواطىء والثغور المعرضة للاعتداءات. ومنذ الفتح الإسلامي لبيروت اجتمع في الزوايا متطوعة للدفاع عنها. وفيها رابط عدد كبير من الصحابة والتابعين، ومن المتصوفين الذين قدم بعضهم من الأندلس والمغرب الكبير، فبنوا المدارس والزوايا، وعمروا المساجد وشاركوا في الدفاع عنها ضد الصليبيين.

يقول لويس ماسينيون: إن التصوف الإسلامي صدر عن «**إدامة تلاوة القرآن والتأمل فيه وممارسته**». أي: تدبر آياته، وهو الأمر الذي نحتاجه كثيرًا هذه الأيام. ومن التلاوة والتأمل والممارسة نشأ ما يمكن أن نسميه التصوف الإيجابي الفاعل في المجتمع، المشارك في محاربة الجهل والتخلف والبدع والحاث على الجهاد. وكل ذلك مع التمسك بمبادىء الدين وأركانه، وممارسة فروضه وأحكامه، وتطبيق أوامره ونواهيه. بحيث تصبح الزاوية مركز دفاع وجهاد زمن الحروب، وتكون مدرسة ومنارة علم زمن السلم. ومن هذه الثنائية وجدت زاوية/ مسجد/ مدرسة الشيخ محمد المجذوب.

أذكر عندما شببت عن الطوق وجدت في بيتنا تأريخًا شعريًا لسنة مولدي على حساب الجمل في بيتين من الشعر، وسألت والدي رحمه الله عن ناظمهما فقال: إنه الشاعر عبد الرحمن المجذوب الذي نظم أيضًا سنة ١٩٥٣م تأريخ ميلاد شقيقي التوأمين محمد وربيع.

وتعرفت فيما بعد شخصيًّا إلى الشاعر المذكور بقامته الفارعة وطربوشه الذي يزيده طولًا. وأدركت فيما بعد ميزته في التأريخ الشعري على حساب الجمل وتفوقه فيه، إلى أن علمت أنه وضع سجلًا لأسرته بعنوان: «آل المجذوب نسبًا وصهرًا»، أصبح مرجع كل من كتب عن مؤسس الأسرة وأبنائها[1].

وقد عرفنا منه بأن الجد الأعلى للأسرة الشيخ الإمام محمد - قيل: إن اسمه أحمد ابن الحاج مختار الملقب بالمجذوب - قدم من مدينة فاس إلى بيروت في أواخر القرن العاشر للهجرة. وكان عابدًا زاهدًا وعالمًا تقيًّا كبيرًا، فأنشأ زاوية عرفت باسمه في موقع مجاور لمبنى مجلس النواب الحالي، حيث كانت دار الكتب الوطنية.

واختلف في تاريخ بناء الزاوية بين قائل بأنه في ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م وقائل بأنه ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م، علمًا بأن التاريخين المشار إليهما هما في القرن الهجري الثامن (وليس العاشر). وتوارث أبناء الشيخ المؤسس وأحفاده إمامة الزاوية والتدريس فيها وإقامة الأذكار سنوات طويلة. وكان من الطبيعي أن يكون في كل مدينة من بلاد الإسلام مجذوب، ولم يتبين أن ثمة صلة قرابة تجمع فيما بينهم. ومنهم المغربي سيدي عبد الرحمن المجذوب صاحب الحكم والأمثال السائرة، وقد طبعت سنة ١٨٩٠م، ومنها قوله منتقدًا ظاهرة تقديس الأولياء وزيارتهم بما يتعارض مع مبدأ التوحيد: ادرس رزقك ونقّيه. في النادر مرّق عشوره. من غير ربي والنبي. حتى واحد لا تزوره.

---

(١) سجل آل المجذوب نسبًا وصهرًا، عبد الرحمن المجذوب بيروت سنة ١٣٧٠.

وقد عرفت بيروت من المجذوبين أصحاب الأحوال محمد علي القيسي (ت بعد ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م)، الذي كان يمشي في الأسواق لا يكلم أحدًا ولا يظهر على نفسه شيئًا من صلاح ونحوه، ولا يبدي كرامات إلا وقت الضرورة[1]. ومنهم الحاج محمد القاقا الأفغاني كان يبيع الخردة، وينفق من ربحه صدقة على الفقراء، ملازمًا للطاعات والصلوات بالجماعات. ضرب رئيس الشرطة في بيروت بسطته بالخردة، فما وصل إلى سرايا الحكومة إلا وقد فلج[2].

ومنهم عبد الجليل الأرناؤوطي (ت بعد ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م)، كان عسكريًّا ثم حصلت له جذبة فترك الحكومة، وكان يجمع الدراهم وينفقها على النساء العجائز. وكان مع جذبته لا يترك من الصلوات فرضًا[3].

ومن أهل الجذب في بيروت عبد اللطيف الصاوي البيروتي، كان يأخذ ما تيسر من الدراهم وينفقها على الأرامل الفقراء ممن لا أحد يعيلهن (ت ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م)[4].

كما عرفت بيروت الشيخ مصطفى الناطور المشهور بالجدّ البيروتي. روي أن داء الهواء الأصفر ورد إلى بيروت سنة ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥-٦٦م، وأنه ارتفع بعد أن تنبأ الشيخ مصطفى بأنه سيموت هو به فداء عن الناس[5].

---

(١) جامع كرامات الأولياء، يوسف النبهاني (٢/٢٢٥).
(٢) جامع كرامات الأولياء (٢/٢٢٤).
(٣) جامع كرامات الأولياء (٢/٥١).
(٤) جامع كرامات الأولياء (٢/١٠٣).
(٥) جامع كرامات الأولياء (٢/٢٦٣).

شارك أحفاد الشيخ محمد المجذوب في تاريخ بيروت، وكانت لهم فيها آثار تذكر فشكر. ففي سنة ١٧٩٩م كان الحاج يحيى المجذوب أضاباشي بيروت إلى أن غضب عليه الجزار، فقبض عليه وطلب منه مئة ألف غرش، فباع جميع أملاكه ودفعه للباشا ولم يفِ بالمطلوب، فهرب من الحبس إلى جبيل ومات فيها.

ويقول عبد الله طراد في مختصر تاريخ الأساقفة بأن فقراء النصارى لجؤوا إلى مرحمة الحاج يحيى المجذوب «تفكجي باشي البلد، وله جاه كلي، وكان رجلًا لطيفًا، فأعطاهم الأمان وعلى حجته نزل أغلب النصارى للبلد، وكانوا مطمئنين لوجوده». وحبس بعد ذلك[1].

وكانت صداقة قد نشأت بين الشيخ عمر اليافي (١١٧٣- ١٢٣٣هـ) شيخ الطريقة الخلوتية وبين الشيخ أيوب المجذوب البيروتي، وطلب منه اليافي قصيدة إرسال ما هو المطلوب (لم يعرف ذلك المطلوب؟) قال فيها:

ألا إن أيوبي شفى الله أوجاعه ... ومهجته صحّت وأصلح أوضاعه
دعاك الذي تدعوه والأمر واحد ... أجب أمره حالًا على السمع والطاعه
فأرسل خراجي ضمن خرجك سرعةً ... ترى الروح يا ممنوح عجّل إسراعه[2]

وفي ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله أنه أرسل سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م للشيخ حسن المجذوب وكان حصل له مرض وعوفي منه بيتين قال فيهما:

---

(١) مختصر تاريخ الأساقفة، عبد الله طراد (ص١٤٥).
(٢) ديوان الشيخ عمر اليافي (ص٨٢).

أيهـــا الســــيد الـــــذي ... حـلّ فـــي جســـمه مـــرضْ
إنمــــا أنــــت جـــوهرٌ ... كيـف تخشـى مـن العـرض[١]

وفي سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٦م حضر الشيخ محمد ابن الحاج مصطفى المجذوب وكان متوجهًا إلى إسطنبول في تجارة إلى دارة المفتي الشيخ أحمد الأغر وقد جاء ليودعه، فقال الأغر مرتجلًا قاصدًا إدخال السرور على الشيخ محمد المذكور:

توجه حيث شئت فأنت نجلٌ ... لمـن بـالحرّ ظلّتـه الغمامـهْ
مـع التيسير فـي عـزّ وربـحٍ ... وترجـع فـي سرور بالسلامه[٢]

وتابع حسن بن أحمد المجذوب تجارة جده مع إسطنبول، ثم عمل كاتبًا في المحكمة الشرعية في بيروت ونائبًا للقاضي.

ومما يؤسف له أن أحدًا من الهواة أو المحترفين لم يكلف نفسه عندما باشرت السلطة المنتدبة بعد سنة ١٩١٨م بهدم الأبنية القديمة بما فيها الزوايا والرباطات، وضع رسم تقريبي أو وصف لأبعاد وطراز بناء الزوايا، ولا سيما زاوية المجذوب التي أرصدت لمصالحها الأوقاف والأحكار الكثيرة، وتعاقب على إمامتها والتدريس فيها أئمة وأعلام اشتهروا بالتقوى والعلم والفقه.

وتظهر أهمية زاوية المجذوب من ناحية أخرى في نشوء نشاط تجاري واقتصادي حولها، تمثل بتسمية المحلة الكائنة فيها باسم محلة

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/ ٢١٠).
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢٧).

المجذوب، وفي نشوء سوق باسم «سوق زاوية المجذوب» مما يشير إلى تزاحم الأقدام عند الزاوية، وكثرة المريدين والطلاب.

وقد عرفت الزاوية المذكورة في تاريخ بيروت بعدة أسماء. فهي بصفة عامة زاوية المجذوب، وهي في إحدى وثائق وقف الشيخ علي القصار المؤرخة في غرة جمادى الأولى ١٠٩٦ هـ «مدرسة المجذوب» و«محلة المجذوب»[١]. وفي المراسلات العثمانية ورد سؤال من نظارة الأوقاف الجليلة عن تاريخ «مسجد المجذوب»، ما يشير إلى أن زاوية المجذوب قامت بدور الزاوية التي تقام فيها الأذكار وتنشد المدائح والأوراد، وبدور المسجد الذي فيه يؤذن بحي على الفلاح وتؤدى الصلوات، وبدور المدرسة التي يقرأ فيها القرآن الكريم ويدرس التجويد والتفسير والقراءات.

أوقاف زاوية الشيخ محمد المجذوب والمتولين عليها

إن أقدم ما عثرنا عليه من الأوقاف التي أرصد ريعها لزاوية المجذوب يعود إلى الرابع من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٤م، وهو عبارة عن وثيقة تفيد بأن الحاج مصطفى ابن السيد محمد المجذوب حفيد الإمام الشيخ محمد مؤسس الزاوية (ذكر البعض أنه ولد سنة ١١٧٠ هـ، وتوفي سنة ١٢٢٨ هـ. وتاريخ الوفاة لا يتطابق مع تأريخ الوقف الحاصل سنة ١٢٢٩ هـ) وقف جميع العودة الشهيرة فيما بعد بعودة الشياح المشتملة على أرض وأغراس توت وبري وفواكه وأصول زيتون وبناء «أوط» كائنة

(١) وثيقة بتاريخ ١٠٩٦هـ الخاصة بوقف الشيخ علي القصار.

في مزرعة الشياح، وكذلك الدكان الكائنة في سوق العطارين داخل بيروت»[١].

وعندما تم سنة ١٨٤٣م تسجيل أوقاف المساجد والزوايا في سجل المحكمة الشرعية ذكرت هذه الوقفية كما يلي: «نصف عودة الشياح إيرادها تحت يد متوليها السيد محمد المجذوب، حكم شرط الواقف والده المرحوم الحاج مصطفى المجذوب» (كتبت المجدوب بالدال وليس بالذال)[٢].

يذكر أن العودة هي أرض زراعية كبيرة تفرز منها قطع وبساتين. والشياح وفقًا لأنيس فريحة مصدر نبت وأفرخ، بمعنى النبت الحسن والزرع الجيد.

يذكر أن المتولي على هذا الوقف الحاج محمد بن الواقف الحاج مصطفى تنازل عن التولية نظرًا لعجزه وضعف جسمه إلى ابنه الحاج أحمد الذي أقيم متوليًا بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٩م. وبسبب عجز الحاج أحمد نظرًا لتقدمه في السن وعدم قدرته على تعاطي أمور الوقف تنازل عن التولية في ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦م لابنه الشيخ حسن المجذوب، الذي عمل في المحكمة الشرعية في بيروت، وظهر اسمه في كثير من الوثائق الشرعية كشاهد أو كمساعد للقاضي[٣].

---

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص١٨).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م (ص٢١).

(٣) دفتر مديرية الأوقاف (ص١٨).

وكنا قد نشرنا في كتابنا تاريخ القضاء الشرعي في بيروت صورة وثيقة تعود الى ٢٤ شعبان المعظم سنة ١٣٢٨ هـ/١٩١٠م بخط الشيخ حسن المجذوب على توكيل من بشير حسين شانوحة لشقيقه كامل ببيع أسهم في دكان ودار. يذكر أن جدة الشيخ حسن لأبيه هي نفيسة شانوحة[١].

وبخط الشيخ حسن عدة وثائق هامة في السجلات الشرعية، منها وثيقة مؤرخة في ٢ رجب ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م وقف بموجبها فائق جبرائيل غرغور عدة عقارات على فقيرات الراهبات الساكنات في دير مار يوسف الظهور الكائن في بيروت (زقاق البلاط)، وتولية الست ماري بنت جان جاك مديرة الراهبات في الدير المذكور.

وكل ما نعرفه عن موقع الزاوية أنها كما ذكرنا كانت بجوار مبنى مجلس النواب الحالي. وعندما زار عبد الغني النابلسي بيروت سنة ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٣م وعزم على السير إلى زيارة الأوزاعي قال: «فسرنا ومررنا في الطريق على قبة صغيرة يقال لها مقام المجذوب، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى ...»، ولم يحدد بالضبط موقع المقام المذكور[٢].

قيل: إن الشيخ محمد المجذوب كان قد اتخذ مصلًّى له في الجهة الشمالية الغربية من جبانة الباشورة يختلي فيها للتعبد في الليل والنهار، وأنه دفن بجانب هذا المصلى. ولعل هذا المقام هو الذي زاره النابلسي؟

---

(١) تاريخ القضاء الشرعي في بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص١٩٨).

(٢) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٨٣).

ويتناقل البيارتة كما ذكر الشيخ طه الولي بأن هذا المقام كانت توقد تحته الشموع، وقد أزيل وقبته بعد أن فتح في مكانه باب يصل ما بين المقبرة والشارع العام.

وذكر بأنه كان للمجذوب مقام آخر عند المدخل الجنوبي للمقبرة عبارة عن قبة متواضعة تحتها قبر صغير من غير أية كتابة، والناس تقول: هنا يوجد شهيد. نشير إلى وجود قبة متواضعة فوق غرفة صغيرة خلف الجدار الذي يقف عليه أهل المتوفى لتلقي التعازي عند المدخل الجنوبي للمقبرة. ويقال: بأن السلطات العثمانية عثرت على أوراق سرية مخبأة عند ضريح المجذوب، وجرى ربط الأوراق المذكورة بين محمود وأحمد المحمصاني والحركات المناهضة للسلطة.

يذكر أن مقام الشيخ محمد المجذوب جدد من قبل الحاج أحمد (والد الشيخ حسن)، وأن الشيخ إبراهيم المجذوب نظم أبياتًا حفرت على شاهد الضريح لا تتضمن تأريخًا مطلعها:

هـذا مقـام محمـد المجـذوب   في حب الإله له تحنّ قلوب

نشير إلى أنه بسبب طلب تعيين قيم ومؤذن لمسجد المجذوب ورد أمر من نظارة الأوقاف في الآستانة يتضمن السؤال عن مسجد المجذوب هل يوجد له وقفية وهل لها قيد في السجلات؟ وهل هو قديم أو محدث؟ وما سبب عدم استدعاء الحصول على براءة بتوجيه الذكر الرفاعي وتعيين قيم ومؤذن له. وأن الوظائف الموجهة على الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الرفاعي من طرف من صار تخصيصها به وبأي سند تخصصت به؟

وكان جواب القاضي الشرعي في بيروت بتاريخ ٦ شوال المكرم سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٨م بأنه «مسجد قديم مشهور، لا وجود لوقفيته لا في سجل ولا في غيره، وأن الوظائف الثلاث كانت موجهة على الشيخ عبد الله الرفاعي من قديم الزمان، ثم لما توفي كان ابنه الشيخ أحمد قاصرًا فشغرت تلك الوظائف، ثم في سنة ستة وستين ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩م بلغ الشيخ أحمد المومى إليه رشده وأكمل أشده، فصار توجيه الوظائف المذكورة عليه من طرف نعيم أفندي مدير أوقاف إيالة صيدا الملغاة الأسبق، عن أمر محمد صالح وامق باشا والي الإيالة وقتئذ. وبقيت تلك الوظائف بيده يقوم بها حق القيام بدون سند بيده.

فمن نحو أربع سنين استرحم توجيه الوظائف المذكورة عليه ببراءة شريفة خاقانية ثلاث مرات، واستمر الحال على هذا المنوال حتى حضر الأمرنامه المومى إليه بالسؤال عن سبب عدم الاستدعاء قبل ذلك، وإن أكثر الوظائف قبل ذلك في مدينة بيروت كانت موجهة على أصحابها بدون براءة شريفة. وحيث كان فيه اللياقة والأصلحية والصلاح والتقوى وهو قائم بالوظائف حق القيام في المسجد المرقوم بدون أدنى تهاون بناء عليه تقدم هذا العرض والأمر لمن له الأمر»[1].

وقد ورد في ديوان «مرآة الغريبة» للشيخ قاسم أبو الحسن الكستي أنه لما تجددت زاوية المجذوب سنة ١٢٨٣ هـ/١٨٦٦- ٦٧م نظم على لسان حالها:

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٤هـ رقم ١١٠.

ويتناقل البيارتة كما ذكر الشيخ طه الولي بأن هذا المقام كانت توقد تحته الشموع، وقد أزيل وقبته بعد أن فتح في مكانه باب يصل ما بين المقبرة والشارع العام.

وذكر بأنه كان للمجذوب مقام آخر عند المدخل الجنوبي للمقبرة عبارة عن قبة متواضعة تحتها قبر صغير من غير أية كتابة، والناس تقول: هنا يوجد شهيد. نشير إلى وجود قبة متواضعة فوق غرفة صغيرة خلف الجدار الذي يقف عليه أهل المتوفى لتلقي التعازي عند المدخل الجنوبي للمقبرة. ويقال: بأن السلطات العثمانية عثرت على أوراق سرية مخبأة عند ضريح المجذوب، وجرى ربط الأوراق المذكورة بين محمود وأحمد المحمصاني والحركات المناهضة للسلطة.

يذكر أن مقام الشيخ محمد المجذوب جدد من قبل الحاج أحمد (والد الشيخ حسن)، وأن الشيخ إبراهيم المجذوب نظم أبياتًا حفرت على شاهد الضريح لا تتضمن تأريخًا مطلعها:

هـذا مقـام محمـد المجـذوب   في حب الإلـه لـه تحنّ قلوب

نشير إلى أنه بسبب طلب تعيين قيم ومؤذن لمسجد المجذوب ورد أمر من نظارة الأوقاف في الآستانة يتضمن السؤال عن مسجد المجذوب هل يوجد له وقفية وهل لها قيد في السجلات؟ وهل هو قديم أو محدث؟ وما سبب عدم استدعاء الحصول على براءة بتوجيه الذكر الرفاعي وتعيين قيم ومؤذن له. وأن الوظائف الموجهة على الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الرفاعي من طرف من صار تخصيصها به وبأي سند تخصصت به؟

وكان جواب القاضي الشرعي في بيروت بتاريخ ٦ شوال المكرم سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٨م بأنه «مسجد قديم مشهور، لا وجود لوقفيته لا في سجل ولا في غيره، وأن الوظائف الثلاث كانت موجهة على الشيخ عبد الله الرفاعي من قديم الزمان، ثم لما توفي كان ابنه الشيخ أحمد قاصرًا فشغرت تلك الوظائف، ثم في سنة ستة وستين ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩م بلغ الشيخ أحمد المومى إليه رشده وأكمل أشده، فصار توجيه الوظائف المذكورة عليه من طرف نعيم أفندي مدير أوقاف إيالة صيدا الملغاة الأسبق، عن أمر محمد صالح وامق باشا والي الإيالة وقتئذ. وبقيت تلك الوظائف بيده يقوم بها حق القيام بدون سند بيده.

فمن نحو أربع سنين استرحم توجيه الوظائف المذكورة عليه ببراءة شريفة خاقانية ثلاث مرات، واستمر الحال على هذا المنوال حتى حضر الأمرنامه المومى إليه بالسؤال عن سبب عدم الاستدعاء قبل ذلك، وإن أكثر الوظائف قبل ذلك في مدينة بيروت كانت موجهة على أصحابها بدون براءة شريفة. وحيث كان فيه اللياقة والأصلحية والصلاح والتقوى وهو قائم بالوظائف حق القيام في المسجد المرقوم بدون أدنى تهاون بناء عليه تقدم هذا العرض والأمر لمن له الأمر»[1].

وقد ورد في ديوان «مرآة الغريبة» للشيخ قاسم أبو الحسن الكستي أنه لما تجددت زاوية المجذوب سنة ١٢٨٣ هـ/١٨٦٦- ٦٧م نظم على لسان حالها:

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٤هـ رقم ١١٠.

إن مـن سـعى بتجديـد وضـعي — وبـه يرتجـي عمـوم الثـواب
بشّـروه عنـي بخيـر جزيـل — جـاء تاريخـه بغير حسـاب[١]

يذكر أن مشايخ آل الرفاعي استمروا في القيام بوظائف خدمة زاوية المجذوب منذ الشيخ عبد الله الرفاعي، مرورًا بابنه الشيخ أحمد، وصولًا إلى سنة ١٣٠٥ هـ. ففي الثاني من شهر محرم الحرام سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧م رفعت عريضة من القاضي الشرعي مفادها أنه «لما كانت وظيفة مشيخة الذكر الرفاعي ووظيفة القيم والمؤذن في زاوية المجذوب موجهات على الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الرفاعي بمعاش قدره مئة وخمسون غرشًا شهريًّا تصرف له من غلة عقارات وقف الزاوية بموجب براءة شريفة مؤرخة في ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠م، ومن مدة توفي الشيخ أحمد عن أولاد ذكور هم الشيخ مصطفى وعبد الله ومحمد أمين ومحيي الدين البالغون الراشدون، وسعد الدين وخير الدين وبهاء الدين ومحمود القاصرين عن درجتي البلوغ والرشد، وهم من المستثنين من خدمة العسكرية (سنبين أصل هذا الاستثناء في محله) بموجب الإرادة السنية، وقد وجد عبد الله ومحمد أمين ومحيي الدين المذكورون لا أهلية لهم للوظائف المذكورة، لأن عبد الله ومحيي الدين من مستخدمي كمرك بيروت، ومحمد أمين بالمكتب الإعدادي الطبي بالآستانة العلية لتعليم الطب، وأن الشيخ مصطفى به الأهلية لهذه الوظائف على موجب مضبطة من جمعية مشايخ الطرق العلية ببيروت

(١) ديوان ترجمان الأفكار، قاسم الكستي (ص١٨٠).

(سنشير إلى أهمية هذه الجمعية في محله)، وهو خليفة أبيه الموما إليه دون بقية إخوته.

فحينئذ استحضر الشيخ مصطفى إلى المجلس الشريف بحضور رفعتلو الحاج عبد اللطيف أفندي حماده مدير أوقاف بيروت، ووجهت عليه الوظائف المذكورة بالمعاش المذكور، بشرط المداومة، وهو قبِل ذلك، وبناء عليه قدمت هذا العرض ...»[١].

يذكر أنه في التاريخ نفسه وجهت إمامة مسجد زاوية البدوي بعد وفاة الشيخ أحمد الرفاعي على ابنه سعد الدين الذي وجد سنّه ثلاث عشرة سنة ويرجى منه الأهلية لتوجيه وظيفة الإمامية لكونه شارعًا في تحصل العلوم، فأقيم عنه شقيقه عبد الله، ووجهت إليه وظيفة الإمامية بالوكالة بالمعاش المحرر لأبيه، أي: مئة غرش، وجعل للوكيل أربعون غرشًا الخ ...».

أشرنا إلى أن أوقاف المساجد والزوايا في بيروت دونت لدى افتتاح أول سجل للمحكمة الشرعية في بيروت سنة ١٨٤٣م. ويتبين منه أن أوقاف زاوية المجذوب والأحكار - أي: المبالغ المرتبة على عقارات لمصلحة الزاوية والتي تستحق رغم تداول العقار وانتقاله - تفوق الأوقاف والأحكار الخاصة بالزوايا الأخرى، مما يدل على تقدير البيارتة واعتقادهم بكرامة مؤسس الزاوية الشيخ محمد المجذوب، واحترامهم وتقديرهم لأبنائه وأحفاده.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٥هـ رقم ٤١٠.

فمن جملة أوقاف الزاوية إضافة الى ما ذكرناه عن عودة الشياح، عدة دكاكين في أماكن مختلفة من أسواق بيروت، وعدة بيوت منها بيت في زاروب المجذوب لصيق الزاوية، ومنها بيت المجذوب في زاروب النقيب. وكذلك أربعة قراريط في معصرة دندن القريبة من الزاوية.

يذكر أيضًا بأن الشيخ عبد الهادي قرنفل نائب بيروت (قاضيها) على الأقل منذ سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م وقف عقاراته لمساجد بيروت وزواياها، منها وقفه لمصلحة الجامع العمري أشجارًا في حي عين الباشورة، ودكانًا لصيق الجامع. ووقف قطعتي أرض فيها أغراس توت وزيتون، الثلث منها لمصلحة زاوية المجذوب، والثلث للزاوية الحمراء، والثلث الأخير للجامع العمري. أما أحكار الزاوية فعلى عدة بيوت.

ويروى عن كرامات الشيخ المجذوب وعتبة زاويته أن بعض النسوة كن يحملن أطفالهن ويزرنها تبركًا رجاء أن يمن الله على أطفالهن بالشفاء من مرض الشهقة. روى شفيق طبارة عن معمرين أنه لما باع آل المجذوب دارهم ظلت عتبة الدار وقفًا، وأنه لما بدأت سلطة الانتداب بهدم الأسواق القديمة باع أصحاب البناء الزاوية واحتفظوا بالعتبة، فقال البيارتة في أمثالهم: باعوا البيت وتزنروا بالعتبة.

ولعلهم في ذلك يذكرون ما تناقلوه من حديث إبراهيم الخليل عليه السلام مع زوجتي ابنه إسماعيل عندما قال للأولى: قولي لزوجك أن يغير عتبة بابه، وقال للزوجة الثانية التي خدمته وأكرمته: قولي لزوجك قد استقامت عتبة بابه.

تولية الشيخ مصطفى الرفاعي على زاوية المجذوب

٤١٠ بينها المعروضة لاعتاب الدولة العلية العثمانية حفظها الله وحماها بالبرية

هو انه لما كانت وظيفة مشيخة الذكر الرفاعي ووظيفة القيم والمؤذن في زاوية المجذوب
الكائنة داخل مدينة بيروت موجهتا على الشيخ احمد افندي ابن الشيخ عبد الله الرفاعي بمعاش
مائة وخمسين غرشاً في كل شهر تقرر فلم من غلة عقارات وقف الزاوية المذكورة
بموجب برآءة شريفة خاقانية مؤرخة في الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين
ومائتين والف وهو متصرف بهذه الوظائف بالمعاش المذكور ومن مدة توفي الشيخ
احمد افندي المومأ اليه عن اولاد ذكور وهم اصحاب المكرمة الشيخ مصطفى افندي وعبد الله افندي
ومحمد امين افندي ومحيي الدين افندي البالغين الراشدين وسعد الدين افندي وخير الدين افندي
وبهاء الدين افندي ومحمود افندي القاصرين عن درجتي البلوغ والرشد وهم من
المستثنين من خدمة العسكرية بموجب الارادة السنية وقد وجد عبد الله افندي ومحمد امين
ومحيي الدين افندي المذكورين لا اهلية لهم للوظائف المذكورة لان عبد الله افندي
ومحيي الدين افندي من مستخدمي مركز بيروت ومحمد امين افندي بمكتب اعدادي الطبي
بالاستانة العلية لتعليم الطب وان الشيخ مصطفى افندي المذكور له الاهلية
لهذه الوظائف المذكورة على موجب مضبطة من جهة مشايخ الطرق
العلية ببيروت وهو خليفة ابيه المومأ اليه دون بقية اخوته المذكورين فحيث
استحضر الشيخ مصطفى افندي المذكور الى المجلس الشرعي الشريف بحضور رفعتلو الحاج عبد اللطيف
افندي حماده مدير اوقاف بيروت ووجهت عليه الوظائف المذكورة بالمعاش
المذكور بشرطه المذكور وهو قبل ذلك وبناء عليه قد صار عرض الكيفية مسترعيا
باصدار برآءة شريفة خاقانية معلنة بتوجيه الوظائف المذكورة على الشيخ مصطفى
افندي المذكور داعيا ببقاء وتأبيد الدولة العلية العثمانية الى آخر الدوران وعلى كل
الامر لحضرة من له الامر والاراده تحريرا في ثاني محرم الحرام سنة خمس وثلاثمائة والف

مشيخة الذكر الرفاعي في زاوية المجذوب ١٣٠٥هـ بحضور مدير أوقاف بيروت عبد اللطيف حمادة

سؤال من نظارة الأوقاف عن مسجد المجذوب

زاوية/ جامع الشيخ علي القصار

أهمية وثائق وقف زاوية الشيخ علي القصّار

مرّ ناصر خسرو في بيروت في شعبان ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م قادمًا من طرابلس، وذكر في رحلته المسماة «سفرنامه» أنه رأى في بيروت طاقًا حجريًا قدر ارتفاعه بخمسين ذراعًا، وجانباه من حجر أبيض، زنة كل قطعة أكثر من ألف (منّ)، وعلى جانبيه بناء ارتفاعه عشرون ذراعًا، نصبت على قمته أعمدة رخامية، طول كل منها ثمانية أذرع، وعلى رأس العمد عقود من الحجر المنحوت وفي الوسط الطاق الكبير. والحجارة منقوشة بمهارة، وسأل عن هذا المكان فقيل له: سمعنا أنه حديقة فرعون، وهو قديم جدًا.

وخرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤م معتمدًا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وزيارة أمكنة عديدة دونت في رحلته المشهورة. وزار بيروت التي لم تأخذ من كتاب رحلته سوى سطر ونيف قال فيه: «ثم سرنا إلى مدينة بيروت، وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد».

وكان على البيارتة الانتظار حتى سنتي ١٦٩٣ و١٧٠٠م لكي يعرفوا بعض معالم مدينتهم المعمارية والدينية من خلال رحلتين إليها قام بها عبد الغني النابلسي. وران السكوت عن تاريخ المدينة وخيم الصمت على تراث أهلها حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأ ظهور الصحف والكتب.

ثم سادَ الهدوء مجددًا خلال الحرب العالمية الأولى. ومع انتهاء الحكم العثماني والخضوع لسلطة الإنتداب الفرنسي، أخذ أصدقاء المنتدبين يهملون – قصدًا إن لم يكن عمدًا تاريخ وتراث البيارتة خصوصًا والساحل عمومًا وتراث الأقضية الأربعة لحساب جبل لبنان الذي كبّره الجنرال غورو وأعلن استقلاله في أول أيلول ١٩٢٠م. حتى يخيل للباحث أنه لم يكن لأهل هذه المدينة أية أعراف أو تقاليد أو مأثورات مادية وشفاهية من أمثال وحكايات وأغاني، وحتى مؤسسات دينية ووقفية وإسهامات سياسية.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيسٌ ولم يسمرُ بمكة سامرُ

وللأمانة نقول: إن البيارتة يتحملون حيزًا كبيرًا من هذا التغييب لعدة أسباب، منها: انصرافهم إلى التجارة التي برعوا فيها، حتى إن أمين الفتوى الأسبق الشيخ محمد العربي العزوزي عندما قرر بعد إيابه من أداء فريضة الحج والاستقرار في بيروت وزواجه من السيدة حبيبة دندن، سأل الشيخ محمد المبارك عن علماء بيروت للتعرف إليهم والأخذ عنهم، فأجابه: إن

البيارتة أهل تجارة، وإذا أردت العلم فعليك بدمشق[١]. وهذا الرأي سبق أن قرره مفتي بيروت الشيخ أحمد البربير حين قال:

بيروت مقبرة الفنون وحفرة	ملئت على أهل العلوم سعيرا
كم عالم مات من ضغطاتها	ورأى هناك منكرًا ونكيرا[٢]

ووافقه فيه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله بقوله[٣]:

بيروتنا مقبرة	للعلم والعرفان
الجهل فيها ذو بقا	والعلم فيها فاني

ونسب إلى المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري أنه وضع كتابًا بعنوان: «النبّوت في رأس أهل بيروت»، لما شهده من البدع المخالفة للدين.

ويعود الفضل في معرفة بعض محلات بيروت وأماكنها ومساجدها وزواياها وعائلاتها والأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأهلها، إلى وثائق محكمة بيروت الشرعية المسجلة في السجلات الشرعية التي افتتح أول سجل رسمي لها سنة ١٨٤٣م بعد عودة الحكم العثماني المباشر.

وقد أمكن الاطلاع على بعض الوثائق التي تعود إلى ما قبل سنة ١٨٤٣م سواء المحفوظة في بعض بيوت البيارتة أم بسبب التقاليد القضائية

(١) إتحاف ذوي العناية، محمد العربي العزوزي (ص٦٩).

(٢) خبايا الدراية، عبد الباسط فاخوري (ص٤٥٣).

(٣) ديوانه (١/١١٨).

الشرعية في القضايا الوقفية التي تقضي بوجوب تسجيل وثائق الوقف كل مئة عام، ولجوء بعض المتنورين من متولي وقفيات بيروتية قديمة إلى تسجيل وثائق أوقاف أجدادهم في السجلات الجديدة.

وأهم تلك الوثائق وأقدمها الوثائق الخاصة بوقف زاوية/ جامع الشيخ علي القصار، المصدقة أولاها في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م وملاحقها، والتي قام أستاذنا القاضي الراحل الدكتور وفيق القصار وعميد كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية بتسجيلها أصولًا في السجلات الشرعية[١]. إضافة إلى الوثائق الوقفية العائدة إلى الحاج مصطفى القصار شقيق واقف الزاوية الشيخ علي، وأفراد من أسرة القصار، منهم: درويش بن علي القصار حفيد الواقف الشيخ علي، والذي سبق أن أشرنا إلى وقفيته على مسجد السيد البدوي في طنطا، كما ذكرنا في كتابنا عن مؤسسي المقاصد أن بدرة بنت مصطفى العيتاني الملقب بالنسر، وقفت في السابع من جمادى الثانية سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م دكانًا قرب زاوية القصار على نفسها وعلى زوجها درويش بن علي القصار، ومن بعدهما على القراءة لهما والصدقة والآس. وقد آل هذا الوقف إلى جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية. وغيرها من الوثائق القليلة القديمة[٢].

وقد قمنا بدراسة هذه الوثائق وغيرها من التي تعود إلى ما قبل سنة ١٨٤٣م وتحقيقها بالتفصيل على حدة، ونذكر في هذا المقام ما له علاقة

(١) نور الفجر الصادق، عبد اللطيف فاخوري (ص٢٥).

(٢) محكمة بيروت الشرعية، قرار رقم ١٨٤ تاريخ ١٩٦٩/٢/٤م.

بوثائق زاوية الشيخ علي القصار. فالوثائق المشار إليها تشكل ثروة تاريخية، تبين ملامح ومواقع لبيروت، فضلًا عن خطط بعض الأمكنة وأسماء عدد من العائلات ومتولي الوظائف الدينية وغيرها.

والقصار هو على رأي القاسمي: من يقصر القماش، أي: ينقيه من الأوساخ والأدناس. وهي حرفة يتعيش بها أناس كثيرون. ويقول أحمد أبو سعد: إن آل القصار في بيروت سوريو الأصل، اشتهر منهم هناك الأديب الشاعر عبد الرحمن القصار. واشتهر العديد من أبنائهم في بيروت على رأسهم أستاذنا الراحل الدكتور وفيق القصار، والشيخ فضل، وابنه الدكتور بشير مدير الكلية العثمانية (الإسلامية)، ومنهم الوزير السابق عدنان القصار، وشقيقه عادل، وكل واحد له في بيروت آثار تذكر فتشكر.

ووثائق زاوية الشيخ علي القصار خمسة، أولها منظمة وموثقة بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٠٩١ هـ/ ١٦٨٠م لدى القاضي أحمد عبد الرؤوف «قاضي بيروت وعكا» في حينه. وفي الثانية أضاف إليها الواقف الشيخ علي القصار مخازن صدقت في ختام ذي العقدة الحرام سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨١م لدى «كمال الدين المولّى خلافة محروسة بيروت».

والثالثة مصدقة لدى القاضي المذكور في ختام محرم الحرام سنة ١٠٩٢ هـ/ ١٦٨١م، أضاف فيها الواقف لمصلحة الزاوية بعض الحوانيت. والرابعة مصدقة في غرة جمادى الأولى سنة ١٠٩٦ هـ/١٦٨٥م لدى قاضي بيروت مصطفى الذي صدق أيضًا على الوقفية الخامسة المنظمة لديه بتاريخ غرة شوال سنة ١١٠٤ هـ/ ١٦٩٣م.

وبموجب الوثيقة الأولى وقف الشيخ علي القصار ما كان جاريًا في ملكه ومنتقلًا إليه بطريق شرعي، البعض بالابتياع الشرعي والبعض أنشأه من ماله، وذلك الزاوية التي أنشأها لعبادة الله تعالى الكائنة بساحة سليم (سنعود فيما بعد إلى محتويات الزاوية)، وستة حوانيت جيرة الزاوية، وحانوت بمحلة غليني، ومخزن في محلة بني زنتوت ...

وجعل الشيخ علي النظر في الوقف لنفسه ومن بعده لابنه الصلبي المدعو أبو بكر، وعلى من سيرزق من الذكور، فإذا انقرضوا عاد الوقف إلى أولاد بناته، فإذا خلت الأرض منهم عاد النظر إلى الأرشد من أولاد أخويه «فخر الأعيان الحاج مصطفى والحاج زين الدين».

وبموجب الوثيقة الثانية وقف الشيخ علي القصار ما هو منتقل إليه بالشراء من أحمد ويعرف بالحجار ابن احمد الكاخية، وذلك الدار الكائنة لصيق الدباغة، المشتملة على بيوت بعضها خراب، وحانوتين يحدها قبلة سور المدينة المطلة من الخارج على المصلى والقلعة وشرقًا الإيوان الكبير والكشك المشرفان عليها، وشمالًا الدباغة، وغربًا الطريق الآخذ لبوابة المدينة.

وبموجب الحجة الثالثة وقف الشيخ علي القصار أربعة حوانيت مسقوفات بالجسور والأخشاب، ثلاثة منها إنشاء الواقف بقرب الزاوية، واثنتان قبلي معصرة ابن الشيخ حسن، والثالثة شمالي بئر الماء غربي وقف المينا، والرابعة منتقلة إليه بالشراء من فاطمة بنت عز الدين زوجة ابن زخريا كائنة بمحلة غليني، يحدها قبلة السوق الجديد، وشرقًا حانوت

وقف جامع الأمير منذر سكن الحاج علي خاصر، وشمالاً الطريق، وغربًا ملك الحاج جمال الدين وأولاد الهرس.

وفي الحجة الرابعة وقف الشيخ علي المخزن الكائن بالأسكلة تجاه المصبنة قرب بيوت أولاد الدهان، يحده قبلة ملك الخواجا عمر بن المرحوم محفوظ ابن العيتاني، وشرقًا حديقة ورثة أبي نوفل الخازن وتمامه أولاد المغربل، وشمالاً ملك الخواجا عمر بن الحاج حسين الحلواني لصيق بيوت أولاد زين الدين المفتي.

كما وقف القبو الكائن بمحلة شويربات سفلي بيت الحاج يوسف بن الحاج محمد حندس، يحده غربًا ملك الحاج محمد بن علي الناطور. وشمل الوقف أيضًا فرن الخبز المشتمل على بيت نار وفناء وباب وطاقة مسقوف بالجسور والأخشاب، كائن بمحلة مدرسة المجذوب المحدود شرقًا ببيت زين الدين اتمكجي باشي الشهير بابن المعاز، وشمالاً بيت ابن اليحيى الشهير بابن الجوال، وغربًا دار بني (كرارو).

بموجب الوثيقة الخامسة وقف الشيخ علي القصار على المدرسة (الزاوية) التي أنشأها بساحة بني سليم الحديقة الكائنة بجانب صور (سور) المدينة المرقومة (بيروت) لصيق حمام الأوزاعي، وفيها توت وقبو معقود، قبلتها حارة المصيف، وشرقها طريق سالك، وشمالها أولاد الواقف، وغربًا صور المدينة.

ووقف أيضًا الحديقة المعروفة سابقًا بأولاد سليم، وفيها أغراس توت، يحدها قبلة ورثة الحاج نور الدين بن عز الدين أبو رين، وشرقًا

كذلك وبيوت بني القباني، وشمالاً بيت الحاج حسن فايد، وغربًا طريق سالك.

عائلات بيروت سنة ١٦٨٠م من وثائق وقف الشيخ علي القصّار

يمكن القول بأن أسرة القصار مارست التجارة منذ زمن بعيد. فبموجب الوثيقة المؤرخة في الثامن من شهر محرم الحرام سنة ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٦م المسجلة لدى القاضي الشرعي في بيروت المحمية اشترى «فخر الأعيان حاوي العرفان الصدر الأجل المحترم الحاج مصطفى (شقيق واقف الزاوية الشيخ علي) بن المرحوم الخواجة محمد الشهير نسبه الكريم بابن القصار من الحاج سيف الدين بن الحاج علي العالية الشهير نسبه بالسقعان (أو الأنسي الصقعان، وقد أصبحت القاف الصعيدية جيمًا السجعان فيما بعد) الحانوت الكائن بسوق الصبّانة، قبلته البركة، وشرقه حانوت وقف قفة الخبز، وشماله وقف بني الكبّاس، وذلك بثمن قدره أربعة عشر غرس فضة أسدية، وقاصص البائع للمشتري بالثمن من أصل ما له في ذمته من الدين الشرعي من ثمن أرز».

وتشير الوثيقة الأولى من وثائق الشيخ علي القصار إلى أهمية مركز الواقف الاجتماعي والديني، فتصفه بالقول: «أشهد على نفسه الكريمة فخر الفضلاء والحفاظ، عذب المنطق والألفاظ، الصدر الأجلّ الكبير المحترم مولانا وسيدنا الشيخ علي ابن المرحوم محمد الشهير نسبه الكريم بابن القصار أعانه وأعزّه العزيز الغفار ...».

ونعود إلى الوثائق الخمسة لوقف الشيخ علي القصار، فنتبين العائلات من أسماء الشهود الواردة أسماؤهم في الوثيقة الأولى وهم: فخر المدرسين مولانا زين الدين المفتي. فخر الأعيان الحاج مصطفى شقيق الواقف، وشقيقهما الحاج زين الدين. حسن وأحمد وشهاب الدين الغندور. وفخر النقباء السيد علي نقيب الأشراف. الشيخ حسين خطيب الجامع. الشيخ إبراهيم الإمام. الشيخ حسن الحافظ، وابنه الشيخ علي. الشيخ علي المجذوب. الخواجا عمر العيتاني، وشقيقه ناصر الدين (قد يكون هذا الأخير هو الجد الملقب ببيهم؟).

وأما شهود الوثيقة الثالثة فهم: الحاج محمد بن عبد الله البتروني، ومحمد بن محفوظ كسبية، وعمر بن سليمان بن قاسم آغا الطرابلسي ابن الدده، والمحضر علاء الدين بن محمد، والمحضر الثاني علي الخياط.

ومن شهود الوثيقة الرابعة: الخواجة أحمد بن سعادة. محمود بك. محمد بن أبي النصر بن جعنا. أمين الدين ابن البيطار. حسن ابن الكردوش. أحمد بن الغندور. يوسف العراوي. محمد المغربي. الحاج مصطفى جعنا. مولانا الشيخ زين الدين المفتي. الخواجا محمد جلبي شاهبندر، وولده الخواجا الشيخ علي. الحاج علي العيتاني وعز الدين.

وشهد على الوثيقة الخامسة: محمد بن جعنا، وشهاب الدين الغندور. الحاج عبد الله آغا. الشيخ محمود الرشيدي. الشيخ عمر فتح الله. الخطيب الحاج حسن قرنفل. الحاج حسن العلماوي وعز الدين.

وقد وصف بالخواجا في هذه الوثائق كل من: محمد القصّار والد الواقف، ومصطفى شقيقه، وعمر بن محفوظ العيتاني، وأحمد بن سعادة، وعمر ابن الحاج حسين الحلواني، كما ورد مضافًا إلى لقب الخواجا محمد جلبي شاهبندر، وولده الشيخ علي.

ويتبين من وقفية دار أحمد زنتوت الكائنة بمحلة باب المصلى قرب حمام ابن معن الشهير بالحمام الكبير، والمنظمة لدى قاضي بيروت عمر أفندي في السادس من شهر محرم الحرام سنة ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠م أن نزاعًا حول ثبوت واستحقاق وقف زنتوت نشأ بين أمين الدين بن علي زنتوت بوكالته عن زوجته رقية بنت محمد الشاهبندر (زنتوت) وبين عبدي آغا الدزدار بقلعة بيروت ابن الحاج حسن القصار الوكيل عن زوجته مارية بنت الشاهبندر (زنتوت) أثبت القاضي بنتيجته الوقف[1].

وتفيدنا الوثيقة المؤرخة في شهر ربيع الثاني سنة ١١٥٥ هـ/ ١٧٤٢م أنه تم عزل الحاج جميل (الشهير بأبي بكر) ابن الواقف الشيخ علي القصار المتولي والناظر على وقف زاوية والده، لأنه منح نصف وقف الزاوية للأمير إسماعيل؟، وعُين علي ابن (المرحوم) عبدي آغا القصار ابن بنت الواقف الشيخ علي متوليًا وناظرًا. وشهد على ذلك عدة أشخاص منهم: ناصيف الحسامي، وعمر الغندور، ومحمد سنو، وعبده شهاب الدين، وعبد الله البواب، وحسن النقيب، وعبد الحي فتح الله، ومحمد الرشيدي، وابن أخيه مصطفى، وعبد القادر وإبراهيم قرنفل، وسعد الدين وحسن سعادة، وعبد الحي ومحمد المكحل.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٣/١٢٦٥هـ (ص١٩٨-٢٠٠).

والدزدار كلمة فارسية تعني حافظ القلعة (من الدار بمعنى ممسك، حافظ)، أطلقت على قائد القلعة. وتوالى على حراسة قلعة بيروت وقيادة حاميتها شجعان من عائلات بيروت حملوا لقب دزدار، منهم عبدي آغا ابن الحاج حسن القصار المشار إليه (زوج لطيفة بنت الواقف الشيخ علي القصار)، الذي كان دزدارًا سنة ١٧٢٠م. ومنهم إبراهيم آغا دزدار القلعة سنة ١٧٤٣م. ومن محافظي القلعة عدة أشخاص من أسرة دية، منهم صادق دية سنة ١٧٧٢م. وعلي آغا دية الذي تولى أمن القلعة سنتي ١٧٧٢ و١٧٧٣م أثناء حصار بيروت وقصفها من الأسطول الروسي، وقد رثاه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله بقصيدة طويلة مطلعها:

بكل الورى أمرُ المنون فنافذ وفيها المنايا بالسّهام تراشقُ

ومنها:

علي السجايا ابن المكارم والندى همامٌ به ذلت أنوفٌ شواهقُ[1]

وتمدنا وثائق أوقاف الشيخ علي القصار بأقدم ما ذكر عن عائلات بيروت سنة ١٦٨٠م، فكان منها أسر العيتاني والحلواني والدهان والخازن والمغربل وشاهين وقرنفل والناطور والقباني وفايد والعلماوي وعز الدين وزنتوت والغندور والرشيدي والعراوي والمغربي والبتروني والخياط والمجذوب وجعنا وكسبية وحندس.

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٤٢ وما يليها)، وديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/١٦١).

ونشير هنا إلى أنا أشرنا في دراستنا عن جامع البدوي إلى وقفية مسجلة سنة ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٨م وقف فيها درويش بن علي آغا القصار (حفيد الواقف الشيخ علي) دكانًا على مسجد وضريح السيد البدوي في طنطا. وذكرنا من بين الشهود اسمَ الحاج يحيى «جعنا» ابن محمد سعادة، مما يعني أن أسرة جعنا هي فرع من أسرة سعادة البيروتية، ولا يزال هذا الفرع كما الأصل موجودًا حتى اليوم[1].

وكذلك أسرة كسبية من الكسب، وهو لغة: طلب الرزق، يقال عن الشخص أنه طيب الكسب والمكسبة والكسبية، وقد ورد ذكر لهذه الأسرة عند ذكر «بستان بكري كسبية» الكائن في مزرعة رأس النبع، والذي كان بتملك أولاده حنيفة وحسن وظريفة ومحمد، وذلك بموجب وثيقة مؤرخة في ١٦ من ذي الحجة سنة ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٧م[2].

ويبدو أن لقب حندس الذي ورد في وثائق زاوية الشيخ علي القصار هو أصل أسرة حنتس الذي سار على لسان البيارتة لصعوبة لفظ الدال قبل السين في حندس، وسهولة لفظها تاء. وحندس لغة: الظلمة، ويقال: أسود حندس، أي: شديد السواد، كما يقال: أسود حالك.

وتميزت وثائق الزاوية بذكر بعض علماء الدين ونقباء الأشراف والأئمة والمفتين، منهم: فخر المدرسين مولانا الشيخ زين الدين المفتي الذي ظهر اسمه كشاهد في وثيقة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠م، والإشارة إلى تملك أولاده محلًا في الأسكلة.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٥هـ/١٢٦٩هـ (ص١٥٧).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٣هـ/١٢٧٥هـ (ص٢٣).

والدزدار كلمة فارسية تعني حافظ القلعة (من الدار بمعنى ممسك، حافظ)، أطلقت على قائد القلعة. وتوالى على حراسة قلعة بيروت وقيادة حاميتها شجعان من عائلات بيروت حملوا لقب دزدار، منهم عبدي آغا ابن الحاج حسن القصار المشار إليه (زوج لطيفة بنت الواقف الشيخ علي القصار)، الذي كان دزداراً سنة ١٧٢٠م. ومنهم إبراهيم آغا دزدار القلعة سنة ١٧٤٣م. ومن محافظي القلعة عدة أشخاص من أسرة دية، منهم صادق دية سنة ١٧٧٢م. وعلي آغا دية الذي تولى أمن القلعة سنتي ١٧٧٢ و١٧٧٣م أثناء حصار بيروت وقصفها من الأسطول الروسي، وقد رثاه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله بقصيدة طويلة مطلعها:

بكل الورى أمرُ المنون فنافذ وفيها المنايا بالسّهام تراشقُ

ومنها:

علي السجايا ابن المكارم والندى همامٌ به ذلت أنوفٌ شواهقُ[1]

وتمدنا وثائق أوقاف الشيخ علي القصار بأقدم ما ذكر عن عائلات بيروت سنة ١٦٨٠م، فكان منها أسر العيتاني والحلواني والدهان والخازن والمغربل وشاهين وقرنفل والناطور والقباني وفايد والعلماوي وعز الدين وزنتوت والغندور والرشيدي والعراوي والمغربي والبتروني والخياط والمجذوب وجعنا وكسبية وحندس.

---

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٤٢ وما يليها)، وديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/١٦١).

ونشير هنا إلى أنا أشرنا في دراستنا عن جامع البدوي إلى وقفية مسجلة سنة ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٨م وقف فيها درويش بن علي آغا القصار (حفيد الواقف الشيخ علي) دكاناً على مسجد وضريح السيد البدوي في طنطا. وذكرنا من بين الشهود اسمَ الحاج يحيى «جعنا» ابن محمد سعادة، مما يعني أن أسرة جعنا هي فرع من أسرة سعادة البيروتية، ولا يزال هذا الفرع كما الأصل موجوداً حتى اليوم[1].

وكذلك أسرة كسبية من الكسب، وهو لغة: طلب الرزق، يقال عن الشخص أنه طيب الكسب والمكسبة والكسبية، وقد ورد ذكر لهذه الأسرة عند ذكر «بستان بكري كسبية» الكائن في مزرعة رأس النبع، والذي كان بتملك أولاده حنيفة وحسن وظريفة ومحمد، وذلك بموجب وثيقة مؤرخة في ١٦ من ذي الحجة سنة ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٧م[2].

ويبدو أن لقب حندس الذي ورد في وثائق زاوية الشيخ علي القصار هو أصل أسرة حنتس الذي سار على لسان البيارتة لصعوبة لفظ الدال قبل السين في حندس، وسهولة لفظها تاء. وحندس لغة: الظلمة، ويقال: أسود حندس، أي: شديد السواد، كما يقال: أسود حالك.

وتميزت وثائق الزاوية بذكر بعض علماء الدين ونقباء الأشراف والأئمة والمفتين، منهم: فخر المدرسين مولانا الشيخ زين الدين المفتي الذي ظهر اسمه كشاهد في وثيقة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠م، والإشارة إلى تملك أولاده محلًّا في الأسكلة.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٥هـ/١٢٦٩هـ (ص١٥٧).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٣ه/١٢٧٥هـ (ص٢٣).

يذكر أن عبد الغني النابلسي أثناء زيارته لبيروت في شهر صفر الخير سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م (في الرحلة الكبرى) اجتمع فيها «بالفاضل الكامل العالم العامل الشيخ زين الدين مفتي الشافعية بتلك الديار» (بيروت)، كما اجتمع بعمر بن محمد سعادة[1].

ويقول في الرحلة الأخرى (الطرابلسية) إلى أنه وصل إلى بيروت في العشرين من شهر أيلول سنة ١٧٠٠م/ السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٠١٢ هـ، وأن الأديب الشيخ عمر وشقيقه الحاج أحمد بن سعادة جاءا إلى زيارته، وأنشده عمر لنفسه أبياتًا، ودعاه إلى الإيوان المطل على البحر قرب قلعة بيروت، كما دعاه أحمد سعادة إلى بيته[2].

يذكر أنه في سنة ١٦٩٣م نزل النابلسي لدى وصوله إلى بيروت «عند الصديق الصادق والرفيق المصادق عين الأعيان في تلك البلاد وخلاصة أبناء الزمان الحاج مصطفى المشهور بابن القصار، نشر الله ذكره الجميل في جميع الأعصار، وهو رجل من أهل المروءات والكمالات، وبتنا عنده ...». والحاج مصطفى هو شقيق واقف الزاوية الشيخ علي القصار[3].

وترد في الوثائق في أسماء بعض الشهود ألقاب مثل حسن ابن الكردوش، ومحمد الشاهبندر وابنه علي، وابن الكاخية. فالكاخية أو الكيخيا نحتها الترك من كتخدا Kethuda، اصطلح على استخدامه لمن

(١) الحقيقة والمجاز، الناابلسي (ص٧٩).
(٢) التحفة النابلسية، النابلسي (ص٤٠).
(٣) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٧٧).

يعمل قائمًا بأعمال رجال الدولة. والكردوش لعلها الكردوس: لمن جسمه ممتليء باللحم (مكردس)، وجدنا في جلّ البحر من مزرعة رأس بيروت قطعة أرض عرفت بأرض الكردوش، وفقًا لوثيقة مؤرخة في الثالث والعشرين من شهر ذي العقدة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م.

أما محمد الشاهبندر وابنه علي فهما من آل زنتوت أقرباء آل القصار. فالشهبندر هو رأس الثغر والميناء.

موقع زاوية الشيخ علي القصّار والزوايا والمساجد المجاورة لها

ورد في وثيقتي وقف علي القصار تاريخ أول جمادى سنة ١٠٩٦ هـ وغرة شوال ١١٠٤ هـ عبارة «**الفقير إليه تعالى عز الدين**»، وقياسًا على ما ورد في الوثائق السابقة وغيرها من الوثائق الشرعية فإن من أول من يظهر اسمه بين الشهود إلى يسار الوثيقة يكون هو كاتبها، فلم يذكر من عز الدين هذا ولا كامل هويته. فقد يكون هو أحمد عز الدين الذي ذكره النابلسي في رحلته سنة ١٦٩٣م كأحد أشراف بيروت، وكانت له مع النابلسي مطارحات شعرية[1]، وأنه الذي جدد سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦م حائط حجرة الركن الجنوبي الغربي في الجامع العمري الكبير، كما تدل لوحة رخامية مثبتة في الحائط المذكور. وقد يكون المقصود عز الدين الميقاتي جد آل الميقاتي البيارتة؟

كما وردت في الوثائق ألقاب لأشخاص وعائلات لم يعد يوجد من أبنائها اليوم أحد، لاندثار ذريتهم أو لجوئهم إلى تغيير شهرتهم. مثل

(١) الحقيقة والمجاز، النابلسي.

الهرس التي قد تكون من الطحن ومضغ الطعام مضغًا شديدًا، والهرّاس: الذي يهرس الأشياء اليابسة كالحجارة. ومثل كراروا ولعلها من الكرّ، أي: الاندفاع، أو من تكرار الشيء مرة بعد أخرى، والكرار: الكثير الكرّ، ومثله المكرّ الذي وصف به امرؤ القيس فرسه.

والقروش الأسدية الفضية وهي من النقود التي ضربت في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وسميت بالأسدية نسبة لصورة أسد على جانبيها، وكان القرش الأسدي الفضي يساوي أربعين ليرة مصرية.

وورد اسم يوسف العراوي كشاهد في الوثيقة الرابعة ولا تعرف نسبته، وكانت محلة البازركان تحتوي على زاروب العراوي الذي وقف مصطفى محمد فتح الله الشيخ فيه داره في الزاروب المذكور على ذريته في ٣ جمادى الثانية ١٢٥٩/ ١٨٤٣م.

وترد في ثنايا الوثائق الوقفية أسماء لمحلات في بيروت القديمة لم يعد لها ذكر في يومنا هذا، منها ساحة بني سليم التي بنيت فيها الزاوية. ومحلة بني زنتوت قرب جامع السراي، والدباغة قرب القلعة، والأسكلة الميناء تجاه المصبنة. ومنها محلة مدرسة المجذوب المنسوبة للشيخ محمد المجذوب (التي درسناها على حدة).

ومحلة شويربات (قرب باب يعقوب) ولم يفدنا أحد عن معنى شويربات، وإن كنا نميل إلى الظن بأنها شويريات نسبة إلى نساء من الشوير أقمن في تلك البقعة واشتغلن بالتطريز، والأمر بحاجة إلى مزيد من التحقيق؟

أما محلة الغليني الذي وقف فيها الشيخ علي القصار دكانًا شرقي باب فرن سكن ابن مكه ... فقد عرفتنا الوثيقة المؤرخة في ١٧ شعبان ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٤م التي وقف بموجبها الحاج سعيد بن أحمد المكداشي داره في محلة شويربات، ووقف أيضًا ١٢ قيراطًا من الفرن المعروف بفرن المجذوب الكائن عند ساحة الغليني بالقرب من كنيسة طائفة الموارنة باطن المدينة، (وموقع الكنيسة المذكورة قرب كتدرائية مار جرجس المارونية الحالية في شارع الأمير بشير).

وذكرت الوثيقة المذكورة بأنه «يحد الفرن قبلة دار حنا قصير، وشمالاً طريق سالك وفيه الباب، وشرقًا دكان جاري في وقف الزاوية المعروفة بزاوية القصار العامرة بذكر الله سبحانه وتعالى باطن المدينة...»[1].

موقع الزاوية

تشير وثيقة الوقف الأولى إلى أن الشيخ علي القصار أنشأ زاويته سنة ١٠٩١ هـ/ ١٦٨٠م في «ساحة سليم»، ووقف عليها عدة حوانيت ومخازن في محلات مختلفة. وفي الوثيقة الخامسة ذكر للموقوف على مصالح المدرسة (أي الزاوية) الكائنة «بساحة بني سليم».

ولم نتبين من هم بنو سليم، إلا أن تحديد هذا الوقع يمكن التوصل إليه من وثائق أخرى. ففي وثيقة وقف صالح بن محمد بن الشيخ حسن

---

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٦٤).

سعادة المؤرخة في غرة ذي العقدة سنة ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥م وقف بموجبها عدة عقارات منها دكان يحدها قبلة «دار المرحوم علي القصار قرب ميزان الحرير»، وميزان الحرير كائن في سوق البازركان في خان الحرير أو خان التوتة، وكانت توزن به بالات الحرير(١).

وفي وثيقة مؤرخة في السابع عشر من شهر ذي العقدة الحرام سنة ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٤م وموضوعها منازعة بين صفية بنت الحاج محمد القصار وحسن زين القاضي وحسن مصطفى الغندور التي باعت من الأخيرين أسهمًا في ثلاثة دكاكين كائنات في «آخر سوق البازركان قريبًا من ساحة السمك يحد الأولى منها قبلة باب زاوية القصار، وشمالاً زاروب بني القصار، وشرقًا بعض منافع الزاوية المذكورة...»(٢).

وفي وثيقة مؤرخة في الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م طالبت نفيسة بنت مصطفى القصار بشفعة عليّة واقعة ضمن «دار بني القصار في سوق البازركان، يحدها (أي الدار) غربًا جامع الأمير منذر ...»(٣).

وأكثر من ذلك فبموجب الوثيقة المؤرخة في الرابع عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م باعت كلثوم بنت الحاج محمد القصار ممثلة بوكيلها عبد الغني ابن الشيخ حسين مشقية (وأسرة دمشقية

---

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٣٥-٣٦).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٠هـ رقم ١١١.

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ رقم ٢٦٩.

غير أسرة دمشقية؟) إلى محمد سعد الدين اللازقي (كان المرحوم أمين اللادقي يقول الله يلعن يلّي لزقنا) قيراطان وعشر القيراط من عليّة وبيتين واقعان في دار بني القصار الكائنة في زقاق ومحلة الحدرة، وكذلك من قبو أسفل الدار وإيوان وغيره، ويحد جميع ما ذكر «قبلة الطريق السالك وتمامه زاوية بني القصار، وشمالاً وغربًا الطريق السالك، وشرقًا حارة أبي عسكر ...».

يذكر أنه بعد تحديد المناطق والأملاك ومن ضمنها زاوية القصار أصبح سوق العطارين والبازركان ضمن محلة الحدرة، وهي المحلة الكائنة إلى الجنوب من الجامع العمري الكبير. أما أبو عسكر فهو يونس نقولا الجبيلي. كان أيام أحمد باشا الجزار متوليًا جمرك بيروت. قيل: إنه كان محبًّا للجميع محبوبًا من الجميع، حتى إنه كان ينهض كل يوم من داره إلى الديوان، فحيثما مرّ في الأسواق قامت إليه الناس مسلمين ومسيحيين تحييه، فلا يملك أن يرد التحية بكامل ألفاظها فيقتصر على البعض.

وفي ذكريات الشيخ عبد القادر قباني أن البيارتة «كانوا يستعيرون دار أبي عسكر (قرب الجامع العمري)، فيضعون الكراسي ويسرجون القناديل والمصابيح، ويدعون الناس لسهرات أفراحهم ... ثم صاروا يؤمون منزل الشيخ علي الفاخوري (والد المفتي الشيخ عبد الباسط) في زاروب الشيخ رسلان، والذي كانت داره فسيحة وغرفها كثيرة ...»(١).

---

(١) بيروت حياتها وتحولاتها وعادات أهلها، عبد القادر قباني، مجلة الكشاف سنة ١٩٢٧م (ص٥٢٧).

وبالنسبة لساحة بني سليم سبق وأشرنا في دراسة أوقاف جامع البدوي إلى أن درويش علي القصار وقف سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧م لمصلحة مسجد وضريح السيد البدوي في طنطا دكانًا في الساحة الشهيرة باطن بيروت المعروفة سابقًا (أي: الدكان) بدكان بني نقولا الجبيلي (أي: أبو عسكر) أسفل دارهم.

فنرجح أن تكون هذه الساحة الشهيرة هي ساحة بني سليم، والتي قد تكون هي ساحة الشهداء القديمة، أي شهداء الحروب الصليبية؟

تجدر الإشارة إلى أن زاوية القصار تقع ضمن مساحة بيروت القديمة المحدودة ويحيط بها الكثير من المساجد والزوايا. فمن المساجد الجامع العمري الكبير وجامع الأمير منذر وجامع الأمير عساف وجامع شمس الدين وجامعي البدوي والدباغة. وبالقرب منها زوايا الحمراء وابن عراق والأوزاعي والتوبة والدركاه والمجذوب وابن الشويخ (المجيدية) والقطن والخلع والمغاربة والرجال الأربعين وشيخ السربة والراعي، وكذلك زاوية الشهداء التي ترد في بعض الوثائق باسم زاوية الشيخ رسلان. ونشير إلى أننا وجدنا في بعض الوثائق (ولأول مرة) ذكر زاوية الصانع في محلة باب يعقوب.

ولكثرة الزوايا في بقعة صغيرة عدة دلالات. فهي تدل على صدق إيمان مسلمي بيروت وتقربهم إلى الله تعالى ببناء المساجد والزوايا. وتدل من جهة ثانية على ثراء التجار البيارتة وتخصيصهم جزءًا من أرباحهم في سبيل البرّ. ومن جهة ثالثة فإن ذلك يدل على الرغبة في إظهار الذات وتأكيد المركز الاجتماعي والرغبة بالتميّز. يضاف إلى ذلك رغبة الواقف

بتأمين مورد مستمر لذريته، مع التأكيد على النظرة الذكورية بحصر ريع الأوقاف بالذكور وأولادهم الذكور دون الإناث.

ونشير هنا إلى أن وقف الأموال قد يكون استدراكًا واستباقًا وحيطة لما قد تقوم به سلطة سياسية غاصبة وسلطة دينية خاضعة بالاستيلاء على المال، فحمايته بالوقف يعطيه غطاءً دينيًا قد يتورع القضاة والحكام عن غصبه.

ومن المفيد القول بأن كثرة الزوايا المخصصة لمختلف الطرق الصوفية تفسر النزعة الفردية لدى البيارتة، التي تمنع قيامهم بعمل موحد مشترك، وهو ما زلنا نعاني منه حتى اليوم. ومع أن وقف المال يمنحه بعض الحماية كما حصل سنة ١١٥٥ هـ/١٧٤٢م عندما عزل جميل (المعروف بأبي بكر) ابن الواقف الشيخ علي القصار من النظر والتولية لأنه تصرف بمال الوقف واهبًا قسمًا منه للأمير إسماعيل، إلا أن وثيقة العزل لم تبين ما إذا كان المال المتصرف به قد أعيد للوقف[1].

ونشير إلى أنه رغم تشدد الواقفين بالنص على الأرشد فالأرشد من ذريتهم في تولي الوقف، إلا أن هذا الرشد قد يخضع تقديره للظروف السياسية وأهواء الحكام. فابن الدزدار مثلًا قد يتقدم بالأرشدية على ابن البشمقدار (المسؤول عن حمل نعل السلطان والعناية به)، وابن شهبندر التجار قد يعتبر أرشد من ابن الجوخدار (أو الجمدار، وهو الذي يتولى إلباس السلطان ثيابه).

---

(١) وثائق وقف القصار.

وثمة ملاحظة أخيرة وهي تتعلق بتخصيص متولي الزاوية وناظرها بصرف ما يفضل من الريع على عياله. فإذا تولى الأرشد من ذرية الواقف الوقف واختُص بباقي الريع فكيف تكون حال الأقل رشدًا؟ ألا يفتح ذلك بابًا للكراهية والبغضاء بين الذرية؟ وكيف يكون الحال إذا تداخل نفوذ السلطة مع القاضي باختيار الأرشد؟ فضلًا عمّا في وقف الأموال كافة للذكور وأبنائهم الذكور دون الإناث من حرمان للنساء من الإرث؟

عمارة زاوية الشيخ علي القصّار وإنشاء مسجد بإسمه

تتميز الوثيقة الأولى التي ذكرت إنشاء زاوية الشيخ علي القصّار والوقف عليها بأنها بيّنت محتويات عمارة الزاوية والغاية من إنشائها.

فالزاوية مؤلفة من قبة مبنية بالمؤن والأحجار (كانت الطريقة الثانية أن يتألف البناء من الجسور والأخشاب)، وتشتمل على أوده كبيرة بباب يغلق عليها لجهة الشرق منها، وأودة صغيرة لجهة القبلة شرقي المحراب، وخزانة خشب، وتخت لأجل الصلاة، ودار صغيرة ببركة ماء يجمع من ماء المدينة بالقربة وبقساطل ومجرى من بئر الساحة. ويصعد من الدار المذكورة على سلم من حجر إلى ظهور الدكاكين ليصلى عليهم أيام الصيف والحرّ.

وتنص الوثيقة المشار إليها على أن يبدأ ناظر الوقف بتعمير وترميم ما تحتاجه الزاوية من ريع الوقف، ثم على مستحقيه من إمام ومؤذن وسقّا وقراءة ما تيسر وخدمة مسجد، ويصرف الناظر ما يراه لانتظام حال الوقف

وعمارته وفرش المسجد وقناديله وزيته ...»، ما يعني أن العاملين في الزاوية هم الإمام والمؤذن والقارئ والسقّا الذي يؤمن المياه اللازمة للزاوية، وأخيرًا خادم المسجد الذي يتولى تنظيف الفرش والقناديل والزيت للإنارة.

وفي سنة ١٧٠٠م زار عبد الغني النابلسي بيروت ورأى فيها زوايا كثيرة وجوامع وحمامات، «فمن الزوايا زاوية مشرقة الأنوار، تسمى بزاوية ابن القصار، وهي نيّرة مرتفعة البنيان، يجتمع فيها الحفّاظ ما بين العشائين يتدارسون القرآن»[1].

ولم يذكر أحد من الرحالة أو من البيارتة وصفًا مفصلًا للزاوية بقياساتها ومحرابها، وما إذا كان ثمة زخارف أو لوحات رخامية أو كتابات تؤرخ إنشاءها أو تبيّن أية معلومات أخرى. ولا ما يشير إلى أن الواقف دفن فيها أو في روضة ملحقة بها على غرار شيخ السربة المدفون في زاويته. أو بعض من دفن في زاوية ابن عراق من أئمتها، أو من دفن في روضة زاوية ابن الشويخ (المجيدية) من أئمة الزاوية ومتولي أوقافها. أو على غرار الضريح الذي كان موجودًا في جامع شمس الدين الخطاب.

ولم يتبين ما إذا كان الواقف الشيخ علي القصار ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في بيروت، وإن كانت وثيقة إنشاء زاويته ووقفها تشير في بدايتها إلى أنها «الزاوية العامرة بذكر الله تعالى، التي أنشأها لعبادة الله تعالى ...». ويبدو من قول النابلسي باجتماع حفّاظ

(١) التحفة النابلسية، النابلسي (ص٤١).

القرآن الكريم ما بين العشائين في الزاوية لتدارس القرآن الكريم ما يفسر القيام بالذكر الصوفي.

علمًا بأن زاوية ابن الشويخ (المجيدية فيما بعد) أنشئت سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م لشيخ الطريقة القادرية. وخصصت زوايا أخرى للطريقة الرفاعية والبدوية. ويمكن في غياب ثبوت انتساب الشيخ علي القصار إلى طريقة صوفية معينة، الاستدلال بالوقفية التي قدمها سنة ١٢٣٣ هـ حفيده الشيخ درويش بن علي القصار على ضريح ومسجد السيد أحمد البدوي في طنطا، للقول بأن الشيخ علي القصار قد يكون من مريدي السيد البدوي صاحب الطريقة البدوية، التي كان لها الكثير من المريدين في بيروت كما ذكرنا في دراستنا لجامع البدوي.

ويمكن القول بأن الزوايا تكاد أن تكون زوايا عائلية اختصت كل أسرة بطريقة. وكان التنافس بين مريدي الزوايا معروفًا في تاريخ الطرق الصوفية، وإلا فإن المساجد المتوفرة في بيروت كانت كافية لاستيعاب المصلّين والمتعبدين . . .

وتجدر الملاحظة بأن كثرة الأوقاف وارتفاع ريع بعضها يؤكد نفوذ المتولي وسلطته على العاملين في المساجد والزوايا من أئمة وخطباء ومؤذنين وخدام. علمًا بأنه رغم كثرة المدرسين والأئمة ونقباء الأشراف والقضاة والمفتين، لم تصل إلينا منهم أو من أحدهم قبل القرن الثامن عشر دراسات فقهية أو فتاوى أو مخطوطات باستثناء كتاب يتيم عن الإمام الأوزاعي، نعتقد أنه كتب من أحد البيارتة سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨م كما سنبين في دراسة خاصة.

ويلفت النظر أن غالبية الأوقاف الذرية البيروتية كانت تؤول إلى جهة برّ كالحرمين الشريفين أو أحد مساجد بيروت، أو للفقراء من طائفة الواقف، والنادر منها للفقراء من كافة الطوائف. وكان على الفقراء انتظار السنين الطوال انتظارًا لذلك الريع.

وكان هذا المآل للريع مشروطًا غالبًا بانقطاع ذرية الواقف، وهو ما قد يتطاول حتى مئات السنين يكون المال الموقوف خلالها قد اندثر أو تخرب، أو تم الاستيلاء عليه بالمصادرة أو الاستبدال أو الاستملاك أو الإجارة الطويلة، ولا سيما عند ضعف الوازع الديني، وتسلط حاكم ظالم وقاض متساهل، فلا يصل شيء من الريع إلى جهة البرّ. وكان الأحرى تعجيل الخير عملًا بالقول: خير البرّ عاجله.

ولا شك بأن متولي زاوية القصار احتفظوا بدفتر خاص يبين واردات الأوقاف والمصارفات، مما قد يعطينا فكرة عن خطباء الزاوية وأئمتها ومدرسيها. وليس لدينا سوى ما ذكرته سجلات مديرية الأوقاف عن واردات مسجد علي القصار ومصارفاته عن سنة ١٣١٦ مالية/ ١٩٠٠ ميلادية، ويشير الجدول المنظم من المتولي في حينه محمد كامل القصار إلى أن مجموع المصارفات السنوية بلغت ٤٣٥٥ قرشًا، منها ٥٤٠ للإمام الشيخ عبد الرحمن؟، و١٥٠ له كإمام تراويح، و٢٤٠ له كتالي قرآن كريم، و٥٤٠ للمؤذن الحاج يعقوب، و٥٤٠ للقيم والفراش قاسم، و١٢٠ للصيولجي (مسؤول الماء) مصطفى القنواتي، و٤١٨ بترول كاز، و٣١٤ حصير، و١٠٠ إبريق، و٨٩٣ ويركو (ضريبة)، و٥٠٠ تعميرات وترميمات[1].

---

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص١٠٧).

وتـم علـى عهـد والـي بيـروت عزمـي بـك (١٩١٥- ١٩١٦ م) هـدم شـوارع بيـروت القديمـة، ومنهـا زاويـة الشـيخ علـي القصـار والعقـارات الموقوفـة عليهـا، وأعطـت البلديـة إلـى أصـحاب العقـارات المسـتملكة والمهدومة ومتولي أوقافها وثائق بأثمانها. وبقيت الوثائق بيد أصحابها إلى سنة ١٩١٨م حين وقع الاحتلال وتم وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

فأصدر حاكم لبنان الكبير قرارًا مؤرخًا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٢ رقم ١١٠٦ ثبّت بموجبه معاملات الاستملاك المذكورة والأثمان التي تقررت لها، وحدد سعر الليرة العثمانية بمبلغ ١٨٥ قرشًا أصلًا وفائدة، وأمهلت البلدية سنتين لإيفاء البدلات. وقد حُدد بدل أملاك الوقف بمبلغ مليون ومئة ألف وألفين وأربعمئة وثلاثة وخمسين قرشًا تركيًّا.

وقام متولي الوقف بإنشاء بناء في شارع المعرض سجل باسم وقف مسجد الشيخ علي القصار. وقد رأى المتولي في حينه الحاجة إلى بناء جامع في الجهة المجاورة لصيدلية حمادة في شارع البسطة التحتا أو في جهة زقاق البلاط بحي بني يموت (أي حي أبو موت، وأبو موت لقّب به أحد رجال أحمد باشا الجزار)، وقد وافقت هيئة الأوقاف على أن يصير بناء مسجد باسم الواقف في إحدى هاتين المحلتين بدلًا من الزاوية القديمة، بشرط أن تتم عمارة هذا المسجد بعد بناء أول طبقة من محلات الاستغلال، بحيث إذا تعذر وجود محل في إحدى الجهتين المذكورتين يصير بناء مسجد فوق هذه الطبقة.

وبناء على قرار مجلس الأوقاف الإداري المتخذ في ١٩٣٤/٢/١ تم تشييد مسجد في محلة رمل الزيدانية على أرض العقار رقم ٢٧٧٢ مصيطبة، مساحتها ٣٣٩ مترًا مربعًا، اشتري من جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عرف بمسجد الشيخ علي القصار، وتولى السيدان عدنان وعادل القصار أثابهما الله الإنفاق عليه كي يبقى عامرًا بذكر الله تعالى إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين.



الحمد لله وحده

بمجلس الشريعة المطهرة بمدينة بيروت المحمية اجلها الله لدى
فخر قضاة الشرع وولاة الحكام الحاكم الحنفي الموقع خطه اعلاه
اشهد على نفسه شهوده آخره فخر الاعيان المعتبرين الحاج علي بن
المرحوم سيدي محمد القصار اعزه الملك الغفار اشهادا شرعيا
في صحة منه وسلامة وطواعية واختيار من غير اكراه ولا اجبار
انه اوقف وابد وحبس وسبل وتصدق ما هو جار في ملكه
ومنتقل اليه بطريق الشراء الشرعي بموجب صكوك شرعيات
مخلدات بيده سابقات على تاريخه وذلك جميع الحديقة
الكاينة بجانب صور المدينة المرقوم لصيق حمام الاوزاعي
وتشتمل على غراس توت وغير ذلك وداخلها قبو
معقود بالحجارة والمون حدها قبلة حارة المصيف وفيه
الباب وشرقا الطريق السالك وشمالا بيد ورثة الحاج علي
الواقف المزبور وغربا صور المدينة وجميع الحديقة
الكاينة داخل المدينة المزبورة وتعرف سابقا باولاد
سليم وتشتمل على غراس توت وغير ذلك حدها قبلة
بيد ورثة الحاج نور الدين ابن عز الدين ابو زيد و
شرقا كذلك وتمامه بيوت بني القباني وشمالا بيد
الحاج حسن فايد وغربا الطريق السالك وفيه الباب
بكافة حقوق ذلك وعامة لواحقه وما يعرف به وينسب
اليه شرعا اخرج الواقف المزبور تقبل الله منه الاجور وقفه
هذا عن ملكه وابانه عن حيازته وجعله وقفا شرعيا
على مصالح المدرسة المذكورة المعروفة بانشاء الواقف الكاينة بباحة
بني سليم على الحكم والترتيب الذي تحرر في اصل الوقف
المزبور وباطنه من شروط وغيرها فمن بدله بعدما سمعه
فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم وثبت ما نسب
فيه لدى مولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه اعلاه الثبوت
الشرعي ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا مسؤولا فيه
تحريرا في غرة شوال ١١٠٤

الشيخ محمد الرسدي — الشيخ محمد فتح الله الخطيب — الحاج حسن ابن قرنفل — الحاج حسن العلماوي
الفقير السيد محمد — محمد ابن جعنا — السيد حسن المعيني — شهاب الدين لغندور
السيد ... القباني — الحاج عبد الله اغا — محمد علي باشي

بمجلس الشريعة المطهرة الغرا ب[illegible] الحاكم الشرعي الحنفي المومى اليه اشهد عليه شهوده اخره فخر
الاعيان المعتبرين الحاج علي ابن المرحوم سيدي محمد القصار اعزه الملك الغفار اشهادا شرعيا في صحة منه وسلامة
وطواعية واختيار من غير اكراه ولا اجبار انه اوقف وابد وحبس وسبل وتصدق ما هو جار في ملكه ومنتقل
اليه بطريق الشراء الشرعي بموجب صكوك شرعية مخلدة بيده سابقة على تاريخه وذلك جميع الحديقة الكاينة
بجانب صور المدينة المرقومة لصيق حمام الاوزاعي وتشتمل على اغراس توت وغير ذلك وداخلها قبو معقود
بالحجارة والمون حدها قبلة حارة المصيف وفيه الباب وشرقا الطريق السالك وشمالا بيد ورثة الحاج علي
الواقف المزبور وغربا صور المدينة وجميع الحديقة الكاينة داخل المدينة المزبورة وتعرف سابقا باولاد سليم وتشتمل
على غراس توت وغير ذلك حدها قبلة بيد ورثة الحاج نور الدين بن عز الدين ابو زيد وشرقا كذلك وتمامه بيوت
بني القباني وشمالا بيد الحاج حسن فايد وغربا الطريق السالك وفيه الباب بكافة حقوق ذلك وعامة لواحقه
وما يعرف به وينسب اليه شرعا اخرج الواقف المزبور تقبل الله منه الاجور وقفه هذا عن ملكه وابانه عن
حيازته وجعله وقفا شرعيا على مصالح المدرسة المعروفة بانشاء الواقف المزبور الكاينة بباحة بني سليم على
الحكم والترتيب الذي تحرر في اصل الوقف المزبور بالحجة من شروط وغيرها فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين
يبدلونه ان الله سميع عليم وثبت ما نسب فيه لدى مولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه اعلاه الثبوت الشرعي ثبوتا
شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا مسؤولا فيه تحريرا في غرة شوال سنة اربع ومائة والف

شهود الحال
محمد علي باشي — محمد ابن جعنا — السيد حسن — احمد لغندور — السيد ... — الحاج عبد الله اغا — الشيخ محمد ... — الشيخ ... — الحاج حسين قرنفل — الحاج حسن العلماوي — ... عز الدين

وقفية زاوية الشيخ علي القصار

زاوية الشويخ/ جامع المجيدية

إنشاء زاوية الشويخ القادرية في عهد السلطان مصطفى الثاني والصدر الأعظم مصطفى الكوبرولي والوالي قبلان آغا المطرجي

نكرر ما نقوله من أن الذين درسوا تاريخ المساجد الشريفة في بيروت والذين كتبوا في تاريخها نقلوا عمن سبقهم بدون أي تدقيق أو تحليل أو إثبات، بل يكاد فعلهم يكون فعل تلميذ في مرحلة ابتدائية ينقل عن رفيقه حذو القذة بالقذة، أو كما يسميه التلامذة «الكزّ».

فجميع الذين تناولوا جامع المجيدية قالوا: إنه كان قلعة بحرية، وأن أهالي بيروت طلبوا والسلطان عبد المجيد لبى الطلب، فحول القلعة إلى جامع على اسمه. والحقيقة التي كشفناها وكتبناها في ١٥/٦/١٩٩٢م (الأفكار عدد ٥١٦) ووثقناها تثبت أن زاوية للقادرية أنشئت سنة ١١١١ هـ/ ١٦٩٩م وعرفت بابن الشويخ، وأنه في سنة ١٨٤٠م بعد إخراج جيش إبراهيم باشا من بلاد الشام في عهد السلطان عبد المجيد أنشئت المئذنة، وأضيفت قاعة للزاوية، فعرفت بجامع المجيدية.

علمًا بأن مديرية الأوقاف الإسلامية لم تكن قبل نشر دراستنا، تعرف تاريخ إنشاء الزاوية، ولا تملك أية وثيقة حولها. ولم يكن يُعرف قبل نشر

دراستنا حقيقة إنشاء الزاوية وتاريخها، ولا كان أحد يعرف ذلك قبل أن ينشأ النزاع حول أوقاف الزاوية سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م في الدعوى التي تقدم بها مصطفى ابن الحاج عبد الله بن محمد الدح بوجه متولي أوقاف الزاوية الحاج أحمد عبد القادر عيتاني.

زار الرحالة الشهير الشيخ عبد الغني النابلسي بيروت مرتين: الأولى سنة ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٣م ودوّن رحلته بعنوان: «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز». والثانية سنة ١١١٢ هـ/ ١٧٠٠م، ودوّن وقائعها بعنوان «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية». وقد أشار في الرحلتين إلى الأماكن التي زارها، والمزارات التي شاهدها، والأشخاص والعائلات التي اجتمع بها.

ومما قال: «جاء إلى زيارتنا الشيخ محمد الشهير بابن الشويخ، فدعانا إلى زاويته الشريفة ورقصته المنيفة، فذهبنا إليها والشمس قد بزغت في أفق تلك البروج. فرأينا زاوية بديعة كأنها قبة في رأس جبل، حصينة منيعة، وهي مطلّة على البحر. جديدة البنيان عظيمة الأركان، خارجها أشجار وريقة، وبجانبها بساتين»، وقال فيها:

وزاويةٍ طلّت على البحر تنجلي ... كمثل عروس في أجلّ الملابسِ
بها النور شعشاع يكاد ضياؤه ... بجانبها يمحو ظلام الحنادس
وخيلُ النسيم الرّطب يركض حولها ... كما ركضت بالخيل شوسُ الفوارس
جلسنا مع الأصحاب ثَمّ بلذةٍ ... وأطيب عيشٍ في أعزّ المجالس
نديرُ كؤوس البسط والبسط بيننا ... بوجهٍ بشوش للمنى غيرِ عابس

وبيـروت تهوانـا علـى قـرب أهلهـا   من الخير والإفضال شُـمَّ المعـاطس
إلى أن دعا داعي العشـاء وهيمنـت   نسـائِمه يـا طيـبَ تلـك المغـارس[1]

وفي سنة ١٨١٣م / ١٢٢٨هـ زار بيروت الشيخ عبد الرحمن الكزبري ابن محدث الشام الشمس محمد الكزبري وحلّ ضيفًا على مفتي بيروت في حينه الشيخ عبد اللطيف فتح الله، فمدحه هذا الأخير بقصيدة ذكر فيها بعض المزارات التي زارها الضيف في بيروت ومما قال:

كذا ابن عراقٍ والشويخ الذي ابنه   غـدوت لـه سـبطًا يعـدّ ويحسـبُ

(ويبدو من قول فتح الله بأنه من أحفاد الشويخ).

وكانت في بيروت القديمة محلة تعرف باسم «الشويخ» اتخذتها بعض العائلات المعروفة إقامة لها، كآل بيهم وآل عبد الفتاح آغا حمادة متسلم بيروت، كما سنبين في عدة وثائق لاحقة.

وقد بقي اسم الشويخ معروفًا حتى أوائل هذا القرن، عندما نشر سنة ١٩١٣ إعلان من حسن محيي الدين القاضي يفيد بنقل مخزنه الكائن في سوق الطويلة إلى محلة الشويخ في محل السادات عمر وعبد الرحمن بيهم. أما محلة الشويخ فكانت في آخر سوق الطويلة في المحلة التي يوجد فيها جامع المجيدية وما حوله.

ابن الشويخ حفيد عبد القادر الجيلاني

إن أيًا من كل الذين كتبوا قبلنا عن تاريخ بيروت أو عن مساجدها وزواياها وتراثها لم يذكر الشويخ أو ابنه أو زاويته أو محلة تعرف باسمه

(١) التحفة النابلسية، النابلسي (ص٣٩).

وتنسب إليه. أما الحقيقة التي عرفناها فهي أن جامع المجيدية كان في الأصل زاوية ابن الشويخ شيخ الطريقة القادرية في بيروت، ويعود نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (أو الكيلاني)، وهذه الزاوية مع قبة زاوية ابن عراق هما ما تبقى من زوايا بيروت القديمة. أما تاريخ إنشاء زاوية الشويخ واسم منشئها فهو ما سنعرفه في الفقرة التالية.

قبلان آغا المطرجي والشيخ محمد ابن الشويخ جدّ آل الدُّح

لا بدّ من الإشارة الى أن وثائق إنشاء زاوية الشويخ وحجة وقفها كانت موجودة لدى آل الدّح البيارتة، وبالتحديد لدى مصطفى ابن الحاج عبد الله بن محمد الدّح، وعلى الموجود من أبنائه وأحفاده واجب إظهارها ونشرها خدمة للتاريخ والتراث. وقد علمنا مؤخرًا من الدكتور عبد الله الدح أن أوراق الأسرة فقدت أثناء الحرب الأهلية. وقد استطعنا معرفة بعض تاريخ الزاوية من خلال المنازعة التي نشأت أوائل هذا القرن بين مصطفى الدح المذكور بوجه الحاج أحمد عبد القادر عيتاني بخصوص التولية على جامع المجيدية، ومحاسبة المتولي، وفي خزانتنا صورة عنها، ويتبين منها الحقائق الآتية:

- أن الزاوية الشريفة الكائنة قرب باب السنطية في ميناء بيروت المعروفة بجامع المجيدية منسوبة للسيد الشيخ أبي عبد الرزاق محيي الدين عبد القادر الجيلاني (الكيلاني)، وأن الأوقاف التابعة لها عبارة عن جنينة وأبنية مختلفة.

- أن حدود الزاوية المذكورة هي قبلة (جنوبًا)، وشرقًا الطريق السالك، وشمالًا البحر، وغربًا سور بيروت.
- أن كتاب الوقف الصادر عن محكمة الشرع الشريف في بيروت في أواخر جمادى الآخرة سنة ١١١١هـ /١٦٩٩م يعطي التولية والإمامة والنظر على الزاوية المذكورة للشيخ محمد ابن الشيخ علي الشويخ القادري حال حياته، ومن بعده على أولاده وأولاد أولاده وأعقابه وأنساله، ومشروط بموجبها صرف الغلة على مصالح الزاوية المذكورة، وما فاض فلذرية الشيخ محمد الشويخ المذكور.
- أن التصرف بقي جاريًا على هذا الوجه بانتقال التولية من متولٍ إلى آخر من ذرية الشيخ محمد المرقوم، إلى أن انتقلت التولية إلى عبد الله والد مصطفى الدح، الذي تأكدت توليته بحجة من المحكمة الشرعية بتاريخ غاية ذي الحجة سنة ١٢٥٥ هـ/ (آذار - مارس ١٨٤٠م).
- أن من ذرية أبي عبد الرزاق محيي الدين عبد القادر الجيلاني الشيخ علي والشيخ محيي الدين. فالشيخ محيي الدين توفي عن ابنه الشيخ عبد الله الذي تلقب بالدح، والشيخ علي توفي عن ابنه الشيخ محمد الذي تلقب بالشويخ (تصغير شيخ). وتوفي الشيخ محمد هذا عن بنته منصورة التي تزوجت الشيخ عبد الله الدح.
- وتشير حجة الوقف العائدة لسنة ١١١١ هـ إلى أن واقف الزاوية هو محمد آغا كتخدا قبلان محمد باشا والي صيدا في حينه، وقد شرط النظر والإمامة في الزاوية المذكورة على الشيخ محمد ابن الشيخ علي الشويخ القادري طريقة، الذي كان إمامًا بها، ثم من بعده على أولاده وأولاد أولاده

وأعقابه وأنساله. وكتخدا (التركية) تعني معتمد الوزير أو الوالي، ومدبّر شؤونه ومساعده والناطق باسمه[١].

أما قبلان محمد باشا فهو قبلان باشا المطرجي الذي تناوب على ولايتي صيدا وطرابلس - وكانت بيروت تابعة لها - مع شقيقه ارسلان باشا المطرجي منذ سنة ١١٠٩ هـ/ ١٦٩٧م، وبقي واليًا لصيدا حتى سنة ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م.

وتاريخ وقف الزاوية من قبل قبلان باشا المطرجي سنة ١١١١هـ/ يتوافق مع زيارة النابلسي لها سنة ١١١٢ هـ وقوله عنها: «جديدة البنيان»، مما يثبت أن إنجاز زاوية الشويخ حصل سنة ١١١١هـ (١٦٩٩م).

يذكر في هذا السياق أن حاشية قبلان آغا المطرجي الذي أنشأ الزاوية سنة ١١١١ هـ/ ١٦٩٩م كانت تضم بعض شيوخ القادرية في اللاذقية على ما ذكر النابلسي عندما زار حاكمها قبلان آغا، وزار فيها مقام الشيخ تاج الذي قال فيه: «إنه من ذرية الولي الصالح الشيخ أحمد القصيري (من القصير)، وأن البعض أخبره بأن الشيخ تاج هو جد قبلان آغا المذكور ...»، فلم يكن غريبًا أن ينشأ زاوية للقادرية[٢].

وذكر النابلسي اجتماعه في بيروت بالحسيب النسيب الشريف أحمد عز الدين، الذي كان مقيمًا في مدرسة الإمام الأوزاعي (في السوق الطويلة حاليًا)، واسمه محفور على أحد أعمدة الجامع العمري الكبير. وقد أشار

---

(١) السجل الشرعي، دعاوي سنة ١٣٢٥هـ (ص٧٦ وما يليها).

(٢) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٦٠).

النابلسي إلى أن الشيخ أحمد المذكور كان مجازًا في طريق القادرية، فكتب له على تلك الإجازة:

لقد شرف الله الذي أنزل الأسما ... ومن لم يزل بعين الورى قدره الأسما
وجاء بإنعام على عبده الذي ... بنور هدى الأشياخ قد زاده علما
إجازة حق في طريق مسدد ... لسر علوم القادرية قد عمّا
وأحمد فيها أحمد السيرة اهتدى ... إلى الله حتى زاده ربّه حلما
فلا زال محفوظًا على كل حالة ... مدى الدهر ما أفنى اللقا الهمّ والغمّا
وما كرم الرحمن عبد الغني اذ ... رأى حسن أسرار الإجازة قد تمّا
وما هيمنت في الروض أرواح نسمة ... فأسكرت المشتاق من طيبها شما[1]

حكر جنينة وقف زاوية الشويخ من محكمة الشام لمحافظ بيروت محمود نامي بك

لم يكن أحد يعرف حقيقة تاريخ إنشاء زاوية الشويخ وأوقافها قبل سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، وذلك من خلال الدعوى التي تقدم بها مصطفى ابن الحاج عبد الله الدح بوجه متولي أوقاف الزاوية الحاج أحمد عبد القادر العيتاني.

ومن يطلع على مجريات النزاع يشعر بأن العراقيل والدفوع والذرائع التي أثيرت بوجه مصطفى الدح كانت الغاية منها منع وصول الأمر إلى غايته، وحتى لا يفتح مصير الأوقاف التي خصص ريعها للزاوية/ الجامع

(١) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٨٢).

ولا تنشر خفايا التصرفات التي أجريت على تلك الأعيان الموقوفة، والتي حتى لم تكن ملحوظة في مديرية الأوقاف الإسلامية التي حلت في لبنان محل نظارة الأوقاف العثمانية.

وحقيقة الأمر تكشفه الوثائق الشرعية التي لم تكن في متناول أصحاب العلاقة، ولم يكن بإمكانهم الوصول إليها ولا حتى اعتمادها في حال حصولهم عليها.

من الوثائق المذكورة وثيقة مسجلة في الرابع والعشرين من شهر محرم الحرام سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م. ولا بأس من إيراد بعض فقراتها قبل التعليق عليها، فقد جاء فيها: «في المجلس الشرعي المنعقد في الحارة الجارية في ملك الحاج عبد الله أفندي بيهم وورثة أخيه السيد عمر الكائنة في زقاق البلاط خارج بيروت. حضر سعادة محمود باشا الجركس الحائز رتبة بكلربك روملي محافظ بيروت أسبق، وأقر واعترف وهو بحال يعتبر شرعًا في صحة وعقل وسلامة بدن، بأن جميع المخازن المعقودة بالمؤن والأحجار الكائنة في محلة المجيدية في جنينة الشويخ باطن بيروت الجارية أرض هذه الجنينة باستحكار الباشا المومى إليه بموجب حجة من محكمة الشام التي عدت هذه المخازن سبعة عشر مخزنًا. وجميع المخازن المسقفة بالجسور والألواح الكائنة في المحلة المرقومة في الجنينة المحررة التي عدتها ستة وعشرون مخزنًا. وجميع الدكاكين المعقودة بالمؤن والأحجار الكائنة في المحلة المذكورة في الجنينة المرقومة التي عدتها أربعة دكاكين. وجميع الدكاكين الكائنة في المحلة المذكورة التي عدتها

سبعة أحدها في أرض جنينة الشويخ من جهة قبلتها، وستة منها كائنة غربي الحارة الكائنة في المحلة المحررة الراكبة على بعض المخازن المار ذكرها، وطريق الجنينة التي عدتها خمسة فهي اثنتان لجهة القبلة إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، واثنتان لجهة الشرق، وواحدة لجهة الشمال موسومة بمكتب للتجارة.

يحد جميع ما ذكر قبلة وشرقًا الطريق السالك، وشمالاً المدرسة المشهورة حديثًا بالمجيدية وقديمًا بمدرسة الشويخ وتوابعها ...، ويحد أربع من الدكاكين الستة المحررة قبلة السلم الحجر الحادثة المتوصل منها إلى الكرنتينا (كانت الكرنتينا القديمة في القسم الغربي من بيروت وكذلك المسلخ والمحطب)، وشمالاً الدار المختصة بسعادته...»[1].

وتضيف الوثيقة «بأن جميع ما ذكر بما اشتمل عليه من كلي وجزئي وحقوق ومنافع هي مشركة فيما بين سعادة المقر المومى إليه وبين سيادة الحاج عبد الله أفندي بيهم، وولدي أخيه المرحوم السيد عمر وهما السيد محيي الدين أفندي والسيد حسين أفندي وباقي ورثة أبيهما. النصف من جميع ما ذكر ملك سعادته، والنصف الثاني ملك الحاج عبد الله أفندي وورثة أخيه. قد بنى جميع ما ذكر سيادة المومى إليهم بمالهم ومال سعادة المشار إليه، لا حق له في النصف المذكور، ولا ملك ولا شبهة ملك....

وقد صادق جناب الحاج عبد الله أفندي بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن باقي الورثة على جميع ما ذكر وقبلوا منه الإبراء ...، وغبّ ذلك أذِن

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٨هـ (ص٣٢٩).

سعادة المشار إليه لسيادة الحاج عبد الله وابني أخيه بأن يبنوا ما أرادوا في الباقي من بياض أرض الجنينة المحررة وفي ظهور المخازن والدكاكين، على أن يكون ما يبنونه مناصفة فيما بين سعادته وبينهم من مالهم وماله على سعادته نصف المصرف وعليهم النصف. وقد قبلوا منه هذا الإذن لأنفسهم ...، تحريرًا في الرابع والعشرين من محرم سنة ١٢٧٨ هـ».

وقد شهد على الوثيقة المذكورة التي كتبها الشيخ إبراهيم الأحدب السادة: مصطفى ومحمد وعبد القادر بيهم، ومحمد بن عبد القادر وعبد العفو قرنفل، والحاج أحمد الداعوق، وعبد القادر الناعماني وعبد الرحمن وعبد الحميد العيتاني.

وفي وثيقة لاحقة باع محمود بك العقارات المذكورة إلى ابنه إبراهيم فخري بك رئيس البلدية (فيما بعد).

ولكي نفهم ما جاء في الوثيقة المذكورة، يقتضي تفسير الألفاظ والأسماء والألقاب والمحتويات المبينة فيها.

رغب محمد علي باشا بتأسيس مملكة كبيرة، ولعل نفسه حدثته بقدرته على استلام عرش السلطنة العثمانية، فجهز حملة عسكرية برئاسة ابنه إبراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام في جيش كبير منظم على رأسه ضابط فرنسي الأصل اتخذ اسم سليمان باشا الفرنساوي (حفيدته الملكة نازلي ملكة مصر وزوجة الملك فؤاد)، ومعه عدد من المستشارين الفرنسيين. واحتل الجيش عكا ودمشق. وفي سنة ١٨٣٢م دخل إبراهيم باشا إلى بيروت من باب الدركاه وصولاً إلى السراي القديمة (التي محلها أبنية سوق سرسق وتويني).

وبعد دخوله بيروت ألغى إبراهيم باشا التقسيمات الإدارية التي عرفتها بلاد الشام في العهد العثماني، فعين سنة ١٨٣٢م محمد شريف باشا حكمدارًا (حاكمًا عامًا) على جميع إيالات بر الشام. ثم عاد وعين سليمان باشا الفرنساوي واليًا على إيالة صيدا. وفي سنة ١٨٣٣م عين إبراهيم باشا محمود (نامي) بك محافظًا على بيروت لمدة سبع سنوات (١٨٣٣- ١٨٤٠م).

وكان محمود بك قد أرسله محمد علي إلى فرنسا فتخصص في الرياضيات، وانتظم في سلك ضباط البحرية، وزوّجة محمد علي إحدى محظياته. وقد وصف في الوثيقة بأصله الجركسي أو الشركسي. أما رتبته فكانت بكلربكي Beylerbegi، أي: أمير الأمراء، وهو من أعلى المناصب في الدولة العثمانية.

فقد وجد في عهدها الأول بكلربكي واحد كان مسؤولًا على الجيش وما يتعلق به، وكان نافذ الكلمة يأتي بعد السلطان مباشرة. ولما توسعت الفتوحات في أوروبا انقسم هذا المنصب إلى قسمين: بكلربك الأناضول، وبكلربك الروملي (أرض الروم)، أي: الأراضي الواقعة في قارة أوروبا. على غرار تقسيم منصب قاضي عسكر إلى قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروملي (كما سنبين في حينه).

ومع ازدياد عدد البكلربك ضعف نفوذهم، وصاروا يعينون ولاة على الولايات وقوادًا للجيش، وكانت لهم إقطاعات مالية كبيرة كما أشار سهيل صابان في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية.

وباستقرار محمود بك في بيروت واطلاعه على أوضاعها، وجد جنينة كبيرة موقوفة وملاصقة للزاوية التي كانت مطلة على البحر ويحدها غربًا سور بيروت والمعروفة بزاوية الشويخ القادرية. ورغب باستحكارها. من الحِكر وهو: عقد إجارة يقصد به استبقاء الأرض مقررة للبناء أو الغرس أو لأحدهما سواء خصصت الأرض للحكر من أول الأمر أو أجرت لمدة معينة للبناء أو للغراس، أو لهما ثم جددت الإجارة.

فالوقف لا يأخذ شيئًا من المحتكر مقابل إيثاره بالأرض على غيره ليبني أو يغرس فيها، وإنما الذي يصل إلى الوقف من المحتكر هو أجرة الأرض لا غير. ومن أشكال هذا الحكر الإجارة الطويلة التي يصار بموجبها إلى تحديد بدل الإجارة فيدفع المستأجر قسمًا كبيرًا منه معجلًا ويدفع المؤجل الضئيل سنويًا طيلة مدة الإجارة. ولما كانت الإجارة لا يجوز أن تمتد لأكثر من ثلاث سنوات، فقد جرى العمل على تحديد المدة بتسعين سنة، وعلى النّص بأن هذه المدة مؤلفة من عقود متضايفة (مضاف بعضها إلى بعض)، كل عقد منها لمدة ثلاث سنوات.

وكان التعامل يقضي بأن يتملك محتكر أرض الوقف ما أنشأ من بناء ويورثه لورثته. ومع مرور الزمن وغياب الوثائق والمحاسبة يدعي الباني التصرف الهاديء العلني المستمر مدة طويلة من الزمن، فيتملك رقبة العقار ويستولي على الوقف.

أما لماذا قصد المحتكر محكمة الشام ليحصل على حجة بالحكر لعقار كائن في بيروت فيمكن رده إلى عدة أسباب، منها: أن الحكم

المصري جعل بيروت تابعة لدمشق الذي يحكمها محمد شريف باشا الحكمدار، مما يسهل على محمود بك استصدار حجة بالحكر على أرض بعيدة عن دمشق.

تغييب قاضي بيروت عن النظر بحكر جنينة وقف زاوية الشويخ

أشرنا إلى أن وثيقة إقرار محمود بك بحكر جنينة الوقف على أنه صادر من محكمة الشام حصل خلافًا للأصول القضائية الشرعية التي كانت توجب على القاضي عند استناده إلى حجة شرعية صادرة من محكمة أخرى أو إذا أدلي أمامه بحجة من قاض آخر، أن يورد نص هذه الحجة وتاريخها في متن الحكم الذي أصدره أي في الحجة الثانية. ويتبين من الوثيقة التي أوردنا نصها أنه وردت الإشارة فيها إلى حجة من محكمة الشام دون ذكر أية تفاصيل عن تاريخ الحجة المذكورة أو عن مضمونها ولا سيما بدل الحكر؟؟

وكان من السهل على محمود بك أن يلجأ إلى إثبات الحكر من قاضي بيروت لو لم يكن في الأمر ما فيه. مع الإشارة إلى أن قاضي بيروت الشيخ أحمد الأغر عزل من القضاء سنة ١٨٣٣م، أي في السنة نفسها التي تولى فيها محمود بك وظيفة محافظ بيروت. علمًا بأن الشيخ أحمد الأغر لم يكن على علاقة طيبة مع إبراهيم باشا، وقد أفتى ضده يوم كان مفتيًا لبيروت في قضية تاجر كان يورد المؤن للجيش، وتمنع الباشا عن دفع المتوجب عليه.

وينبغي الملاحظة بأن ديوان الشيخ أحمد الأغر يخلو من أية قصيدة يمدح فيها محمود بك إلا عند ولادة ابنه إبراهيم فخري بك، وذلك في سنة ١٨٣٩م، أي قبل أشهر من انتهاء حكم إبراهيم باشا ومحمود بك.

ويبدو من صريح الوثيقة أن كلفة الأبنية التي أنشئت على جنينة الوقف كانت من النصف من مال محمود بك والنصف الآخر من أموال عمر وعبد الله بيهم. وأن إقرار محمود بك بذلك قد يكون بغاية الحصول على وثيقة تضمن - بعد انتهاء سلطته - حقوقه في الأرض وتخوله استخدامها وإثباتها في دائرة الدفتر الخاقاني (الطابو).

ويمكن التأكيد من المقارنة بين تاريخ الوثيقة وسنة انتهاء حكم محمود بك بأن المخازن والدكاكين أنشئت في جنينة الوقف بين سنتي ١٨٣٣ و١٨٤٠م (فترة حكم محمود بك وخروج جيش إبراهيم باشا).

أما الإقرار بأن نصف الإنشاءات المذكور تمّت من مال عبد الله وعمر بيهم (وورثته من بعده) فقد جاء هذا الإقرار سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م أي بعد أكثر من عشرين عامًا على انتهاء الحكم المصري وحكم محمود بك، الأمر الذي يثير الشكوك حول أصل الحكر وقيمة الإجارة. ولم يكن باستطاعة أحد من البيارتة إثارة الشبهات حول ذلك، فمحمود بك أراد إشراك في استحكار الجنينة اثنين من الوجهاء البيارتة أصحاب النفوذ وهما عمر وعبد الله بيهم.

يذكر أن إبراهيم باشا شكل مجلس شورى بيروت من أربعة وعشرين عضوًا، وكلف عمر بيهم برئاسته. وكان محمود بك يكتب إليه: «حضرة ناظر مجلس شورى بيروت أخينا السيد عمر بهيم المحترم ...»، أو: «وردنا تحرير قنصل الإنكليزي، فنرغب إفادته والله يحفظكم ...».

وتولى عبد الله بيهم رئاسة بلدية بيروت ورئاسة مجلس التجارة (تذكر الوثيقة أن في أحد أبنية الجنينة مكتب التجارة)، وبنى قصرًا في الأمينية (شارع جورج بيكو)، استقبل فيه الأمير عبد القادر الجزائري. كما أن أولاد عمر بيهم تسلموا عدة مناصب مهمة، فابنه محيي الدين ترأس المجلس البلدي وعين وعضوًا في مجلس الإدارة. وابنه حسين تولى عدة مناصب إدارية منها عضوية مجلس المبعوثان العثماني الخ؟

كما امتد نفوذ عمر وعبد الله إلى أبنائهم وأحفادهم الذين تولوا المناصب المهمة أثناء الحكم العثماني وأثناء الحكم الفرنسي وأثناء الاستقلال.

ومما يلفت الانتباه أننا أثناء تحقيقنا لديوان مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد الأغر لم نعثر بعد سنة ١٨٣٣م على قصيدة في مدح عمر وعبد الله بيهم، على عكس ما ورد في الديوان قبل التاريخ المذكور. ولعل السبب يعود إلى الخلاف الذي حصل بين بعض أفراد من أسرة بيهم وأقربائهم من آل قرنفل وبين الشيخ أحمد الأغر، والذي روت أوراق لبنانية أنه انتهى بنفي الأغر إلى طرابلس الشام؟ (أوراق لبنانية ٢/٢٨٩). ونظم الأغر يومها:

أخرجني من بلدي ... إلى البلاد الفاخره
أخرجه القهّار منـ ... ـها راحلًا للآخره[1]

---

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٣٢٢).

وأما الأبنية التي أقيمت في جنينة الشويخ الموقوفة على مصالح الزاوية فقد بلغت وفقًا للوثيقة ثلاثة وخمسين دكانًا ومخزنًا. فإذا اعتبرنا أن مساحة الواحد منها ستة عشر مترًا مربعًا كان مجموع مساحتها ٨٤٨ مترًا، عدا عن حق المحتكرين بالبناء في «الباقي من بياض أرض الجنينة وفي ظهور المخازن الدكاكين».

وتقرر الوثيقة أن جنينة الشويخ الموقوفة ملاصقة «للمدرسة المشهورة حديثًا (أي سنة ١٨٦١م) بالمجيدية وقديمًا بمدرسة الشويخ».

ويأتي إقرار محمود بك الحاصل سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م في سياقه الطبيعي، فبعد انتهاء سلطة إبراهيم باشا وسلطة محافظه على بيروت محمود بك، أصبح هذا الأخير بحاجة لنفوذ عمر ومحيي الدين بيهم وأبنائهم الذين جمعوا بين السلطتين السياسية والمالية. يذكر أنهم عملوا بعد وفاة مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري سنة ١٩٠٥م على اختيار الشيخ أحمد عباس الأزهري لمنصب الإفتاء ليضموا السلطة الدينية إلى السلطتين المذكورتين.

وقد أعيد التأكيد على استحكار جنينة وقف الشويخ في الوثيقة المؤرخة في الثالث عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٩م والتي ذكر فيها أن عبد الله بيهم توفي قبل سنة وسبعة أشهر (من تاريخها)، وأن من جملة ما تركه ميراثًا ثلاثمئة وتسعة وخمسين سهمًا من أصل ستمئة وثمانية وأربعين سهمًا «في كامل البناء المملوك الواقع في أرض الوقف المحتكرة المعروفة قبلًا بجنينة الشويخ الكائنة بمحلة الشويخ وطريق

السنطية والمجيدية داخل بيروت، المحتوي هذا البناء على تسعة عشر مخزنًا وأربعة دكاكين معقودة، وعلى أربعة وعشرين مخزنًا، ودكانة واحدة مسقفات، جميع ذلك متلاصق بعضه، وعلى مكتب واحد وخمس دور علويات . . .

يحد ذلك قبلة الطريق الموصل إلى مقبرة السنطية، وشمالًا بعضه جامع المجيدية، وبعضه طريق خاص بالمحلات المذكورة وبالجامع المذكور، وشرقًا الطريق السالك المعروف بطريق الشويخ، وغربًا بعضه ملكنا وملك سرسق وتويني وفرج الله شركة سعادتلو إبراهيم فخري بك ابن المرحوم محمود نامي باشا وحسين أفندي المناسترلي ببقية السهام...»[1].

وعلى سبيل التذكير فإن ابراهيم فخري بك ترأس بلدية بيروت سنة ١٨٧٩م وحول ساحة البرج إلى حديقة غناء، وكان مقربًا من والي سورية مدحت باشا، وقد أصبح ابنه الداماد أحمد نامي بك رئيسًا للدولة السورية أثناء الانتداب.

ولبيان أهمية المخازن التي أقيمت في جنينة الشويخ الموقوفة لزاوية الشويخ/ المجيدية نشير إلى ارتفاع قيمة العقارات في تلك المحلة بعدما نقلت الكرنتينا والمحطب والمسلخ منها إلى الجهة الشرقية من بيروت حيث هي اليوم. (عرفت المحلة بالشويخ قبل أن يغلب عليها اسم المجيدية). وقد تملك فيها عقارات شاسعة لأثرياء بيارتة، كآل عبد الفتاح آغا حمادة وآل التويني وسرسق وفرج الله وبيهم.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٥هـ (ص٣١).

ونذكر على سبيل المثال أن سعد عبد الفتاح حمادة وأشقاءه وأولاد أخيه باعوا في ١٨ رمضان سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م إلى موسى وسليم وإبراهيم حنا فريج مخزنين متلاصقين كائنين في محلة الشويخ داخل بيروت بنمرة ٦٠ و٦١، بمبلغ مئة وخمسة وأربعين ألف غرش، وباعوا مخزنين بنمرة ٥٧ و٥٨ في المحلة نفسها (الشويخ) إلى نصر الله ونعوم انطوان طرزي بثمن قدره مئة وخمسون ألف غرش. وباعوا مخزنين في المحلة نفسها بنمرة ٥٤ و٥٦ إلى أسعد الياس ملحمة بثمن قدره مئة وخمسون ألف غرش. كما باعوا أيضًا في التاريخ والمحلة نفسها دارًا بنمرة ٥٥ إلى فيكتوريا بنت فرعون الشامي زوجة يوسف بارودي بثمن قدره مئتان وخمسة عشر ألف غرش . . . (أربع وثائق)[1].

طراز زاوية الشويخ وتحويلها الى جامع على نفقة السلطان عبد المجيد وتغييب وثائقها وأوقافها

تحالفت بعض الدول الأوروبية مع السلطان عبد المجيد ودعمت جيشه الذي حضر إلى ساحل بيروت سنة ١٨٤٠م لإخراج جيش إبراهيم باشا من بلاد الشام، وقصف الأسطول سراي بيروت القديمة فتهدمت بعض أقسامها، كما أصيبت زاوية الشويخ ببعض القنابل فأحدثت فيها تخريبًا.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٠هـ رقم ٦٧٧ وما يليها).

وسبب ذلك أن إبراهيم باشا وضع فيها قوة لرصد الشاطىء ورد أي عدوان، مستفيدًا من قوة بناء عقد الزاوية التي تشبه المتراس، وإلى كون الزاوية مشرفة تعلو عن البحر بحوالي ثمانية أمتار تقريبًا، ويتكىء جدارها الغربي على سور بيروت القديم، ولعل هذا ما أوقع البعض بالوهم فظن بأن الزاوية كانت قلعة بحرية، علمًا بأن أحدًا من الذين أرخوا لتحصينات بيروت وأسوارها وأبراجها لم يشر إلى وجود قلعة في موقع زاوية الشويخ، حتى إن الرحالة الفرنسي دارفيو الذي زار بيروت سنة ١٦٦٠م (وتحدث عن جامع أخضر كما ذكرنا) لم يشر إلا لقوة باب السنطية ومتانته.

وبعد خروج جيش إبراهيم باشا وعودة الحكم العثماني المباشر على بيروت سنة ١٨٤٠م ومع ترميم زاوية الشويخ القادرية في أوائل سلطنة السلطان عبد المجيد تقرر تحويلها إلى مسجد، وأضيفت إليها صالة شرقية، وبنيت المئذنة، فعرفت منذ سنة ١٨٤١م باسم جامع المجيدية. وقد سبق وذكرنا أن السلطان عبد المجيد أنشأ أيضًا في الفترة ذاتها زاوية التوبة على اسم الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الطريقة القادرية، وهو يؤكد ما قلنا من نفوذ رجال الطريقة القادرية في حاشية السلطان عبد المجيد.

وتعود أهمية القسم القديم من الزاوية إلى موقعه وطراز عمارته وقدمه. فلجهة الموقع فإن القسم القديم الغربي من الزاوية يحده غربًا سور بيروت، وقد تكشف حفريات تلك المحلة أساس السور المذكور وكيفية بنائه، كما أن الزاوية كانت تطل على البحر مباشرة لا يفصلها عنه الطريق والفسحة الموجودة حاليًا. وكانت تعلو عن البحر بمعدل ثمانية أمتار مما يضفي عليها في هذا الموقع حصانة ومنعة. وألحقت الحرب الأهلية

اللبنانية أضرارًا كبيرة بالجامع، وقد زرته شخصيًّا سنة ١٩٩٢م واطلعت على ما لحق به من تخريب، وأخذت الصور المبينة لذلك.

أما لجهة عمارتها فالزاوية القديمة لا تزال موجودة، وهي مؤلفة من فراغين معقود كل فراغ منهما بقبو Vault متقاطع يرتفع سقفه إلى خمسة أمتار تقريبًا. وأعمدة القبو عبارة عن أربع دعامات حجرية لكل قبو، وتبعد الدعامة عن الأخرى ثمانية أمتار، والدعامات متساوية القياس ١،٧٥ مترًا في ١،٧٥ مترًا، ويبلغ سمك الحائط الخارجي ٠،٣٠ مترًا، وفي كل من آخر دعامتين غربيتين فتحة تبدو كما لو كانت في الأصل خزانة لوضع المصاحف والأجزاء الشريفة من القرآن الكريم العائدة للزاوية.

وفي الحائط الغربي المجاور لسور بيروت باب كبير يعلوه شباك بعقد دائري، وعن جانبي الباب شباك، ويرجح وجود باب وشبابيك مماثلة في الحائط الشرقي (قبل إضافة الصالة الشرقية)، وذلك لإحداث التماثل والتناظر سمة العمارة الإسلامية.

أما الصالة الشرقية التي أضيفت أيام السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤١م فقد بني لها شرقًا دعامتان أضخم من الدعامات القديمة، وارتفع قبو سقفها بمترين أكثر من ارتفاع القبوين القديمين، وفتح في حائطها الشمالي مجموعة من الفتحات تعلوها عقود دائرية، كما فتح في إحدى الدعامات القديمة فتحة يصعد منها إلى المئذنة التي أقيمت فوق تلك الدعامة. وأضيفت فيما بعد (قبل سنة ١٩٠٦) إلى الصالة الشرقية صالة قبلية فيها محراب، سقفها من الخشب.

ونلفت النظر إلى أن طراز عمارة الزاوية العتيقة العائد لسنة ١٦٩٩م هو نموذج عن العمارة التي شاعت منذ القدم في بلاد الشام، ولا يزال يوجد بعض مثيلاتها في بعض القرى والمدن، وكان لها ما يشبهها في أبنية سوق الطويلة التي هدمتها الحرب الأهلية.

يذكر أن استخدام الأقبية المتقاطعة انتشر في العصر الروماني، وانتقل إلى البيزنطيين، وهذه الأقبية المتقاطعة تمتاز بمظهر رشيق متناسب، وبقي هذا الطراز شائعًا في المنطقة التي خضعت للحكم الروماني، أي بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن).

ويشار أخيرًا إلى أنه أخذ بعين الاعتبار عند بناء الزاوية موقعها الهام المرتفع المطل على البحر، يحميها سور المدينة، مما يمكن اعتبارها أحد رباطات الجهاد، كمركز حصين يقوم بوظيفة نقطة مراقبة متقدمة لمدينة حصينة، علمًا بأن طراز بنائها والمواد المستعملة فيه تلائم هذا التوجه، فضلًا عن مناسبة هذا الطراز للعوامل المناخية الجغرافية المحلية لمدينة بيروت.

تغييب وثائق الزاوية

تقدم مصطفى ابن الحاج عبد الله بن محمد الدح البيروتي أمام القاضي الشرعي عمر خلوصي بطلب محاسبة المتولي على زاوية المجيدية وعزله. وأسرة الدح من أسر بيروت الإسلامية القديمة، ورد ذكرها في بعض الوثائق الشرعية، منها الوثيقة المؤرخة في الرابع من ذي الحجة سنة

١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، والذي باع بموجبها الحاج عبد الله ابن الحاج محمد الدح إلى أحمد حمزة سنو ١٥ قيراطًا مخزن في أسكلة المينا، معقود بالمؤن والأحجار، يحده شرقًا البحر الملح، وكان من ضمن الشهود «فخر المشايخ الشيخ مصطفى الرفاعي»[١].

والوثيقة المؤرخة في التاسع والعشرين من شهر محرم الحرام سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م، وموضوعها مبايعة عدة عقارات في قرية العربانية بين فضول الياس سلهب من بعبدات وبشارة لويس فرح من العربانية، وكان الحاج عبد الله الدح أحد شهود الوثيقة المذكورة[٢].

وورد في الوثيقة المؤرخة في الخامس والعشرين من رجب الفرد سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م «بأن كامل البستان المعروف ببستان الدح الكائن في أرض الميماس في حي الرميلة خارج بيروت والمشتمل على أرض سليخ وأغراس متنوعة الثمار، وعلى عمار قائم به هو أربعة بيوت، وعلى ناعورة ماء نابع، ويحده شمالًا البحر المالح، مشترك بين خليل التيان وورثة أحمد العريس وعبد الرحمن محمد النقاش، اقتسموه فيما بينهم...»[٣].

كما تملك آل الدح عقارًا في محلة باب السراي داخل بيروت. ولا يزال الكثير من الأسرة معروفًا في بيروت، كالمقدم أحمد الدح مدير معهد الإدارة في الدرك، والدكتور عبد الله الدح الأستاذ في الجامعة اللبنانية الأميركية. وفي صيدا بعض أبنائهم.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٤هـ (ص١٥٨).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٤هـ (ص١٦٠).

يذكر مصطفى ابن الحاج عبد الله بن محمد الدح أصل تسمية جده بالدح بأن من نسل الشيخ أبي عبد الرزاق محيي الدين عبد القادر الكيلاني: الشيخ علي والشيخ محيي الدين. فالشيخ محيي الدين توفي عن ابنه الشيخ عبد الله الذي تلقب بالدح، والشيخ علي توفي عن ابنه الشيخ محمد الذي تلقب بالشويخ. وتوفي الشيخ محمد هذا عن بنته منصورة التي تزوجت بالشيخ عبد الله، فحصل لهما ابنان: الشيخ بدر والشيخ محمد، وقد توفي هذا الأخير عن ابنه عبد الله الذي توفي وانحصر إرثه بأولاده مصطفى وأحمد ومحمد وسعيد. والشيخ بدر توفي عن ابنه محمد، الذي توفي عن ابنه محمد (الذي مات عقيمًا)، وعن بنته منصورة.

وطالب مصطفى بالتولية لأنه أكبر أشقائه، فقد توفي منهما محمد وأحمد، أما شقيقه سعيد فهو أصغرهم وقاطن في صور.

والدّح لغة: الشيء الحسن، عربية محرفة أصلها الداح، وهو في «القاموس»: نقش يعلل به الأطفال، وفي كتاب «أساس البلاغة»: فلان يلبس الداح، وهو: الوشي والنقش. وتلفظ في بعض اللهجات دحّه. وقيل في موال قديم أن ما نستعمله اليوم من الألفاظ كان يستعمله الأقدمون:

يا من وصالو لأطفال المحبه بح   كم توجع القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حوحو والتصبّر بح   كل الورى كخ بعيني وشخصك دح

وقد تقدم مصطفى عبد الله الدح بدعواه في التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م بوجه متولي المجيدية أحمد عيتاني، مشيرًا في دعواه إلى أن كتاب الوقف المسجل في أواخر جمادى الثانية سنة

١١١١هـ/ ١٦٩٩م وإلى أن أجداده تولوا أوقاف الزاوية وصولًا إلى والده عبد الله بموجبه وثيقة مؤرخة في غاية ذي الحجة سنة ١٢٥٥ هـ/ ١٨٤٠م.

وبناء لطلب المتولي المدعى عليه أبرز المدعي كتابي الوقف والتولية، واطلع وكيل المدعى عليه على الوثائق، وأثار الفرق في الأسماء بين الشويخ والدح، كما اعترض على صحة الخصومة. وعندما بيّن المدعي سلسلة النسب وأوضح النسب بين الدح والشويخ أنكر المدعى عليه ذلك، بذريعة أن شجرة النسب غير مصدقة من المفتي ونقيب الأشراف، أو من المحكمة الشرعية، أو من القضاة والمفتين اللذين وُجِدوا في زمن كل طبقة من طبقات النسل والخالية من شائبة التصنيع والتزوير، وأن لا صلة نسب بين آل الدح وقبلان محمد باشا المطرجي الذي أنشأ الزاوية.

كما أدلى المدعى عليه بمرور الزمن المانع من سماع الدعوى، لأنه منذ تاريخ الوقف سنة ١١١١ هـ/ ١٦٩٩م إلى تاريخ الدعوى يكون مرّ مئتان وخمسة عشر سنة. ومن الوثيقة الثانية المؤرخة في سنة ١٢٥٥ هـ/ ١٨٤٠م إلى تاريخ الدعوى يكون مرّ سبعون سنة ...

وهكذا أثيرت في وجه المدعي مختلف الدفوع الشكلية ووسائل الدفاع والطعن في التواريخ والإجراءات، ما دفعه إلى التوقف عن السير بالدعوى وإلى غياب الحقيقة التاريخية. ومما يؤسف له بيانًا للحقيقة فقط، أن الوثيقتين المؤرختين في سنتي ١١١١ هـ و١٢٥٥ هـ لم تسجل نصوصهما في متن محضر المحاكمة طالما أنهما قدمتا للمحكمة وأصبحتا جزءًا من الدعوى كما جرت العادة في الأصول الشرعية.

ورغم تصريح المدعى عليه بأنه اطلع عليهما. وقد أدى هذا الإغفال إلى تغييب فترة مهمة من تاريخ زاوية الشويخ/ المجيدية. لأن السجلات الشرعية الموجودة تبدأ وثائقها منذ سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، وبالتالي فإنهما يعودان الى ما قبل سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

إلا أن الظروف التي أحاطت بوضع جنينة الوقف والنفوذ السياسي والمالي والديني لمحتكري الجنينة دفعت المدعي إلى اليأس من متابعة الدعوى، بالرغم مما أحاط وثيقة الحكر الصادرة عن محكمة الشام من التباس، وإغفالها الإشارة إلى أجرة الحكر، وإلى عدم مثول متولي الوقف فيها، وإلى غياب الوثائق التي تبين تسلسل متولي أوقاف الزاوية من تاريخ إنشائها إلى تاريخ إحكارها وما بعد ذلك وحتى سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م، وهو تاريخ ظهور المتولي الشيخ محيي الدين الفاخوري.

متولو جامع المجيدية وأوقافه

لا نظن أنه من قبيل الصدفة أن يتمّ إثبات إحكار محمود بك جنينة الشويخ الموقوفة بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م، وأن تتمّ تولية الشيخ محيي الدين الفاخوري على أوقاف جامع المجيدية في ٩ شعبان ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م من نائب بيروت (القاضي) محمد سعيد[1]. وقد جرت الوثيقتان في المدة التي تواجد فيها محمد فؤاد باشا ناظر الخارجية العثمانية ثم الصدر الأعظم في بيروت لاستيعاب تداعيات فتنة سنة ١٨٦٠م الطائفية.

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٥هـ تاريخ ١٠ ذي القعدة ١٣٠٥هـ.

وفؤاد باشا هو الذي اهتم بحصول بيروت على الشعرات النبوية الشريفة، وهو الذي قرر تسليم مفتاح الصندوق الموضوعة فيه إلى الشيخ محيي الدين الفاخوري، كما أثبت مجلس إدارة لواء بيروت في ١٩ شعبان ١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢م[1].

ولا توجد كما ذكرنا الوثائق التي تبين من تولى الزاوية وأوقافها من تاريخ إنشائها. والوثيقة المعروفة المؤرخة في التاسع من شهر شعبان سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م تفيد بأنه «بعد وفاة الشيخ مصطفى الرفاعي المتولي الشرعي على الزاوية المعروفة بالمجيدية ... فقد أقام القاضي الشرعي الشيخ محيي الدين الفاخوري متوليًا شرعيًّا وقيمًا متكلمًا مرعيًّا على الزاوية»، والذي وجد نفسه أمام جنينة موقوفة محتكرة بنيت فيها دكاكين ومخازن وعدة دور ولا ريع لها سوى بدل إجارة لا أحد يعرف قيمته وهو حتمًا لم يكن يساوي شيئًا أمام ريع المخازن والدكاكين والدور؟ علمًا بأننا لم نتبين متى تمت تولية الشيخ مصطفى الرفاعي ولا من كان متوليًا قبله؟

ومن محاسن الصدف أنه في السنة المشار إليها أي ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م عقد مجلس شرعي في القشلة الهمايونية بتاريخ ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م حضر فيه «الفريق إبراهيم باشا ابن خليل أفندي خربوتلي ،ووقف ما جاء في تصرفه وآيل إليه بالشراء بموجب سند بإمضاء وختم المشير محمد فؤاد باشا ناظر الخارجية ومأمور إصلاحات عربستان، وذلك الموقوف قطعة الأرض بما احتوت عليه الكائنة في محلة المجيدية

(١) محضر مجلس الإدارة تاريخ ١٩ شعبان ١٢٨٩هـ.

ومساحتها سبعمئة ذراع، يحدها قبلة زاوية المجيدية، وشمالاً وشرقًا البحر المالح، وغربًا طريق سالك ...

أنشأ وقفه مثالثة، فالثلث على مصالح زاوية المجيدية، والثلث الثاني على الفقراء والمساكين الذين يأوون إليها، والثلث الثالث على الشيخ محيي الدين الفاخوري مدة حياته، ثم من بعده على أولاده الذكور، فإذا انقرضوا عاد الثلث وقفًا على من يكون متوليًا على الوقف. ويقرأ سورة يس في كل ليلة جمعة ويهدي ثوابها إلى روح الواقف. ويسلم الوقف للشيخ محيي الدين ...»[1].

وفي العاشر من شهر ذي العقدة سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨م بعد عجز المتولي الشيخ محيي الدين الفاخوري الخلوتي الصاوي عن القيام بمصالح أوقاف جامع المجيدية نظرًا لشيخوخته وكبر سنه، أقيم من قبل الشرع الشريف صهره (زوج ابنته نفيسة) الحاج عبد القادر بن مصطفى العيتاني متوليًا على وقف الجامع. (كان للشيخ محيي الدين بنت اسمها خانزاده هي جدة محيي الدين النصولي وإخوانه، وكان له ولد اسمه إبراهيم، توفي شابًّا)[2].

وفي الثاني عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧م وبعد وفاة المتولي الحاج عبد القادر العيتاني أقيم ولده الحاج أحمد متوليًا يتعاطى مصالح أوقاف الجامع، وأقيم شقيقه نجيب مشرفًا معه[3].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٨هـ تاريخ ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨هـ.
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٥هـ تاريخ ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٠٥هـ.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٣١٥هـ تاريخ ١٢ محرم ١٣١٥هـ.

ومن مراجعة حساب الأوقاف لسنة ١٣١٦ مالية/١٩٠٠م تبين أن مصاريف الجامع السنوية بلغت ٣٨٧٠ غرشًا (وما عدا الخطيب الشيخ عبد الرحمن الحوت حسبة لوجه الله)، منها ٥٥٢ للإمام الشيخ محمد ناصر، و٦٠٠ قرش للمؤذن سليم سردوك، و١٣٢٠ لفراش وقيّم، و٦٠٠ للصويولجي مصطفى قنواتي، و١٣٣ ويركو، و٥٤٠ حصير، و٦٦٤ بويا وسائره.

يذكر أن عمر الداعوق كان قد أقام المقرىء الشيخ عرفات سالم لتعليم القرآن الكريم للناشئة البصراء الذين اتخذ أكثرهم التسول أو إصلاح الكراسي مهنة لهم يتعيشون بها، ورتب للمعلم والمتعلمين رواتب شهرية، ولم يمضِ على ذلك سنة وأربعة أشهر حتى أتقن أربعة منهم حفظ الكتاب العزيز وتلقي أحكامه.

واحتفل في شهر تشرين الأول ١٩٠٥م في جامع المجيدية بتوزيع الجوائز المناسبة التي أعدّها صاحب المشروع لهم. وافتتح الحفلة الشيخ أحمد حسن طبارة مبينًا أهمية المشروع، وأظهر ما لترتيل القرآن الكريم من عظيم التأثير في النفوس، وختمَ كلامه بحضّ الحفظة الأربعة على مداومة ترتيل الكتاب بخشوع وخضوع وتفهم وتدبر وحضور قلب. ثم أخذ باختبار الحفظة الأربعة تلاوة وأحكامًا، وبعد ذلك ألقى الشيخ مصطفى الغلاييني خطابًا مناسبًا، وختم الشيخ عبد الرحمن الحوت نقيب الأشراف بالدعاء للسلطان.

وقد توالى على خطبة صلاة الجمعة في جامع المجيدية عدة علماء نذكر منهم الشيخ عبد الرحمن الحوت. وفي كانون الأول سنة ١٨٨٣م ألقى الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب أشراف طرابلس وشيخ القادرية فيها خطبة الجمعة في المجيدية. وفي الرابع عشر من شهر أيلول ١٩٠٦م ألقى خطبة الجمعة في جامع المجيدية الشيخ عبد الوهاب نصار المتولي إمام ومدرس بمسجد أبي السباع بمصر. وفي سنة ١٩٢٨م ألقى في الجامع الشيخ مصطفى الغلاييني بعد صلاة الجمعة في ثلاث جمع متواليات محاضرات ثلاثًا كشف فيها النقاب عن غايات كتاب «السفور والحجاب ومؤلفيه» الذي أصدرته سنة ١٩٢٨م نظيرة زين الدين ومؤلفيه، وقد درأ بهذه المحاضرات مفاسد كثيرة (وذلك قبل أن يصدر كتابه بعنوان: «نظرات في كتاب السفور والحجاب المنسوب إلى الآنسة نظيرة زين الدين). وقد أدركنا في جامع المجيدية خطيب الجمعة الشيخ فهيم أبو عبيه.

وقد ضبطت أوقاف المجيدية لمصلحة مديرية الأوقاف الإسلامية وانتهت التولية. وجرت توسعة الجامع مؤخرًا.

رجال الطريقة في روضة الحديقة

يتضح مما ذكرناه أن ابن الشويخ كان أول من تولى إمامة الزاوية ونظارة أوقافها، وأنه كان شيخ الطريقة القادرية الكيلانية. وقد حضر عبد الغني النابلسي حلقة ذكر فيها عقب إنشائها، وأشار إلى رقصة الشويخ ومريديه. ويذكر أن حلقات الذكر في الزوايا القادرية كانت تتم بتلاوة القرآن الكريم، ثم المدائح النبوية، ثم ذكر كلمة التوحيد، فأسماء الله الحسنى،

كل ذلك وهم جلوس يتمايلون يمنة ويسرة، حتى إذا أخذهم الوجد وقفوا بشكل حلقة يتوسطها شيخهم، فيدورون حوله مع استمرار الذكر والمدائح والاستغاثة.

وتوجد في الجهة الشرقية القبلية من أرض المجيدية روضة صغيرة توزعت فيها بين شجرة رمان بضعة قبور بعضها مبعثر وشواهدها مكسورة، تعود لمن تولى الزاوية وأوقافها، وقد يكون الشويخ من بينهم. وقد شاهدنا شاهد ضريح الشيخ محيي الدين الفاخوري وقسم منه مكسور وعليه تاريخ أوله:

زر ضريحًا فيه توسّد من ... كان يهدي الورى لنهج مبين

في طريق الصاوي حاز مقامًا ... راقيًا في معارج التمكين

وبيت التاريخ في آخره يقول:

حائزًا من الله أرّخ ... لكمال الرضا محيي الدين

٢٨ محرم سنة ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨م





الخراب الذي لحق بجامع المجيدية في الحرب الاهلية

في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت حضر السيد عبد الرحمن افندي ابن السيد مصطفى ابن احمد العيتاني وعزتلو محمد افندي
ابن الحاج عبد الله افندي ... اعضا مجلس بلدية بيروت وعزتلو محمد افندي ابن السيد سليم ابن يحيى البلبيسي
مأمور اجراء ولاية بيروت والسيد ابراهيم ابن الشيخ عبد القادر افندي ابن محمد جمال البيروتي ... من جماعة
الجامع الآتي ذكره وافادوا ان الحاج عبد القادر افندي ابن مصطفى العيتاني المذكور المتولي من قبل الشرع
الشريف على اوقاف جامع المجيدية الكائن داخل مدينة بيروت بموجب حجة شرعية بتاريخ عاشر ذي
القعدة سنة خمس وثلثماية والف وفقا لختم المرحوم السيد اسماعيل ازهري افندي نائب بيروت
السنية قد توفي منذ اربعة اشهر في بيروت ولم يوجد احد يقوم بمصالح اوقاف الجامع المذكور
فنلتمس اقامة ولده الحاج احمد افندي متولياً يتعاطى مصالح اوقاف الجامع المذكور واقامة ولده
نجيب افندي مشرفاً معه فبعد تحقق لياقتهما وصلاحهما وعفتهما واستقامتهما من المخبرين الموما
اليهم قد اقيم من قبل الشرع الشريف الحاج احمد افندي المذكور متولياً على الوقف المرقوم ليتعاطى مصالحه
وينظر اموره واقيم معه شقيقه نجيب افندي المرقوم مشرفاً وذلك قبولاً شرعياً وتحرر ما هو
الواقع بالطلب والسؤال في تاسع عشر محرم الحرام سنة خمس عشرة وثلثمائة والف

شهود الحال

تولية عبد القادر عيتاني على اوقاف المجيدية ١٣١٥هـ

بمجلس الشرع الشريف والمحفل المنيف بمدينة بيروت المحمية بعد ان انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى

الشيخ مصطفى الرفاعي المتولي الشرعي على الزاوية المعروفة المجيدية داخل مدينة بيروت المزبورة [illegible]

يقوم بمصالحها وما يحتاج اليه [illegible] ونصب سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي الموقع اسمه اعلاه

[illegible] اعلاه [illegible] فضله [illegible] جناب الشيخ محي الدين افندي ابن المرحوم الشيخ عمر الفاخوري متوليا

شرعيا [illegible] على الزاوية المزبورة [illegible] على جميع مصالحها ولوازمها [illegible]

[illegible] الشيخ محي الدين المرقوم [illegible]

[illegible]

المتولي المذكور [illegible]

ومستقرات بالطلب والسؤال في تاسع شعبان المبارك سنة ١٢٧٨ ثمان وسبعين ومائتين والف

تولية الشيخ محيي الدين الفاخوري على المجيدية بعد الشيخ مصطفى الرفاعي ١٢٧٨هـ

١٢١٩

في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت حضر جناب فضيلتلو الشيخ عبد الباسط افندي مفتي بيروت حالاً

ابن المرحوم الشيخ علي افندي الفاخوري وجناب سعادتلو الحاج محي الدين افندي ابن المرحوم السيد عمر افندي

بيهم ومكرمتلو السيد يوسف افندي ابن المرحوم السيد خليل عز الدين وفضيلتلو السيد محمد افندي ابن المرحوم

الحاج عبد الله افندي بيهم والسيد عبد الرحمن افندي ابن المرحوم السيد مصطفى العيتاني والسيد محمد افندي ابن

السيد سليم اللبابيدي [illegible] من جماعة الجامع الآتي ذكره واخبروا ان الشيخ

محي الدين افندي ابن المرحوم الشيخ عمر الفاخوري المتولي على اوقاف [redacted] الكائن داخل

بيروت بموجب حجة شرعية بتاريخ تاسع شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين والف وامضاء وختم

المرحوم السيد محمد سعيد افندي قاضي بيروت سابقاً قد عجز عن القيام بمصالح الوقف المذكور نظراً

لشيخوخته وكبر سنه والتمسوا اقامة متول خلافه ليتعاطى مصالح الوقف المذكور فبعد التحقق عما

اخبروا وجد الحال كما ذكر فحينئذ أُقيم من قبل الشرع الشريف الحاج عبد القادر افندي ابن المرحوم

مصطفى العيتاني المذكور متوليا على وقف الجامع المذكور ليقوم بمصالحه ولوازمه وهو قبل

ذلك قبولاً شرعياً بعد الاخبار عن لياقته وصلاحيته لما ذكر من المخبرين الموما اليهم وبالطلب

تحررت هذه المراسلة تحريراً في عاشر ذي القعدة الحرام سنة خمس وثلاثمائة والف.

تولية احمد [redacted] عبد القادر العيتاني على جامع المجيدية بعد الشيخ محي الدين الفاخوري

وقف الفريق ابراهيم خليل خربوتلي ارض ملاصقة للمجيدية ١٢٧٨هـ

وثيقة إقرار بحكر جنينة الشويخ من محكمة الشام ١٢٧٨هـ

وقف الفريق ابراهيم خليل خربوطلي ارض ملاصقة للمجيدية ١٢٧٨هـ

زاوية الخلع/ الفاخوري الخلوتية الصاوية

زاوية الشيخ محمد الفاخوري «الخلع» في وسط بيروت

كانت الطرق الصوفية المختلفة منتشرة في بيروت، مثل الخلوتية البكرية والخلوتية الصاوية والقادرية أو الكيلانية، والرفاعية، والشاذلية والسعدية أو الشيبانية، والنقشبندية، والبدوية، واليشرطية.

وقد شجعت الدولة العثمانية انتشار الطرق الصوفية. فكان لكل طريقة شيخها وأتباعها وأعلامها وزواياها وأوقافها. ويأتي في رأس الهرم شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وكان هؤلاء في القرن التاسع عشر على حد قول الشيخ عبد القادر قباني في مذكراته هم: الشيخ علي الفاخوري (والد الشيخ عبد الباسط)، ثم الشيخ محمد الحوت، ثم الشيخ عبد الله خالد، وآخرهم المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري[١].

ثم عمدت الدولة في القرن التاسع عشر إلى تنظيم عمل الطرق الصوفية وزواياهم من أجل السيطرة عليها والاستفادة منها وتحديد دور شيوخها. فظهرت في بيروت سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م «جمعية مشايخ

---

(١) بيروت حياتها وتحولاتها، عبد القادر قباني، مجلة الكشاف سنة ١٩٢٧م (ص٣٣٨).

الطرق الصوفية»، وكان لها رئيس يعرف بشيخ مشايخ الطرق الصوفية، وكان الشيخ عبد الباسط الفاخوري آخر من تولاه[1].

يقول شيوخ الخلوتية: إن الرسول صلى الله عليه وسليم هو مؤسس طريقتهم عندما كان يخلو أيامًا في غار حراء، فأخذوا لقب الخلوتية من الخلوة.

وقد عرفت طريقتهم مجددين منهم عمر الخلوتي (ت ١٣٩٥م) ومصطفى بن كمال الدين البكري نسبة إلى أبي بكر الصديق، ولد سنة ١٠٩٩ هـ في دمشق، واشتغل بطلب العلم، وقرأ على مشاهير العلماء وشاع خبره وكثر مريدوه، وسافر إلى بلاد كثيرة منها القسطنطينية والعراق والقدس وبيروت والحجاز، فانتشرت طريقته، وتوفي في مصر سنة ١١٦٢هـ. وله مؤلفات لا تحصى، ودواوين وأراجيز في علوم الطريقة ومقامات، وقد أوقف كتبه في حياته ووضعها في زاوية بجوار المسجد الأقصى.

ومن كتبه كتاب «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد»، وعنى بهم الذين يزعمون أنهم من الصوفية ولا يتقيدون بالأحكام الشرعية، فالحقيقة بدون الشريعة زندقة. وقال: «التصوف هو: الإتيان بمكارم الأخلاق وتجنب سفاسفها (رديئها)، ومعناه: التأدب بالآداب المحمدية، وحمل النفس على الأخلاق الزكية المأخوذة من عين السنّة والعمل بها».

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٤/١٣٠٥هـ رقم ٤٤٤.

ومن مشايخ الخلوتية الشيخ أحمد الدردير المصري الذي اشتهر بكثرة العلم والعمل والإرشاد وكثرة المناقب والفضائل، توفي في مصر سنة ١٢٠١ هـ/ ١٧٨٦-١٧٨٧م. ومنهم الشيخ أحمد الصاوي شيخ الطريقة الخلوتية بعد شيخه أحمد الدردير، جدد الطريقة، وعنه انتشرت في مصر والشام والحجاز والمغرب. وكان الشيخ محمد الجسر الطرابلسي أحد أكابر خلفائه. توفي الشيخ الصاوي في مصر سنة ١٢٤١ هـ/١٨٢٥-١٨٢٦م.

يذكر أنه طلب من مفتي بيروت الشيخ أحمد الأغر سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨م نظم أبيات لتكتب على راية الشيخ أحمد الصاوي من أهل السلسلة الخلوتية فقال:

غوثنا الصاوي أضحى علما ... بين أهل الله أرباب الدرايه
قد رأى الإرشاد فرضًا للطريق ... القويم حسن الأخلاق رايه
ولذا رفعت عند الهلال ... له بين الملا أحسن رايه[1]

وقيل: بأن الطريقة الخلوتية ليس فيها تكليف بما لا يطاق، لأن ذكرها الخاص بها «لا إله إلاّ الله»، وهي أفضل ما يقول العبد كما في الحديث الشريف. وطريقة الخلوتية في أخذ العهد رتبها السيد البكري الصديقي.

ونص على كيفية المبايعة، بأن يجلس المريد بين يدي الأستاذ ويلصق ركبته بركبته، والشيخ مستقبل القبلة ويقرأ الفاتحة، ويضع يده

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢١٠).

اليمنى في يده مسلمًا له نفسه مستمدًا في إمداده، ويقول له: قل معي، استغفر الله العظيم ثلاث مرات، ويتعوذ ويقرأ آية التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ إلى ﴿قَدِيرٌ﴾[1]. ثم يقرأ آية المبايعة التي في الفتح ليزول الاشتباه، وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، اقتداء برسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿عَظِيمٗا﴾[2]. ثم يقرأ فاتحة الكتاب، ويدعو الله لنفسه وللآخذ بالتوفيق، ويوصيه بالقيام بأوراد الطريق، والدوام على ذوق أهل هذا الطريق.

يذكر أن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ذكر في أحد كتبه أن الشيخ إذا أراد أن يأخذ العهد على المريد فليتطهر وليأمره بالتطهر من الحدث والخبث، ليتهيأ لقبول ما يلقيه إليه من الشروط في الطريق، ويتوجه إلى الله تعالى ويسأله القبول، ويتوسل إليه في ذلك بمحمد ﷺ، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى، بأن يضع راحته على راحته، ويقبض إبهامه بأصابعه، ويتعوذ ويبسمل، ثم يحمد الله ويستغفره، ويقول: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وأولياءك أني قد قبلته شيخًا في الله ومرشدًا وداعيًا إليه. ثم يقول الشيخ: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وأولياءك أني قد قبلته ولدًا في الله فاقبله وأقبل عليه وكن له ولا تكن عليه[3].

---

(١) التحريم: ٨.
(٢) الفتح: ١٠.
(٣) تاريخ الجبرتي (١/٣٤١).

ومن المرجح أن هذه الطريقة بتسليك المريد وأخذ العهد كان معمولًا بها في بلاد الشام عامة وبيروت وطرابلس خاصة. يدل على ذلك أن رسائل شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ومنها رسالته المسماة «اللؤلؤ النظيم في شروط التعلم والتعليم» كانت من ضمن دروس الشيخ محمد الحوت في بيروت في القرن التاسع عشر، كما ذكر تلميذه الشيخ عبد الباسط الفاخوري في مخطوط لهذا الأخير بعنوان: «مؤنس الجليس في أنفس نفيس».

وكان موقع زاوية الخلع في سوق البياطرة (خلف مبنى البلدية)، والتي أخذت في الدوائر العقارية رقم ١٤١ منطقة المرفأ.

والزاوية منسوبة إلى الشيخ محمد أحمد الفاخوري الملقب بالخلع.

خلع الرجل الشيء لغة: نزعه، وخلع الأمير على الشاعر: أعطاه خِلعة. فالخِلعة: منحة، والجمع: خِلَع. يقال ألبسه الخلعة، قال الشاعر:

أمبشري بقدوم من أحبته ... ولك البشارة بالمسرة والهنا
ما كان أسمحني عليك بخلعة ... لو كان عندي حلة غير الضنى

هجا كعب بن زهير النبي عليه السلام، ثم جاءه مستأمنًا وقد أسلم، وأنشد لاميته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ... متيّمٌ إثرها لم يجز مكبولُ

فعفا عنه النبي ﷺ، وخلع عليه بردته.

والتقاليد المتناقلة من جيل إلى جيل تفيد قيام الملوك والسلاطين والأمراء بمنح الخِلع. ولكن خِلع الصوفية مختلفة. فمن المتفق عليه أن كل جماعة من العلماء أو من أهل الحِرف لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عمن سواهم وتوافقوا عليها، وهي مستمدة من أعمالهم لتقريب الفهم على المخاطبين بها، وتسهيلًا على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيه.

وأهل التصوف لهم مصطلحات يستعملونها فيما بينهم، وتكون غالبًا مستبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير اهلها. من هذه المصطلحات ألفاظ الحال والوجد والصحو والسكر والفناء والذوق والشرب والتجلي والمكاشفة والقرب والبعد وغيرها مما ذكره القشيري في «رسالته»[1].

ومن ألفاظهم الخِلع، فقد عقد البيروني في كتابه: «تحقيق ما للهند من مقولة» مقارنات بين مذاهب الهنود الصوفية ومذاهب الصوفية المسلمين، من ذلك قول أبي بكر الشبلي: «اخلع الكلّ تصِل إلينا بالكلية فتكون، ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا».

والخِلع لدى الصوفية: ثياب الصوفي الذي عبر عنها أبو الحسن الشاذلي وذكرها الشيخ مصطفى نجا في كتابه «كشف الأسرار لتنوير الأفكار»: «هي خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام. فمن أحب الله هان عليه كل

(١) التصوف، عبد الرحمن بدوي (ص٣٦)، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني، الجزء الأول.

شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أَمِنَ من كل شيء، ومن أسلم لله فقلما يعصيه، وإن عصاه اعتذر اليه».

ولعل تلقيب الشيخ محمد الفاخوري بالخلع لما خلع عليه مما ذكرناه والله أعلم.

مساهمة السلطان عبد المجيد في ترميم زاوية الخلع بعد حصار بيروت وقصفها سنة ١٨٤٠م

لم يتبين تاريخ إنشاء الشيخ محمد الفاخوري الملقب بالخلع للزاوية الكائنة في سوق البياطرة داخل سور بيروت القديمة، السوق الواقعة خلف مبنى بلدية بيروت الحالي. وقد عرفت الزاوية بزاوية الخلع، أو زاوية البياطرة.

وخلال سنة ١٩٢٥م استملكت بلدية بيروت بناء الوقف القديم للزاوية، وهدمته وأعطت متولي الوقف قطعة أرض قرب الموقع القديم للزاوية، أقام عليها المتولي إنشاءات ليبقى الوقف خيريًّا محضًا. وأثناء عمليات التحديد والتحرير العقارية أعطيت القطعة الجديدة المذكورة رقم ١٤١ من منطقة المرفأ العقارية، وسجلت في السجل العقاري باسم وقف بني الفاخوري بموجب سند طابو عائد لشهر حزيران سنة ١٩٢٦م[1].

(١) قرار محكمة بيروت البدائية الثانية رقم ٨، تاريخ ١٩٤٨/٢/٢٠م.

ورغم غياب الحجة الأصلية لوقف زاوية الخلع القديمة من قبل منشئها وواقفها الشيخ محمد الفاخوري، فإنه يستدل على قدم إنشائها وهوية واقفها من الوثيقة الشرعية الصادرة بتاريخ الثاني من شهر شوال سنة ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٦م. والمسجلة لدى قاضي بيروت الشرعي الشيخ يونس البزري، والتي تذكر بأنه «حضر إلى مجلس الشرع الشريف الورع التقي الصالح الشيخ عمر بن الشيخ محمد الفاخوري الملقب بالخلع، وحضر معه ولداه الشيخ عبد القادر والشيخ محيي الدين، وقرر طائعًا مختارًا وهو في صحة عقله وسلامة بدنه من غير إكراه ولا إجبار أنه وقف وحبس وأبّد تقربًا إلى الله تعالى وابتغاء لوجهه الكريم ما هو جار في ملكه وتحت تصرفه إلى حين صدوره.

وذلك جميع الدكان التي أنشأها في أرضه من ماله الخاص الكائنة في سوق البياطرة داخل مدينة بيروت الملاصقة إلى زاوية الخلع، يحدها قبلة وشرقًا الزاوية المذكورة، وشمالاً الطريق العام، وغربًا ملك بني الدهان، وقفًا صحيحًا شرعيًا وحبسًا مؤبدًا مرعيًا على الزاوية المذكورة، التي هي وقف أبيه الشيخ محمد الملقب بالخلع.

وذلك بأن يبدأ أولاً من غلته وريعه يصرف على عماره وترميمه وما فيه بقاء عينه. وما زاد منه من ريعه يصرف على الإمام والمؤذن والخادم في الزاوية المذكورة، وما تحتاج إليه مصالح الزاوية المذكورة. وإن بقي شيء من ذلك يبقى في يد المتولي يتصرف به في شؤون ومصالح الزاوية وأوقافها حسب اللزوم.

وقد أقام ولده الشيخ محيي الدين متوليًا على الوقف المذكور، وولده الشيخ عبد القادر ناظرًا، وقد شرط شروطًا منها: أن تكون التولية والنظارة لولديه المذكورين، ومن بعدهما لولد ولده عبد الرحيم ابن الشيخ عبد القادر المذكور، ومن بعد ولد ولده عبد الرحيم لأولاده وأولاد أولاده ما تناسلوا وتعاقبوا الأرشد فالأرشد.

ومنها أن يكون الإمام والمؤذن والخادم من ذرية ولديه وهما الشيخ عبد القادر والشيخ محيي الدين ممن يكون فيه اللياقة والكفاية، يعينه المتولي. فإن لم يوجد من يكون أهلًا للوظائف المذكورة يصير تعيين خلافه من طرف المتولي، لحين وجود من يقوم بالخدمات المذكورة من ذريتهما ...».

وبعد وفاة الشيخ عبد القادر الفاخوري وبناء لرغبة شقيقه الشيخ محيي الدين وتنفيذًا لرغبة والدهما الواقف الشيخ عمر، تقرر تولية الشيخ عبد الرحيم عبد القادر الفاخوري على زاوية الخلع، بمعاش عن كل شهر خمسين قرشًا، وذلك بموجب وثيقة شرعية مؤرخة في الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٨م[١].

يذكر أن متولي وقف زاوية الخلع الشيخ محيي الدين الفاخوري خصّص للزاوية دفترًا كتب على غلافه «دفتر مبارك إن شاء الله خاصة زاوية الخلع» دوّن فيه أوقاف الزاوية وأحكارها، وإيراداتها ونفقاتها، وقد آل الدفتر المذكور إلى المتولي اللاحق الشيخ عبد الرحيم فاخوري، الذي تابع

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٤هـ رقم ٥٩.

قيد الإيرادات والنفقات فيه. (لا يزال دفتر الزاوية محفوظًا لدى السيد محمد حفيد الشيخ عبد الرحيم الفاخوري).

ويتبين من الدفتر المشار إليه بعض الأحكار التي أرصدت للزاوية سنتي ١٢٥٤/ و١٢٥٥هـ، وتتضمن ثمانية قروش من إبراهيم المصري حكر بيت زين، وقرشين من بيت الدهان حكر البيت مجرى ماء، وقرشًا واحدًا حكر بستان حسين قليلات، وقرشًا واحدًا حكر بستان منصور زريق، وخمسة قروش حكر بستان محمد شاتيلا في المصيطبة. وقد شهد على صحة هذه الأحكار عمر نجا وخالد الفاخوري (ابن الشيخ عمر) وعبد الله الناطور.

وورد في الدفتر أيضًا أن السيد حسين النعماني أوقف إلى زاوية الخلع ربع الدكان الكائنة في سوق العطارين، التي هي سكن السيد محمد المكوك، الواقعة تحت بيت السيد أحمد بدر، الملاصق شمالًا دكان السيد أحمد بدر، وقبلة دكان سكن السيد مصطفى فتح الله، وشرقًا طريق سالك، وذلك في غرة ذي الحجة سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٩م، وقد شهد على الوقف المشار إليه عبد القادر الفاخوري والشيخ علي الفاخوري (والد المفتي الشيخ عبد الباسط) والسيد عمر الفاخوري.

وأضيف في صفحة الأحكام بالدفتر حكر على جلّ تين في رأس بيروت في شهر رمضان ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م على متري زعزوع عن كل سنة أربعة قروش.

وحرصًا من المتولي الشيخ محيي الدين الفاخوري وشقيقه عبد القادر الناظر على الوقف فقد عرضا دفتر الخاص بالزاوية على قاضي بيروت الشرعي عبد القادر جمال في شهر رجب سنة ١٢٥٦ هـ، فدون عليه ما يلي: «الحمد لله تعالى، قد اطلعت على هذا الدفتر المتضمن إيراد ومصروف زاوية الخلع الواقعة في ساحة البياطرة، وجرت المحاسبة بين الحاكم الشرعي ومتوليها الشيخ محيي الدين بن الشيخ عمر الفاخوري، فكان المتبقي للزاوية المرقومة تحت يد المتولي مايتان وثلاثة قروش ونصف إلى حد تاريخه، وهو غرة شهر رجب الفرد الحرام سنة ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠م. نمقه الفقير إليه السيد عبد القادر جمال القاضي بمدينة بيروت».

وإثر حوادث سنة ١٨٤٠م وإصابة الزاوية بأضرار نتيجة حصار بيروت وقصفها من الأسطول العثماني وأساطيل الدول المتحالفة مع السلطنة، قيد في دفتر الزاوية: «عما ورد من طرف الخزينة العامرة من ديوان نظارة الأوقاف وإنعام من مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن».

وبعدما خرج إبراهيم باشا من بيروت وعاد الحكم العثماني المباشر إليها جرى تنظيم القضاء الشرعي، وتمّ افتتاح سجلات شرعية لمحكمة بيروت الشرعية، وذلك في الثالث عشر من شهر صفر الخير سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣م، وذلك في عهد قاضي بيروت ومفتيها فيما بعد الشيخ محمد بن حسن المفتي الطرابلسي الأشرفي[1].

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ (ص٥٠).

وجرى في العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٥٩ هـ/ أيار ١٨٤٣م قيد أوقاف وأحكام زاوية الخلع، فأضيف إلى ما ذكر في الدفتر الخاص بالزاوية من الأوقاف: الدكان التي وقفها محمود بك جركس محافظ بيروت أيام إبراهيم باشا (والد فخري بك رئيس بلدية بيروت)، وحكر على بستان إبراهيم وهبه المصري، ونصف دكان الحاج مصطفى القباني، ودكان وقف المرحوم أبو مصباح علي آغا الذي كان متسلم بيروت قديمًا. مما يشير إلى اعتقاد الواقفين بسلوك الشيخ محمد الخلع وأولاده.

ويبين دفتر الزاوية مصاريفها لسنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩- ١٨٥٠م، فعدا نفقات تصليح وطرش وترميم باب وسلم وطاقة الزاوية وثمن دلاء خشبية وأباريق فخارية سجل ٢٤٠ قرشًا في السنة لإمامها الشيخ عبد الباسط الفاخوري، بمعدل عشرين قرشًا شهريًا، و٣٦٠ قرشًا أجرة الخادم عبد اللطيف الطنطاوي بمعدل ثلاثين قرشًا شهريًا، و١٨٠ قرشًا أجرة مؤذن الظهر محمد البواب (١٥ قرشًا شهريًا)، ومثلها أجرة مؤذن العصر محمد الجمال.

أما في سنة ١٢٦٩ هـ/ ١٨٥٢-١٨٥٣م فقد كلف محمد الجمال بأذان الظهر والعصر لقاء ٤٨٠ قرشًا في السنة. ورفع معاش الشيخ عبد الباسط في السنوات اللاحقة إلى ٣٠٠ قرش سنويًا، ومعاش مؤذن الظهر والعصر وخدمة الزاوية محمد الجمال إلى ٩٠٠ غرش سنويًا. كما أضيف في السنوات اللاحقة شيخ مقرئ للقرآن الكريم بمعاش ثلاثمئة قرش سنويًا.

ولم تذكر المصادر مساحة الزاوية ولا طراز عمارتها ومحتوياتها. ومن المرجح أنها كانت قاعة أرضية بسيطة كمصلى لتجار السوق وعابريه. ولم يكن لها مئذنة. بدليل وقف الشيخ عمر دكانه التي حدد موقعه بأنه ملاصق للزاوية. ويشير دفتر الزاوية إلى أنها كانت تحتوي على خزائن، وغرفة ضمن الزاوية قد تكون معدة لسكن خادمها، وعلى بركة ماء ومرتفق. وكانت أرض الزاوية مفروشة بالحصر، ثم فرشت فيها سجادة. أما مياهها فمستمدة من بئر خاصة لها، فقد ورد في دفتر الزاوية من المتولي في النفقات: ثمن حصر وأباريق ودلاء خشب وبكرة وجنزير وحبال للبئر وغطائه وتعزيله.

تولية الشيخ محيي الدين الفاخوري ثم الشيخ عبد الرحيم الفاخوري على الزاوية

انتشرت الطريقة الخلوتية وما تفرع منها كالصاوية في مصر والشام، وكانت لها زوايا في دمشق وبيروت وطرابلس وفلسطين، وقام بعض شيوخها بدور مهمّ في المجتمع، وقد سبق أن ذكرنا علاقة الشيخ عمر اليافي بالسلطان محمود، وبعده علاقة ابنه الشيخ محمد أبو النصر بالسلطان عبد المجيد، الذي أهداه قطعة أرض في وسط بيروت أقام عليها الزاوية المنسوبة إليه، والتي قام على جزء من أرضها فيما بعد جامع محمد الأمين عليه الصلاة والسلام (كما سنبين فيما بعد).

ومن خلوتيي بيروت الشيخ محيي الدين عمر الفاخوري الذي تولى زاوية والده الشيخ محمد الفاخوري الملقب بالخلع وأقام فيها الذكر الخلوتي. وكان ورعًا تقيًّا كلف بشرف خدمة الأثر النبوي الشريف وهو ثلاث شعرات من اللحية النبوية الشريفة، وتم ذلك بناءً لإرادة فؤاد باشا ناظر الخارجية العثمانية والصدر الأعظم الذي قدم إلى بيروت مشرفًا على إنهاء تداعيات حوادث سنة ١٨٦٠م الطائفية في الجبل. وقد أثبتت توليته لخدمة الأثر الشريف المذكور بموجب محضر مجلس إدارة لواء بيروت كما ذكرنا ذلك في موضعه.

يذكر أن الشيخ محيي الدين المذكور كان أيضًا متوليًا على أوقاف جامع المجيدية كما ذكرنا في دراستنا عن الزاوية المذكورة. وأن الشيخ محيي الدين الفاخوري كان خليفة الشيخ محمد الجسر الكبير الطرابلسي الشهير بلقب «أبو الأحوال».

وقد تصدر للإرشاد في بيروت، وكان كثير الطاعات والعبادة، وكان كما روى صهره الشيخ محيي الدين النصولي، يحب أهل طرابلس محبة شديدة ويعتني بشؤونهم اعتناء عظيمًا، كرامة لشيخه، وهم كانوا كذلك يحبونه ويزورونه كثيرًا، وربما كان ينزل يقابل بعضهم إلى البحر فيجتمع به على الأسكلة، وكانوا يشاورونه في تجارتهم وأسفارهم.

توفي الشيخ محيي الدين في تشرين الأول سنة ١٨٨٨م، وذكرت صحيفة «ثمرات الفنون» في حينه: «نعت المآذن الصالح التقي الورع الزاهد الناسك العابد الشيخ محيي الدين الفاخوري الخلوتي، فشيعت جنازته إلى جامع نبي الله يحيى عليه السلام (الجامع العمري الكبير)، حيث أديت

الصلاة عليه وتلي رثاؤه، ثم رفع النعش بالتكبير والتهليل والصلاة على النبي ﷺ، وأمامه أعلام أصحاب الطرق تخفق، وعدد من أفراد البوليس والزاندرمة والأهالي وأولاد المكاتب الابتدائية، يرتلون الدعاء لله تعالى، وما زالوا سائرين به إلى جامع المجيدية حيث واروه في روضتها».

وتضيف الصحيفة: «بأنه كان من بقية السلف الصالح خادمًا للطريقة الخلوتية، مواظبًا على أصولها، لم يخرج عن السنّة والكتاب، قائمًا بمراعاة الفقراء القادمين من الجهات، منهلًا للواردين ....».

كما تذكر الصحيفة بأن نعيه أعلن في جميع مآذن طرابلس، وجرت الصلاة عليه يوم الجمعة في جميع الجوامع الشريفة فيها، وأن الشيخ حسين الجسر بادر لإجراء العادة الجارية من تلاوة القرآن الشريف والصلوات والأذكار ثلاثة أيام وإهداء ثواب ذلك لروح المتوفى، وأن العلماء ومشايخ الطرق والمأمورين والوجوه هرعوا إلى دار الشيخ حسين المذكور لأداء التعزية. وفي اليوم الرابع حضر الشيخ حسين الجسر إلى بيروت لتعزية عائلة الشيخ محيي الدين. يذكر أن الشيخ محيي الدين أدى سنة ١٨٨٦م فريضة حج سنة ١٣٠٣هـ[1].

يذكر أن الشيخ حسين محمد الجسر وضع كتابًا بعنوان: «نزهة الفكر في مناقب الشيخ محمد الجسر»، ذكر فيه سيرة والده، معددًا مناقبه، وأشار فيه إلى أنه نال الإجازة في الطريقة الخلوتية الصاوية من الشيخ محيي الدين الفاخوري البيروتي.

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ٧٠١/٧٠٢ سنة ١٨٨٨م.

وبعد وفاة الشيخ محيي الدين أجيز عبد الرحيم ابن شقيقه عبد القادر الفاخوري بالطريقة الخلوتية الصاوية بموجب إجازة كتبت سنة ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨م من الشيخ حسين محمد الجسر (في خزانتنا نسخة منها)، وقد جاء فيها:

«الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين. قد أجزت أخانا في الله تعالى التقي الصالح السيد عبد الرحيم الفاخوري النسيب الرابح، بما تتضمنه هذه الإجازة الخلوتية الصاوية، وأنا الفقير إليه تعالى عبده العاجز المسكين حسين بن محمد الجسر الخلوتي الصاوي الحنفي، عفى عنه مولاه بفضله وكرمه».

وجاء في متن «الإجازة»: «ولما كان أخونا في الله تعالى التقي الصالح نخبة السادات والأكارم، وسلالة الأمجاد الأعاظم، المنتسب إلى حضرة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه، السيد الشيخ عبد الرحيم أفندي الفاخوري أدام الله توفيقه، قد تربّى في طريقتنا الخلوتية وتهذب على يدي سيدي وأستاذي وقدوتي إلى الله تعالى وملاذي خاتمة المرشدين ومربي المريدين وعمدة الصالحين سيدي الأجل الأكرم السيد الشيخ محيي الدين أفندي الفاخوري، أسكنه الله تعالى فسيح جناته، ووالى عليه سحائب رضوانه، حتى كان يفوض إليه إدارة شأن الورد الخلوتي وإقامة الأذكار بإخواننا الخلوتية في محروسة بيروت، لما وجد فيه من الأهلية والصلاح وسلوك سبيل الاستحقاق.

فبعد انتقال سيدي المرحوم المبرور المنوه بذكره من دار الفناء إلى دار البقاء وجوار أكرم الأكرمين، نقل عنه رضي الله عنه من بعض إخواننا ما يشير إلى الإذن لهذا العاجز بمداركة جمعية إخواننا الخلوتية في بيروت، بإقامة أخينا الشيخ عبد الرحيم أفندي الفاخوري المومى إليه خليفة بينهم، يقيم بهم الأذكار، ويبتدىء الأوراد ويبايع من أراد الدخول في هذه الطريقة ...

وقد استخرت الله تعالى لا خاب من استخار وأجزت أخانا المذكور الشيخ عبد الرحيم أفندي بإعطاء العهود وافتتاح الأذكار والأوراد، وتلقين الأسماء وتلبيس الخرقة وإدخال الخلوة لمن يكون لذلك أهلًا، بشرط الجد والاجتهاد، والمحافظة على الأوراد، وأن لا يزيد على صلوات شيخ مشايخنا ومنظومته بيتًا فيه مدح له أو لغيره أو يجيز الزيادة، فإن فعل أو أجاز من فعل فلا إجازة له مني، كما أخذت ذلك عن سيدي وأستاذي وقدوتي وملاذي السيد الشيخ محيي الدين أفندي الفاخوري، وهو عن سيدي أبو الأنوار السيد الشيخ محمود الرافعي بواسطة والدي المرحوم السيد الشيخ محمد الجسر رحمه الله تعالى القائم بتربيته كما ذكر ذلك في إجازته لي.

وسيدي الشيخ محمود الرافعي عن الأستاذ العارف بالله تعالى السيد أحمد الصاوي المالكي، وهو عن الأستاذ العارف بالله تعالى أبي البركات ومهبط الرحمات سيدي الشيخ أحمد الدردير ...

وأوصيته بتقوى الله تعالى سرًّا وجهرًا، وملازمة الأوراد سفرًا وحضرًا، ولاسيما صلوات العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا سيدي أحمد الدردير ومنظومته لأسماء الله الحسنى صباحًا ومساءً، وورد السحر وورد الستار، وأن يوقر الكبير، ويرحم الصغير ...».

ومن خلوتية بيروت: الشيخ صالح طبارة المتوفى سنة ١٨٨٣م، وكان ورعًا صالحًا، خدم الطريقة الخلوتية مدة حياته(١).

وتشير الوثيقة الشرعية الصادرة عن قاضي بيروت الشرعي بتاريخ الثلاثين من شهر شوال المكرم سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م أن الشيخ عبد الرحيم كان إمامًا للأوقات الخمسة في زاوية الخلع، وبعد وفاته سنة ١٨٩٥م تولى الإمامة الحاج محمد الفاخوري، وبعد وفاة هذا الأخير عين الشيخ رائف رشيد عبد القادر فاخوري إمامًا للأوقات الخمسة بمعاش قدره مئة وخمسون قرشًا شهريًّا حسب التعامل القديم، وهكذا كل إمام من عائلة الفاخوري.

وقد طلب الشيخ رائف راتبه عن ثلاثة أشهر من عبد القادر بن عبد الرحيم بن عبد القادر الفاخوري المتولي في حينه على الزاوية بموجب حجة شرعية مؤرخة في الخامس عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١م من قاضي بيروت الشرعي السيد أحمد شكري أفندي، وذلك لتكون حجة للعمل بها، وتقرر إلزام المتولي بما طلب.

وقد وجدت في مكتبة والدي رحمه الله نسخة من صلوات العارف بالله سيدي أبي البركات الشيخ أحمد الدردير خاتمة المحققين في الطريقة العلية الخلوتية المشهورة بالصاوية طبعت في بيروت سنة ١٣٢١هـ،

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ٤٢٧ سنة ١٨٨٣م.

والصلوات المذكورة هي على عدد أحرف الهجاء من الهمزة إلى الياء، وقد جاء في حرف السين: «اللهم صلّ وبارك على سيدنا محمد وابسط لنا الرزق وأغننا عن الناس. وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وطهرنا من الأدناس. وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين أزلت عنهم الالتباس».

وجاء في حرف الطاء: «اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الهادي إلى سواء الصراط. وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الآمر بالعدل والناهي عن التفريط والإفراط. وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلمنا ببركته من الانحطاط. وصلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين ربطوا قلوبهم بمحبته كل الارتباط».

أما منظومة أسماء الله الحسنى للشيخ أحمد الدردير الخلوتي الصاوي فجاء فيها:

تباركت يا الله ربي لك الثنا ... فحمدًا لمولانا وشكرًا لربنا
بأسمائك الحسنى وأسرارها التي ... أقمت بها الأكوان من حضرة الغنى
فندعوك يا الله يا مبدع الورى ... يقينًا يقينا الهمّ والكرب والعنا
ويا ربّ يا رحمن هبنا معارفًا ... ولطفًا وإحسانًا ونورًا واهدنا
وسر يا رحيم العالمين بجمعنا ... إلى حضرة القرب المقدس واهدنا
ويا مالك ملك جميع عوالمي ... لروحي وخلّص من سواك عقولنا(١)

---

(١) صلوات الشيخ أحمد الدردير، بيروت سنة ١٣٢١هـ.



نمرة
٥٨ المعروض لأعتاب الدولة العلية العثمانية صانها وحماها رب البرية

هو انه لما كانت تولية الزاوية المعروفة بزاوية الخلع الكائنة في سوق البياطرة داخل مدينة بيروت موجهة على الشيخ عبد الرحيم ابن السيد
عبد القادر الفاخوري البيروتي المحرر في جريدة نفوس بيروت بالنمرة الثانية من الخانة التاسعة والعشرين في المحلة الغربية
المولود في سنة ثلاثين ومائتين والف بمعاش خمسة كل شهر خمسين قرشاً وقد قرر هذا الداعي على تولية المذكورة
وحيث انه لا براءة شريفة خاقانية بيده تتعلق بتوليته مع كونه متجاوز اللاسنان العسكرية وهو من اهل الصلاح والعفة
وبه اللياقة والاصلحية فقد التمس الارحام من لدن العواطف الشاهانية باخراج براءة شريفة خاقانية بوظيفته
المذكورة فلذلك تجاسر هذا الداعي بتقديم هذا الاعلام الشرعي اجابة لالتماسه داعياً بالتأييد والتأبيد لسرير
السلطنة العظمى والامر لمن له الامر تحريراً في الخامس والعشرين من شعبان المعظم سنة اربع وثمانين ومائتين والف

زاوية الخلع في سوق البياطرة ١٢٨٤هـ

١٢٦٨

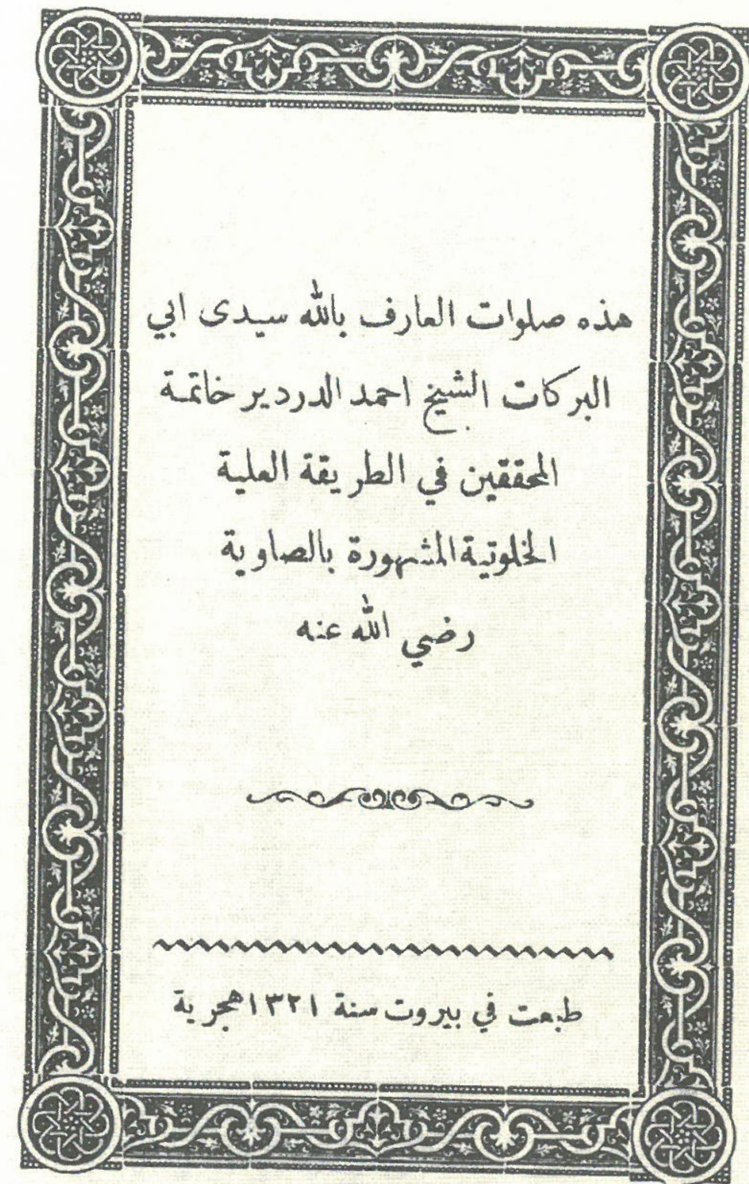
الحمد لله تعالى

بمجلس الشريعة الشريفة المطهرة الغرا ومحفل الطريقة المنيرة الزهرا بمدينة بيروت المحروسة اجلها الله تعالى
لدى متوليه مولانا فخر الموالي والحكام محرر القضايا والاحكام الحاكم الشرعي الحنفي الموقع اسمه الكريم بخطه مع ختمه اعلاه
لطف بنا وبه سيده ومولاه هو انه بتاريخه ادناه حضر الى مجلس الشرع الشريف الورع التقي الصالح الشيخ عمر ابن الشيخ
محمد الفاخوري الملقب بالخلع وحضر معه ولداه الشيخ عبد القادر والشيخ محي الدين واقر طائعا ومختارا وهو
في صحة عقله وسلامة بدنه من غير اكراه ولا اجبار انه وقف وحبس وابد تقربا الى الله تعالى وابتغا لوجهه
الكريم ما هو جار في ملكه وتحت تصرفه الى حين صدوره وذلك جميع الدكان التي انشاها في ارضه
من ماله الخاص الكائنة في سوق البياطره داخل مدينة بيروت الملاصقة الى زاوية الخلع يحدها قبلة
وشرقا الزاوية المذكوره وشمالا الطريق العام وغربا ملك بني الدهان وقفا صحيحا شرعيا
وحبسا موبدا مرعيا على الزاوية المذكورة التي هي وقف ابيه الشيخ محمد الملقب بالخلع وذلك بان
يبدا اولا من غلته وريعه يصرف على عمارة وترميمه وما فيه بقا عينه وما زاد منه من ريعه يصرف
على الامام والموذن والخادم الى الزاوية المذكورة وما تحتاج اليه مصالح الزاوية المذكورة وان بقي شيء من
ذلك يبقى في يد المتولي يتصرف به في شئون ومصالح الزاوية واوقافها حسب اللزوم وقد
نصب ولده الشيخ محي الدين متوليا على الوقف المذكور وولده الشيخ عبد القادر ناظرا وقد اشترط
شروطا منها ان تكون التولية والنظارة لولديه المذكورين ومن بعدهما لولد ولده عبد الرحيم ابن
الشيخ عبد القادر المذكور ومن بعد ولد ولده عبد الرحيم المذكور لاولاده واولاد اولاده واولاد اولاد
اولاد اولاده ما تناسلوا وتعاقبوا الارشد فالارشد ومنها ان يكون الامام والموذن والخادم
من ذرية ولديه وهما الشيخ عبد القادر والشيخ محي الدين ممن يكون فيه اللياقه والكفايه بتعيينه
المتولي فان لم يوجد من يكون اهلا للوظائف المذكوره يصير تعيين خلافه من طرف المتولي حين وجود من يقوم بالخدمات المذكوره من ذريتهما وقد سلم الوقف المذكور الى المتولي المذكور ثم عن
للواقف المذكور ان يرجع عن وقفه هذا مدعيا عدم صحته ولزومه عند من لم يرى صحته ولزومه فعارضه المتولي المذكور والناظر المرقوم متمسكين بقول الصاحبين بان الوقف صحيح ولازم وتخاصما بذلك فحينئذ حكم بصحة الوقف المذكور ولزومه بخصوصه وعمومه ومنع الواقف المذكور
من دعواه الرجوع بالوقف المذكور عالما بالخلاف بين الائمة الاسلاميه ثم بعد ثبوته وصحته
الزم الواقف بتسليم الوقف المحرر للناظر والمتولي المذكورين فتسلماه منه تسلم مثله شرعا
وبالطلب تسطر ما هو الواقع في اليوم الثاني من شهر شوال الذي هو من شهور سنة ١٢٥ احدى
وخمسين ومايتين والف احسن الله ختامها صحيح

شهود الحال

الشيخ عبد الهادي افندي قرنفل	حضرة ... السيد مصطفى قرنفل	الشيخ مصطفى ابن احمد الكلنج العيداوي	الحاج محمد ابن الحاج مصطفى الحلبي ...	السيد عبد القادر ...

وقفية الشيخ عمر فاخوري دكاناً على زاوية والده الشيخ محمد الخلع (الفاخوري)



هذه صلوات العارف بالله سيدى ابي البركات الشيخ احمد الدردير خاتمة المحققين في الطريقة العلية الخلوتية المشهورة بالصاوية رضي الله عنه

طبعت في بيروت سنة ١٣٢١هجرية

صلوات الشيخ أحمد الدردير الخلوتي الصاوي طبعة سنة ١٣٢١هـ

زاوية بني الصانع

اكتشاف زاوية لبني الصانع بموجب وثيقة تعود إلى سنة ١٨١٥م

في خزانتنا وثيقة تاريخية مهمة هي عبارة عن حجة وقف شرعية مصدقة في غرة شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م، ومضمونها إقدام «فخر الأماثل والأقران عمدة الأماجد الفخام ومفخر السادة الأشراف العظام السيد صالح سعادة ابن المرحوم السيد محمد ابن الشيخ حسن سعادة البيروتي ...، بأنه وقف وأبّد وحبس وتصدق بطيب نفس وانشراح صدر تقربًا إلى الله الكريم يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين، ما هو له وبيده وملكه وتحت مطلق تصرفه النافذ شرعًا وآيل إليه البعض بالإرث الشرعي والبعض بالشراء الشرعي، بموجب حجة شرعية مخلدة بيده إلى حين صدور هذا الوقف ...»[1].

ثم تذكر الوثيقة الأموال الموقوفة من بيوت ودكاكين وأراضي كائنة في مختلف مناطق بيروت القديمة ضمن السور، باستثناء الدار ومشتملاتها الكائنة في محلة الدحداح خارج بيروت (تقعُ هذه المحلة إلى الشرق من شارع بشارة الخوري الحالي ومبنى وزارة المالية).

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٣٦).

وقد صدقت وثيقة وقف صالح سعادة لدى القاضي الشرعي في صيدا السيد محمد سعيد البزره (البزري)، وشهد عليها عدة أشخاص، منهم: الشيخ عبد الهادي قرنفل نائب بيروت سابقًا (أي القاضي الأسبق)، وولده الشيخ مصطفى قرنفل، والسادة عبد القادر قرنفل، وقاسم سعيد سعادة، والشيخ علي جلال الدين الصيداوي، والشيخ عبد الله بزري الصيداوي، والشيخ مصطفى شهاب، والحاج سليم حمود، وأحمد علي سعادة، وعلي بن محمد كشلي النشار، وعبد الله البعلبكي، ويحيى بن أحمد هويلو.

وتأتي أهمية الوثيقة المشار إليها في كونها تعطينا فكرة عن عائلات بيروت في سنة ١٨١٥م، وعن بعض المؤسسات الدينية والاقتصادية والمهنية. إلا أن أهميتها الحقيقية تكمن في أنها كشفت عن وجود زاويتين لم يرد ذكرهما في كل ما كتب عن زوايا بيروت ومساجدها.

الزاوية الأولى: هي زاوية الشيخ رسلان (أرسلان) التركماني، في محلة الشيخ رسلان وسط بيروت، وقد سبق وتكلمنا عنها.

أما الزاوية الثانية التي تذكر ويكتب عنها لأول مرة: فهي زاوية بني الصانع. وتشير الوثيقة المرقومة إلى الدكاكين التي أوقفها صالح سعادة على أولاده، وكان مآلها للحرمين الشريفين، فكان من ضمنها:

«جميع الدكان الكائنة سفلي بيت شكور الإدلبي الصانع، المعقودة بالمؤن والأحجار في محلة الشويربات بالقرب من بوابة يعقوب، المحدودة قبلة دكان كنيسة الروم، وشمالاً دكان ملك محمد بن علي قليلات، وشرقًا الطريق السالك وفيه الأغلاق، وغربًا بيت شكور المذكور.

وجميع الدكان المسقوفة بالجسور والأخشاب سفلي دار شكور الصانع، يحدها قبلة دكان محمد بن علي قليلات، وشمالاً دكان الواقف الآتي ذكرها، وغربًا دار شكور، وشرقًا الطريق السالك وفيه أغلاقها.

وجميع الدكان المعقودة بالمؤن والأحجار المعروفة ببني الصانع أسفل دار محمد زريق الكائنة في محلة الشويربات بالقرب من زاوية سيدنا الشيخ حسن الراعي، يحدها قبلة الطريق السالك، وشرقًا الدار المذكورة، وشمالاً باب الدار المرقومة، وأغلاقها لجهة الغرب.

وجميع الدكان المعروفة سابقًا بدكان إبراهيم الصانع المعقودة بالمؤن والأحجار سفلي بيت الطفاش في محلة الشويربات بالقرب من بوابة يعقوب، المحدودة قبلة دكان محمد الصانع، وشمالاً كذلك، وشرقًا الطريق السالك وفيه أغلاقها، وغربًا بيت الطفاش ...

وجميع الدكان الكائنة سفلي بيت دراج، المعقودة بالمؤن والأحجار بالقرب من زاوية الصانع في محلة الشويربات، يحدها قبلة زاروب بني دراج، وشرقًا الطريق السالك وفيه أغلاقها، وشمالاً دكان بني الناطور، وغربًا جنينة بني الصانع ...».

ويتبين مما ذكرناه بأن الزاوية المنسوبة لبني الصانع كائنة في محلة شويربات، وهي مجاورة لبوابة يعقوب؟ كما يتبين أن أسرة الصانع كانت تملك عدة بيوت ودكاكين وجنينة في المحلة المذكورة.

وورد في الوثيقة من أبناء الأسرة أسماء: إبراهيم، ومحمد، وشكور الذي وصف بالإدلبي، مما قد يفسر بأنه من بلدة إدلب في الشمال السوري. وإن كان لفظ الصانع قد يعني: من يعمل بيديه، أو من يتعلم صناعة عند غيره وقد يكون لقبًا.

يذكر الشيخ أحمد البربير بأن أعمّ اسم يشمل كل صانع عند العرب: الإسكاف. فالإسكاف عندهم يقال لكل صانع. ومثله القيْن، ومنه قولهم: إذا سمعت بسُرى القين فاعلم أنه مُصبح. والمعنى: أنك إذا سمعت الصانع يقول: أنا مرتحل في هذه الليلة، فاعلم أنه ماكثٌ إلى الصباح، لا يرحل، وإنما يقول الصانع كذلك لأجل أن يبادر إليه أصحاب العمل.

وأسرة الصانع قليلة العدد في بيروت. عرف منها في أيامنا عبد الرؤوف الصانع وأولاده أنيس وشفيق وعاطف ونجيب الصانع، الذين عملوا في التجارة، وسكنوا في محلة رأس النبع. واشتهر في العصر الحديث من أبناء الأسرة محمد الصانع الذي تابع دراسته في الكلية العثمانية (الإسلامية فيما بعد)، لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري، وكان من رفاقه فيها عمر الزعني وعمر حمد وعمر فاخوري وغيرهم من شباب بيروت، الذين انخرطوا في السياسة والأدب والاجتماع.

تخرج محمد من الكلية العثمانية سنة ١٣٣١هـ، واشتغل أول عهده بالتجارة. اشترك سنة ١٩٢١م في تمثيل رواية جابر عثرات الكرام التي ألفها الشيخ رائف فاخوري، ومثلت في مسرح الكريستال، وكانت تشيد بتراث العرب وتاريخهم ومناقبهم. كما أسهم محمد الصانع في أعمال

جمعية الكشاف المسلم في بيروت، وكان عاملًا في العمدة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٦م.

وكان يقيم في محلة البسطة التحتا بالقرب من دار عمر فاخوري، وقد اشترك معه في تأسيس نادي الوحدة السورية. وكان له نشاط كبير في محاربة الانتداب الفرنسي. وعمل فترة في مجلس النواب اللبناني.

ونأمل أن يتم العثور على وثائق أخرى تبين مؤسس زاوية الصانع وطراز عمارتها ومن تولى أمورها.

زاوية بني الصانع في محلة الشويربات

زاوية أبو النصر الخلوتية

بنيت الزاوية على أرض قدمها السلطان عبد المجيد

لم تكن زاوية أبو النصر المآثرة الوحيدة للسلطان عبد المجيد، بل إنها واحدة من مآثره العديدة في بيروت. وقد سبق وأشرنا إلى أن زاوية التوبة القادرية بنيت على نفقة السلطان المذكور. كما أنه رمم زاوية الشويخ القادرية، وحوَّلها إلى جامع المجيدية. كما أسهم بترميم زاوية الخلع.

حاز شيوخ الطرق الصوفية مركزًا محترمًا لدى السلاطين العثمانيين، وذلك قبل تبوأ محمد أبو الهدى الصيادي المكانة الأولى لدى السلطان عبد الحميد، ما رفع شأن الطريقة الرفاعية. وكان الشيخ عمر البكري الخلوتي اليافي الصديقي (١٧٥٩- ١٨١٨م) شيخ الطريقة الخلوتية البكرية هو صاحب الحظوة في الآستانة. وكان له العديد من المريدين في بيروت، قال فيهم سنة ١٨٠٤م بعد أدائه فريضة الحج:

وبعد فالتحية السنيه ... مقرونة بالنفحة المسكيه
على الذين بالمرام فازوا ... وللثواب أحرزوا وحازوا
إخواننا ذوي العلا البيارته ... لا برحوا في دار عزّ ثابته
فإننا قد كثرت أشواقنا ... إليهمُ لما بدا فراقنا

وصار صفونا لبعدهم كدر ... وأعظم الهمّ حبيبٌ ينتظر[1]

وكان من مريديه البيارتة صهره الشيخ أحمد طباره، ومحمد الغندور، وعبد القادر وعبد الغني ومحمد سعادة، ومحمد البكداشي، وعلي الغريب، ومحمد ناصر تعبانه، ومحمد الزاهد، ويحيى القصار البيروتي.

وقد وصف المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري عمر اليافي بأنه «شيخ الوالد»، وأضاف: «قال لي والدي رحمه الله: كان شيخنا وأستاذنا الشيخ عمر اليافي قدس سره إذا تكلم أفاد، وإذا كتب أجاد».

أرسل عمر اليافي عريضة إلى السلطان محمود استرحم فيها تعيين مرتب له ليستعين به على معاش عائلته ومريديه لإقامة الأذكار في دمشق، وأن يشرفه بتمليك دار فيها تضم أهله وعياله وتسع من يحضر عنده، فأصدر السلطان إرادة سنية بإجابة استرحامه. فأعطي سكنًا بجوار الجامع الأموي، وخصص له مشهد في الجامع المذكور عرف بالمشهد اليافي للدرس والتفسير. وكتب اليافي للصدارة العظمى مهنئًا ولغيره من وجهاء الآستانة. وقد زار بيروت عدة مرات وكتب بخط يده أبياتًا على النسب الشريف لآل النقيب، وفي خزانتنا صورة منه، تكرم الدكتور أحمد النقيب بتقديمه لنا. وقال في بيروت:

عهد بيروت وهو تابوت قلب ... قد أتى بالصفا وفيه السكينه
يا رعى الله ذلك العهد إذ كا ... نت لياليه خير عيدٍ وزينه

---

(١) ديوان الشيخ عمر اليافي (ص٧٨).

طالما قد جنيت أثمار أنسٍ   من رياض المنى بتلك المدينه[1]

وللشيخ عمر اليافي عدة مؤلفات، منها: «هداية أهل المحبة في معنى قوله ﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربه» (في خزانتنا نسخة منها بخط الشيخ عبد الحميد محمد عمر الفاخوري)، وله ديوان شعر مما نظمه من قصائد ومدائح وأذكار، وفيه ما يعرف بالتنزيلات الصوفية، وهي قصائد تنظم على عروض الأغاني والألحان الشائعة في المجتمع، كي يسهل على المريد حفظها. وفيه تشطيره لبيتين قديمين تضمنا المثل القائل **«الاجتماع مقدّر»**، وهو يقال عند التخلف عن موعد. وقد شطرهما أيضًا المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله والمفتي الشيخ أحمد الأغر والبيتان:

كل يوم أروم أن أتملّى بك   والدهر بيننا يتعذّر
والليالي تقول لي بلسان: لا تلمني فالاجتماع مقدّر[2]

وتوفي الشيخ عمر اليافي عن أبناء ثلاثة هم الشيخ محمد الزهري (ت بدمشق ١٢٧٧هـ)، وصفه المفتي الفاخوري: «بالصالح الناسك المرشد الناصح التقي النقي قائم مقام والده بالإرشاد». والشيخ محيي الدين (ت ١٣٠٤ هـ)، تولى إفتاء بيروت فترة قصيرة. والشيخ محمد أبو النصر (ت بمصر ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٣ - ٦٤ م)[3].

---

(١) ديوان الشيخ عمر اليافي (ص١٠٨).
(٢) ديوان الشيخ عمر اليافي (ص١٦٢).
(٣) مقدمة ديوان اليافي، المفتي الشيخ عبد الباسط فاخوري.

أما الزهري فقد قال عنه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله في ديوانه: «حضر إلى بيروت في محرم سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١م عين أهل الطريقة وبدر ذوي الحقيقة، المستغفرين في الأسحار، القائمين بالأذكار، في الليل والنهار، ولد القلب»، ومدحه بقصيدة مطلعها:

تأمل نجوم الأفق ليلًا وإذ تسري   تنال سرور القلب والشرح للصدرِ
فمن قال زُهر الأفق ليس ببدره   فدعه، فإن البدر ليس سوى الزُهري[1]

وامتدت صداقة عمر اليافي مع السلاطين العثمانيين إلى أولاده وأحفاده. فكان الشيخ محمد أبو النصر شيخًا للطريقة الخلوتية في بيروت. مدحه الشيخ قاسم الكستي وعمر الأنسي، ونال أوسمة عديدة، كما نال ابنه خالد رتبة تدريس أدرنه. أما حفيده عبد الكريم فقد سافر إلى الآستانة عدة مرات، وعين نقيبًا للسادة الأشراف بفرمان من السلطان.

يذكر أن السلطان عبد المجيد (١٨٣٩- ١٨٦١م) منح الشيخ محمد أبو النصر قطعة أرض في سهلات البرج (تجاه برج الكشاف) تكريمًا لدور البيارتة في الوحدة الوطنية ونبذ الطائفية، ومنع امتداد الفتنة إلى بيروت[2].

وقد أقام الشيخ أبو النصر على هذه الأرض بيتًا لسكنه وعائلته، وجعل قسمًا منه زاوية متواضعة لذكر الخلوتية. وبنى سوقًا من أربعين دكانًا عرف بسوق أبو النصر. يذكر أنه كان بجوار الدار والزاوية معبر مقبّب يدعى

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٢/٩٩٧).
(٢) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٣٠).

باب أبو النصر فتح سنة ١٨٥٩م بإزاء برج الكشاف بمحلة إده، وأطلق عليه اسم «البوابة الجديدة»[1].

وبنى الشيخ أبو النصر إلى جانب الدكاكين قهوة اشتهرت «بقهوة القزاز». وقد توزعت تركة الشيخ بين زوجاته الثلاث وأولاده الخمسة عشر. وقد بيعت الدكاكين فيما بعد. وقدر ثمن الدكان سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٢م بأربعة آلاف قرش. وفي شوال سنة ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٧م باعت إحدى زوجات الشيخ قيراطًا وثلاثة أرباع القيراط، وجزء من ثلاثة عشر من القيراط، وذلك من القهوة «المعروفة بقهوة أبي النصر المجعول منها آخورين (إسطبلين) للعربات، بمبلغ ١٧٥٠٠ قرش»[2].

يذكر أن السلطان عبد المجيد قد منح في الوقت نفسه قطعة أرض للموارنة في بيروت أقاموا عليها كاتدرائية مار جرجس المارونية في شارع الأمير بشير، وذلك على طراز كنيسة ماريا ماجوري في روما. ويقول شفيق طبارة بأن الشيخ محمد أبو النصر أهدى قطعة من الأرض التي وهبت له لتضم إلى الأرض التي أهداها السلطان للموارنة (لم يتم نفي هذه المعلومة)، بما يذكر بقول الشاعر:

يجود علينا الخيّرون بمالهم   ونحن بمال الخيّرين نجودُ

أما الزاوية المتواضعة فقد أعطيت بعد أعمال التحديد والتحرير العقارية في بيروت الرقم ٣٢٣ منطقة المرفأ العقارية، بموجب قرار

(١) من معابد بيروت الزوايا، شفيق طبارة، أوراق لبنانية (ص٥٠١).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٤هـ/ ١٣٠٥هـ رقم ٢٤٩.

القاضي العقاري رقم ٥٠٠ تاريخ أول آذار ١٩٣٣م. وكان العقار المذكور مؤلفًا من عدة أقسام شائعة، كان صديقنا المهندس محمد خير عبد الغني سعادة وإخوانه يملكون أسهمًا في القسم الثاني عشر. وقد أدركت من الزاوية ميكروفون مثبت في زاوية الطابق الأول منها، كان يذاع منه الأذان. وقد أصبحت أرضها جزءًا من الأرض التي أقيم عليها جامع محمد الأمين عليه السلام.

ليلة ذكر في زاوية أبي النصر بحضور الأمير عبدالقادر الجزائري

قيل قديمًا بأنه لا شيء أضر على الدين من أن تكون أرزاق العلماء في أيدي الحكام والأمراء. وعلماء السلف يدعون إلى الابتعاد عن الحكام من خوفهم أن يشملهم حديث أنس المشهور: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل، فاحذروهم واعتزلوهم». أو الحديث الشريف: «سيكون في آخر الزمان علماء يُرغّبون الناس في الآخرة ولا يرغبون، ويُزهّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون»، أو حديث ابن عباس: «إن أناسًا من أمتي يتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتني من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا».

ويبدو أن الشيخ محمد أبو النصر فضّل إقامة زاوية صغيرة متواضعة وسوقًا كبيرة تتضمن عددًا كبيرًا من الدكاكين ومعها قهوة القزاز ما أمّن للشيخ موردًا كبيرًا لم يتيسر لغيره من شيوخ الطرق الصوفية، وما مكنه من

تأمين معيشته ومعيشة عائلته الكبيرة المؤلفة من ثلاث زوجات، هن: فاطمة بنت يحيى عبد اللطيف الطرابلسي، ونزهة بنت الشيخ درويش الاخوان الحمصي، وفاطمة بنت الحاج محمد المجذوب، وذلك إلى جانب أولاده الخمسة عشر، وهم: خالد، وعبد الفتاح، وعمر، وكمال الدين، وعبد الرحمن، ومحيي الدين، ومصطفى، ومريم، وسعد الله، وعبد الكريم، وأسماء، وعائشة، وخديجة، وأبو السعود، ومحمد حافظ.

ولو كان أوقف الدكاكين ورصد ريعها للزاوية ومريديها لكانت استمرت في أداء الغاية من إقامتها ومن الهدف من هبة الأرض أصلًا. أو لكان خصّ الريع للتعليم، أو إنشاء مدرسة لكانت أكثر فائدة وأعمّ نفعًا.

ولبيان فكرة عن قيمة السوق نشير إلى أن إحدى الدكاكين بيعت سنة ١٨٦٢م بأربعين ليرة عثمانية ذهبية، وأن ثمن قهوة القزاز قدر سنة ١٨٨٧م بثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية. ولا يخفى ما يرافق الثروة عادة من مركز اجتماعي ونفوذ، في مجتمع يقوم على التجارة، وذلك إضافة إلى ما يتمتع به صاحبها من مركز ديني كشيخ طريقة. يذكر أن الثروة في حينه كانت تقاس بما يملك صاحبها من الليرات الذهبية المحفوظة «في علب من التنك».

وقد كثرت قصائد الشعراء في مدح الشيخ محمد أبو النصر، فأشار عمر الأنسي في بعض مدائحه إلى أنه من مريديه، فقال بمناسبة قدوم الشيخ من سفر:

فاعذر مريدك إن دهري شاغلي   بهجائه عن مدح كل نقابِ[١]

وقال في قصيدة أخرى:

وما زال لي كالوالد البرّ رأفة   إذ الولد القلبي كالولد الصلبي[٢]
أرى جنابكم بالقرب قد بلغ المنى   ولم يكُ حظي بعد فرضي سوى الندب

وفي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨-١٨٤٩م تزوج الشيخ محمد أبو النصر زواجه الثاني، وتعرض لهجاء من بعض البيارتة، فرد الشاعر الأنسي بتهنئته قائلًا:

وقد أقول لشانئٍ قد لامني   دعني وشأني فالمزاح مزاحُ
لا يغرينك ذا التمنع في الهوى   حكم الغرام تمنع وسماح
ما ضر أسد الغاب في آجامها   أن يستطال من الكلاب نباح
إن الزمان وإن أنالهم منىً   فلسوف تنسف ما بنوه رياح[٣]

وكان قد هنأه سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م بحجه:

قدمتم فيا لله درّ مبشّر   أتاني بالبشرى فهللت بالبشرِ
وأضحت بكم بيروت يانعة الربى   كما أصبحت بالأنس باسمة الثغر
فلا زلت يا نجل الأفاضل كعبة   تطوف بها الأقدام في حرم الذكر[٤]

---

(١) ديوان الشيخ عمر الأنسي: المورد العذب (ص٣١).
(٢) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص٣٢).
(٣) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص٦٣).
(٤) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص١٢٥).

تأمين معيشته ومعيشة عائلته الكبيرة المؤلفة من ثلاث زوجات، هن: فاطمة بنت يحيى عبد اللطيف الطرابلسي، ونزهة بنت الشيخ درويش الاخوان الحمصي، وفاطمة بنت الحاج محمد المجذوب، وذلك إلى جانب أولاده الخمسة عشر، وهم: خالد، وعبد الفتاح، وعمر، وكمال الدين، وعبد الرحمن، ومحيي الدين، ومصطفى، ومريم، وسعد الله، وعبد الكريم، وأسماء، وعائشة، وخديجة، وأبو السعود، ومحمد حافظ.

ولو كان أوقف الدكاكين ورصد ريعها للزاوية ومريديها لكانت استمرت في أداء الغاية من إقامتها ومن الهدف من هبة الأرض أصلًا. أو لكان خصّ الريع للتعليم، أو إنشاء مدرسة لكانت أكثر فائدة وأعمّ نفعًا.

ولبيان فكرة عن قيمة السوق نشير إلى أن إحدى الدكاكين بيعت سنة ١٨٦٢م بأربعين ليرة عثمانية ذهبية، وأن ثمن قهوة القزاز قدر سنة ١٨٨٧م بثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية. ولا يخفى ما يرافق الثروة عادة من مركز اجتماعي ونفوذ، في مجتمع يقوم على التجارة، وذلك إضافة إلى ما يتمتع به صاحبها من مركز ديني كشيخ طريقة. يذكر أن الثروة في حينه كانت تقاس بما يملك صاحبها من الليرات الذهبية المحفوظة «في علب من التنك».

وقد كثرت قصائد الشعراء في مدح الشيخ محمد أبو النصر، فأشار عمر الأنسي في بعض مدائحه إلى أنه من مريديه، فقال بمناسبة قدوم الشيخ من سفر:

فاعذر مريدك إن دهري شاغلي ... بهجائه عن مدح كل نقابِ[1]

وقال في قصيدة أخرى:

وما زال لي كالوالد البرّ رأفة ... إذ الولد القلبي كالولد الصلبي[2]
أرى جنابكم بالقرب قد بلغ المنى ... ولم يكُ حظي بعد فرضي سوى الندب

وفي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨-١٨٤٩م تزوج الشيخ محمد أبو النصر زواجه الثاني، وتعرض لهجاء من بعض البيارتة، فرد الشاعر الأنسي بتهنئته قائلًا:

وقد أقول لشانئٍ قد لامني ... دعني وشأني فالمزاح مزاحُ
لا يغرينك ذا التمنع في الهوى ... حكم الغرام تمنع وسماح
ما ضر أسد الغاب في آجامها ... أن يستطال من الكلاب نباح
إن الزمان وإن أنالهم منىً ... فلسوف تنسف ما بنوه رياح[3]

وكان قد هنأه سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م بحجه:

قدمتم فيا لله درّ مبشّر ... أتاني بالبشرى فهللت بالبشرِ
وأضحت بكم بيروت يانعة الربى ... كما أصبحت بالأنس باسمة الثغر
فلا زلت يا نجل الأفاضل كعبة ... تطوف بها الأقدام في حرم الذكر[4]

---

(١) ديوان الشيخ عمر الأنسي: المورد العذب (ص٣١).
(٢) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص٣٢).
(٣) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص٦٣).
(٤) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص١٢٥).

وقال في ليلة ذكرٍ أقامها الشيخ محمد أبو النصر في زاويته:

لنا ليلة بالسعد آياتها بدت   سرورًا فخلنا أنها ليلة القدر
حكت فلكًا بالزُّهر يزهو وبدرها   بأفق العلا شيخ الشيوخ أبو النصر[1]

يذكر أن الشيخ محمد أبو النصر كان يكثر السفر إلى دمشق ومصر والآستانة، فبقدومه من هذه الأخيرة سنة ١٢٦٧هـ هنأه الأنسي ومدحه بقوله:

نجم الحقيقة بدر أفق سما الهدى   شمس الطريقة حيث كان لها سما
أكرِم به من قادمٍ بقدومه   أضحت لنا فرص التهاني مغنما[2]

أما الشاعر الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي فقال في ديوان «مرآة الغريبة»[3] مهنئًا: «عمدة المرشدين الشيخ محمد أبو النصر بحجه:

أدّى المناسك مشمولًا بكل صفا   وطاف قبل الصّفا بالبيت واعتمرا
لا زال في منصب العلياء مظهره   يُهدى له المدح مختارًا ومنكرا»

ومدحه بقوله:

«إن كنتَ بفرط الجفا رضيت دلال   إني لصبورٌ على جفاك وإن دام
أو جرتَ بحكم الهوى عليّ فإني   أشكوك لمن حلمه لجورك صدام
أعنيه أبا النصر غوث كل مريدٍ   من شيّد ركن العلى بأبدع إحكام[4]

---

(١) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص١٥٣).
(٢) ديوان الشيخ الأنسي: المورد العذب (ص٢٣٩).
(٣) (ص١٤).
(٤) ديوان مرآة الغريبة، قاسم الكستي (ص١٥).

نشير إلى أن الأمير عبد القادر الجزائري زار بيروت للمرة الثانية سنة ١٨٦٢م وركب البحر منها في طريقه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، ونزل في تلك الزيارة ضيفًا في زاوية الشيخ محمد أبو النصر اليافي، الذي أقام له ليلة ذكر فيها بحضور عليّة القوم وعلمائهم، وقد ترأس الذكر أبو النصر شيخ سجادة الخلوتية، فتليت الأذكار، ومنها أبيات من تأليف والده الشيخ عمر اليافي:

يا ليلة الوصل هل تعودي   وتنجزي بالوفا وعودي
فالسقم قد نمّ عن غرامي   ورقّ لها في الهوى حسودي
وسال من فيض سحب جفني   غزير دمعي على الخدود
يا عاذلي خلّني فإني   غبت من الوجد عن وجودي
وصحت من عزم ما ألاقي   يا مقلتي بالدموع جودي
قد فقت أهل الهوى هيامًا   في حب ظبي الحمى الشرود
إني أرى هجره جحيمًا   ووصله جنة الخلود
ففي تنائيه والتداني   ما حلت عن سالف العهود

ثم أنشد بنغم الحسيني من نظم الشيخ عمر اليافي:

حمى حمى التداني سلوا   بمن تسمو به الرسلُ
هو الباب الذي منه   جميع الرسل قد دخلوا
فهم نوّابه حقًّا   بما قالوا وما نقلوا
ولولاه لما بعثوا   ولا للحق قد وصلوا
أجلّ مفضّل في الحسن   حقًّا ما له مثل

فمـا سـلمى ومـا لبنـى … ومـا ليلـى ومـا جُمـل

فيـا لله مـن بـدر … بـه الأقمـار تكتمـل

ويـا لله مـن نـور … بـه الأبصـار تكتحـل

عمـوا عـن نـور طلعتـه … ونـور جمالـه جهلـوا

هـو البحـر الـذي منـه … رجـال الفضـل قـد نهلـوا

فمـتْ فـي حبّـه وجـدًا … ودع قـول الألـى عـذلوا

فهِـم شـوقًا وزد عشـقًا … بقلـب فيـه يشـتغل

وقـل يـا خيـر خلـق الله … إنـي فيـك مبتهـل

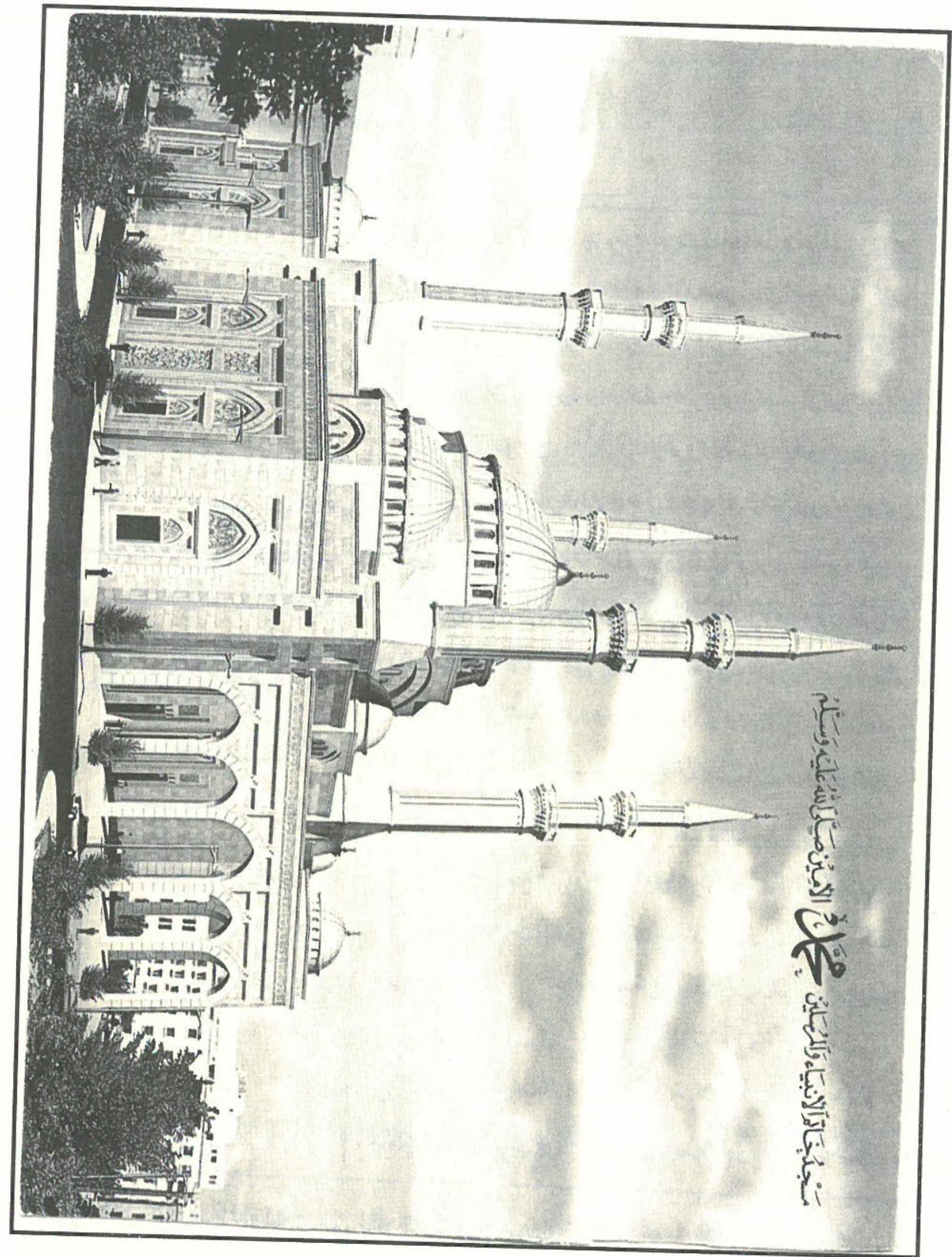
فأنـت البـاب للطـلاب … والمقصـود والأمـل[1]

(١) ديوان الشيخ عمر اليافي (ص١٣٢).

هداية اهل المحبه لقوله
صلى الله عليه وسلم من عرف نفسه فقد عرف
ربه للاستاذ العالم العارف مربي المريدين
ومرشد الطالبين وموصل السالكين
الشيخ عمر البكري الخلوتي
اليافي الصديقي
نفعنا الله
بعلومه
آمين

ماكان وحده لاشريك له ومن رأى شيئا مع الله او من الله او فى الله
وذلك الشئ يحتاج الله بالربوبية فقد جعل ذلك الشئ شريكا كان
الله ولاشئ معه وهو الآن على ما عليه كان والمراد بالنفس الوجود
والحقيقة لاالنفس الامارة واللوامة وغيرها وفى كل شئ هالك الا وجهه
ترفع الشبهة هو الأول والآخر والظاهر والباطن لاموجود الا هو ولا
وجود لغيره فيحتاج للهلاك ويبقى وجهه اى لاشئ الا وجهه واذا كان
المراد بالنفس الوجود كان من لم يعرف شيئا ثم عرفه ما فنى وجوده
بل فنى وجهه ووجوده باق بحاله من غير تبديل وجوده بوجود آخر
ومارتفع عنه الا الجهل فمن عرف نفسه اى وجوده وجوده فقد
صفى له مذاق التحقيق وروده وشهوده والى هذا اشار صلى
الله عليه وسلم بقوله لا تسبوا الدهر فان الله تبارك وتعالى هو الدهر
اشار الى ان وجود الدهر وجود الله تعالى وقد ارشدك صلى الله
عليه وسلم بقوله موتوا قبل ان تموتوا اى اعرفوا انفسكم قبل ان تموتوا
واوضح من هذا قوله تعالى فى الحديث القدسى لايزال اشار ان من عرف نفسه
يرى وجوده   الى هنا وجدت فيما نقلت من خط ابن المؤلف
الناقل من خط المؤلف فى المسودة فلا يدرى اتمها فى غير هذه المسودة
او انتهت الى هنا والله اعلم   تمت بقلم العبد الفقير خادم العلماء والفقراء
عبد الحميد بن المرحوم الشيخ محمد عمر فاخوري يوم الاحد الواقع فى ١٠ محرم الحرام سنة ١٣١٢

هداية آهل المحبة لقوله صلى الله عليه وسلم من عرف نفسه فقد عرف ربه



جامع محمد الأمين
اقيم على قسم من ارض زاوية ابو النصر

زاوية الشاذلية اليشرطية

الشيخ علي نور الدين الشاذلي اليشرطي وحفيده الشيخ محمد الهادي في بيروت

عرفت بيروت التصوف المتمسك بالأصول والعبادات، المبتعد عن البدع والتطرف والانحرافات، وقد قيل فيه:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنّى المغنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والإسلام والدينا

ووصف التصوف بأنه علم بأصول يعرف بها صلاح القلب والجوارح، بتجريد القلب عما سوى الله، والوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا وباطنًا. واستمداده من الكتاب والسنّة والآثار الثابتة عن خواص الأمة. والطريقة تتبع أفعال النبي ﷺ.

وأصول التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلائية، واتباع السنّة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

شجعت الدولة العثمانية انتشار الطرق الصوفية، فكان لكل طريقة شيخها وأتباعها وأعلامها وزواياها وأوقافها، ويأتي في رأس الهرم شيخ

مشايخ الطرق الصوفية، وكان هؤلاء في القرن التاسع عشر على حد قول الشيخ عبد القادر قباني في مذكراته هم: «الشيخ علي الفاخوري، ثم الشيخ محمد الحوت، ثم الشيخ عبد الله خالد، وآخرهم المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري».

ثم عمدت الدولة في القرن التاسع عشر إلى تشكيل «جمعية مشايخ الطرق الصوفية» من أجل السيطرة عليها وتحديد دور شيوخها. فظهرت في بيروت سنة ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٦م جمعية مشايخ الطرق الصوفية، وكان لها رئيس يعرف بشيخ مشايخ الطرق الصوفية، وكان الشيخ عبد الباسط الفاخوري آخر من تولاه.

وانتسب كثيرون من أبناء بيروت إلى الطرق الصوفية التي سبقت الأحزاب السياسية. وقد فاقت شهرة بعض الشيوخ شهرة الآخرين بكثرة مريديهم أو بعلاقاتهم في عاصمة السلطنة، وحصلوا على امتيازات جعلتهم حلفاء الطبقة الحاكمة. فأعفي مريدو الرفاعية والقادرية من الخدمة العسكرية. وأعفي مشايخ الطرق وأرباب الزوايا من رسوم الجمارك والطرق والمعابر.

يذكر أن المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري أصدر سنة ١٨٧٦م رسالة بعنوان: «هداية الطالبين وهداية المسترشدين» قال فيها: أنه وجد في هذا العصر – جماعة – ينتمون إلى التصوف يبيحون ما حرم الله، ويحقرون ما عظم الله، يسعون في الأرض بالفساد، ويأكلون بالباطل أموال العباد، يدّعون الوصول، ويقولون بالحلول والإلحاد والاتحاد، يموهون لبعض

الجهلة بخزعبلات وتمويهات، ويفسرون الآيات بما عنّ لهم من هذه المقالات، ويتركون الصلوات والصيام وسائر العبادات».

ويقول: «إني قد رأيت وشاهدت من يدعي التصوف مستبدًّا برأيه، وأنه صاحب الإرشاد المطلق في هذا العصر، مع ما هو مكب عليه من التمويهات بالباطل، وحمل بعض الجهلة على اعتقاد الإلحاد والاتحاد، واعتقاد مذهب الإباحية، الذين يبيحون المعاصي وفعلها، وأنه يفسر لهم بعض الآيات والأحاديث على مقتضى شهوته».

كما ذكر المفتي المشار إليه في مخطوطة له بعنوان: «خبايا الدراية» أبياتًا لأبي حيان في متصوفة زمن هذا الأخير، المدعين بالدعاوى الباطلة ممن ليس من القوم ولا من أهل الصلاح يقول فيها:

حلبت الدهر أشطره زمانًا ... وأغناني العيان عن السؤال
فما أبصرت من خلّ وفيّ ... ولا ألفيت مشكور الخلال
ذئاب في ثياب قد تبدت ... لرأيها بأشكال الرجال
فمن يك يدعي منهم صلاحًا ... فزنديق تغلغل في الضلال
ترى الجهّال تتبعه وترضى ... مشاركة بأهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم ... نساءهم بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورًا فيرمي ... عمامته ويهرب في الرمال
يجرون التيوس وراء رجسٍ ... تقرمط في العقيدة والمقال

ويقول المفتي بعد ذلك إلى أن البيت الأخير أذكره بأنه «قد وجد في مدينتنا بيروت رجل يدعى يحيى، ادعى التصوف، وقد جمع هذه الصفات

واتّبعه الجهلة من أهل البلد، فأنكرت على ذلك أشد الإنكار، وساعده على أحواله بعض أهل الفسوق وأصحاب الغايات والشهوات، فعمل بعض أدباء العصر من أهل بيروت بيتين، وأرسلهما إليّ:

عجبت لبلدة رشفت بنوها ... أساطين العلوم بمنجيقِ

فكم أسد يموت بها ويحيى ... بها كلب عقور في الطريق»[1]

كانت الطرق الصوفية المختلفة منتشرة في بيروت، مثل الخلوتية والبكرية والقادرية أو الكيلانية، والرفاعية، والسعدية أو الشيبانية، والنقشبندية، والبدوية، والشاذلية، واليشرطية.

وتنسب الطريقة الشاذلية إلى علي أبو الحسن الشاذلي، ولد في قرية غماره القريبة من سبتة في المغرب الأقصى عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م. سلك على عبد السلام بن مشيش (أو بشيش)، الذي طلب منه الرحيل إلى بلدة شاذلة قرب تونس، ثم إلى تونس، فالمشرق» فعرف بالشاذلي، وطريقته بالشاذلية.

وكثر أتباعه، وخصص له السلطان برجًا في الإسكندرية انتشر منه شيوخ الطريقة لتأسيس الزوايا في مختلف العالم الإسلامي. ذكر السيوطي والشعراني والمناوي مناقبه وكراماته، ورووا عنه حكمًا ووصايا. وقد انتشرت الطريقة الشاذلية في بلاد الشام عن طريق الشيخ علي نور الدين اليشرطي، وإن كانت سيرة بعض شيوخها قد ذاعت قبل ذلك.

(١) خبايا الدراية، عبد الباسط فاخوري (ص٤٥٣).

ولد علي نور الدين اليشرطي سنة ١٢١١ هـ/ ١٧٩٦م في تونس (بنزرت)، نسبة لقبيلة شريفة النسب في الغرب تسمى يشرط. دخل بيروت سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٨م، وكثر مريدوه فيها. توفي في عكا سنة ١٨٩٩م عن مئة وخمس سنوات.

ذكر النبهاني أن اليشرطي نشر الطريقة الشاذلية في بلاد الشام خاصة، وانتفع به قوم وتضرر آخرون ممن حادوا عن طريق السداد وجانبوا طريق الرشاد وغلب عليهم الجهل، حتى تركوا الصلاة والصيام وصاروا لا يفرقون بين الحلال والحرام. ولما بلغ الشيخ شأنهم كتب إلى الجهات التي له فيها مريدون ينهاهم عن مخالطة أولئك الجهلة.

كما ذكر النبهاني بعض كرامات الشيخ علي نور الدين، وأنه أخذ عنه الطريقة الشاذلية، وكان يرى منه الرعاية والمحبة. وخلف الشيخ ابنه الشيخ إبراهيم، وبعده حفيده الشيخ محمد الهادي اليشرطي بن إبراهيم ابن المرشد الشيخ علي نور الدين[1].

ولد الشيخ محمد في عكا سنة ١٩٠٤م، وقاد سفينة الطريقة بعد والده، فزاد انتشار الطريقة في آسيا وأفريقيا. وزار في بيروت مريديه الكثر، ومنهم الشيوخ أحمد محمد عساف ومصطفى نجا وأحمد عباس الأزهري ومحيي الدين مكاوي وغيرهم.

يذكر أن السيدة فاطمة اليشرطية ابنة الإمام علي نور الدين وضعت كتابًا بعنوان «رحلة إلى الحق» أوضحت فيه الطريقة الشاذلية اليشرطية.

(١) جامع كرامات الأولياء، يوسف النبهاني (٢/٢٠١).

زاوية للشاذلية اليشرطية في بيروت ورسالة السلطان عبد الحميد الثاني لشيخ الشاذلية في الشام

وتوّج انتشار الطريقة الشاذلية اليشرطية في بيروت وطرابلس وغيرها من بلدان الشام بانتساب علماء مشهورين إليها، منهم في طرابلس الشيخ محمد القاوقجي (أبو المحاسن)، وعبد المجيد المغربي، والشيخ علي العمري صاحب الكرامات الشهير. وللطريقة في طرابلس عدة زوايا أشار إليها محمد درنيقة في كتابه في «الطرق الصوفية ومشايخها في طرابلس».

أما في بيروت فتفيدنا الوثيقة المسجلة لدى القاضي الشرعي بتاريخ العشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠م بأن مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط ابن الشيخ علي الفاخوري حضر إلى المجلس الشرعي بوكالته عن السيد الفاضل والمرشد الكامل السيد علي نور الدين اليشرطي ابن السيد محمد ابن السيد نور الدين، بموجب وكالة شرعية مؤرخة في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٨ هـ بإمضاء وختم نائب عكا (قاضيها) السيد بهاء الدين.

وقرر الوكيل بمواجهة الشيخ أحمد أفندي عباس بن سليمان المصري الناظر على الوقف الآتي ذكره: «بأنني قد وقفت وحبست ما هو لموكلي وجار بملكه وبتصرفه وتحت يده إلى حين صدور هذا الوقف بموجب سند من الطابو، وذلك الموقوف والمحبوس هو الدار مع أرضها الكائنة بمحلة زقاق البلاط خارج مدينة بيروت، المشتملة

على مساكن ومنافع شرعية، يحدها قبلة وشمالاً وغربًا ملك السيد محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم البربير، وشرقًا ملك أسعد بن قسطنطين بن عبد الله الزهار، تتمة الحدود المقدرة قيمتها بستين ألفًا وخمسمائة غرش، وقفًا شرعيًّا وحبسًا مؤبدًا مرعيًّا لتكون تكية لأجل إقامة الصلاة المفروضة والأذكار وتلاوة الأوراد الشاذلية اليشرطية وقراءة الدروس العلمية ...»[1].

وقد شرط بالوقف المذكور شروطًا منها: أن يكون النظر عليه للشيخ أحمد أفندي المذكور مدة حياته، ومن بعده للأرشد من أهل الطريقة الشاذلية اليشرطية ... .

ووفقًا للعادة السنوية احتفل في شهر ربيع الثاني سنة ١٣١٠ هـ/ تشرين الثاني سنة ١٨٩٢م بقراءة المولد النبوي الشريف في تكية الشاذلية المذكورة بحضور عدد من المأمورين والوجهاء وخلق كثير من المريدين، ووزعت أثناء ذلك الحلوى على الحاضرين، ثم بُدىء بقراءة الوظيفة وإقامة ذكر الله الكريم، وكان مسك الختام تقديم الدعاء للسلطان. (ولا تذكر المصادر شيئًا عن السيرة التي تليت، وما إذا كانت تلك التي كتبها المفتي الشيخ مصطفى نجا أو غيرها؟).

وفي السنة نفسها أصدر المفتي الشيخ مصطفى نجا الشاذلي اليشرطي كتابه المعروف بعنوان: «كشف الأسرار لتنوير الأفكار»، وسنعود إليه فيما بعد.

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٢٢٣).

يذكر أنه في التاسع والعشرين من شهر رجب الخير سنة ١٣٥٢ هـ/ ٧ تشرين الثاني ١٩٣٣م حضر إلى المجلس الشرعي في بيروت برئاسة الشيخ مصطفى الغلاييني مصباح عبد الله النقيب وعمر عبد الرحمن البعلبكي والحاج سليم محمد بليق وعلي بن محمد الأغر وعبد الله بن محمود الأغر وقرروا بأن زاوية السادة الشاذلية اليشرطية الكائنة في محلة زقاق البلاط وقف الشيخ علي نور الدين اليشرطي الشاذلي هي شاغرة بدون متول يتعهدها ويقوم بشؤونها، وهي بحاجة إلى ناظر عليها يتعهد ترميمها وإصلاحها لأجل بقاء عينها وحفظه لإقامة الشعائر فيها، وبما أن أحمد بن محمود الأغر من أهالي بيروت ومن أبناء الطريقة الشاذلية اليشرطية فيه اللياقة والأهلية لأن يكون متوليًا عليها لأمانته واقتداره على تعاطي أمور التولية فيها نظرًا لاستقامته، وكونه ممن ينتسب الى الواقف، وطلبوا إقامته متوليًا عليها، فبناء عليه نصبت وأقمت أحمد بن محمود الأغر متوليًا على وقف الزاوية الشاذلية اليشرطية الكائنة في محلة زقاق البلاط ... .

ولأن الشجرة المثمرة تتعرض ثمارها للاعتداء، فلم تسلم الطريقة الشاذلية اليشرطية من مزاعم ألصقت بها زورًا وحسدًا. ففي سنة ١٨٨٤م تقدم أفراد من قرية أم الفحم إلى سلطة نابلس بشكوى عن مزاعم بحق الطريقة الشاذلية أدت إلى إجراء تحقيق، وتبين عدم صحة ما ادعوه، فأرسل المدعون كتابًا إلى الشيخ علي نور الدين اليشرطي يذكرون الطريقة بالخير، وأن ما نسبوه إليها كان من غير تحقيق، ورجوه أن

يسامحهم ويرضى عليهم. وقد أرسل الشيخ أمين زيد القادري شيخ الطريقة الشاذلية في تلك القرية (التابعة للواء نابلس) رسالة إلى بيروت عما جرى.

نشير إلى أن سبب تلك المزاعم ما ذكر حول اختلاط الرجال والنساء أثناء الذكر. نشير إلى أن الشيخ اليشرطي نزل في طرابلس في زاوية الشيخ أبي المحاسن القاوقجي، الذي طلب منه التوجه إلى الآستانة وعرض أحوال طريقته. ونقل درنيقة أن اليشرطي عمل بنصيحة أبي المحاسن بترك الجمع بين الجنسين، ونال رضاء الدولة العثمانية.

وكرمت الدولة شيوخ الشاذلية، ففي سنة ١٩٠٣م نعت أنباء الآستانة الشيخ ظافر أفندي شيخ الطريقة الشاذلية فيها، فأنفذ السلطان لتعزية آله أحمد عزت باشا كاتب المابين وأحد أنسبائه، وقضت إرادة سنية بأن يكون تجهيزه وتكفينه على نفقة الخزينة السلطانية، وأن يدفن في الزاوية الشاذلية المختصة به، وأن يقام على قبره قبة لائقة.

وكان السلطان عبد الحميد الثاني مقدرًا لشيوخ التصوف ومكرمًا لهم، وقد سلك على يد الشيخ محمود بن محيي الدين الشهير بأبي الشامات الدمشقي الشاذلي، وأخذ منه الطريقة الشاذلية. وقد اختار السلطان بعد خلعه أن يعلم شيخه أبي الشامات بما حصل له، وذلك في رسالة شهيرة بعد تلقيه رسالة من الشيخ، وقال السلطان في رده عليها:

«سيدي، إني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلًا ونهارًا، وأعرض أنني ما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة».

ثم يعرض في الرسالة ما جرى له قائلًا: «إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الإتحاد المعروفة باسم جون تورك وتهديدهم اضطرت وأجبرت على ترك الخلافة».

ويعيد سبب خلعه إلى رفضه المصادقة على وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة، رغم عرضهم دفع مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا.

أما عن العلاقة بين الطرق الصوفية، فلم يكن الانتساب لطريقة ما مانعًا من تقدير أوراد طريقة أخرى واحترامها، طالما الغاية واحدة، والشواهد كثيرة على حمل بعض العلماء إجازات من عدة شيوخ طرق.

إلا أن ذلك لم يمنع حصول خلاف بين بعض الطرق، كما حصل بين الخلوتية والشاذلية. فقد ذكر المحبي في «خلاصة الأثر» أنه بعدما لبس أبو الوفا بن معروف الحموي الخرقة الخلوتية من الشيخ أحمد القصيري - شيخ قرية القصير في القلمون -، توجه إلى القاهرة ونزل عند أبي الحسن الشاذلي الذي طلب منه مبايعته على الطريقة الشاذلية، ولكنه تمنع وعاد إلى الشيخ في القصير.

وفي سنة ١٨٩٧م حصل خلاف بين القادرية والرفاعية في القاهرة، وكتب أحدهم كتابًا بعنوان: «الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية» لذرّ الشقاق بين الطريقتين، وذلك بعدما نشر عن أحد شيوخ القادرية بغير علم منه كتابات دسوا فيها عبارات مسيئة للرفاعية، فآل الأمر للأخذ والرد، ما دفع شيخ الطريقة القادرية في حماة لأن يكتب رسالة نشرت في بيروت سنة ١٨٩٧م قال فيها: «إن لمريد احدى الطريقتين أن

يفضل إمامه وشيخه على أخيه الآخر، ولكن بشرط حفظ مقامه واحترامه». ودلل على ذلك «بأن رجال الطريقة المولوية في بلادنا لا يذكرون في حفل مواقيتهم اسم أحد من السادات الأقطاب، ويكتفون حالة افتتاح حلقهم بقولهم: يا حضرة مولانا، ولا ينازعهم رجل من أولي الألباب، وكذلك النقشبندية وغيرهم من رجال الطرق العلية».

وقد أشار الشيخ إبراهيم الحوت في كتابه: «مرتكزات الخطاب السياسي في لبنان عند المفتين والعلماء» إلى خلاف الشاذلية والقادرية في قرية برجا، التي زارها المفتي الشيخ محمد توفيق خالد سنة ١٩٣٠م، وعمل مع رئيس بلديتها الشيخ محمود البربير (نسيب المفتي) على حل النزاع المشار إليه.

وخير دليل على عدم صحة ما نسب إلى الطريقة الشاذلية اليشرطية يتمثل في العلماء البيارتة الذين انتسبوا إليها وكرموها، وكانوا مثالًا وقدوة في العمل الصالح والتمسك بالكتاب والسنّة، والسعي إلى تربية العقول وتثقيف النفوس، وتنقية المفاهيم، والحث على العلم المبني على الأخلاق.

وكان على رأسهم مفتي بيروت الشيخ الصالح مصطفى نجا، والشيخ العامل المجدد أحمد عباس الأزهري، الذي حرض تلامذته على الجمع بين علوم الدين والدنيا. وكان منهم الشيخ زكريا رمضان، والشيخ محيي الدين المكاوي خطيب الجامع العمري الكبير، والشيوخ من آل عساف الكرام الذين حملوا راية الطريقة، وكانوا رواد العمل الديني والوطني،

كالشيخ المقدم أحمد عساف، ونجله الشيخ محمد، وتولى الشيخ علي عساف وابنه أحمد من بعده إمامة جامع شمس الدين.

ويذكر الدور الذي قام به الشيخ أحمد عساف، فقد أسس المركز الإسلامي - عائشة بكار - منارة للعلم والإيمان، واستشهد دفاعًا عن وحدة لبنان واستقلاله، ولا يزال المركز منارة يعمل بإشراف الصديق المهندس علي نور الدين، حامل اسم مؤسس اليشرطية للإمام علي نور الدين.

تراث الشاذلية اليشرطية من الأناشيد والمدائح

ترك لنا الشاذليون واليشرطيون تراثًا عريقًا من الأوراد والقصائد والأناشيد، فضلًا عن الصلوات والأدعية. يأتي في طليعتها ما كتبه ونظمه المفتي الشيخ مصطفى نجا، فقد أصدر سنة ١٨٩٢م كتاب «كشف الأسرار لتنوير الأفكار»، يتضمن فوائد عن طريقة أبي الحسن الشاذلي، وما يرغب المتبصر من الاطلاع عليه في حقيقة هذه الطريقة الشريفة، وسلسلة مشايخها العلماء. وأورد شرحًا للوظيفة بشرح الصدر، والقول بأن من حاد عن الحدود الشرعية ولم يتبع الكتاب والسنّة والعمل بما يرضي الله تعالى ويرضي رسوله ﷺ لا يكون منسوبًا إلى الطريقة.

ويذكر المفتي نجا: أن الشيخ علي نور الدين كتب له يقول: «كل طريقة تخالف الكتاب والسنّة فهي زندقة وباطلة»، وذكر ما أخبره به بعض إخوانه من أحوال الشيخ علي. ويشير المفتي نجا إلى «أن الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة للعبد، ومرجعها إلى أمرين: صحة الإيمان بالله

تعالى، واتباع ما جاء به النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا ...». ونقل عن أبي الحسن الشاذلي قوله: «إن أعظم كرامة هي كرامة الإيمان ومتابعة السنّة». ونظم أسماء سلسلة طريق اليشرطية الشاذلية في قصيدة مطولة.

ويشير المفتي نجا: «إلى أن الأوراد وضعت بقصد مناجاة الحق عزّ وجلّ، والتذلل بين يديه قيامًا بحق العبودية له سبحانه، وأن كل حقيقة تخالف الشريعة هي باطلة بإجماع أهل الحق، ومن اعتقد أن من وصل إلى الحقيقة سقطت عنه الشريعة فهو ضال مضل ملحد». ويخلص إلى أن من تمام الإيمان بالنبي الإيمان بأنه فاق جميع العالمين حسنًا، فقال فيه حسان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءًا من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

ويورد بيتين لسيدتنا عائشة رضي الله عنها بالمعنى المذكور:

ولو سمعوا في مصر أوصاف خده   لما بذلوا في سوم يوسف من نقدِ
لواحي زُليخا لو رأين جماله   لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

ويورد كتاب «كشف الأسرار» قصيدة نظمها الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي في الشيخ علي نور الدين اليشرطي (نشرت في ديوان الكستي «ترجمان الأفكار») ومنها:

يا من تحيّر في شدائد أمره   وعليه قد جارت حوادث دهرهِ
لُذ بالعليّ اليشرطي فإنه   يلقى الصريخ به إزالة ضرّه

قطبٌ به فلك الحقيقة مشرقٌ   وضياؤه ملأ الوجود بأسره
زادت طريق الشاذلي برشده   فضلًا وأضحت غرّة في عصره
كم جرّ شخصًا للسعادة بعدما   قد كان أشقى من ثمود بوزره
تسعى رجال الله نحو جنابه   زُمَرًا ليقتبسوا أشعة فكره

وقد ترك لنا الشاذلية قصائد ومدائح نبوية كان يشدو بها المنشدون خلال تلاوة السيرة النبوية. وقد نظم المفتي نجا الكثير منها، كما نظم شعرًا مولد النبي ﷺ سماه «مورد الصفا في مولد المصطفى» طبع سنة ١٨٩٤، وطبع سنة ١٩٠٠م على نفقة مصباح الحوت. وطبع سنة ١٩٩٥م عن نسخة خطية محفوظة لدى السيد مختار عبد الغني الكوش عافاه الله وزعت مجانًا عن روح المؤلف. ومن أناشيد المفتي:

بلبل الإقبال غرد وبشير السعد قال

ظهر الهادي محمد شمس أفلاك الكمال

ومما أنشدنيه محمد فليفل من أناشيد المفتي نجا وكان ديب صبرا خال فليفل ينشدها في الجامع العمري الكبير:

ما مد لخير الخلق يدا   أحد إلا وبه سعدا
فلذاك مددت إليه يدي   وبذلك كنت من السعدا
ناديت علاك فخذ بيدي   في يوم منه وهي جلدا
وقصدت جنابك يا سندي   حاشاك تخيب من قصدا

ومن أناشيده أيضًا:

مديح مولى الورى محمد   نور به الكائنات ترشد
ماذا أقول والله أثنى   عليه في كتبه ومجّد

وترك رجال الشاذلية منظومات سارت بها الركبان. منهم علي بن محمد وفا صاحب منظومة:

اسق العطاش تكرما   والعقل طاش من الظما

وقصيدة: أطع أمرنا، قال في مطلعها:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا   فإنا منحنا بالرضا من أحبنا
ولذ بحمانا واحتمي في جنابنا   لنحميك من ما فيه أشرار خلقنا

وثمة قصائد كانت تنشد في المولد النبوي للطريقة الشاذلية منها قصيدة مطلعها:

ما زال نور المصطفى متنقلًا   في الطيبين الطاهرين ذوي العلا
حتى لعبد الله جاء مطهرا   وبوجه آمنة بدا متهللا
اختاره من نوره لظهوره   ولقد غدا بين الكرام مفضلا

وقصيدة مطلعها:

صلى الإله على النور الذي ظهرا   لنا بشهر ربيع الأول اشتهرا
أشاعت الأرض نورًا يوم مولده   وأصبح الكون من أنفاسه عطرا

وللإمام البوصيري صاحب بردة المديح قوله:

أمـا الإمـام الشـاذلي طريقـة　　　وفي الفضل واضحة لعين المهتدي
فانقـل ولـو قـدمًا علـى آثـاره　　　فـإذا فعلـت فأنـت آخـذ باليـدِ

وللجزولي الشاذلي صاحب دلائل الخيرات قصيدة مطلعها:

حـب آل النبـي خـالط قلبـي　　　كـاختلاط الضيـا بنـور العيـون
أنـا والله مغـرم بهـواه　　　هـم عللـوني بـذكرهم عللـوني

وقد وجدت في مكتبة والدي رحمه الله نسخة من مولد العلامة الشيخ عبد الله بن محمد المناوي المنسوب إلى الحضرة الأحمدية الشاذلية طبعت في مصر في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٥م، والمولد المذكور نثري تتخلله قصائد.

قال واضعه في تقديمه: «وقد اشتمل اسمه (أي: محمد) الشريف على أربعة أحرف هجائية، لكل حرف منها مزية ومقام. فالميم الأولى ما من نبي ولا رسول إلا خلق من نور طلعته البهية، فهو أصل والكل منه فرع بلا شك ولا إيهام. والحاء حمى لمن آمن به واتبع ملته الحنيفية، وحاشى من صدّق برسالته وتمسك بسنّته يضام. والميم الأخرى مفتاح الرحمة يوم العرض على عالم الأسرار الخفية. والدّال دعوة شفاعته لأمته قد خبأها له في علمه العليم العلام».

كما وردت إلى بيروت أو طبعت فيها عدة كتب للطريقة الشاذلية، منها «قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية في جميع الآفاق» تأليف الشيخ جمال محمد أبو المواهب الشاذلي، وفي آخره رسالة في أصول الطريقة الشاذلية لأبي العباس أحمد الفاسي (١٨٩٤م). وطبع سنة ١٨٩٤م كتاب «شرح الصلاة المشيشية» لمحمد أبو طالب الجزائري نزيل بيروت. وفي سنة ١٨٩٥م أصدر محمد القاوقجي الطرابلسي (أبو المحاسن) كتاب «هدية الأحباب ومنحة الخلان والأصحاب بآداب السلوك والتسليك في طريقة الشاذلية العلية». وطبع سنة ١٨٩٧م كتاب «البدر المنير على حزب الشاذلي الكبير» للقاوقجي المذكور.

❊　❊　❊　❊

وقف لانشاء تكية لأذكار وأوراد الشاذلية اليشرطية ١٣٠٨م

مقام أم حَرام رضي الله عنها

الصحابية أم حَرام المرابطة والمجاهدة من بيروت إلى قبرص

ألقى د. سيد علي قهرمان محاضرة في معهد يونس أمرِه بعنوان «بيروت وضواحيها من منظور الرحالة أوليا شلبي»، ذكر فيها كتاب الرحالة التركي أوليا شلبي المسمى «سياحتنامه» (في عشرة مجلدات)، وأن الدافع لقيامه بالرحلات حلم شاهده في آب سنة ١٦٣٠ بأنه دخل جامع بإسطنبول، الذي كان مكتظًا، وبقربه شيخ الرماة وأحد المبشرين بالجنة «سعد بن أبي وقّاص»، فعرّفه بأن هؤلاء هم الصحابة، وأمسك بيده، بعدما فتح باب ودخل منه النبي ﷺ، ليقدمه لحضرته طلبًا للشفاعة. فعوضًا عن الشفاعة نطق شلبي «السياحة يا رسول الله»، عندئذٍ تبسم النبي ﷺ قائلًا: «يا إلهي سهل الشفاعة والسياحة والزيارة والصحة والعافية». واقتصر المحاضر على ما جاء في الرحلة حول بيروت وجوارها(١).

زار «أوليا شلبي» لبنان مرتين: كانت الأولى بهدف تحصيل الضرائب من الأمراء المعنيين سنة ١٦٤٨، ووصل إلى عكا وصور بالإضافة إلى جبل لبنان، أما الثانية فكانت سنة ١٦٧٠ حينما توجه لأداء فريضة الحج، فوصل إلى بيروت، صيدا، طرابلس، الشام وغيرها.

---

(١) سياحتنامه، أوليا شلبي، الجزء الخاص ببيروت، ترجمة الدكتور جنكيز أروغلو.

وقال: «بيروت مدينة ساحلية، تقع في مكان رملي يتوسط رأسين، أقيمت فيهما قلعتان أنيقتان، أبوابهما حديدية، وفي كل منهما جامع وأبراج متينة. ينتشر نحو ٢٠٠ مخزن أقمشة في رأس ميناء بيروت، و١٦ خان تستوعب الأمتعة والبضاعة، بالإضافة إلى دائرة للجمارك يبدو أنها كانت سبيلًا في السابق. وفيها أربعة حمامات، و١٧ مدرسة دينية، و٨ مدارس صبيان، وسبعة أسبلة، و٣٠٠ دكان، و٤٠ قهوة، وثمانية خانات للأقمشة. لكن أزقة المدينة ضيقة لا تستوعب كثرة أعداد المارين، وهي مرصوفة على جانبيها. وجميع أبنية المدينة حجرية ذات عقود، أبوابها ونوافذها من الخشب».

وبعد أن يذكر شلبي جوامع المدينة يعدد أماكن الزيارة في بيروت، ومنها مقام الخضر عليه السلام وأم حرام.

أمّ حَرام تركب البحر من بيروت

اتجه معاوية من بيروت على رأس الأسطول لغزو قبرص، وخرج معه من الصحابة أبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت مِلحان وأبو الدرداء وسلمان الفارسي اللذين كانا مرابطين في بيروت وغيرهم (للرسام مصطفى فروخ لوحة جميلة تمثل معاوية يركب البحر).

يذكر أن علامة الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري قدم إلى بيروت سنة ١٨١٣م وحلَّ ضيفًا في دارة مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف

فتح الله الذي مدحه في قصيدة ذاكرًا بعض المقامات والزوايا التي زارها الكزبري في بيروت وكان منها:

وأم حَـرام عمّـة لابـن مالـك   خديم رسول الله وهو المحبّبُ[1]

وأمّ حَرام صحابية جليلة لها أخت بطلة اسمها أم سليم بنت ملحان تلقب بالعميْصاء. وأم سليم هي أم أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، شاركت في غزوة أحد، فكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى، كما شاركت في معركة حنين، وكانت تحمل خنجرًا في وسطها.

وكان النبي ﷺ يدخل بيتها، فيصلي عندها وينام أحيانًا، وتهيء له من الطعام ما يستطيبه. قالت: كان رسول الله ﷺ يقيل في بيتي (أي: ينام القيلولة)، فكنت أبسط له نطعًا (جلدًا) فينام عليه، فيعرق وكان معراقًا، فأسلتُ العرقَ عن وجهه، وأجعله في قارورة، ثم آخذ سكًا (نوع من الطيب) فأخلطه بعرقه».

أما أم حرام فقد كان الرسول ﷺ يدخل عليها، فتطعمه وينام عندها، وقد دعا لها بأن تكون مع المجاهدين الذين يركبون البحر. فلما كانت سنة ٢٨ للهجرة زمن معاوية ركبت البحر مع زوجها عبادة بن الصامت لفتح قبرص، فقرّبت إليها بغلة لتركبها فصرعتها البغلة فماتت. وقيل: دفنت في قبرص، ولها فيها مقام يزار.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).

ويقول البيارتة: إن أم حرام دفنت في جبانة المصلّى عند بوابة السرايا. وكان لها ضريح فوقه قبة، نقل إلى مقبرة الباشورة (إذا صحّ ذلك فتكون مقبرة المصلى أقدم مقبرة في بيروت).

وتحقيقًا لخبر جهادها ووفاتها وجدنا في «صحيح البخاري» في كتاب الجهاد والسير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته ونام عندها، ثم استيقظ وهو يضحك، فسألته: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر (وسطه أو معظمه أو هوله) ملوكًا على الأسرّة، أو مثل الملوك على الأسرّة»، فقالت له: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها. ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي، عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله»، كما قال في الأول. فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنتِ من الأولين».

وجاء في حديث آخر: «فركبت البحر زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت (الصحيح ٣ ص ٢٠١). وروى البخاري في موضع آخر من «صحيحه» الحديث المذكور نفسه، وجاء في ختامه بشكل واضح: «فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام (لاحظ فنزلوا الشام، أي بعد عودتهم من قبرص)، فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت» (ص ٢٠٤). وذكر في

مكان آخر ما نصّه: «فركبت البحر مع بنت قرظة، فلما قفلت ركبت دابتها فوقصت بها (أي: رمت، وأصل الوقص: كسر العنق)، فسقطت عنها فماتت» (ص ٢٢١)، كما ذكر النص نفسه في (ص ٢٢٥).

ويبدو من هذه النصوص أن أم حرام توفيت بعد عودتها من غزو قبرص، وأنها توفيت في ساحل الشام، أي: في بيروت، ويكون مقامها في مقبرة المصلى مرجحًا. وقد ذكر صالح بن يحيى في «تاريخ بيروت» بأن معاوية عمّر في بيروت المراكب وجهز الجيش إلى قبرص، ومعهم أم حرام، واسمها الغميصاء بنت ملحان، زوجة عبادة بن الصامت. فلما رجعت رابطت في بيروت وماتت بها».

وكانت البيروتيات يتوسلن بالصحابية المذكورة، فيقلن: يا ستّي أم حرام، ويقلن أيضًا: حريّمة يا حريّمة يا أم حرام. والعامة تقول: ستي، وست بمعنى: يا ست جهاتي، كناية عن تملكها لهم. ولا مانع من أن يكون أصلها سيدتي. قال البهاء زهير:

بروحي من اسميتها بستّي　　فتنظرني بالنجاة بعين مقتِ
يرون بأني قد قلت لحنًا　　وكيف وانني لزهير وقتي
ولكن غادة ملكت جهاتي　　فلا لحن إذا ما قلت ستّي

زائرو أم حرام ومجاوروها

وكان ضريح أم حرام في المصلى مزارًا للبيارتة ولمن ينزل عندهم. يذكر أن عبد الخالق نصوحي بك وكان تقيًّا ورعًا، عين متصرفًا على بيروت

قبل جعلها ولاية ، ثم عين واليًا عليها سنة ١٨٩٤م ، فكان أول عمل قام به إثر وصوله إلى بيروت في آب (أغسطس) ١٨٩٤م أن توجه إلى الجامع العمري الكبير ، فصلى ركعات الشكر وتحية المسجد . وذكرت صحيفة «ثمرات الفنون»[1]: «أن الوالي المذكور زار ضريح سيدتنا أم حرام رضي الله عنها» .

وكان كثير من البيارتة يوصون بأن يدفنوا بجوار ضريح الصحابية أم حرام (كما يجري حاليًا مع مقام الإمام الأوزاعي) . وبالفعل ، فقد دفن من البيارتة في جوارها الشيخ محمد أديب محرم شيخ السجادة القادرية في بيروت المتوفى سنة ١٨٧٨م ، وعمر غزاوي المتوفى سنة ١٨٨٥م . وفي سنة ١٩٠٦ توفي «حسن طبارة كبير قومه ، وكان من تجار الثغر المعروفين بحسن المعاملة عن ثمانين سنة ، وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير دفن بجوار ضريح الصحابية الجليلة أم حرام رضي الله عنها» .

وممن دفن بجوار أم حرام الحاج محمد الجبالي من علماء تونس وأشرافها ، وكان أتى الثغر ذاهبًا للمدينة المنورة فتوفي في لوكندة المنظر الجميل .

وذكر أن ضريحها نقل أثناء الانتداب الفرنسي وبعد إقفال مقابر المصلى والخارجة إلى مقبرة الباشورة ضمن موكب مهيب[2] .

---

(١) عدد ٩٩٣ ، آب ١٨٩٤م .

(٢) ثمرات الفنون ، عدد ١٥٨٧ ، سنة ١٩٠٦م ، وعدد ١٦٥٥ ، سنة ١٩٠٨م .



مقام الصحابية ام حرام في لارنكا بقبرص

ابن بارودي الطيباوي وشمالا املاك يوسف بن بشارة بن [illegible]
وغربا وشرقا الطريق السالك الآخذ الى البحر شركة عمامنا
وجرجس التويني المذكورين بباقي السهام وكذلك قيراطان واربعة
اسداس القيراط في كامل قطعة الارض الملك الكائنة بمحلة الشيخ سلامة
المذكورة المشتملة على بناء مخزن يحدها قبلة الطريق السالك الآخذ
الى البحر وشمالا املاك سعادتلو الحاج محي الدين افندي ابن السيد عمر ابن السيد
بيهم وشرقا ملك البحيري محمد بن احمد الخرس وغربا الطريق السالك
الآخذ الى البحر شركة اعمامنا وجرجس التويني المذكورين بباقي السهام
وكذلك اربعة قراريط شائعة من الاصل المذكور في كامل قطعة الارض
الكائنة بمحلة الصيفي المذكورة المشتملة على بناء علوي وسفلي يحدها قبلة الطريق
السالك الآخذ الى البحر المذكور وشمالا وشرقا مقبرة المصلى وغربا بعضه
الطريق السالك الآخذ الى النهر المذكور وبعضه تكية المقبرة المذكورة
شركة اعمامنا المذكورين بباقي السهام وكذلك اربعة قراريط من الاصل المذكور
في كامل قطعة الارض الكائنة بمحلة الصيفي المرقومة المشتملة على بناء علوي
وسفلي يحدها قبلة ملك يوسف بن خليل شبلي [illegible] وشمالا املاك المطرانية

تكية ومقبرة المصلى

حضر السيد عبد القادر بن المرحوم الحاج مصطفى الحلواني وباع ما هو له وسوغ له بيعه وذلك المبيع هو قيراطان اثنان من
اصل اربعة وعشرين قيراطا في كامل العمار الكائن [illegible] الواقع في القطعة الارض المحتكرة من وقف الحرم المحترم
نفسه الكائن ذلك بالقرب من جبانة المصلى ودرج القلعة المحتوي العمار المرقوم على خان ومخازن جوانيه اربعة وبرانية ستة
ودكاكين سبعة وبير ماء ومن خلف المخازن [illegible] الى الاخوة الاشقاء وهم عبد الحميد وفاطمة وحليمة اولاد الحاج مصطفى المذكور
وقبل لهم الشراء الاتي بيانه الحاج عبد الله بن المرحوم الحاج عبد القادر السليماني الوكيل الشرعي عن الحجة نفيسة بنت المرحوم السيد
عمر بن [illegible] الحاج شاهين الوصية على اولادها [illegible] المذكورين الثابتة وكالته عنها شرعا بشهادة كل من ابن عمها
السيد علي بن المرحوم السيد احمد [illegible] الحاج شاهين [illegible] والسيد احمد بن علي [illegible] العارفين بها المعرفة الشرعية على حسب
الفريضة فيما بين الاولاد للذكر مثل حظ الانثيين البيع قاطع ماض البت [illegible] ١٤٥٠ اربعة عشر قرشا وخمسمائة
قرش [illegible] الاعتراف وسلمه هذا المبيع وخلى بينه وبينه التخلية الشرعية وهو الى الوكيل المذكور تسلمه منه التسلم
الشرعي تحريرا في السادس عشر من شعبان المعظم الجاري في شهور ١٢٦٣

شهود الحال
[illegible]

جبانة المصلى ودرج القلعة ١٢٦٣هـ

[illegible]

عبد الله محمد خرما متولي الجبّانات

زاوية ومقام وجامع الإمام الأوزاعي

الإمام الأوزاعي يرابط في بيروت ويحدّث في مسجدها

كتب البعض من البيارتة في عصر متأخر عن مناقب الإمام الأوزاعي. وقد أردت تناول سيرته من وجهة مختلفة. فالأوزاعي الذي جاهد من بيروت ورابط فيها وجعل منها منارة علم وفقه وجرأة في الدفاع عن حقوق الإنسان المسلم والمسيحي وحقه في المساواة والكرامة، والأوزاعي الذي قال كلمات حق في وجه سلطان جائر، لم يدفنه البيارتة في مقبرتهم، بل تركوا السلطة تدفنه في مكان بعيد، ولم يدافع عنه أحد، ولا رثاه أحد، ولم تجمع أقواله أو تدون اجتهاداته.

وعندما استفاق البيارتة في العصر الحديث على سيرته أرادوا توظيفه في شعارات العيش المشترك والاعتدال والوحدة الوطنية، وجعلوا من مقامه وأوقافه مدفنًا لبعض الوجهاء والمتزعمين، ولم يتكرموا بإنشاء مركز دراسات وأبحاث وتوثيق وحوار أو مؤسسات علمية وفقهية.

أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ. وكانت بعلبك مركز تجمع الجند الذين كانوا يرسلون إلى

السواحل للدفاع عنها. فكان منهم الإمام الأوزاعي الذي قصد بيروت سنة ١٣٣ هـ، واكتتب في الديوان، وكان يأخذ العطاء كغيره من جند الساحل، ويخرج في الغزوات والحملات العسكرية[1].

واعتبر المؤرخون أن المرابطين من أصحاب الديوان أفضل من المرابطين المتطوعين، فقد قال الشعبي حين سئل عن الغزو وعن أصحاب الديوان أفضل أو المتطوع؟: «بل أصحاب الديوان، فالمتطوع متى شاء رجع».

يذكر أن في أدبيات عامة بيروت قولهم: «شدوا مداساتكم يا بعلبكية»، إشارة إلى ما كان يتم من إرسال فرقة من بعلبك ترابط في بيروت لمدة محددة، يصار إلى إبدالها بأخرى.

وكان نائب الشام سيف الدين تنكز الذي ناب في دمشق بين سنتي ١٣١٢ و١٣٤٠م من قبل المماليك قد قام بتحصين ساحل بيروت، فجدد سور المدينة، وبنى برجًا عند المرفإ عرف ببرج البعلبكية، نسبة إلى الجنود الذين كانوا يأتون كل شهر أبدالًا من أجناد حلقة بعلبك، فيقيمون في البرج دفاعًا عن الساحل، ويمضي كل بدل مدة شهر. وعند انقضاء الشهر يحضر بدلهم. فكان يقال عند اقتراب نهاية الشهر: «شدوا مداساتكم»، أي: تهيؤوا للسفر.

---

(١) لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، د. عمر تدمري (ص٦٦ وما يليها) نقلًا عن عدة مصادر، منها: تاريخ دمشق، ومحاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي لابن زيد الحنبلي، وعبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام لطه الولي.

وتحولت بيروت وغيرها من الثغور الساحلية إلى رباط للصحابة رضي الله عنهم وللمجاهدين في سبيل الله. والرباط في الثغور كبيروت يفضل الرباط في السواحل الأخرى، لتعرضها للخطر الدائم كما نقل ابن عساكر.

قدم الكثير من الصحابة والتابعين إلى بيروت للمرابطة والدفاع عن الساحل وكان منهم أبو الدرداء رضي الله عنه، والصحابي الأنصاري عويمر بن مالك الذي نزل بيروت مرابطًا عقب الفتح. ولحق سلمان الفارسي بأبي الدرداء إلى بيروت برفقة عبد الملك بن أبي ذر الغفاري.

وفي «التاريخ الكبير» للبخاري: أن سلمان حين نزل بيروت اجتمع عليه المسلمون في مسجدها، فحدثهم قائلًا: يا أهل بيروت، ألا أحدثكم حديثًا يُذهب الله به عنكم غرض الرباط؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا في سبيل الله أجير من فتنة القبر، وأجري له ما كان يعمل إلى يوم القيامة».

ومنهم جنادة بن أبي أمية أمير البحر في بيروت، وهو صحابي حدّث وأفتى في بيروت ودمشق. وعبد الرحمن بن سليم الكلبي أمير بيروت، وأيوب بن خالد الجهمي أمير بيروت أيضًا. وكان مجاهد بن جبر يقصّ في بيروت ويقرئ القرآن الكريم. والدرداء بن أبي الدرداء وزوجته الغميصاء بنت ملحان الأنصارية الشهيرة بأم حرام. وحيّان بن وبرة المرّي صاحب أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان يجتمع عليه الناس في مسجد بيروت ليسمعوا منه وهو يلبس قميصًا من كرابيس (قطن) إلى نصف ساقيه وقلنسوة صغيرة وثيابًا رثة.

الأوزاعي والمحدثون في مسجد بيروت

من المرجح أن الأوزاعي جاء إلى بيروت عن طريق صيدا (كانت الطريق من دمشق إلى بيروت وبالعكس تتم عن طريق صيدا أو طرابلس) قال: «جئت إلى بيروت أرابط بها، فأعجبني أنني مررت بقبورها، فإذا امرأة سوداء في القبور، فقلت لها: أين العمارة يا هنتاه؟ (هنت لغة في أنتِ)، فقالت لي: إن أردت العمارة فهي هذه، وأشارت إلى القبور، وإن كنت تريد الخراب فأمامك وأشارت إلى البلد. فقلت: هذه سوداء تقول هذا لأقيمنّ بها، فأقمت ببيروت»[1].

قال الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه: «حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر»: «إن أبناء بيروت في الماضي كانوا يسمون هذه المقبرة مقبرة سيدنا عمر». كما سمي أول مسجد بنوه في بيروت بعد الفتح «بالجامع العمري».

تعاقب على إمامة مسجد بيروت أو الجامع العمري (أو جامع البحر الذي حل محله جامع الدباغة، ثم بني بعد هدم هذا الأخير جامع أبي بكر الصديق في آخر شارع فوش الحالي) عدد من الأئمة ذكر بعضهم في «تاريخ دمشق»، فمنهم: محمد بن أحمد بن لبيد أبو عبد الله السلاماني البيروتي الخطاب المعروف **بورد**. روي عن كثيرين وروى عنه كثيرون، منهم سليمان بن أحمد الطبراني.

---

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص٣٢).

وقد اختلط اسم هذا الجامع على البعض فزعم وجود «مسجد جامع» في أواخر العهد الأموي في بيروت عرف بجامع ورد، والحقيقة أن ورد بن أحمد بن لبيد البيروتي (توفي ورد سنة ٢٨٠ هـ) هو إمام مسجد بيروت الأول الشهير بالجامع العمري، ومن جري العادة أن ينسب جامع إلى إمامه.

وقد حدّث السلاماني في مسجد بيروت عن عمرو بن هشام البيروتي قال: سمعت الأوزاعي يحدث عن حسان بن عطية عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين فاستثنى ثم أتى ما حلف فلا كفارة عليه».

وحدّث عبد الرحمن بن الفتح الثقفي الذي كان إمامًا ومؤذنًا في مسجد بيروت عن أبي علي محمود الجرجاني عن سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من قال عند مضجعه من الليل: الحمد لله الذي علا فقدّر، والذي بطن فخبّر، والحمد لله الذي ملك فقدّر، الحمد لله الذي يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير بات على غير ذنب».

ومن أئمة مسجد بيروت ومحدثيه: موسى بن عبد الرحمن بن محمد، ويقال: ابن صالح، أبو عمران الصبّاغ أحد القرّاء. قرأ وسمع وحدّث عن كثيرين وروى عنه كثيرون. روي عنه عن عثمان بن هقل عن الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «حبّب إليّ النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[1].

---

(١) راجع البحث السابق عن أول مسجد أسسه المسلمون في بيروت.

وروى الأوزاعي أن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم وكان متشددًا ضد المعتزلة، حين قدم إلى بيروت ورأى الأوزاعي ظن أنه منهم فتجنبه، وقال: «إني أراكنّ من هؤلاء القوم فلعلك منهم؟»، فقال الأوزاعي: «لا والله ما أنا منهم».

ومن مرابطي بيروت حسان بن عطية أبو بكر المحاربي، قال الأوزاعي: «ما رأيت أحدًا أكثر عملًا في الخير منه، وكان إذا صلى العصر يذكر الله في المسجد حتى تغيب الشمس».

وكان الأوزاعي يسيء القول في القدرية الذين كان منهم زرعة بن أبي إبراهيم، ولما خرج محمد بن الحجاج يريد بيروت قال له زرعة: إذا أتيت الأوزاعي فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك زرعة من علّمك عِلمك الذي تحسنه؟ قال: فاجتمعت بالأوزاعي وأخبرته بذلك، فقال الأوزاعي: «إذا لقيته فأقرئه السلام، وقل له: صدقت، تعلمنا منك، فلما أحدثتَ تركنا علمك».

ومما نقل عن مسجد بيروت ما ذكر في «تاريخ دمشق» من أن الأوزاعي خرج يومًا من باب المسجد وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف بحذاء «درج المسجد»، وإلى جانبه دكان يبيع البصل وهو ينادي: يا بصل أحلى من العسل، أو أحلى من الناطف، فقال الأوزاعي: «يا سبحان الله أيظن هذا أن شيئًا من الكذب يباح؟ فكأن هذا ما يرى في الكذب بأسًا». (ذكرنا في مقال سابق ما اعتبرناه بقايا درج المسجد القديم).

ويفيدنا ابن عبد البر في «بهجة المجالس وأنس المجالِس وشحذ الذهن والهاجس» بأن الشيوخ والعلماء وطلبة العلم في بيروت كانوا يتّبعون تقليدًا خاصًا يوم الجمعة، وهو وضع العمامة عند الخروج لصلاة الجمعة. وكان الأوزاعي إذا أراد أن يعتمّ يوم الجمعة يكره أن يُرى معتمًّا وحده خوف الشهرة، فيبعث إلى أصحابه: الهقل بن زياد وعلقمة بن يزيد وابن أبي العشرين «أن اعتمّوا، فإني أكره أن أعتمّ اليوم».

وقد كانت سيرته درسًا لمن يسأله الرأي، فقد روى ابن سباط في «تاريخه»[1]: «قدم على الأوزاعي رجل من علماء العراق من بغداد في طلب الإفادة، فسأله الفقيه الأوزاعي: في كم قَدِم من بغداد؟ فقال: على البريد نحو عشرة أيام، فقال له: تركب على خيل البريد في طلب الإفادة؟ لا أفيدك أبدًا. وطرده من المجلس ولم يمكّن أحدًا من التلاميذ بإفادته أبدًا. فرجع ذلك الرجل إلى بغداد وعاد منها ماشيًا حتى أفاده وسمح له بالإفادة».

وقفة الأوزاعي بوجه سيوف الخلفاء والولاة

وطارت شهرة الأوزاعي وجرأته من بيروت إلى أرجاء الدولة، وكان أول انتقاد له للسلطة العباسية الجديدة سنة ١٤٢هـ بمواجهة صالح بن علي العباسي الذي ولاه الخليفة المنصور على الشام ومنها جبل لبنان. ففي تلك السنة ثار نصارى جبل لبنان على الضرائب التي فرضت عليهم، وامتدت

---

(١) صدق الأخبار (٢/٨٨٤).

الثورة إلى مركز الوالي، فحاربهم وشرد أهالي القرى وأجلاهم عن قراهم، فأبلغوا الأوزاعي بما حصل، فكتب الى الوالي يقول:

«... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان ممن لم يكن ممالئًا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ، فإنه قال: «من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه». ومن كانت له حرمة من دمه فله في ماله، والعول عليها مثلها، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة ...»[2].

وحين أجلى عبد الله بن علي عمّ السفاح بني أمية من الشام طلب الأوزاعي، فحضر بعد ثلاثة أيام بين يديه، ثم روى ما جرى قال: «فدخلت عليه وهو على سرير، وفي يديه خيزرانة، والمسوَّدة (حرسه) من يمينه وشماله معهم السيوف مطلقة، فسلمت عليه فلم يرد. ونكت بتلك الخيزرانة التي بيده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن البلاد والعباد؟ أجهاد هو؟

قال: فقلت: أيها الأمير، سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) النجم: ٣٨.

(٢) الأوزاعي، لطه الولي (ص٥٦). والإمام الأوزاعي، لشفيق طبارة (ص٢٣٦).

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فنكت بالخيزرانة أشدّ ما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». فقال: فنكت بها أشدّ من ذلك، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي».

قال: فنكت أشدّ مما كان ينكت قبل ذلك، ثم قال: ألا نولّيك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، وإني أحب أن تتمّ ما ابتدؤوني به من الإحسان. فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إن ورائي حرمًا، وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي. قال: فانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف. فلما خرجت إذا رسول من ورائي، وإذا معه مئتا دينار، فقال: يقول لك الأمير: استنفق بهذه، قال: فتصدقت بها»[١].

ويروى أن الأوزاعي كان يحب اللون الأبيض، وهذا اللون كان شعار بني أمية، وكان الأبيض لباس أهل الاندلس وأهل بيروت في الحداد. فلما

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص٥٤).

اجتمع الأوزاعي بالخليفة أبي جعفر المنصور ونصحه، استأذنه بأن لا يلبس السواد، وكان اللون الأسود شعار العباسيين، فلما خرج قال المنصور لحاجبه الربيع: الحقه واسأله لمَ كره لبس السواد ولا تعلمه أني قلت لك. فسأل الربيع الأوزاعي فأجابه قائلاً: «لأني لم أجد محرمًا أحرم فيه، ولا ميتًا كفن فيه، ولا عروسًا جليت فيه، فلهذا أكرهه».

وعندما وقع بعض السكان من المسلمين والمسيحيين من أهل إحدى قرى خليج اسكندرونة أسرى كتب الأوزاعي إلى الخليفة أبي جعفر المنصور لفدائهم، ومما قال له: «فليتق الله أمير المؤمنين، وليبتغ بالمفاداة بهم من الله سبيلاً ...، وقد بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأسمع بكاء الصبي خلفي في الصلاة فأتجوّز فيها مخافة أن تفتن أمه»، فكيف بتخليتهم في أيدي عدوهم يمتهنهم ...، وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك، ومستوف منك يوم تضع الموازين القسط ليوم القيامة ...».

كما كتب إلى رئيس كتبة الخليفة بموضوع الفداء رسالة قال فيها: «وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيهن كتابًا بعثت به إليك لتدفعه إليه، أسأل الله أن يجعلك فيما يحب أن يقيم به عبده معاونًا، وبالحق فيه قائمًا ...». كما أردف رسائله برسالة إلى عيسى بن علي في أمر الأسرى قائلاً: «فكن للضعفاء بحقوقهم قائمًا، وبأمر سبايا المؤمنات وولدانهن مهتمًّا، ومن الوجد عليهن من ذلك الكفر وتكشف عوراتهن ورد ولدانهن إلى صبغة الكفر بعد الإيمان معنيًّا ...، عسى الله أن يجعلك له في الأرض شاهدًا، فسارع إلى مغفرته ...».

وكتب إلى ابن عبد الله وزير الخليفة في حاجة لأحد سكان مدينة جبلة، كما كتب له يستشفعه في محبوس طال حبسه، وكتب إلى ابن الخليفة المنصور في جماعة أرسلوا من الشام على أقدامهم مقرونين بالسلاسل، ثم حبسوا أعوامًا، وذكره بما فعله الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب من معاقبة المتخلفين، ثم العفو عنهم. ويحث الأمير على أن يطلب لهم من الخليفة عفوه . . . .

ولما كانت أرزاق أهل الساحل تبلغ عشرة دنانير في السنة، وكانت لا تكفي المرء مع التقتير والغلاء طعام عياله، وقد تصرمت السنة التي كانت عشراتهم تأتيهم فيها، ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم، فكتب الأوزاعي إلى الخليفة يطلب زيادة الأعطية إلى خمسة عشر دينارًا، وذكره بما يقوم به أهل الساحل من دفاعهم عن العدو قائلًا: «وإنهم إذا كان القيظ تناوبوا الحرس على ساحل البحر رجالًا وركبانًا، وإذا كان الشتاء قاسوا طول الليل وقره ووحشته، حراسًا في البروج والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت . . .».

وكتب إلى الوالي أبي بلج يعظه في أهل الذمة لما بلغه مما ظهر عنده من سوء بعقوبة مبالغ فيها قائلًا: «إنكم جعلتم أمانتكم من أهل ذمتكم مأكلًا وبين أهوائكم حتى هلكت الأموال وعلقت الرجال مع المثلة في اللحى وتقطيع الأبشار، ورسول الله ﷺ يقول فيما بلغنا: «من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»».

وكتب إلى المهدي يبلغه «ما حلّ بأهل ملته من غلاء أسعارهم وقلة ما بأيديهم، فهلكت مواشيهم هزلًا وازداد الغلاء كل يوم، وإن لم يأتهم الفرج قبل أن يصل كتابي حتى يهلك عامتهم أو بعضهم جوعًا وهم رعية أمير المؤمنين، وهو المسؤول عنهم».

وبلغت جرأة الأوزاعي ما قاله لأبي جعفر المنصور بصيغة النصيحة، وإنما كان يريد التحذير والتنبيه، ويثبت ذلك ما نقل عن لسانه قال: «بعث إليّ أبو جعفر أمير المؤمنين وأنا بساحل بيروت، فأتيته وسلمت عليه واستجلسني وقال: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي يريده أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنك والاقتباس منك، قلت: انظر لا تجهل شيئًا عما أقول؟ قال: وكيف لا أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت فيه إليك وأقدمتك له، قلت: إن تسمعه تعمل به؟ قال الأوزاعي: فصاح بي الربيع صاحب الخليفة وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا عقوبة، فطابت نفسي، وقلت: يا أمير المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «أيما عبد جاءته موعظة في الله في دينه فإنها نعمة، إن قبلها بشكر وإلا كانت حجة عليه . . .». يا أمير المؤمنين . . .، يا أمير المؤمنين . . .». ورددها الأوزاعي خمس عشرة مرة، يتبعها بنصيحة وتحذير، يسندها بأحاديث نبوية وأخبار من الصحابة والتابعين . . . وختمها يقول: «هذه نصيحتي والسلام عليك»[1].

---

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص٧٠-٧١).

الأوزاعي بالإقامة الجبرية في بيته ودفنه في حنتوس

عاد الأوزاعي من مقابلة الوالي العباسي والخليفة أبي جعفر المنصور إلى بيته في بيروت في محلة عرفت قديمًا بمحلة «قرا وجاق»، فقد أبقى الأتراك العثمانيون بعد انتقال السلطة إليهم سنة ١٥١٦م وما يليها في بلاد الشام (ومنها بيروت) على الأسماء التركية التي اشتهرت أيام المماليك. ولا يتبين بالتحديد الزمن الذي أطلقت فيه بعض الأسماء التركية على محلات في بيروت القديمة. نذكر منها قرا وجاق وشونة الجن.

ففي سنة ١٨٤٦م سجلت مقاسمة بين ورثة أحمد الحشاش وأولاده وزوجته أمينة بنت أحمد السردار على عمار واقع في جنينة بني الحشاش، وقد حدد موقع الجنينة أنه كائن في محلة «قرا وجاق». يذكر أن كتّاب الدواوين في العصر المملوكي ثم العثماني كانوا يحذفون الهمزة من أوجاق لتصبح وجاق. وقرا بالتركية تعني: أسود، ووجاق تعني: موقد من حديد يحرق فيه الحطب للتدفئة والطبخ، كما ذكر أحمد أبو سعد. ويقول الدكتور أحمد السعيد سليمان: بأن الوجاق يعني: الموقد، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه النار، ثم على أهله، ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد، ثم أطلق على صنف من أصناف الجند. ولعل المقصود بقرا وجاق في المحلة الكائنة فيها جنينة الحشاش: فرقة من الجنود بلباس أسود.

أما شونة الجن فقد ورد في وثيقة تعود لسنة ١٨٤٧م أن آمنة بنت عبد القادر حرب النقاش زوجة صالح إدريس باعت إلى حنّة نقولا

الصالحاني قطعة مفرزة من جنينة بني إدريس، يحدها غربًا سور البلد والشونة المعروفة «بشونة الجن»[١].

والشونة تعني: خان، أما الجن فهي من التركية Algin بمعنى: مريض واهن، وليست من الجنون. ومن المعروف أن جنينة الحشاش وجنينة بني إدريس كائنتان بين سوقي إياس والطويلة، وهذه الأخيرة كانت في منتصف القرن التاسع عشر معروفة باسم «درب الطويلة»، لتميزها بطولها عن بقية الدروب[٢].

الأوزاعي يلزم بيته لصيق سور بيروت الغربي

أما موقع بيت الأوزاعي وحمامه بالتحديد فترشدنا إليه الوثيقة المؤرخة في غرة شوال ١١٠٤هـ/ ١٦٩١م التي وقف الشيخ علي القصار بموجبها «الحديقة الكائنة بجانب صور (سور) المدينة المرقومة، لصيق حمّام الأوزاعي، يحدها غربًا صور المدينة ...». والمرجح أن الحمام على العادة القديمة كان مجاورًا لبيت الأوزاعي.

ولزم الأوزاعي بيته يستقبل فيه قلة من تلامذته بعد أن شددت السلطة الجديدة الموالية للعباسيين الرقابة على تحركاته ومضايقته، بدليل أن عبد الحميد بن أبي العشرين الدمشقي المعروف بأبي سعيد البيروتي وكان مختصًا بالأوزاعي يكتب ويروي عنه فقد قال: «ما مات الأوزاعي حتى

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٥هـ/١٢٦٦هـ (ص٥٥).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩/١٢٦٣هـ (ص٢٧ و١٧٦)، والمعجم التركي (٥٨/١)، وتاريخ الأمير حيدر (٧٥/١).

جلس وحده، وسمع شتمه بأذنه»، يعني: أنه اعتزل الناس، وصبر على أذاهم.

يؤيد هذا الواقع ما كتبه ابن عساكر من أن الأوزاعي نصح تلامذته بالمرابطة في بلدة أصغر من بيروت وأقل عزلة، اتقاءً لفتنة بيروت وشرها.

وقد روى حسان بن سليمان الساحلي قال: «كنت رفيقًا لسفيان الثوري، فحبّب إليّ الرباط، فقلت له: إني أحببت الرباط، وإني لأحبّ أن ترتاد لي موضعًا أحبس فيه نفسي بقية أيامي. فقال لي: إن الأوزاعي بالشام فأته، فإنه لن يدخر عنك نصيحة. فأتيت بيروت فبتّ فيها. فلما صليت الغداة مع الجماعة قلت لرجل إلى جانبي: أيّهُم الأوزاعي؟ فأشار إليه بيده، وكان مستقبلًا القبلة. وكان إذا صلى لم يلتفت عن القبلة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت أسند ظهره إلى القبلة، فمن سأله عن شيء أجابه. فقلت: إن يكن عند أحد خير من سفيان فعند هذا الرجل. فتقدمت وسلمت عليه. فقال لي: كيف تركت أخي سفيان؟ فقلت له: بخير، وهو يقرئك السلام. ثم قلت: إني كنت رفيقًا له زمانًا، وأخبرته بخبري. فقال: عليك بصور، فإنها مباركة، مدفوع عنها الفتن، يصبح فيها الشرّ فلا يمسي، ويمسي فيها فلا يصبح. قبر نبي في أعلاها. فقلت له: تشير عليّ بصور وأنت في بيروت؟ فقال لي: سبق المقدور، ولو أنني استقبلت من أمري ما استدبرت ما عدلت بها بلدًا».

والواضح أن الحديث المشار إليه جرى بعدما انتهى حكم الأمويين وما جرى من حديث بين الأوزاعي وولاه العباسيين.

السلطة تمنع دفن الأوزاعي في مقبرة بيروت وقلة مشيعيه

توفي الإمام الأوزاعي سنة ١٥٧ هـ في منزله الذي عاش ودرّس فيه، وقد اعتبر من رجال الدولة الأموية، فلم ينظر العباسيون إليه نظرة رضى. ويبدو لي من سياق المقابلات التي جرت بينه وبين الولاة الجدد أنهم منعوا دفنه في مقبرة سيدنا عمر، أي: مقبرة الصحابة والتابعين القريبة من بيته (في ساحة رياض الصلح الحالية)، وفرضوا دفنه في مكان بعيد عن بيروت في قرية حنتوس (حيث مقامه الحالي)، التي تبعد أربعة كيلومترات عن بيته.

ولسنا بحاجة لإثبات قرار السلطة بمنع دفنه في المقبرة المشار إليها، فالقرينة تنوب عن الاستدلال المجرد عن وثيقة، لما سبق من مضايقته وسماعه شتمه بأذنه، ونصحه لتلامذته بالابتعاد عن بيروت. ولا يمنعنا غياب الوثائق من الترجيح بأن رجال السلطة الجديدة أو عملائها منعوا دفن الأوزاعي في مقبرة بيروت دون أن يبدي أحد أي اعتراض.

ففي فترة تغيير الدول وانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين وما رافق سلطة هؤلاء من قتل واستبداد ومصادرة أموال لم يكن باستطاعة أحد من أنصار الأوزاعي أو مريديه أن يبدي اعتراضًا، أو أن يتخذ موقفًا مغايرًا، لاسيما لما سمعوا وعرفوا من إعمال الحكام الجدد السيف في رقاب من يطعن في شرعية أعمالهم، أو في أحقيتهم بالاستيلاء على السلطة.

وفي اعتقادنا أنه لولا قيمة الأوزاعي المعنوية والفقهية وجرأته في سبيل الحق وتقدير الشعب له لما كان سلم من التصفية الجسدية، فاكتفى الحكام الجدد بأن فرضوا عليه التزام بيته، بما يعادل الإقامة الجبرية، ثم فرضوا دفنه في مكان بعيد عن العمران. واعتبروا أن ذلك كان كافيًا لعدم تذكره، ولنسيان مواقفه ضد الظلم والتهجير والاستيلاء على الأموال.

يذكر أن ساحة رياض الصلح وما حولها كانت خالية من العمران والسكان. وبوقوعها خارج سور المدينة القديم جعلها تكون آخر الدنيا وأول الآخرة بالنسبة لمن يتوفاه الله من السكان القريبين منها. وبعد فتح بيروت دفعت هجمات الروم عليها حماتها من المرابطين إلى تحصين المدينة بسور.

وتعرض السور للهدم وإعادة البناء عدة مرات، إلى أن ظهرت حدوده أثناء تنظيم شوارع بيروت وهدم الابنية القديمة سنة ١٩١٥ م، وهو السور الذي رممه ودعمه أحمد باشا الجزار سنة ١٧٧١م، وكان يمتد من باب الدباغة إلى باب السراي، ومنه إلى باب أبي النصر، ثم يتجه غربًا إلى باب الدركاه (رأس شارع المعرض)، فباب يعقوب (طلعة الأميركان)، ثم يمتد شمالاً حتى زاوية الشويخ (جامع المجيدية لاحقًا)، التي كانت مرتفعة عن سطح البحر، وكان جدارها الغربي ملاصقًا للسور.

وقد عثر على الرفات والعظام في ساحة رياض الصلح والتي رجح أن تكون مقبرة الصحابة والتابعين، أو مقبرة سيدنا عمر المعروفة بمقبرة الباشورة. والباشورة أو الباشوراء من المصطلحات العسكرية المرتبطة بالاستحكامات الحربية ومنشآت الدفاع، وهي من المصطلحات المحدثة

ولا توجد في لسان العرب. وبالتالي لم تكن مستعملة أيام الفتح الإسلامي لبيروت. ما يشير إلى أن هذه المقبرة هي مقبرة للمسلمين من أيام الفتح الإسلامي لبيروت، والتي كان يفترض دفن الأوزاعي فيها.

ونرجح أن مشيعي الأوزاعي إلى مدفنه في حنتوس كانوا قلة من البيارتة، نظرًا لبعد المكان - حوالي أربعة كيلومترات -، وانتفاء وسائل نقل فاعلة من جهة ومراعاتهم للسلطة الحاكمة في حينه وخوفًا من زبانيتها وحفظًا لمصالحهم التجارية ... . ولم يتبين ما إذا كان النعش قد حمل على الأكف طيلة المسافة الفاصلة بين بيته في درب الطويلة - حيث توفي - وبين حنتوس حيث دفن أم حمل على عربة؟ وما قيل عن ثلاثين ألفًا شيعوه وأن كثيرين أسلموا لا يعدو نوعًا من المبالغات المعروفة، والتي تناقض عدد السكان في بيروت في حينه.

التعتيم على سيرة الأوزاعي وعقوق عصرييه

ومنذ دفن الأوزاعي سنة ١٥٧ هـ ران الصمت في بيروت، وخيّم التعتيم على سيرته ومواقفه. ولم يذكر أن أحدًا من البيارتة أتى في حينه على ذكره أو روى عنه خبرًا أو أثرًا، وكأنما فرضت السلطة العباسية الحاكمة حظرًا على أخباره وآرائه. حتى إن كثيرين لم يعرفوا أين دفن، بدليل أن ابن خلكان في «وفيات الأعيان» أفرد في أواخر القرن السابع الهجري عدة سطور للأوزاعي، قال فيها: «وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوس، وأهلها مسلمون وهو مدفون في قبلة المسجد (أي: خارج المسجد عند قبلته)، وأهل القرية لا يعرفونه، بل يقولون: ها هنا رجل صالح ينزل عليه النور، ولا يعرفه إلا الخواص من الناس ...».

ولم يذكر المؤرخون كما لاحظ الشيخ طه الولي أن أحدًا من عصريي الأوزاعي البيارتة (أي معاصريه) من الشعراء أو الأدباء قد رثاه بقصيدة، أو حتى ببيت أو بيتين من الشعر، رغم أن الشعراء في ذلك الزمان وفي كل زمان لا يتركون مناسبة خاصة بالدولة أو الحكام والولاة إلا وتلقَّفوها مدحًا أو رثاءً أو قدحًا وتأريخًا وتشطيرًا وتخميسًا طمعًا في عطايا الحكام وصلات الأمراء والأثرياء[1].

ويشير أنيس النصولي إلى عقوق البيارتة تجاه الأوزاعي، فيقول في كتاب أصدره سنة ١٩٥٠: «المؤسف أنك إذا زرت مقام الإمام في مسجد حنتوس لا تجد إلا بعض الستائر الخضراء قد نشرت هنا وهناك على الضريح وبقربه، وقد كتب عليها بعض الآيات والشهادتان والبسملة ...، هذا هو كل ما تلطف به البيروتيون والبيروتيات وتكرموا به على العالم الكبير بعد وفاته، وهو الذي رفع ذكرهم وذكر مدينتهم إلى الأبد بعلمه وتشريعه ...، أفّ من العقوق ...، وعسى ألا يستمر هذا النكران للجميل. فنأتي بعمل يخلّد الأوزاعي، ولو أتى متأخرًا بعد ألف أو يزيد من السنين ...»[2].

محتويات زاوية الأوزاعي وجيرانها وأوقافها

سكن الإمام الأوزاعي في محلة الدرب الطويلة التي سميت كذلك لطولها بالنسبة لبقية دروب المدينة وطرقاتها، وقد عرفت فيما بعد بالسوق

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص٤٢).

(٢) الأوزاعي، لطه الولي (ص١٢٩).

الطويلة عندما غلبت عليها الدكاكين التجارية، كما سميت في بعض الوثائق بسوق السنطية وبمحلة الأوزاعي.

وغدا بيته الذي تحول إلى مدرسة وزاوية أحد معالم المحلة الثابتة التي تستعمل في الوثائق الشرعية لتعيين مواقع الأراضي والدور، فيقال: قبو شماله زاوية الأوزاعي، أو أرض في محلة الطويلة قرب زاوية الأوزاعي، أو أرض شرقها زاوية الأوزاعي، أو دار قرب زاوية الإمام الأوزاعي، أو أرض قرب الزاوية لصيق السور.

فعلى سبيل المثال في ١١ ذي العقدة سنة ١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠م باع محمد بلوز حصته من الدار الواقعة في القبة «تجاه زاوية سيدنا ومولانا السيد الأكرم والهمام الأفخم الإمام عبد الرحمن الأوزاعي قدس الله روحه ونور ضريحه باطن المدينة ...، يحد الدار قبلة قبة الشيخ محمد عراق ...»[1]. وقبل سنتين من ٧ جمادى الأولى ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م اشترى حسن بن اعرابي ناصر من الحاج محمد محمد البنداق «القبو الكائن في محلة الطويلة، يحده قبلة زاوية الإمام الأوزاعي».

وفي ٥ صفر ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م باع حسن أحمد الحشاش وأشقاؤه ووالدته دارهم الكائنة في «زقاق الحشاش في آخر سوق باب السراي، قريبًا من زاوية الإمام الأوزاعي رضي الله تعالى عنه داخل المدينة ...».

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٦هـ.

وفي ٢ صفر الخير ١٢٨٦هـ/ ١٨٨٦م باع علي محمد البنداق إلى مصطفى أحمد صبح دارين علويتين «في سوق الصنطية داخل المدينة ...، يحد الأقبية السفلية شرقًا ملك البائع، وتمامه زاوية الإمام الأوزاعي...».

وفي ذي القعدة ١٢٨٥هـ/ ١٨٨٦م باعت فاطمة محمد السروجي أسهمًا في أرض كائنة «في محلة الطويلة قريبًا من زاوية الإمام الأوزاعي داخل بيروت ...».

وفي ٢٩ شوال ١٢٨٥هـ/ ١٨٨٦م باع محمد محمد البنداق حصة شائعة في «قبو كائن في محلة زاوية الإمام الأوزاعي داخل المدينة، يحده شرقًا مكتب (أي مدرسة) الشيخ عبد الرحمن النحاس ...»[١].

وفي ١٩ ربيع الثاني ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م تبين أن من جملة أملاك فاطمة محمد البنداق حصة شائعة في الدار «الكائنة في سوق السمطية باطن المدينة، الملاصقة لزاوية الإمام الأوزاعي قدس الله سره، يحدها قبلة ملك الشيخ عبد الرحمن أفندي النحاس، وشمالاً الزاوية المرقومة ...، وقبو يحده قبلة وقف الزاوية المرقومة...».

وفي وثيقة تعود إلى السادس من ذي الحجة الحرام ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٧م باع إبراهيم محمد الحشاش حصة شائعة في جنينة الحشاش «بالقرب من زاوية سيدنا الإمام الأوزاعي قدس سره، وقبة العشرة الشهيرات باطن المدينة...». وفي الثالث من ربيع ١٢٦٢/ ١٨٤٦م باع

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٥هـ رقم ١٤.

محمد البربير قطعة مفرزة من جنينة بني الحشاش الكائنة «بالقرب من زاوية الأستاذ الإمام الأوزاعي ...».

أما الوثيقة المؤرخة في ٩ جمادى الأولى ١٢٦٣ هـ/ ١٨٤٧م فتعلن بيع آمنه حرب النقاش حرمة صالح إدريس حصة شائعة من قطعة مفرزة من «جنينة بني إدريس بالقرب من زاوية سيدنا الإمام المجتهد المطلق الشيخ أبي عمرو عبد الرحمن الأوزاعي رضي الله عنه الكائن باطن مدينة بيروت، لصيق سورها ...»[١].

ويتبين من وثيقة مؤرخة في ٩ ذي الحجة الحرام ١٢٦٢ هـ/١٨٤٥م أن فاطمة بنت علي زهرة باعت حصة في «الدار الكائنة داخل القبة تجاه (مدرسة) الإمام الجليل والولي الشهير الأوزاعي الشهير ما ذكر باطن المدينة ...»[٢].

وفي ٢٣ رمضان ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٣م وقف محمد ابن الشيخ صالح الطرابلسي الدار الكائنة «في آخر سوق باب يعقوب، بالقرب من زاوية حضرة الإمام الأوزاعي قدس سره ...»[٣].

وفي ٢٦ شعبان ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٤م باع محمد علي حصرم الدار «الكائنة في آخر سوق باب السراي، قريبًا من زاوية الإمام الأوزاعي داخل المدينة ...»[٤].

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٣هـ (ص٧٨).
(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٢هـ.
(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٩هـ رقم ٢٤٨.
(٤) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٠هـ.

وفي ٢٧ جمادى الأولى ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م باع محمد البنداق القبو الكائن في «محلة الطويلة، يحده قبلة زاوية الإمام الأوزاعي، وشمالاً ملك علي البنداق، وشرقًا دكان محمد الشدياق وعبد الرحمن جارودي، وغربًا الطريق السالك ...».

بناء زاوية الأوزاعي ومحتوياتها

بعد وفاة الإمام الأوزاعي ومع تراخي الزمن تحول بيته إلى زاوية تتلى فيها الأوراد والأذكار، ومدرسة تلقى فيها دروس التفسير والتلاوة. ويمكن اعتبارها أقدم زوايا بيروت. ويقول شفيق طبارة في كتابه «الإمام الأوزاعي» الصادر سنة ١٩٦٥: أن زاوية الأوزاعي في السوق الطويلة - سميت بالطويلة لاستقامتها - هدمت في بدء عهد الانتداب الفرنسي، وأقيم على أنقاضها مخازن خصص ريعها للأوقاف الإسلامية، وما بقي من أثاث نقل إلى حجرة كبيرة بنيت فوق المخازن، يصعد إليها بدرج، وهي معدة للصلاة، أطلق عليها اسم «جامع الإمام الأوزاعي».

ويرى الشيخ طه الولي أن الزاوية عبارة عن ثلاثة حوانيت ونصف قيراط من حانوت رابع سجلت في مديرية الأوقاف الإسلامية مع وقف العلماء (المرفأ)، ونقل عن الشيخ محيي الدين الخياط «أن الزاوية كانت سنة ١٩١٤ غرفة سفلية، وفوق بابها تاريخ منقوش غير ظاهر الحروف، وفيها يقرىء أحد الشيوخ القرآن الكريم. وقد بني فوقها منذ نصف قرن (أي ٥٠ سنة قبل ١٩١٤) مسجد. وفي

سنة ١٩١٣ جدد آل بيهم جدرانه، وهو المسجد المسمى زاوية الأوزاعي ...»(١).

وكانت الزاوية قبل الحرب الأهلية تعرف باسم جامع الإمام الأوزاعي فيها محراب صغير ومنبر، سعى ببنائهما أحمد علي الحصري، الذي كان يتولى الإشراف على الجامع، وكان فيه إطار كتب فيه الآية القرآنية: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٢)، بخط الشيخ عبد الغني البنداق سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨م كانت معلقة في زاوية ابن عراق، وكان مدخل الجامع من سوق سيور كتب على مدخله عبارة: «جامع الإمام الأوزاعي»(٣).

أما الحجرة الأرضية التي تحولت إلى دكان تجاري فهي الحجرة التي أقام بها الأوزاعي ودرّس وتوفي فيها، وكانت سنة ١٦٩٩م تستعمل كمدرسة. يذكر أن باحة الدكان كانت تحتوي على حجرين مكعبين من الأحجار الفرنية، كانت نساء بيروت يترددن على الزاوية ويضعن على كل منهما الشموع الموقدة، إكرامًا لذكرى الإمام، ويبدو أنه تقليد لإيقاد المسيحيين الشموع في الكنائس والمزارات.

أوقاف زاوية الأوزاعي وأحكارها

لا تتناسب الأوقاف التي أرصدت لزاوية الإمام الأوزاعي في السوق الطويلة، ولا الأوقاف التي أرصدت لمقامه في محلة الأوزاعي الحالية، مع

---

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص١١٤-١١٥).
(٢) الرحمن: ٧٨.
(٣) الأوزاعي، لطه الولي (ص١١٤-١١٥).

ما كان للأوزاعي من مكانة، ولا مع ما يظهره بعض البيارتة من محبة وتقدير له.

وأخبر الرحالة النابلسي سنة ١٦٩٩م **بأن الأوقاف الكثيرة التي كانت** مخصصة للزاوية قد ضبطت مع أوقاف الساحل الشامي، وقد عثرنا بعد التاريخ المذكور على بعض منها مما لا أهمية كبيرة له.

فقد قرأنا أنه في ٢٥ جمادى الأولى ١٢٦٣ هـ/ ١٨٤٧م اشترى مصطفى شاتيلا جلّ تين بحي العقال من كاترينا شيبان لبس، «وقد أقرّ المشتري بأنه رتب على الجلّ عشرة قروش سنويًّا على سبيل الحكر لزاوية الإمام الأوزاعي».

وقرأنا في وثيقة ١٩ ربيع الثاني ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥م أن من ضمن تركة فاطمة محمد البنداق «قبو قبلته وقف زاوية الأوزاعي ...»، ولم نتبين ماهية الوقف المذكور ولا يعرف مصيره.

وقرأنا في وثيقة ٢ صفر الخير ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م أن مصطفى صبح اشترى من علي محمد البنداق دارين، يحد إحداها زاوية الأوزاعي، «وأن المشتري أخذ علمًا بما هو مرتب على الدارين، وقدره عشرون قرشًا في رأس كل سنة حكرًا لجهة زاوية الإمام الأوزاعي ...».

وقرأنا في وثيقة غرة رجب ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥م التي وقف فيها مفتي بيروت الشيخ محمد حسن المفتي (الطرابلسي) الأشرفي داره وما يتبعها الكائنة في محلة عين الباشورة، قد نصّ في وقفيته عدة شروط منها: «أن يدفع في كل سنة مئة وثمانون غرشًا إلى الشيخ أحمد الزاهد، في كل شهر

١٥ غرشًا أجرة ١٢ ختمة، في كل شهر ختمة، يقرأ في كل يوم جزءًا واحدًا في الدار، ويهدي الثواب للنبي ﷺ وآل بيته وأصحابه ولحضرة سيدنا الإمام الأوزاعي، ثم لروح الواقف، وروحَي والديه، وجميع أرواح المسلمين...»[1].

ولو لقي بيت الأوزاعي اهتمام إدارة الأوقاف لكانت حافظت عليها، ولا سمحت بهدمه باعتباره أقدم بيت بني في بيروت، سكنه الإمام الأوزاعي، وبقي كما كان عند وفاته حتى أوائل عهد الانتداب.

وقد أصابت الحرب الأهلية الجامع، فلحقه خراب، وقد صار ترميمه وتجديده، ولكن بدلًا من إعادة بناء جدرانه بالحجر الرملي المشابه لقبة ابن عراق المواجهة له، جرى طلائها بالبلاط الذي طليت به جدران الأسواق الجديدة، وظهر كأنه جزء منها، بحيث لم يعد يظهر أن في الموقع مسجدًا، إلا من لوحة صغيرة بحاجة لمجهر لقراءتها، (جرى تكبيرها مؤخرًا، ولكن لم يبدل الحجر الرملي بالبلاط).

سبيل من السلطان سليم الأول لزاوية الأوزاعي وقصائد لزائري مقامه

ومنذ دفن الأوزاعي سنة ١٥٧هـ ران الصمت في بيروت، ولم يعد أحد يهتم بآراء الأوزاعي ولا يذكر من أخباره إلا في معرض ترجمة بعض العلماء الذين مروا في بيروت بعد أكثر من سبعمئة سنة على دفنه. فعندما

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٢هـ.

اهتز سلطان المماليك بسيوف السلطان العثماني سليم الأول، غادر محمد بن عراق دمشق سنة ٩٢٣هـ وقدم إلى بيروت بإشارة من علي بن ميمون، فبنى فيها بيتًا لأهله وزاوية لتلامذته في محلة قرا وجاق، التي عرفت فيما بعد بالدرب الطويلة (السوق الطويلة)، في موقع مواجه للبيت التي سكنه الإمام الأوزاعي ودرّس وتوفي فيه.

يذكر أن المتصوف الشهير علي بن ميمون القرشي المغربي الغماري الفاسي الحسني الإدريسي (١٤٥٠- ١٥١١م) كان من العلماء الغزاة، ترك فاس ولازم الغزو على الساحل، وكان رأس العسكر، ثم ترك ذلك أيضًا وهجر مشايخ الصوفية، ودخل في أول القرن العاشر إلى بيروت، وكان اجتماع محمد بن عراق به أولًا في زاوية ابن الحمراء المجاورة لجامع النبي يحيى عليه السلام، أي: جامع فتوح الإسلام، أو الجامع العمري الكبير.

ومكث ثلاثة أيام لم يأكل شيئًا، وأتي بطعام لابن عراق فقال لبعض جماعته: ادع ذلك الفقير، فقام علي بن ميمون وأكل، وقال ابن عراق لأصحابه: قوموا بنا نزور الإمام الأوزاعي، فصحبهم ابن ميمون لزيارته، وأثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان، فعاب عليه ابن ميمون فقال له: أتحسن لعب الخيل أكثر مني؟ قال: نعم. فنزل ابن عراق عن فرسه وتقدم إليها ابن ميمون، فحلّ الحزام وشدّه كما يعرف، وركب ولعب على الجواد، فعرفوا مقداره في ذلك.

ودفن ابن ميمون في مجدل معوش، ودفن بعده خارج حضرته رجلان هما محمد المكناسي وعمر الأندلسي وصبيان أحدهما موسى بن عبد الله التركماني وامرأتان، وأيضًا امرأتان وبنتان.

وذكر الغزي من أعيان بيروت زمن ابن عراق: الشيخ أحمد الساعي، والشيخ علي الجوهري الشهير بالفيومي، والشيخ محمد بن قيصر القبيباتي، ومحمد بن شكم الصالحي، والشيخ محمد كمال الدين شيخ المدرسة الشامية وغيرهم.

وسبق أن أشرنا إلى قول ابن خلكان: بأن أهل حنتوس لا يعرفونه، بل يقولون: ها هنا رجل صالح ينزل عليه النور . . . .

يذكر أن السلطان سليم الأول دخل دمشق في أول رمضان ٩٢٢هـ أثناء وجود محمد بن عراق فيها. وذلك قبل انتقاله إلى بيروت وذيوع شهرته، وأرادت السلطة العثمانية الجديدة تكريمه وتكريم الأوزاعي، فأنشأت سبيلًا للزاويتين.

نقل داود كنعان سنة ١٨٧١م في «مجلة الجنان» نص تأريخ إنشاء السبيل كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذا السبيل المبارك برسم الزاوية العمرية المعروفة بزاوية سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي نفعنا الله ببركته. أنشأه لوجه الله تعالى أحد العمدة الشريفة من المرحوم مولانا السلطان سليم خان تغمده الله برحمته.

أنشأه أضعف العباد سليمان الصوباشي والكاتب ببيروت، تقبل الله بإشارة الفقير إليه تعالى، المستمد المدد من الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد بن عراق تغمده الله برحمته ونفعنا ببركته.

وعمّر هذا السبيل بإشارة الفقير إليه الجليل الشريف الشيخ عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت، تقبل الله ونفعنا ببركاته، بتاريخ الثامن شهر ذي القعدة الحرام سنة ٩٣٥، الموافق ١٤ تموز ١٥٢٩ مسيحية»[١].

والصوباشي تركية مركبة من صو: الماء، وباشي: الرئيس، أطلقت في العهد العثماني على وظيفة عسكرية تقابل مدير الشرطة، وكانت تعني: ضابط البلدة المعين من قبل السلطان، ويلفظها البعض: شوباصي.

ولم يعد للسبيل المذكور من أثر، ولا كلف أحد نفسه بحفظ لوحة التأريخ مع بقية القليل من الآثار الإسلامية البيروتية، لا قبل إنشاء مديرية الأوقاف ولا بعد ذلك. وتحولت زاوية ابن عراق إلى مدرسة دينية ومسجد في آن معًا.

ولم يأتِ الرحالة التركي أوليا شلبي الذي زار بيروت سنة ١٦٧٠م على ذكر زاوية الأوزاعي أو على مقامه.

عبد الغني النابلسي في زيارة مقام الأوزاعي

أما عبد الغني النابلسي فقد زار بيروت مرتين: الأولى سنة ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٣م، ودوَّن رحلةً بعنوان: «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام

(١) راجع: الزاوية العمرية.

ومصر والحجاز»، وكانت الزيارة الثانية سنة ١١١٢ هـ/ ١٧٠٠م ودوّن وقائعها بعنوان: «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»، وقد أشار في الزيارتين إلى الأماكن التي زارها والمزارات التي شاهدها في بيروت، وكذلك أسماء بعض الأشخاص والعائلات.

وذكر أنه اجتمع في بيروت بالسيد أحمد عز الدين، وزار معه مقبرة عند ساحل البحر (السنطية)، وأضاف: «ورأينا مدرسة الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي ...، وكان مقام السيد أحمد المذكور في تلك المدرسة، وأخبرنا أن عليها في الزمان السابق أوقافًا كثيرة، ولكنها ضبطت الآن لجهة السلطنة في جملة أموال الساحل الشامي، ورأينا هناك الحمام الذي مات فيه الأوزاعي رضي الله عنه، وهو الآن خراب، وقد تهدَّم بعضه ...»[١].

ويذكر النابلسي زيارته لمقام الأوزاعي مارًّا بقبة صغيرة يقال لها مقام المجذوب (زاوية المجذوب قرب مجلس النواب الحالي)، ثم مرَّ على قبة في رأس جبل يقال له شيخ الظهرة، دفن فيها رجل من أهل النوبة (سهل بن مهاجر عند تلة بئر حسن)، وكان شيخ الظهرة نقطة مرور للبيارتة في دخولهم إلى بيروت وخروجهم منها، وكانوا يقولون عندها: شي لله يا شيخ الظهرة، (رواية عن والدي رحمه الله).

ويشير النابلسي إلى أن مزار الأوزاعي مبنيٌ على شكل سور، عمرته امرأة من بني سيفا، ونظم في المقام مدحًا للإمام قال فيه:

(١) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٧٧ وما يليها).

أتحفتنا زيارة الأوزاعي ... عند بيروت بالضيا والشعاعِ
حضرة تملأ القلوب سرورًا ... وابتهاجًا بأمر رب مطاع
حضرة يدرك المنى من آثارها ... حيث منها دعا إلى الله داعي

وقال أيضًا في ذلك المقام:

كنا ببيروت الأنيسة بالهنا ... بالأكرمين ومذ دعانا الداعي
نلنا المقاصد والمنى وتوزعت ... عنا الهموم بزَورة الأوزاعي

ويذكر النابلسي أن رجلًا من فقراء الطريقة الرفاعية حضر عنده في ذلك المزار، وأخرج له إجازته بذلك، وطلب منه الكتابة عليها.

ونصل إلى سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م عندما زار بيروت علامة الشام الشيخ عبد الرحمن الكزبري، ونزل بدار مفتي بيروت عبد اللطيف فتح الله الذي مدحه بقصيدة مطولة ذكر فيها الأماكن والمزارات التي زارها الكزبري في بيروت ومما قاله:

وقد زار أوزاعيّها العارف الذي ... له قد فشا في الشام والغرب مذهبُ
إمام عظيم في الحديث مقدّم ... له أثبتوا التقديم فيه وأوجبوا[١]

وكان الشيخ عمر اليافي (١٧٥٩- ١٨١٨م) قد سبق الكزبري إلى زيارة مقام الأوزاعي ومدحه بقوله:

يا إمامًا يمّمتهُ حيث أضحى ... قدوة للأنام خير إمامِ

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٣٩٠/١).

قد وفدنا إليك ثم حللنا ... في حماك السامي العليّ المقام
فتلقيتنا بوجهٍ تندّى ... وبثغرٍ قبل القِرى في ابتسام

وفي السنة نفسها - أي: ١٨١٨م - طلب من المفتي فتح الله أن ينظم «أبياتًا في الإمام المدفون قبلي مسجد قرية تضاف إليها، وهي خربة الآن (١٨١٨م) يقال لها حنتوس، لأجل أن تكتب في المسجد المحرر فقال فيها:

وجّه العزم واسع خير المساعي ... باجتهاد إلى حمى الأوزاعي
حصن بيروت سورها العال ... لولاه لآلت إلى الردى والضياع[١]

أما المفتي والقاضي الشيخ أحمد الأغر فقد مدح الأوزاعي في عدة قصائد، منها ما قاله سنة ١٨١٧م:

رؤيا الصناجق حرف الجرّ للداعي ... جذّابنا لمقام حاز الأوزاعي
مقدس السّر بحر العلم واسعه ... بلفظه الدّر قد شنفت أسماعي
لله درّ ضريح ضمّ أعظمهُ ... أحبب بمسعاه نعم السعي للساعي[٢]

وفي سنة ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤م طلب من الأغر شيء ليكتب على ضريح الأوزاعي فقال:

قف زائرًا هذا الضريح الواعي ... حضرة وارث النبي الواعي
صاحب بيروت الإمام أبو الهدى ... التابعيّ غوثنا الأوزاعي

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٨٠٦/٢).
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢٩).

سل ما تريد من الآله به تفز ... حالًا بمطلوبك يا ذا الساعي
فعليه رحمة ربنا ورضاه ما ... في الكون دام على الرعية راعي(١)

كما مدحه الشيخ عمر الأنسي الصقعان وتوسله بعدة قصائد منها قوله:

إلهي بما أسبغت من فيض نعمة ... على عبدك الأتقى الإمام أبي عمرو
أجب دعوة المضطر يا من لمن دعا ... يجيب وبعد العسر يأذن باليسر
دعوناك بالأمر الذي قد أمرتنا ... فأنجز لنا بالوعد يا مالك الأمر(٢)

وقد نظر الأنسي البحر طاميًا على ساحل الحضرة الأوزاعية فقال:

أقول لبحر الروم إذ هاج طاميًا ... بساحة بحر العرب شمس الأفاضلِ
حنانيك ما الملح الأجاج بمشبه ... لعذب فرات سائغ في المناهل
وما أنت والبحر المحيط وغيره ... بجانب هذا البحر غير جداول
علوم أبي عمرو مواهب خالقٍ ... وما فوقها في المجد فضل لفاضل
ومن من رياضٍ أمرعت ذات بهجة ... بأذكى شذا من طيب تلك الشمائل(٣)

الأمير يونس الشهابي بنى مقام الأوزاعي سنة ١٧٤٣م و١٥ قرشًا تبرع البيارتة

ذكر المؤرخون «أن قبر الأوزاعي في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوس، وهو مدفون في قبلة المسجد (أي خارج المسجد عند قبلته)،

---

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١٩٩).
(٢) ديوان الشيخ عمر الأنسي: المورد العذب (ص١٦١).
(٣) ديوان الشيخ عمر الأنسي: المورد العذب (ص٢١٢).

وأهل القرية لا يعرفونه ...»، ولم يشر أحد إلى باني الجامع ولا مساحته ومحتوياته وطراز بنائه. والمرجح أنه من أوائل المساجد التي بنيت عقب الفتح الإسلامي بيروت، وقد أدركت المسجد القديم قبل تجديده وإنشاء المؤسسات المجاورة له، وقد كانت جدة والدي لأبيه وأسرة والدي تصطاف بحمى الأوزاعي.

لم يذكر أحد من الذين كتبوا عن الأوزاعي تاريخ بناء المقام، وأول من تولى خدمته، وذلك لقصور في البحث. فعبد الغني النابلسي في رحلته الثانية إلى بيروت سنة ١١٠٥/ هـ ١٦٩٣م زار مقام الإمام الأوزاعي وقال: «وصلنا إلى مزار الشيخ الأوزاعي، فدخلنا إليه فإذا هو على شكل سور، وقد عمّرته امرأة من بيت سيفا، وفي داخل المزار مكان عليه قبة وفيه محراب، وعليه الهيبة والوقار والجلال، وعلى الجنب الأيسر من المحراب طاقة صغيرة تدل على قبر الشيخ، وهو مدفون تحت الحائط القبلي، وقبره ظاهر إلى الخارج ...»(١).

ولعل النابلسي نقل نسبة البناء إلى امرأة من آل سيفا عن مضيفيه من البيارتة دون ثبت بذلك، ويتبين من وصف النابلسي وجود مكان عليه قبة بأنه الغرفة التي كانت قديمًا إلى الغرب من المزار، وكان يصعد إليها بعدة درجات، وهي مغطاة بقبة، وقد أدركنا تلك الغرفة تستعمل لحفظ الغلال.

يذكر أن كتاب «محاسن المساعي» أورد قول عبد الحميد بن أبي العشرين: سمعت أمير الساحل يقول: وقد دفنّا الأوزاعي ونحن عند القبة...»، ولم يثبت أن القبة المذكورة ذكر أنها فوق الغرفة.

---

(١) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٧٩).

وروى والدي عن أجداده أن آل بيهم أنشؤوا بناءً شمالي باب المقام القديم، وأن آل حمادة أنشؤوا بناءً إلى الشرق منه. وبنى الشيخ محمد بن الشيخ عمر الفاخوري سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٣م حجرة في مقام الأوزاعي أرّخها المفتي عبد اللطيف فتح الله في «ديوانه» بقوله:

هـذه حجـرة بناهـا محـبٌ   لأبـي عمـرو الإمـام الشـهيرِ

قـال لـي قائـل: فمـن ذا بناهـا؟   أنـت فيـه ولا امتـرا بـالخبير

قلـت: فاسـمع ودمـت أرّخ محبًّا   قـد بناهـا محمـدُ الفـاخوري[1]

أما بناء المقام فقد أماطت عنه اللثام وثيقة شرعية نظمت لدى إبراهيم المولى الخلافة (القاضي الشرعي) في بيروت بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م، جاء فيها:

«بمجلس الشرع الشريف ذي المقام المنيف العاري عن الزيف والتحريف بمدينة بيروت المحمية أجله الله تعالى لدى الحاكم الشرعي المشار إليه أعلاه دام فضله وزاد علاه، لما علم جناب عمدة الأمراء الكرام ونخبة الأماثل الفخام الأمير يونس بن الأمير عباس بن الأمير أحمد الشهابي بأن الدنيا دار مكر وخداع، وملتقى ساعة لوداع، قدم لنفسه وعمل يوم حلوله برمسه، قد بنى مقام الإمام المجتهد إمام الشام وشيخ المحدثين الفخام، سيدنا وسندنا الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي قدس سره العالي، الواقع خارج بيروت وشهرته تغني عن تعريفه، ودائرة تحتوي على قبو سفلي معقود بالمؤن والأحجار، بابه من داخل صحن المقام، وعلى سلم

---

(١) ديوان الشيخ المفتي عبد اللطيف فتح الله (٢/٩٨٧).

حجر يصعد بها إلى فسحة سماوية تحتوي على أودتين، إحداهما معقودة بالمؤن والأحجار، والأخرى مسقوفة بالأخشاب، وأمامها رواق صغير مسقوف بالأخشاب ومطبخ ... معد لقضاء الحاجة.

وقف ذلك لسكن المتولي والناظر والتربدار المقام الشريف المشار إليه، ونصب جناب عمدة المشايخ الكرام وملاذ الأولياء الفخام الشيخ أحمد ابن الشيخ سعيد الرفاعي متوليًا وناظرًا وتربدارية لإقامته للخدمة المعينة عليه وعلى من بعده من أولاده وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده الأرشد فالأرشد ممن يراه الحاكم الشرعي أهلًا لذلك.

ثم وقف الواقف المذكور أدامه الله كامل قطعة الأرض الجارية بملك الواقف المذكور، بموجب حجة شرعية مخلدة بيده قبلة المقام الشريف المشار إليه وشرقًا بستان ملك الواقف المذكور، وشمالًا الناعورة، وغربًا البحر المالح تتمة الحدود بجميع ذلك ولوازمه، وما يعرف به ويعزى إليه شرعًا من جميع الجوانب والجهات.

وقف ذلك على المسجد الشريف والمقام المنيف للإمام المشار إليه، يصرف ريع تلك الأرض على لوازم المسجد الشريف والمقام المنيف من زيت وتعمير وترميم وبقية لوازمه، وما يتبقى من الفضلة تكون للمتولي والناظر نظير أتعابه.

وبعد تمام الوقف وانبرامه نصب الواقف أثابه الله تعالى الشيخ أحمد المومى إليه متوليًا وناظرًا على قطعة الأرض المذكورة، ومن بعده على من يكون متوليًا وتربدارًا على المقام المشار إليه، وتخلى له التخلية الشرعية، ثم قام عن المجلس وغاب.

ثـم حضـر وأراد الرجـوع بـالوقف متمسكًا بقـول الإمـام الأعظـم بـأن الوقف قبل الحكم والتسجيل تام غير لازم، وعارضه بذلك المتولي متمسكًا بقول الصاحبين بلزوم الوقـف، وكثر بينهمـا الخصـام والنـزاع لـدى مولانـا الحاكم الشرعي الموقع اسمه الكريم وختمه أعلاه دام عـلاه، فتأمـل مولانـا المومى إليه في المصلحة تأملًا شـافيًا، فـرأى المصـلحة متعينـة فـي الحكـم بـالوقف، رعايـة لجانـب الله، وقـد حكـم بصـحة هـذا الوقـف ولزومـه فـي خصوصه وعمومه عالمًا بالخلاف بين الأئمة الأحنـاف، ومنـع الواقـف مـن التعرض لذلك بعد ذلك حكمًا ومنعًا صـحيحين شـرعيين مـرعيين. فبـذلك صار الوقف المذكور محرمًا بحرمـات الله تعـالى، فمـن بدلـه بعـدما سـمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم.

حرر في الحادي عشـر خلـت مـن شـهر ربيـع الأول سـنة ألـف ومايـة وستة وخمسين من هجرة من له كمال العز والشرف.

شهود الحال: أبو صالح شقير. أبو مصطفى جوجو. أبـو عبـاس نجـا. جناب السيد عمر آغا الدزدار. جناب إبراهيم آغا. الشيخ مصـطفى سـعادة. الشيخ علي فتح الله. السيد عبد القادر القصار. السيد محمد شهاب الـدين. السيد قاسم المحب»[1].

ويثبت من هذه الوقفية أن باني مقام الإمام الأوزاعي هو الأمير يـونس ابن الأمير عباس ابن الأمير أحمد الشهابي، كما بنى دائرة تحتوي على قبـو سفلي معقود بالمؤن والأحجار، بابه من داخل المقـام، وعلـى سـلم يصـعد

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٦٠).

بها إلى فسحة تحتوي على غـرفتين، واحـدة معقـودة بـالمؤن والأحجـار، والثانية مسقوفة بالأخشاب، أوقفها الأمير لسكن المتولي والناظر والتربدار، كمـا وقـف قطعـة أرض علـى المسـجد والمقـام مـن زيـت وحصـر وتعميـر وترميم ... .

محتويات المسجد القديم وشاهدة ضريح الإمام والمقصورة

يذكر أن المسجد القديم كـان يحتـوي علـى محـراب صـغير مجـوّف، تعلوه لوحة رخامية حفر عليها ما يلي:

«هذا مقام إمام أهل الشام المجتهد المطلق أبـي عمـرو عبـد الـرحمن ابـن عمـر بـن يُحمـد الأوزاعـي. ولـد فـي بعلبـك سـنة ٨٨ ثمـان وثمـانين للهجرة، وسكن بيروت وتوفي بها ودفن في قبلـة هـذا المصـلى الـذي كـان مسـجدًا لقريـة حنتـوس العـامرة وقتـئذ علـى بـاب بيـروت سـنة ١٥٧ سـبع وخمسين ومائة رحمه الله.

تقدم بهذا الأثر لأعتاب هذا الإمام من العبد الضعيف حسين حشـمت محاسبجي لبنان. وكتبه الفقير محمد بن عمـر البربيـر البيروتـي سـنة ١٣٢٠ هجرية». (اشتهر محمد عمر البربير بجودة الخط، وبعلم الفلك، وهو الذي خطّ لوحة السبيل العثماني)[1].

وفي المسجد باب صغير يؤدي إلى حجرة الضريح الكـائن إلـى يسـار الداخل، والضريح من الرخام مغطًّى بستائر خضراء، وفـي أعـلاه شـاهدتان نقشت على الغربية منهما:

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص١٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ضريح إمام العلم أوزاعي … أجاب بطوعٍ دعوة الداعي
بشرى لزائره حاجاته قضيت … ونال ذو السقم منه برء أوجاع
وعام سبع وخمسين وواحدة … من المئين توفي غير مرتاع
فاقصده يا طالب الخيرات إن له … بكل ما تبتغيه طولة الباع
عليه رحمة ربي ما بدا قمر … أو طاف بالبيت عبد أو سعى ساعي(١)

١٢٦٢هـ

نشير إلى أن شفيق طبارة والشيخ طه الولي رحمهما الله لم يذكرا ناظم الأبيات، وقد عثرنا في ديوان مفتي بيروت الشيخ أحمد الأغر على الأبيات المذكورة، وأنها طلبت منه لتكتب على ضريح الإمام، وذكر في الديوان أن ذلك حصل سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٥٠م (وليس ١٢٦٢هـ).

يذكر أن مقام النبي يحيى في الجامع العمري الكبير كان مغطًّى بمقصورة، هي عبارة عن قفص حديدي مزخرف بالنقوش كالهلال والنجمة الخماسية (شعار الدولة العثمانية)، قدم سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧م من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، فتم نقل القفص الخشبي (من الخشب المخروط) الذي كان فوق المقام، ووضع على ضريح الإمام الأوزاعي ولا يزال.

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٣١١).

أوقاف وأحكار على مقام الأوزاعي

سجلت سنة ١٨٤٣م في أول سجل للمحكمة الشرعية في بيروت الأحكار بعدة قروش المرصدة للمقام على بعض العقارات قبل السنة المذكورة وهي: أحكار على حارة بني بيضون، وعلى مصطفى وسعيد منيمنة، وجملول البشتاني، وبستان بيت الغول، وعلي بن قريطم، وبني الأسطة يوسف الحلاق، وعلى دور علي آغا متسلم بيروت الأسبق، ودار بني الشدياق قرب الدركاه، ودار بني محيو. وقد بلغ مجموع ريع هذه الأحكار خمسة عشر قرشًا فقط لا غير ... وهذا كل ما منّ تجار البيارتة على مقام الأوزاعي ؟؟؟؟(١)

إلى أن قامت خديجة بنت المرحوم حسين بيهم ابن ناصر العيتاني (شقيقة عمر وعبد الله ومصطفى) ممثلة بوكيلها عبد العفو بن عبد القادر ابن الشيخ فتح الله قرنفل بوقف دكانتين في سوق الحياكين قرب باب الدركاه، النصف على مقام «سيدنا الإمام المجتهد عبد الرحمن أبي عمرو الأوزاعي لإقامة الصلاة وذكر الله، والنصف الثاني على مسجد زقاق البلاط، وذلك بموجب وقفية مؤرخة في ١٥ شعبان المعظم سنة ١٢٩٩م/١٨٨٢م.

تولية الشيخ أحمد سعيد الرفاعي على المقام وأوقافه

يتبين من وثيقة وقف الأمير يونس بن عباس الشهابي أنه أقام الشيخ أحمد بن الشيخ سعيد الرفاعي متوليًا وناظرًا وتربدارًا لخدمة المقام، ومن

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ (ص٥٣).

بعده على أولاده وأولاده الخ الأرشد فالأرشد، مما يراه الحاكم الشرعي أهلًا لذلك.

وآلت التولية إلى الشيخ مصطفى عبد القادر الرفاعي (توفي سنة ١٩١٣م)، وهو الذي اشترى من الأمير بشير الشهابي سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م قطعة أرض كبيرة في محلة المقام، شاع لدى البيارتة أنها موقوفة على المقام سنأتي على ذكرها في حينه.

وكان الشيخ عبد القادر الرفاعي متوليًا سنة ١٩٠٣م، وقد عرفت شخصيًا الحاج توفيق الرفاعي. ومما يدل على قدم الرفاعية في مزار الأوزاعي أن النابلسي أثناء زيارته له حضر عنده رجل من فقراء الرفاعية وأخرج له إجازة في طريقه ذلك عن مشايخه، وطلب منه الكتابة عليها فكتب من الدوبيت:

قد شرفنا الإله بالتوفيق ... حتى نلنا الكمال في التحقيق
من لثم إجازة بها قد أضحى ... من جاء بها في ذروة التصديق[1]

أحمد عز الدين من تجديد حجرة في الجامع العمري الكبير إلى الإقامة في مدرسة الأوزاعي

في غياب التدوين وانعدام السجلات الورقية وضياع الوثائق التاريخية، تشكل اللوحات الأثرية المحفورة على جدران المساجد والمعابد جزءًا مهمًا من تاريخ هذه الأماكن، وجزءًا من تاريخ المدينة.

(١) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٨٥).

وفي هذا السياق تعتبر اللوحات الأثرية الموجودة على جدران الجامع العمري الكبير وثائق تاريخية نتعرف من خلالها على ما شهده المسجد من إضافات وتجديدات، كما يضيء البعض منها على الأحوال الاجتماعية في بيروت.

فمن هذه اللوحات عرفنا تاريخ إنشاء مئذنة المسجد، وتاريخ إهداء الشعرات من اللحية النبوية الشريفة إلى بيروت والتولية عليها، كما عرفنا تاريخ وسبب مرسوم إلغاء ضريبة كانت تفرض على الأفران بمثابة رشوة، إضافة إلى تاريخ إنشاء بركة الوضوء والقبة التي أنشئت فوقها لتقي المتوضئين برد الشتاء وحرّ الصيف.

ومن اللوحات المهمة لوحة لم يتمكن الذين كتبوا عن الجامع سواء الدكتور صالح لمعي أو الشيخ طه الولي أو غيرهم من معرفة هوية صاحبها وصفته، وهي اللوحة التي تذكر السيد أحمد عز الدين، في حين أن العودة إلى كتب التراجم أو الحوليات التاريخية أو كتب الرحالة كالمرادي في «سلك الدرر» والنابلسي في «رحلته» وأحمد البربير في «الشرح الجليّ» مكنتنا من إماطة اللثام عن الشخص المذكور.

لوحة الجامع العمري بتجديد أحمد عز الدين

توجد لوحة من الرخام مثبتة على الحائط الشمالي للحجرة في الركن الجنوبي الغربي للجامع العمري الكبير، نحت عليها نص من سطرين هما:

السـيـد أحمـد بـن عـزّ ... الـدين جـدّد ذا المحـلّ
لله كـان فـأرخوا ... ولـذكره عـزّ وجـلّ

١٠٧٧

أي (١٦٦٦ - ١٦٦٧ م).

يذكر أن عبد الغني النابلسي زار بيروت سنة ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٣م ودوَّن رحلة بعنوان: «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» أشار فيها إلى الأماكن التي زارها والمزارات التي شاهدها في بيروت، وكذلك أسماء بعض الأشخاص والعائلات. ومما ذكره أنه اجتمع في بيروت بالسيد أحمد عز الدين، وزار معه مقبرة عند ساحل البحر (السنطية)، وأضاف: «ورأينا مدرسة الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي ...، وكان مقام السيد أحمد المذكور في تلك المدرسة...». ما يعني أن بيت الأوزاعي كان في تلك السنة مدرسة يقيم فيها أحمد عز الدين أوراد وأذكار الطريقة القادرية.

ومما قاله النابلسي أيضًا أنه اجتمع في بيروت «بالحسيب النسيب السيد أحمد المشهور نسبه ببيت عز الدين، وقد كان قدم علينا إلى دمشق الشام فيما مضى من الأيام في سنة ١٠٩٣ هـ/ ١٦٨٢م، وكان يحضر دروسنا ويلازم عندنا في ذلك الحين، وهو رجل من الأفاضل الكرام قوي الصلاح والكمال والخير التام».

وذكر النابلسي أن مولد أحمد عز الدين كان في سنة ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣م، وذكر من نظم أحمد قوله:

ثمـانون عامًـا فمـا فوقهـا ... مضـت يـا لعمـري بـلا فائـده
قضـت ولـم أكـن أشـعر بهـا ... كـأني بهـا سـاعة واحـده
أيـا ضيعة العمـر حيـث انقضى ... بـآراء سـامجة فاسـده
فيـا ليـت مـا اهتم بـي والـدي ... ويـا ليتهـا حاضـت الوالـده[1]

يذكر أن الشيخ أحمد البربير نقل أن النابلسي سمع من أحمد عز الدين البيتين:

ثمـانون عامًـا كـأن لـم تكـن ... مضـت يـا ابـن ودي بـلا فائـده
فيـا ليتنـي لـم أكـن مضـغة ... ويـا ليتهـا حاضـت الوالـده

وقد ذكر النابلسي لأحمد عز الدين من الدوبيت:

صـبري وتجلـدي باسـماعيلا ... والقلـب متـيم باسـماعيلا
لـو قيـل تسـلى عنهمـا يـا هـذا ... قالـت عينـاي لا وأسـماعي لا

---

(١) والعقر والعقم داء يكون في أرحام النساء، وفساد يكون في مني الرجال يمنع انعقاده، لأن مني الرجل كالروبة، ومني المرأة كاللبن، فمتى صلحت الروبة واللبن، انعقد جنينًا، ومتى فسد أحدهما لم ينعقد الجنين. فإن مات الجنين في الرحم يقال: قد غرّقته القوابل، قال الشاعر:

فبيت سعيرًا كان حيضًا برجلهم ... وليت سـعيرًا غرّقتـه القوابـل

أي: إذا أراد الله موته في الرحم أرسل إلى أمه الحيض، فكأن الحيض يغرقه.

ووصف النابلسي أحمد عز الدين بأن «فيه نباهة اعتقادية وطرف جذبة إلّهية»، وأن أحمدأطلعه على إجازاته من مشايخه في طريق القادرية، كما أطلعه على نسبه الشريف له عن آبائه وأجداده، فكان نسبًا عجيبًا عليه خطوط العلماء والصالحين من الأشراف المعتبرين، وطلب منه نظم موشح لينشده الفقراء على ذكر الله تعالى على طريقتهم (القادرية)، فأجابه إلى ذلك. وفي جلسة ثانية أنشده أحمد عز الدين من نظمه لنفسه قوله:

أرى هذا الوجود خيال الظل[1] … محركه هو الرب الغفور

فصندوق اليمين بطون حوّى … وصندوق الشمال هو القبور

كما أنشده من لفظه لنفسه:

ما خيال الظل إلا … عبرة لمن اعتبر

فاعتبر قولي أيا … هذا تجده معتبر

وكذا الدنيا شخوص … تتراى للنظر

ثم تمضي وتولي … مثل لمحٍ بالبصر

ويقصد بخيال الظل: مسرح قره كوز وعيواظ[2].

---

(١) وهو من قول الإمام الشافعي:

رأيت خيال الظل أكبر عبرة … لمن كان في علم الحقيقة راقي

شخوص وأشباحٌ تمر وتنقضي … الكل يفنى والمحرك باقي

(٢) الحقيقة والمجاز، النابلسي (ص٧٨).

أسرة عز الدين ووقف عز الدين (الميقاتي) من ٤٠٠ سنة

أجرت السلطنة العثمانية مسحًا لأراضي السلطنة، ومنها بيروت، وذكرت أسماء محلاتها وسكانها في دفاتر الطابو منها دفتر رقم ٥٤٣ لسنة ١٥٦٤م، يذكر محلتين أو حيين في بيروت هما: الحي التحتاني والحي الفوقاني.

أما الدفتر رقم ٢٨٣ لسنة ١٥٣٠م فقد ذكرت فيه أسماء محلات بيروت وأسماء الأشخاص المقيمين في تلك المحلات، وقد وردت في الدفاتر المذكورة عدة أسماء، منها محمد وأحمد وحسن عز الدين.

وفي معرض منازعة بين بعض أفراد من أسرة عز الدين (الميقاتي) على مستحقي الوقف جرت أمام قاضي بيروت الشرعي في غرة جمادى الأولى سنتي ١٢٥٢ هـ/ ١٨٣٦م وفي ١٢ جمادى الأولى ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م استمع خلالها القاضي لأقوال الشهود: بكري بن عبد الحي عز الدين، وقاسم بن حمودة عز الدين، ومحمد بن بدر عز الدين، وكان مضمون الشهادة: أن وقف الجدّ عز الدين (الميقاتي) يعود إلى قبل سنة ١٢٦٣هـ بأربعمئة سنة، وفي حساب بسيط يتبين أن عز الدين الميقاتي كان قد أجرى وقفًا أيام المماليك وقبل الحكم العثماني لبيروت.

والميقاتي: نسبة إلى توليه وظيفة التوقيت في الجامع العمري على الأرجح. علمًا بأن عز الدين يرد في بعض الوثائق والسجلات اسمًا ويرد في بعضها كشهرة. وقد ذكر مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد الأغر في

معرض تأريخه ولادة ابن لأحمد بن بدر عز الدين أن أحمد المشار إليه هو ابن خالة الأغر.

يذكر أن مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١٧٦٦- ١٨٤٤م) كان متزوجًا من السيدة أمينة بنت زين عز الدين. وقد وصف أهل زوجته بأنهم «أهل الفهوم». وذلك في تأريخ نظمه لوفاة محمد غندور بن زين عز الدين شقيق زوجته سنة ١٨٠٧م قال فيه:

ذا ضريح يسقيه غيث حنان	ورضاء من الرحيم الكريم
هو روض من الجنان فسيح	مزهر بالرضوان والتكريم
حلّ فيه محمد نجل زينٍ	من بني عز الدين أهل الفهوم
قلت في تأريخي له: حاز قربًا	وقبولًا في جنة ونعيم[1]

كما أرّخ فتح الله سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م لوفاة عز الدين بن بدر عز الدين.

النسخة الوحيدة من «محاسن المساعي» بخط مفتي بيروت الشيخ زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب

ثلاثة كتب تناولت ترجمة سيرة الإمام عبد الرحمن الأوزاعي، قال صالح بن يحيى في كتاب «تاريخ بيروت»[2] عن الأوزاعي: «وقد جعلت له كتابًا يتضمن ترجمته، واختصرت ذكره هنا...»، إلا أن هذا الكتاب لم يصلنا.

---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٣٦٣/١).

(٢) (ص١٣).

كما أن مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد الأغر قدم للأبيات التي نظمها ونقشت على شاهد ضريح الأوزاعي بكلمة مختصرة عن الإمام قال فيها: «وقد أفردت ترجمته بالتأليف...»، إلا أن هذه الترجمة لم تصلنا أيضًا.

والكتاب الثالث هو «محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي». وجد الأمير شكيب أرسلان نسخة منه في مكتبة برلين الملوكية بخط الشيخ زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨-٣٩م، فقام مشكورًا بتصويره وتعليق حواشيه وتأمين طبعه. ولم يتمكن أحد ممن اطلع على الكتاب أو كتب عنه إلى معرفة هوية الشيخ زين الدين المذكور. وقد أكرمني الله تعالى بذلك؟

في الإضافة إلى الدين

شاعت منذ استيلاء السلاجقة على السلطة في الدولة العباسية ثم في عصر الأتابكة ألفاظ التشريف المضافة إلى «الدولة» وإلى «الدين»، وفشا استعمالها حتى شمل الكتّاب والجند. وكانت الألقاب مصونة لم تكن تمنح إلا لمن هو جدير بها، وكان من أثر تدهور سلطة الخليفة وتهاونه أن صار لقب الإضافة إلى «الدين» حرًّا كاختيار الأسماء. وبانتقال السلطة إلى المماليك انتقلت سلطة التلقيب إلى ديوان الإنشاء. ففشت الإضافة إلى «الدين» لمختلف الطبقات من رجال حرب وإدارة وعلم.

وقد رتب القلقشندي التلقيب بالإضافة إلى «الدين» على أربعة أنواع هي: ألقاب أرباب السيوف في صنفين من الترك (المماليك)، والغالب في

ألقابهم: سيف الدين وعلاء الدين وعز الدين وحسام الدين وجمال الدين وناصر الدين وتاج الدين. والصنف الثالث: الخصيان (الطواشية)، فمرجان زين الدين، ودينار عز الدين، وشاهين فارس الدين، ولؤلؤ بدر الدين، وجوهر صفي الدين. والنوع الرابع: أرباب الأقلام من القضاة والعلماء، فقيل في محمد: شمس الدين، وفي أحمد: شهاب الدين، وفي يوسف: جمال الدين، وفي عبد الرحمن: زين الدين[1].

ثم عمدوا إلى ابتداع ألفاظ أخرى، فقالوا في محمد: بدر الدين وصدر الدين وعز الدين، وفي أحمد: بهاء الدين وصلاح الدين. وسار عامة الناس من التجار وغلمان السلطان على سنن الفقهاء في ألقابهم.

كتب علي بن ميمون المغربي نزيل بلاد الشام ودفين بلدة مجدل معوش في جبل لبنان في مخطوطة بعنوان: «غربة الإسلام بواسطة صنفَي المتفقهة والمتفقرة من أهل مصر والشام وما يليها من بلاد الأعجام» ينتقد ما جرى في زمانه (١٥٠٠م) من بدع ويقول: «الأصل أن الاسم مقدم على غيره بسر الحكمة الأزلية، وما قدم حكمه يجب تقديمه حكمًا، وقد خالفوا الكتاب والسّنة في الاسم لكونهم أبدلوه باللقب البدعي، فغيروا السنّة المحمدية، وأبدلوها بالبدعة الشيطانية ... أبدلوا اسم محمد بشمس الدين، وأبي بكر بتقي الدين، وعمر بزين الدين، وعثمان بفخر الدين، وعلي بنور الدين، ولا أصل لهم يعتمدون عليه في ذلك لا من الكتاب ولا من السنّة ...».

(١) الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، حسن الباشا (ص١٠٤)

«فمن جملة ما أتانا به نبينا عليه الصلاة والسلام التسمية بالأسماء لا بألقاب، فإن الله تعالى سمى أكرم خلقه محمدًا، وسمى أفضل أمة نبيه بعده أبا بكر، وسمّى ثاني خليفة نبيه في الفضل والعدالة عمر، وثالثهما عثمان، ورابعهما عليًّا، رضي الله عنهم وعن كافة الصحابة أجمعين، فلو كانت الألقاب أفضل من الأسماء لكان أولى وأحق أن يتحلى بها أفضل خلق الله وأصحابه من بعده ... .

ومن أبدل اسم محمد بشمس الدين فقد أبدل القرآن بوحي الشيطان، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]، ولم يقل شمس الدين رسول الله، إذ لو كان شمس الدين عند الله أفضل لسمّى به أكرم خلقه، فمرتكب إبدال اسم محمد بلقب شمس الدين فقد أبدل السنّة بالبدعة، وباع النفيس بالخسيس، واشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، وألبس الحق بالباطل، فالحق اسم محمد، والباطل شمس الدين.

فمتفقهة هذا الزمان في هذه الأوطان المشرفة أبدلوا الأسماء السنية بالألقاب البدعية، لميل أنفسهم إلى زخرف الدنيا، لما في اسم الشمس (شمس الدين) من رفعة، وفي تقي الدين من تقوى، وفي زين الدين (الزينة)، وفي فخر الدين (الفخر والمفاخرة والكبرياء). ومن كان اسمه محمد ثم نودي بشمس الدين يُجيب سريعًا فرحًا مسرورًا، ثم إذا ناداه المنادي باسم محمد ينقلب حاله الأول بعكسها إلى الغضب والحقد، وربما واجه مناديه بالاسم بالردع والزجر والتوبيخ وغليظ الكلام[2].

(١) الفتح: ٢٩.
(٢) غربة الإسلام بواسطة صنفَي المتفقهة والمتفقرة، علي بن ميمون.

ثم إن المنادي ربما يحمله على العدول عن النداء بالاسم والميل إلى اللقب استحياؤه أن ينادي من تلقب بشمس الدين محمداً، وربما يقصد بعضهم نداء من تلقب بشمس الدين الاستهزاء والاستخفاف». يذكر أن ابن عنين الشاعر قال:

صعد الدين يستغيث إلى الله وقال الأنام ظلموني
يتسمّون بي وحقك لا أعرف شخصاً منهم ولا يعرفوني[1]

ولم تسلم بيروت من البدعة المذكورة. فصالح بن يحيى يذكر في «تاريخ بيروت» أسماء احفاد بحتر مضافة إلى «الدين»، كجمال ونجم وسعد وزين وناهض وبدر وشمس وعماد وفخر... الخ.

في هوية البيروتي ناسخ كتاب «محاسن المساعي»

يذكر أن المسح الذي أجرته الدولة العثمانية سنة ١٥٣٠م لبيروت سجلت في دفتر الطابو رقم ٣٨٣ أسماء محلات بيروت وساكنيها، فوردت فيه أسماء كثيرة مضافة إلى «الدين»، منها مثلاً «محلة حاجي زين الدين»، وفيها «زين الدين المفتي رئيس» (أي: رئيس المحلة). وفي خزانتنا وثائق عديدة قديمة تظهر استمرار الإضافة إلى «الدين» في الأسماء منها:

وثيقة مؤرخة في ٨ محرم الحرام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٦م اشترى بموجبها مصطفى القصار دكاناً في سوق الصبّانة «من الحاج سيف الدين ابن الحاج علي العاليه الشهير بالسقعان ...» (السقعان والصقعان والسجعان والأنسي أسرة واحدة).

(١) صلاح الدين، لعبد العزيز سيد الأهل (ص١١٥).

وثيقة مؤرخة في ٦ محرم الحرام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م الخاصة بوقف أحمد زنتوت ورد فيها اسم رقية بنت الشاهبندر زوجة «أمين الدين بن علي زنتوت ...».

وثيقة مؤرخة في ١٣ صفر الخير ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م (من محفوظات محمد جميل بيهم) خاصة بتولية الحاج أحمد بن إبراهيم بن محيي الدين العيتاني على وقف والده ...» كان ممن شهد عليها تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب وابنه زين الدين بن تقي الدين الخطيب ... .

وثيقة مؤرخة في ٢٢ شعبان ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م خاصة بوقف الشيخ علي القصار على زاويته، شهد عليها «فخر المدرسين مولانا زين الدين المفتي ...». كما ورد اسم زين الدين المفتي كشاهد في وثائق وقف القصار سنة ١٠٩٦هـ.

ويتأكد أن زين الدين المفتي الوارد اسمه في الوثائق المشار إليها هو نفسه ناسخ كتاب «محاسن المساعي» مما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى مصر والشام والحجاز»[1] عندما زار بيروت في صفر الخير سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م وقال بالحرف: «وقفنا في بيروت على كتاب مستقل في ترجمته (الأوزاعي) مسمًّى بكتاب «محاسن المساعي في ترجمة الإمام أبي عمرو الأوزاعي» ...»، وأضاف: «واجتمعنا بالفاضل الكامل والعالم العامل الشيخ زين الدين مفتي الشافعية بتلك الديار» (بيروت).

(١) (ص٨٤).

ويدعونا كل ذلك للتأكيد على أن ناسخ كتاب «المساعي» هو مفتي بيروت الشيخ زين الدين المشار إليه ابن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب، (والخطيب يقصد به خطيب الجمعة في الجامع العمري الكبير).

يذكر أن جامع الكتاب أي ترجمة الإمام الأوزاعي كما استقاها الشيخ مازن بحصلي من كتاب «الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر» هو: الشهاب أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن زيد الدمشقي الحنبلي.

أما كيف وصلت النسخة المخطوطة إلى مكتبة برلين، فمن المعروف أن المستشرقين اهتموا بجمع المخطوطات بمساعدة قناصل دولهم، مما أدى إلى رواج تجارة المخطوطات، ولاسيما للعلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية.

ففي سنة ١٩٠٥ أعلن مراد بارودي صاحب صيدلية في باب إدريس أنه يشتري النقود القديمة وما يسميه بالانتيكات، وأعلن سنة ١٩٠٧ أنه «يشتري الكتب الخطية القديمة، ولاسيما التي لم يسبق طبعها على اختلاف مواضيعها ...»[١]، وكان محل ندره ومتري طرزي وشركاهم المؤسس منذ سنة ١٨٦٨م في الطابق العلوي من خان التوتة يتعاطى تجارة التحف الشرقية وخلافها[٢].

ونشير إلى أن الشيخ طه الولي ذكر أن الشيخ عبد الرحمن سلام فتح سنة ١٩١٢م بدمشق محلًا لبيع الكتب المخطوط منها والمطبوع، وأن

---

(١) لسان الحال، عدد ٥٥٤٦ سنة ١٩٠٧م.
(٢) لسان الحال، عدد ١٦٨٨ سنة ١٨٩٤م.

الشيخ عمر المحمصاني كان يتعاطى تجارة الكتب، وأن ابنه الشيخ أحمد المحمصاني كانت مكتبته تضم ١٢٠ مخطوطًا[١].

فلا يستبعد أن تكون نسخة «محاسن المساعي» قد بيعت إلى أحد التجار، وتناقلتها الأيدي حتى استقرت في مكتبة برلين. فرحم الله من كتبها ومن نسخها ومن وجدها وأظهرها، وقبلهم كلهم رحم الله الإمام الأوزاعي.

وقد تعددت التآليف في العصر الحديث من البيارتة تكريمًا متأخرًا للإمام الأوزاعي، نذكر منها: أولها كتاب «الإمام الأوزاعي» لشفيق طبارة، ثم «عبد الرحمن الأوزاعي» للشيخ طه الولي، فـ«الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية» للأستاذ الدكتور صبحي محمصاني، وكتاب «الإمام الأوزاعي محدثًا وحافظًا» للشيخ حسين محمد الملاح، كما ننوه بقيام الحاج توفيق حوري بتأسيس كلية الإمام الأوزاعي.

كيف تحول سهل الإمام الأوزاعي من زراعة إلى وقف إلى ملك خاص

روى والدي عن أبيه أن بعض التجار اشترى قطعة أرض في محلة مجاورة لمقام الأوزاعي، ضاحية بيروت، فسأل جدّنا مفتي بيروت في حينه الشيخ عبد الباسط الفاخوري (المتوفي سنة ١٩٠٥م) عن ذلك واستمزجه رأيه بشراء قطعة أرض، فنصحه المفتي بالابتعاد عن ذلك، لأن الأراضي المذكورة موقوفة لا يجوز بيعها ولا التصرف بها لغير وجوه البرّ والخير الموقوفة لأجلها.

---

(١) بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، لطه الولي (ص٣٠٩).

يتبين من وثيقة وقف الأمير يونس بن عباس الشهابي أنه أقام الشيخ أحمد ابن الشيخ سعيد الرفاعي متوليًا وناظرًا وتربدارًا لخدمة المقام، ومن بعده على أولاده وأولادهم الخ الأرشد فالأرشد مما يراه الحاكم الشرعي أهلًا لذلك.

وكان من الشائع لدى البيارتة أن الأراضي الموقوفة على مقام الإمام الأوزاعي ثابتة بموجب إعلام شرعي مصدق من المشيخة الإسلامية ومحاكم المتصرفية، فكانت حدودها «من القبلة أراضي نهر الغدير، ومن الشمال أراضي وطا بطينا، ومن الشرق طريق صيدا، ومن الغرب البحر المالح، وأن من ضمن هذه الأراضي مما يلي سهل البئر حسن مقام أحد الأعزاء سهل بن مهاجر المعروف مقامه بشيخ الضهرة، وأن المساعي جارية لترويج مبيع بعض الأراضي المغصوبة من الوقف ...»، كما ذكرت صحيفة «ثمرات الفنون» في حينه.

وقد ظهرت أمور كثيرة وخلافات حول الأراضي المحيطة بمقام الأوزاعي، ونشأت دعاوى ومنازعات في محاكم المتصرفية في بعبدا والمتن، ما دفع الدولة إلى تأليف محكمة خاصة استثنائية للنظر بما عرف بقضايا الرمول في قرى برج البراجنة والشياح وتحويطة الغدير والعمروسية والشويفات، كانت برئاسة القاضي محمود البقاعي وعضوية البير فرحات وفكتور فيليبيدس، وقد أصدرت المحكمة حكمها النهائي بتاريخ ١٧ أيلول ١٩٥٥ المؤلف من ٥١٠ صفحات. وقد ذكرت في الحكم وثائق وإفادات وتصريحات من مختلف فرقاء النزاع لبعضها أهمية كبيرة، رأينا من الجدير وضعها بتصرف القراء.

بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦م اشترى الشيخ مصطفى عبد القادر الرفاعي من الأمير فندي أسعد قعدان شهاب زوج عليا بنت الأمير بشير وبوكالته عن الأمير بشير قاسم شهاب جميع الأراضي المعروفة بسهل الإمام الأوزاعي بموجب حجة شرعية، وكانت تلك الأراضي محدودة قبلة بأراضي الغدير، وشمالًا بوطى بطينا، وشرقًا بالطريق السالك إلى صيدا (طريق صيدا القديمة)، وغربًا بالبحر المالح الأجاج، بثمن قدره عشرون ألف غرش، ومصادق على الحجة بإمضاء وختم قاضي بيروت السابق السيد محمد حميد، وبشهادة شخصيات عديدة من رجال الدين والدنيا، كالمشايخ أحمد الصلح، ويوسف الأسير، ومحيي الدين اليافي، والحاج عبد الله بيهم، ومحمد البربير، ونعوم تابت وسواهم.

وجرت استنادًا إلى تلك الحجة عدة عقود بيع وقسمة من بعض ورثة مصطفى الرفاعي، تناولت أسهمًا شائعة من سهل الأوزاعي إلى سليم واسكندر طراد وشربل التحومي ونخلة سرسق وغيرهم.

يذكر أن الأمراء الشهابيين كانوا يملكون مع الأمراء الأرسلانيين الساحل الغربي، وعلى أثر خلافات حصلت فيما بينهم تصالحوا، فخرجت الأملاك الواقعة في الشياح وبرج البراجنة وقسم من تحويطة الغدير من نصيب الشهابيين. وكما حصل بالنسبة لقصر بيت الدين من بيع سرّي من الأمير بشير لزوجته، ثم وقفه صوريًّا في المحكمة الشرعية في بيروت (كما سبق وأوضحنا في لواء سابق من لجوء الأمير بشير إلى تهريب أمواله بوقفها صوريًّا بعد أن شعر بانتهاء حكمه)، كذلك أوقف الأمير بشير في ٣ صفر

١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠م أملاكه في البرج والغدير وغيرها في محكمة دمشق، كما قام بنقل أملاكه في بلاد جبيل لابنته عليا.

وكان مما أدلى به الأمير فندي والست عليا في النزاع وأثبته الحكم بأن الأراضي المدعوة «بسهل الإمام الأوزاعي الكائنة في مقام حضرة سيدنا الإمام الأوزاعي كانت بعهدة الأمير بشير بوجه التملك منذ سنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠م وما بعدها، وهو يديرها ويؤجرها للطالبين، وبناء لرغبة الشيخ مصطفى الرفاعي تربدار المقام قد أجّرها له سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٩م على سنتين بمبلغ ٣٨٠٠ غرش، وأن الشيخ مصطفى تغلّب على الأرض وأدارها حتى سنة ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣م. وفي هذه السنة واستنادًا إلى القول المجرد قيدها (أي الشيخ مصطفى) بدفتر الوقف بعد أن كان مستأجرها». كما زعمت بلدية البرج في الدعوى بأن الأمير بشير باع الأراضي «بالوجه القاسي وتحت الضغط والإكراه».

وتفيد الوثائق أن حدود تلك الأراضي عند المغارة التي تبعد مئة ذراع للجهة القبلية من مقام الأوزاعي، وأن الأراضي جميعها كانت في سنة ١٨٦٤م تسمى كرومًا، وأنها وفقًا للمستندات القديمة وأقوال بعض المستشرقين كانت مغروسة ومزروعة شيحًا وتوتًا وشعيرًا وبطيخًا، وأن الأمير بشير كان يزرعها قمحًا وشعيرًا وترمسًا وعدسًا، وكان عليها خولي.

كما يتبيّن من حيثيات الحكم بأن ديوان التمييز في جبل لبنان استثنى في آب ١٢٩٥ (مالية) ميناء الجناح من التملك، باعتباره ليس ملكًا لأحد، كما استثنى مئة ذراع إسطنبولي تبدأ عرضًا من الجنوب إلى الشمال من

الحائط الشمالي لمقام شيخ الضهرة، وتنتهي بنهاية مئة ذراع تبدأ من الشرق من طريق صيدا، وتنتهي غربًا بالبحر لتكون ممرًّا لأهالي الشياح وحارة حريك يمرّون عليها «لتناول ما يلزمهم من حطب وتبن وخلافه، مما يمرّ إلى ميناء الجناح من واردات البحر. وكانت ما عرف بالمدورة ميناءً بحرية طبيعية قديمة للمراكب الشراعية». وأشار الحكم إلى أن الرفاعيين معفون من دفع الأموال الأميرية بإرادات سنية، وذلك عن الأرزاق وعن الأعناق.

وكان شكور باشا المصري قد أسّسَ في مصر «شركة المباحث والأعمال المصرية» وجرّب شراء القسم القبلي الغربي لبيروت لإنشاء حيّ جديد، إلا أن القانون العثماني لم يسمح للأشخاص المعنويين بالتملك، فاستعانت الشركة بأشخاص طبيعيين كحبيب غانم وإبراهيم تابت ونخلة سابا، إلاّ أن الحرب الكبرى حالت دون إتمام المشروع.

وكان للشيخ مصطفى ابنٌ يدعى عبد القادر، وبنت تدعى خديجة تزوجت من محمد رمضان.

يروي والدي أن بعض أبناء أسر سرسق وبسترس وغيرهم اشتروا قطع أرض من الشيخ عبد القادر، ولكنها كانت قطعًا شائعة غير مفرزة. فلما كبر مصطفى محمد رمضان أخذ يلاحق المشترين بحجة أن القطع التي اشتروها ليست ملكًا خالصًا لخاله، ولكن والدته خديجة ابنة الرفاعي الكبير تملك الثلث شرعًا في الأرض الأصلية، وفي كلّ قطعة بيعت منها.

وكان مصطفى رمضان يركب دابته يوميًّا ويتوجه إلى محكمة بعبدا لملاحقة المشترين وتحصيل حقوق والدته، وكانت تلك الحقوق في حينه

تساوي الملايين. وقد ضرب به المثل فقالوا: مصطفى رمضان غني طفران. وألغزوا بحالته فقالوا: من يملك أربعة ملايين متر أرض وبيته بلا سقف؟

وقد أكرمه الله تعالى وأظهر حقه واسترد قيمة حصته. فتبرع سنة ١٩٣٧م بإنشاء مئذنة لمسجد الأوزاعي أرّخ لها على رخامة فوق الباب فيها:

لله مئذنة أقام بناءها ... صافي السريرة طاهر الوجدان
هو مصطفى رمضان سامي المجد من ... شكرت مآثره بكل لسان
لا بدع فهو سليل سادات لهم ... فضل بفعل الخير والإحسان
يا ربّ أجزل أجرهم واغفر لهم ... أرّخته ولمصطفى رمضان[1]

يذكر أن الشيخ مصطفى الرفاعي الكبير توفي سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م ودفن بجوار مقام الأوزاعي، وعلى شاهد قبره تأريخ من نظم الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي:

ضريح عليه رونق الفضل والهدى ... به مصطفى نجل الرفاعي قد توسدا
لقد كان في الدنيا كريمًا موفقًا ... وشيخًا لأبناء الطريقة مرشدا
تراه لهذا الحبر جارًا ومن يكن ... مجاور أهل المجد كان ممجدا
وفي ظل عفو الله أمسى مؤرخا ... وأصبح في دار النعيم مخلدا

كما دفن بجوار المقام الأميرين أمين ومحمد أرسلان، سعيد علي جنبلاط (١٢٧٧هـ)، ومحمد عبد الله بيهم صاحب شعار: تعلم يا فتى

(١) الأوزاعي، لطه الولي (ص١٠٦).

فالجهل عار (١٩١٥م) (نقلنا تأريخ وفاته في كتابنا محمد عبد الله بيهم. الصارخ المكتوم).

وتشاء الأقدار ولعلّ ذلك إحدى كرامات الإمام أن يختار العديد من فقراء مسلمي بعض المناطق لاسيّما أهل بعلبك وجوارها - مسقط رأس الإمام الأوزاعي - السكن في جوار الإمام، فشيّدوا قرب ضريحه وحوله في الأراضي التي اختلف في وصفها بين الملك والوقف بيوتًا ودكاكين وعمّروا المنطقة بالبناء والسكن والتجارة والعيال.

رحمَ الله الأوزاعي نصير الفقراء والمظلومين، فقد دافع عنهم في حياته، وأمّن لهم سكنًا بجواره بعد مماته في أراض لعلها كانت موقوفة على وجوه الخير، والله أعلم.

بيروتيات أوزاعية

اعتاد البيارتة على الاصطياف بجوار مقام الإمام الأوزاعي، فهو سهل رملي قريب من المدينة ومن البحر. فينصبون العرازيل التي ترتفع حوالي المتر عن سطح الأرض، وتلف جدرانها بأكياس الخيش والكتان الأسمر، فتكون مجلسًا للسهر والسمر ومناجاة القمر. ولا يمكن أن نشكك بمحبة البيارتة للإمام وتقديرهم له، بالرغم من أنهم هجروا تلك المحلة بعدما صاروا يصيفون في بوارج وعاليه وسوق الغرب وشملان وغيرها، وقبل ذلك في مضايا والزبداني. وقد تناقلوا من مجاورتهم للإمام حوادث شهدوها وطرائف عاشوها نقل والدي رحمه الله بعضها.

كان تربدار المقام يرسل جملًا أول فصل الصيف يقف عند باب مدخل زاروب الشيخ رسلان (كان للباب قنطرة والزاروب منخفض ولا يمكن إدخال الجمل) لنقل أمتعة جدة والدي لأبيه الحاجة صفية بنت الشيخ محمد الفاخوري إلى محلة الأوزاعي (توفيت الحاجة صفية في ١٩ صفر الخير ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م).

وكانت الريح الهوجاء كثيرًا ما كانت تقتلع العرازيل، فيهرع المصطافون للاحتماء بالمقام. كما كانوا يضعون الترمس اليابس في أكياس تربط بالصخور وتغطس بالبحر فتحلو وتتملح، ونادرًا ما ينقر السمك الأكياس. واشتهرت جميزة معمرة في جوار المقام، كان الأولاد يدخلون في جوف جذعها للعبة الغمّيضة.

وروي أن ربّان باخرة روميًا حاصرته الأمواج والعاصفة يومًا عند الساحل المقابل لمقام الإمام، ولاحت له قبة المقام، وقيل له: إنها لأحد الرجال الصالحين، فتضرع إلى الله أن ينقذه بكرامة هذا الصالح. وعندما هدأت العاصفة، وضع عدة ليرات ذهبية في جوف عصاه، ورماها في البحر معتبرًا أنها ستصل إلى المقام إذا كان صاحبه صالحًا حقًا. ثم استقرت العصا عند الشاطىء. والتقطها الشيخ الرفاعي متولي المقام، وأتى بها إلى المقام يستعملها في إنارة الفوانيس.

حضر الربان بعد أسابيع فوجد عصاه في المقام، اشتراها من المتولي بليرة ذهبية. وقام بكسرها فتساقطت منها الليرات، دفعها للمتولي وأخبره بالقصة. وقيل: الندر بيوصل للأوزاعي مع موج البحر.

ومما رواه والدي من كرامات الأوزاعي، أن الإمام كان يُرى وهو يتوضأ من ماء البئر الخاصة بالمقام. وأن بعض المصطافين ومنهم أبو محمود شهاب الدين أحضروا ذات ليلة عودًا ومزمارًا وسهروا خارج المقام. وكان والدي جالسًا وقد أسند ظهره إلى باب المقام. انفتح الباب بعد برهة، فقام والدي وأقفله. ثم بعد هنيهة انفتح ثانية، فقال له أحد الحاضرين: بتكون ما سكرته منيح. فقال والدي له: ولو. أنا أبي نجار وأعرف الأقفال جيدًا. وقام فأقفله مرة ثالثة. ولكن الباب عاد وانفتح أيضًا. عندها قال أحدهم: قوموا يا شباب الإمام غير راض ... يا الله عالبحر. وقد صرخ أبو عفيف كريديه يومها: الله.... وقال: كأني رأيت شيخًا بثوب أبيض يمر أمامي.

وكان الشيخ عبد الرحيم الغاوي يتردد إلى مقام الأوزاعي، فأحضروا له يومًا أحد الأولاد كي يكبّسه، فحمله وحدفه من الشباك وجمد والد الطفل في مكانه، فقال لهم: روحوا هاتوه، فوجدوه يمشي بدون أي أذى. وفي مرة ثانية جابوا له ولد يكبّسه، فوضعه على الأرض وصار يمشي عليه.

روى والدي عن عمّه عبد الرحمن أن الشيخ مصطفى الرفاعي الكبير كان متوليًا على أوقاف مقام الأوزاعي، وكان يحتفظ بعدة علب من الحلاوة الطحينية، كان يأخذ منها هدية للأمراء عند زيارته لهم. وكان يخدمه شخص اسمه عمّار، يلثغ بالسين. وكان عمّار هذا أكولًا. كما كان للشيخ مصطفى فدّان يفلح أرض البساتين أطلق عليها اسم عنّاب. عاد المصطافون

في آخر الصيف إلى بلدتهم. نادى الشيخ مصطفى ولده عبد القادر (قدور) وقال له: اطلع هات علب حلاوة وضعها في الخرج. صعد الشيخ قدّور، وحمل علبةً فوجدها تخض، فتحها فوجد فيها أحجارًا. ومثلها علبة ثانية وثالثة. وأخبر أباه، فنادى هذا الأخير عمّارًا وسأله: من أكل الحلاوات، أجابه عمّار: العنّاب يا سيخي (شيخي). وكان الشيخ مصطفى راكبًا حماره وعمار واقف قربه، أمسك الشيخ مصطفى بلحية عمّار ورفعه ورماه أرضًا قائلًا: العنّاب؟ العنّاب طلع على السلم وفتح الباب وفتح العلب وأكل الحلاوات ووضع مكانها أحجارًا؟!

وذكر بأن المصطافين كانوا يأخذون ما يحتاجونه من المياه من بئر إلى يسار الباب القديم للمقام، رُكّبت عليها طلمبة لرفع الماء، وأن هذه الطلمبة كانت أحيانًا تتعطل، فكانوا ينادون عبد الرحيم دندن لإصلاحها، فيصلحها لقاء مبلغ معين. ويبدو أن تعطيل الطلمبة تكرّر، وكانوا كلّ مرة يقولون: جيبو دندن، نادوا دندن، حتى إن أحد الشعراء نظم أبياتًا بذلك عُلقت على باب المقام وهي:

خـرّت عليـك خرائـر التبشير … لمـا صـنعت طلمبـة للبيـرِ
وخـذ منـي نيشـان العلـى … يهـدى إليـك بشـعرة الخنزيـر
وأنـا ورفـاقي أقـول مهنئًـا … دم يـا دنيـدن بهنـا وسـرور

وكان عبد الرحيم دندن أول من ابتكر فكرة البيوت الجاهزة. فقد كان يجلب معه إلى محلة الأوزاعي قطعًا من الخشب يشد بعضها إلى بعض ببراغي، فيحصل على غرفة، ثم يقوم بنهاية فصل الصيف بفكها ونقلها إلى

بيروت. إضافة إلى مهارته بتجبير الأطراف المكسورة، كما ذكرنا في مقال سابق.

ومما روي أن الشيخ نجيب ناصر (والد مختار) كانت له غرفة في محلة الأوزاعي قرب المقام. سرقت ذات ليلة درفة من شباكه. وبعد أيام توفي شخص - يبدو أنه لم يكن حسن السيرة -، فأرادوا دفنه ولم يجدوا من يُلقنه، فاستعانوا بالشيخ نجيب، فحضر ووقف عند قبره وأخذ يقول: هلق بيجي الملكان (أنكر ونكير)، فإذا سألاك وقالا لك: يا كلب يا خنزير من سرق شباك الشيخ نجيب، فقل له: أنا. وهنا تدخل المشيعون قائلين: لا يا شيخ نجيب هلق ما وقته. فقال: متى وقته؟ ... الآن وقته ... بدهم يحاسبوه».

روى سعد الدين فروخ أن الحاج حسين بيهم كان يرسل إلى مقام الأوزاعي في كل سنة قلّتين من زيت الزيتون لإنارته، وجاء من يقول للحاج: إن خادم المقام يأكل الزيت ولا يستعمله لإنارة المقام، وفي السنة التالية أضاف الحاج حسين إلى الزيت شيئًا من زيت الكاز، ولما قام بزيارة المقام قال له الخادم: الزيت الذي أرسلتموه هذه السنة له طعم غريب يا حاج حسين، فأجابه الحاج: لأنه للإنارة وليس للاستعارة.

قال والدي نقلًا عن جدنا أبي مصطفى: انتقلت العائلة ذات يوم إلى محلة الأوزاعي، وبقيت في البيت خادمة صغيرة اسمها زينب وطنجرة نحاسية نستها الأسرة. حمل الجد عصاه وتوجه إلى خان في محلة السور لاستئجار دابّة فلم يجد واحدة. واحتار فكره بين أن يعود إلى البيت،

فيقلق بال أهله، أو انتظار من يحضر دابة. وطال انتظاره دون جدوى، فقرر التوجه إلى الأوزاعي سيرًا على الأقدام. وبدأ بالمسير وكان المساء قد خيّم، وعندما وصل إلى وطى المصيطبة - حيث مبنى نقابة المهندسين اليوم - كان الليل قد أرخى سدوله وأمسى دامسًا، ولم يكن في ذلك الزمن أية أبنية أو مساكن في طريقه.

وفجأة توقفت زينب خائفة. فقال لها: ما لك؟ قالت: يا معلمي الضبع الضبع. خفض قامته وحدّق ببصره يمنة ويسرة، فشاهد بالفعل ضبعًا تلمع عيناها، احتار في أمره، ثم خطرت له فكرة، فقال لزينب: اسكتي ولا تخافي، هيدا مش ضبع هيدا كلب، ثم أمسك العصا بيمينه وأخذ يقرع بها على الطنجرة التي يحملها بيساره، ورأى الضبع تدور وتسير أمامه، فإذا توقف عن القرع توقفت الضبع وتلفتت نحوه، فإذا عاود الضرب عاودت السير، وهكذا كانت المسافة بينهما محدودة باستمرار.

ثم أخذ ينحرف في خط سيره قليلًا قليلًا نحو اليمين باتجاه الشاطىء، مقررًا بينه وبين نفسه بأن الضبع إذا حاولت الاقتراب منه حمل البنت ونزل البحر، وكان يتقن السباحة جيدًا. وظل ماشيًا جنب الشاطىء، والضبُعُ تتقدمه على طنين الطنجرة، حتى وصل إلى حمّام الجِمال (بركة تقع قبل المقام بقليل، كانوا يغسلون فيها الجمال)، عندها اختفت الضبع عن ناظريه. فتابع سيره إلى أن أصبح تجاه باب المقام الخارجي المطل على البحر، فأسرع إلى أهله يخبرهم بما حصل معه. وقد دبّ الرعب في المصطافين، ثم علموا بعد أيام بأن الضبع مرّت قرب مخفر شيخ الضهرة

(قرب قصر رياض الصلح)، ورآها خفير أطلق عليها عيارًا وقتلها. ثم حملوها على حمار وداروا بها حول البيوت ليعلموا الأهالي ويُطمئنوهم.

وكان نوع من الزنبق يدعى في بيروت بزنبق القزّ، ينبت في جوار المقام، قال فيه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله:

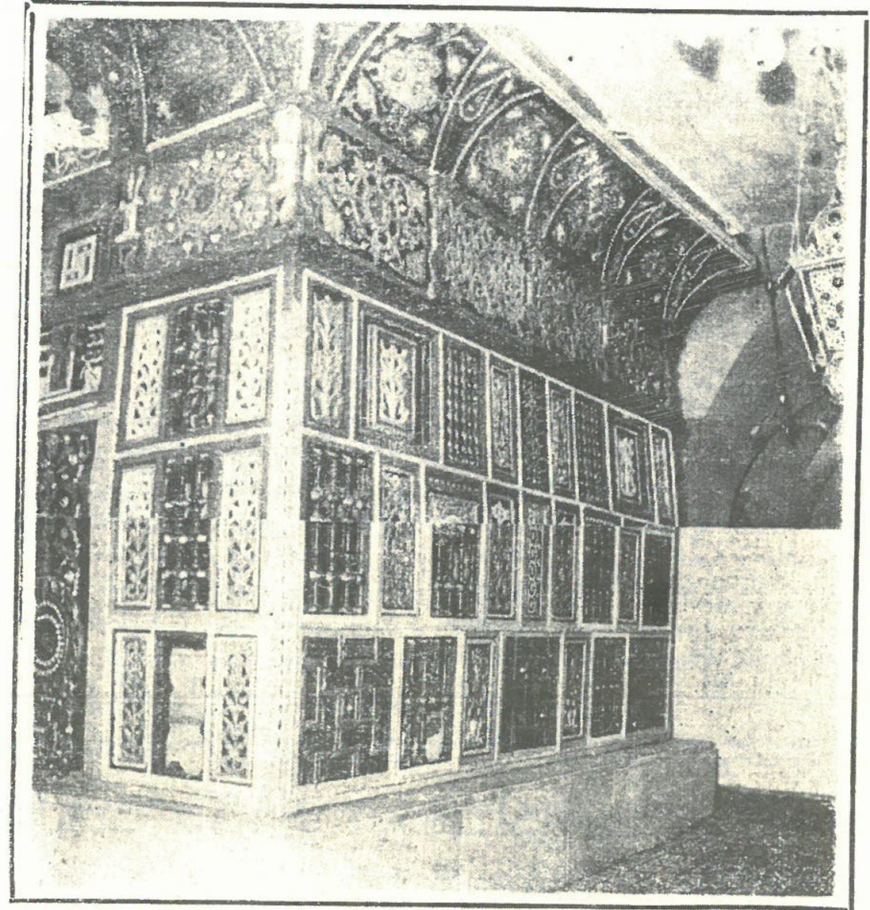
انظر إلى الزنبق القزّي حين بدا ... وشُمّ من نفحه الشافي من الوصبِ
فقد غزا ريحه في ريح ذي نتنٍ ... ففرّ منهزمًا في خوف مضطرب
لو لم يكن غازيًا ما كان توّجهُ ... والي الزهور بريشات من الذهب[1]

فقد وجدت في مخطوطة بعنوان: «خبايا الدراية» للمفتي الفاخوري أنه ألّف رسالةً في مناقب الإمام الشافعي جاء في ختامها: «هذا آخر ما يسّره الله ممّا تعلق به فكري وخاطري وجرى به قلمي، في ترجمة ومناقب هذا الإمام الجليل، وذلك في زيارتي لمقام بركة بيروت، وعالم البلاد الشامية، الإمام المجتهد أبي عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قدس الله سرّه، وأفاض علينا من أنوار علومه ومعارفه، ونفعنا وإخواننا وأولادنا ومحبينا بأسرار أنوار عوارفه، آمين اللهم آمين. وذلك يوم السبت لثنتي عشرة تبقى من شهر ربيع الثاني سنة ١٣١٩ تسعة عشر وثلاثمائة وألف (١٩٠١م)، بقلم أحقر الورى خادم أهل العلم والفقرا، عبد الباسط بن علي بن الحسن بن محمد بن أحمد فاخوري البيروتي، غفر الله له ولوالديه وأولاده وإخوته. آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين والله أعلم»[2].

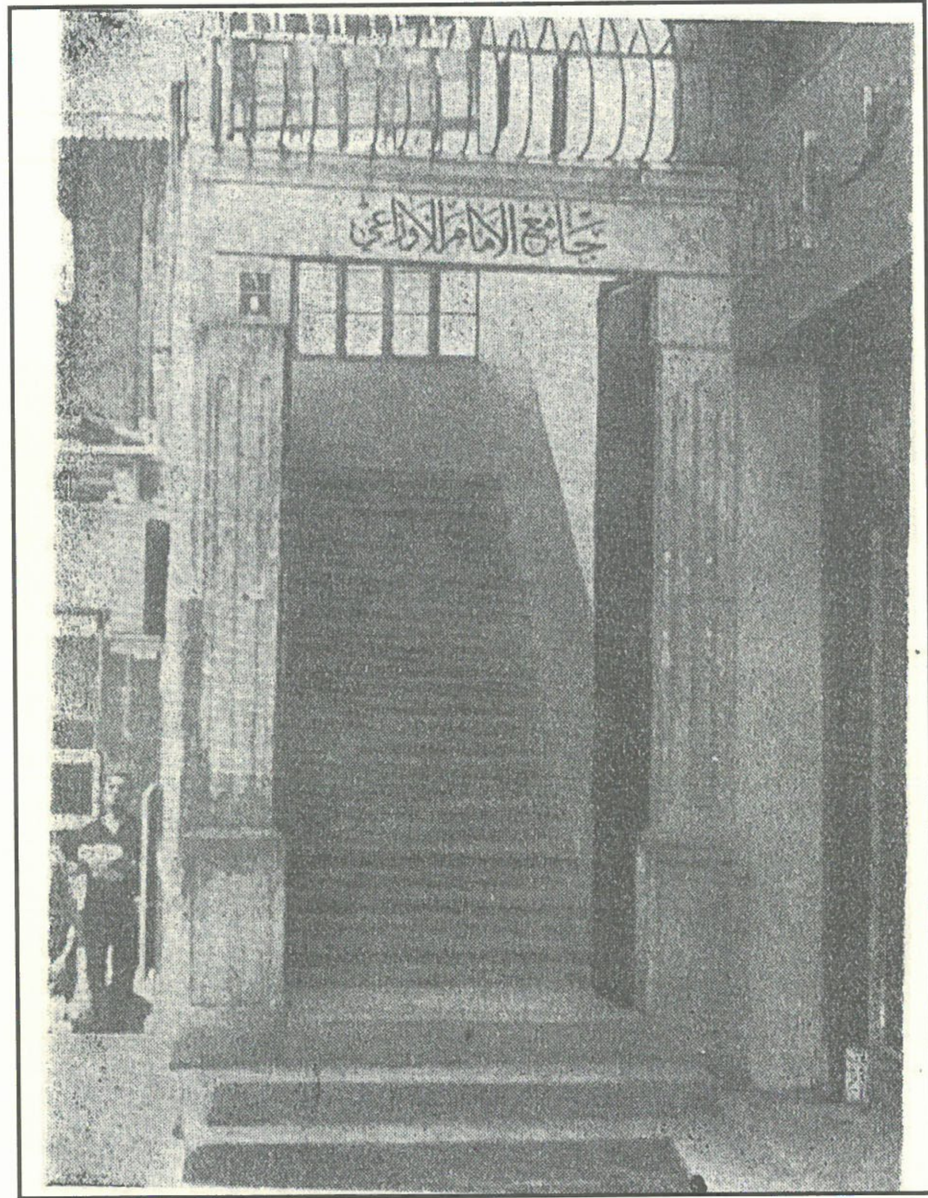
---

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١٨٠/١).

(٢) خبايا الدراية، للمفتي الشيخ عبد الباسط فاخوري (ص٦٨٥).



مرقد الامام يحوطـه قفص خشبي مزخرف بالنقوش عـلى طراز عربي وقد جمّله بالالوان السيد عبد الرحمن ابن الشيخ توفيق الرفاعي



جامع الأوزاعي سوق الطويلة



مبايعة بين آل الحشاش عقارات قرب زاوية الإمام الأوزاعي وقبة العشرة وهي بخط محمد بن علي المكوك

بيت الأوزاعي لصيق سور بيروت الغربي

[illegible]

حكر عشرة قروش لزاوية الأوزاعي على جلّ تين بحي العقال بمزرعة رأس بيروت

محاسن المساعي

في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي

رضي الله عنه

عن نسخة مخطوطة وجدت في مكتبة برلين الملوكية بقلم الشيخ
زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب غفر الله له

نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه وتصديره
بمقدمة عن الامام الأوزاعي وبتراجم العلماء له :

عطوفة الاستاذ العلامة الكبير

الأمير شكيب أرسلان

أحد أعضاء المجمع العلمي العربي
عفا الله عنه



أقدم صورة مأخوذة لمقام الإمام الأوزاعي. وتبدو القناطر الغربية للمقام من جهة البحر. وفي الصورة الشيخ عبد القادر الرفاعي وإلى جنبه المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري وإلى يساره ولدا المفتي: الشيخ علي فاخوري وعلاء فاخوري (كنفاني)

زاوية ابن عراق

زاوية ابن عراق من مكان للصلاة إلى فسحة للعبة الغميّضة

من المتفق عليه أن لأماكن العبادة والصلاة قدسيتها التي يجب مراعاتها، وكذلك الزوايا التي كانت تقام فيها الصلوات والذكر. من زوايا بيروت التي بقيت صامدة على مر الزمن زاوية الشيخ أبي النصر اليافي والتي حل محلها مؤخرًا جامع محمد الأمين ﷺ. وزاوية محمد بن عراق التي كانت تقع إلى يمين الداخل في السوق الطويلة، وظهر بناؤها وما كان فيها من أضرحة خلال إزالة ركام ما خلفته الحرب الأهلية سنة ١٩٩١م.

ومن دواعي الفخر أن أكون أول من نبّه إلى أهمية تلك الزاوية والتعريف بها، وذلك في شهر تموز ١٩٩١م في مقال نشرته في مجلة الأفكار، مشفوعًا بصور أخذتها شخصيًا للزاوية من الداخل ومن الخارج، وكان ذلك قبل سنة تقريبًا من الضجة التي أُحدثت حولها.

وأذكر أنني في تلك السنة وبالتحديد في ١٨/٥/ ١٩٩١م زرت مديرية الأوقاف الإسلامية، يوم كان سماحة المفتي الحالي الشيخ عبد اللطيف دريان مديرها بالوكالة، وقد تكرم وأطلعني على السجل الخاص بالأوقاف الإسلامية، وفيه وثائق تعود لما قبل سنة ١٢٥٩هـ، وهو التاريخ الذي تبدأ فيه السجلات الشرعية الموجودة حاليًا.

كما أطلعني على بعض اللقى الحجرية، والتي يجب تخصيصها في مكان خاص كمتحف. وكان من هذه اللقى لوحة حجرية سميكة عليها سطران أحرفهما نافرة، نُقلت سنة ١٩٨٢م من داخل زاوية ابن عراق. كتب في السطر الأول بالتركية: «قطب العارفين الشيخ محمد العراقي تربة حضرتلري لطيفه سي»، وكان نص السطر الثاني بالعربية: «تربة قطب العارفين الشيخ محمد العراقي اللطيفه».

ونسارع إلى القول بأن لفظ «تربة» لا يعني أن محمد بن عراق مدفون فيها، وإنما سميت كذلك لأنها كانت زاوية للصلاة والذكر والتدريس، أقامها محمد بن عراق دفين المدينة المنورة. وقد دفن في الزاوية «التربة» بعض أئمة الزاوية وتلامذتها، منهم الشيخ عبد الغني البنداق.

وفي سيرة الشيخ محمد بن عراق نقول باختصار: أنه محمد بن عبد الرحمن بن عراق الدمشقي، كان من أولاد المماليك الجراكسة، وكان ذا مال عظيم. ولد سنة ٨٧٨هـ، وقرأ القرآن الكريم وختمه تجويدًا. اشتغل بالحساب وجوّد الخط، وأخذ علم الرماية، ثم توجه إلى بيروت لاستيفاء قطاع لوالده، فسمع وهو فيها برجل من الصالحين يسمى سيدي محمد الرايق فزاره ودعا له، وقال له: يا ولدي إن أحببت التماس البركة من يد أهلها فعليك بأحد ثلاثة: رجل ببيروت يسمى الشيخ عفان، ورجل في طرابلس يسمى الشيخ ياسر، والثالث في صيدا يسمى الشيخ عمر المبيض. فيسر الله له اجتماعه بالثلاثة.

ثم توجَّه ابن عراق إلى دمشق، واشتغل بالفروسية والرمي واللهو، إلى أن تيسر له من علّمه التفسير والفقه والحديث والأصول والبيان، فلزم الزهد والرياضة على يد شيخه علي بن ميمون المغربي الفاسي، والذي كان اجتماعه به في الزاوية الحمراء، التي كانت بجوار الجامع العمري الكبير في بيروت، وزارا معًا مقام الإمام الأوزاعي.

وبقي ابن عراق في بيروت خمس سنوات، ثم ذهب إلى دمشق إلى أن أذِن له ابن ميمون بالعودة إلى بيروت والقعود فيها لتربية المريدين. وسأله شيخه عن أماكن في رؤوس الجبال، فذكر له مجدل معوش (قرب جزين)، فهاجر إليها سنة ٩١٧هـ، وصحبه ابن عراق وولده وشخص ثالث، ولازموه خمسة أشهر إلى أن توفي ابن ميمون، ودفن في تلك القرية.

وبقي ابن عراق في مجدل معوش ست سنوات، وعاد إلى بيروت سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وبنى دارًا لعياله ورباطًا للفقراء، فقصده الناس وازدحم العلماء والطلاب على زاويته. وتوجه سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م إلى الأراضي المقدسة وتوفي فيها[1].

يذكر أن السلطان سليم الاول دخل دمشق في أول رمضان ٩٢٢هـ أثناء وجود محمد بن عراق فيها. وذلك قبل انتقاله إلى بيروت وذيوع

---

(١) جامع كرامات الأولياء، ليوسف النبهاني (١/١٨٠)، والكواكب السائرة، للغزي (٢/٥٩)، والأوزاعي، لطه الولي (ص١٣٨).

شهرته، وأرادت السلطة العثمانية الجديدة تكريمه، فأنشأت سبيلًا لزاويته ولزاوية الإمام الأوزاعي المقابلة في السوق الطويلة.

نقل داود كنعان سنة ١٨٧١م في جريدة الجنان نص تأريخ إنشاء السبيل كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذا السبيل المبارك برسم الزاوية العمرية المعروفة بزاوية سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي نفعنا الله ببركته. أنشأه لوجه الله تعالى أحد العمدة الشريفة، من المرحوم مولانا السلطان سليم خان تغمده الله برحمته.

أنشأه أضعف العباد سليمان الصوباشي والكاتب ببيروت، تقبل الله، بإشارة الفقير إليه تعالى المستمد المدد من الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد بن عراق تغمده الله برحمته ونفعنا ببركته. وعمّر هذا السبيل بإشارة الفقير إليه الجليل الشريف الشيخ عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت، تقبل الله ونفعنا ببركاته. بتاريخ الثامن شهر ذي القعدة الحرام سنة ٩٣٥، الموافق ١٤ تموز ١٥٢٩ مسيحية».

والصوباشي تركية مركبة من صو: الماء، وباشي: الرئيس، أطلقت في العهد العثماني على وظيفة عسكرية تقابل مدير الشرطة، وكانت تعني: ضابط البلدة المعين من قبل السلطان، ويلفظها البعض: شوباصي.

ولم يعد للسبيل المذكور من أثر، ولا كلف أحد نفسه أمر حفظ لوحة التأريخ مع بقية القليل من الآثار الإسلامية البيروتية، لا قبل إنشاء مديرية الأوقاف ولا بعد ذلك. وتحولت زاوية ابن عراق إلى مدرسة دينية ومسجد في آن معًا[1].

كتب ابن عراق في زاويته ببيروت عدة مؤلفات، منها: «النفحات المكية»، و«هداية الثقلين في فضل الحرمين»، و«مواهب الرحمن من كشف عورات الشيطان»، وكتاب «سفينة النجاه لمن إلى الله التجا» جوابًا عن مكاتبات وردت إليه وهو في بيروت من علماء يشكون ما حدث في القرن العاشر من بدع ومنكرات.

وقد ظلت الزاوية مكانًا للدرس والصلاة والذكر إلى زمن متقدم من العهد العثماني. فقد ذكر مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله في «ديوانه» بأن الشيخ عبد الرحمن الكزبري زار بيروت سنة ١٨١٣م وحل ضيفًا في بيت المفتي المذكور، الذي مدح ضيفه بقصيدة مطولة ذكر فيها المقامات والمزارات والزوايا التي زارها الكزبري، فكان من بينها زاوية ابن عراق.

تناقل العلماء من دروس ابن عراق في زاويته قوله: «إني أرى الخمول نعمة وكل أحد يأباه، وأرى الظهور نقمة وكل أحد يتمناه، ألا وإن في الظهور قصم الظهور».

---

(١) انظر: الزاوية العمرية.

ونسب إليه ما أملاه على أحد تلامذته، وهو: «إلهي، كلما أذنبت دعتني سابقة نعمتك إلى التوبة، وكلما تبت جذبتني أزمّة قدرتك إلى المعصية، فلا التوبة تدوم ولا المعصية تنصرف عني، وما أدري بماذا يختم لي، غير أن سابقة الحسنى منك أوجبت لي حسن الظن بك، وأنت عند ظن عبدك بك، فهب لي منك توبة باقية، واصرف أزمة الشهوات عني، وامح زينتها من قلبي بزينة الإيمان، وقني من الظلم والبغي والعدوان ...».

وروي أن محمد بن عراق كان يأمر أصحابه بحفظ القرآن الكريم، وكان يقول كل ليلة بعد صلاة العشاء عقب قراءة «الملك» ثلاثة أبيات. ويبدو أن هذا التقليد استمر في بيروت حتى عهد ليس ببعيد، فقد ذكر المفتي الشيخ عبد الباسط ابن الشيخ علي الفاخوري في مخطوطة كبيرة له بعنوان: «فرائد الفوائد» كتب قسمًا منها في صفر ١٣٢٢هـ/ نيسان ١٩٠٤م (قبل وفاة المفتي المذكور بسنة تقريبًا)، ومما ذكره في المخطوط قوله: «كان العارف ابن عراق المدني رحمه الله تعالى يعلم تلامذته أبياتًا لحفظ القرآن، فيحفظونه إذا لازموا عليها، وقد حفّظنيها والدي رحمه الله تعالى حيث كنت صغيرًا وأنا في المكتب وهي:

كلام قديم لا يملّ سماعه ... تنزّه عن قولي وفعلي وقوتي
به أشتفي من كل داء ونوره ... دليل لقلبي عند جهلي وحيرتي
فيا ربّ متّعني بسرّ حروفه ... ونوّر به سمعي وقلبي ومقلتي»[١]

(١) فرائد الفوائد، للمفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري.

ولا شك بأن الشيخ علي الفاخوري حفّظ هذه الأبيات قبل ذلك لتلميذه الشيخ محمد الحوت الكبير.

وهذه الزاوية المباركة التي لم يبق منها إلا قبتها وبعض جدرانها أصبحت «ديكورًا» للفرجة في أسواق بيروت، وهي مشرعة من الجهات الأربع، يدخلها من يشاء من الكبار ويدخلها الصغار ويختبئون فيها لاعبين لعبة الغمّيضة، بدل أن تسيّج وتوضع عندها لوحة تذكر بانيها وتاريخها، علمًا بأن الصور القديمة للزاوية تنبئ بوجود مكبر للصوت على أحد جدرانها لإذاعة الأذان، وكان يفترض ترميم مسجد الأوزاعي المقابل لها، وتغطية جدرانه بحجر من لون أحجار الزاوية.

فإذا كان القمر لم يخلق للسهر، فإن الزاوية والمسجد لم يبنيا للسمر. ولسنا نعترض على وجود الدكاكين والمخازن حول الزاوية والمسجد، فذلك من خصائص المدن الإسلامية، ولكن الساحة المشار إليها أصبحت فسحة للهو واللعب وإقامة المهرجانات ومعارض الأزياء وملكات الجمال والعري والأناقة والغناء الهابط أكثره. وقد يقال بأن ذلك لتشجيع التجارة وباب لازدهار الأسواق، وكما قيل في أحد الإعلانات الغريبة العجيبة من دعوة للتسوق «من أجل اعادة العزّ لأصحاب المحلات التجارية»، ومن يعيد العز للعمال والفلاحين وصغار الموظفين والطبقة التي كانت متوسطة؟

ونقول: إذا كان لا بد من تشجيع التجارة فلتراعى حرمة الموقعين المذكورين: الزاوية والمسجد. يذكر أن السيد المسيح عليه السلام عندما دخل القدس أثناء تمرد اليهود على الضرائب الرومانية وسئل عن رأيه،

طلب دينارًا فتأمله وقال: أعطوا ما لله وما لقيصر لقيصر. (كان رسم القيصر على أحد وجهي الدينار). فإذا أريد ازدهار التجارة والأسواق فلا يكن ذلك على حساب قدسية أماكن العبادة والذكر. وأملنا في المرجعية الدينية الجديدة بأن تعيد وصل ما انقطع وتصلح ما وقع.

الطراز المعماري لقبة ابن عراق

لم يبق من مدرسة ابن عراق وزاويته ورباطه سوى قبة لا تزال صامدة في أول سوق الطويلة، ويعود بناؤها إلى سنة ٩٢٣هـ، يؤيد ذلك أن بناء القبة يتوافق مع الطراز المعماري المملوكي الذي كان سائدًا في وقت بنائها. وقد زرنا القبة المذكورة منذ أسابيع، وأخذنا صورًا لها.

والقبة عبارة عن حجرة مربعة، سقفها قبة محمولة بواسطة أربعة عقود، استعملت في أركانها الأربعة مثلثات لتحويل المسقط المربع إلى مثمّن لتسهيل عملية التغطية بالقبة.

وللقبة طنبور (رقبة) DRUM مثمّن بارتفاع متر ونصف تقريبًا، في منتصف كل ضلع من أضلاعه شباك معقود بعقد دائري، توجد فتحة في جدار البناء الشرقي يمرّ منه إلى حجرتين كانتا مخصصتين لإمام الزاوية وحفظ الكتب، أو لحفظ أدوات المبنى ولوازمه كالبسط والقناديل. وفي الجهة القبلية الغربية من المبنى قسم مفرز بحائط يبدو أنه كان مدفنًا لشخص مجهول، وما تزال بلاطة الضريح موجودة بين الركام. وفي الحائط الشمالي من المبنى آثار فتحة باب صغير قليل الارتفاع، طرفه الأعلى بشكل عقد قد يكون المدخل الأساسي القديم للزاوية.

شغلت قضية العبور من المربع إلى المثمّن بال المعماريين، منذ القدم كان الرومان قد استخدموا القباب لتغطية المساحات الواسعة بالبناء بدلًا من الخشب، وكان يراعى أن تكون المسافات ذات مسقط دائري أو كثير الأضلاع، وتميزت العمارة البيزنطية باستخدام القباب وأنصافها التي تبدو من الخارج على هيئة (قصعة)، فتحاط القبة من الخارج بنطاق دائري عامودي قليل الارتفاع، بمثابة رقبة كاذبة تحتوي على شبابيك للإنارة، يعلوها الجزء الباقي الظاهر من القبة.

ويشير المهندس فريد شافعي إلى أن انتشار استعمال القباب وأنصافها يرجع الفضل فيه إلى العرب الشاميين، الذين ابتكروا وأنضجوا فكرة استعمال المثلثات الكروية للانتقال بالمساحات المربعة إلى مناطق مستديرة ترتكز عليها الحافات السفلى للقباب. كما يذكر بأن استعمال الحجر لبناء القباب يرجع الفضل فيه إلى الفنانين والصنّاع الشاميين، الذين مهروا في استعمال الحجر للبناء.

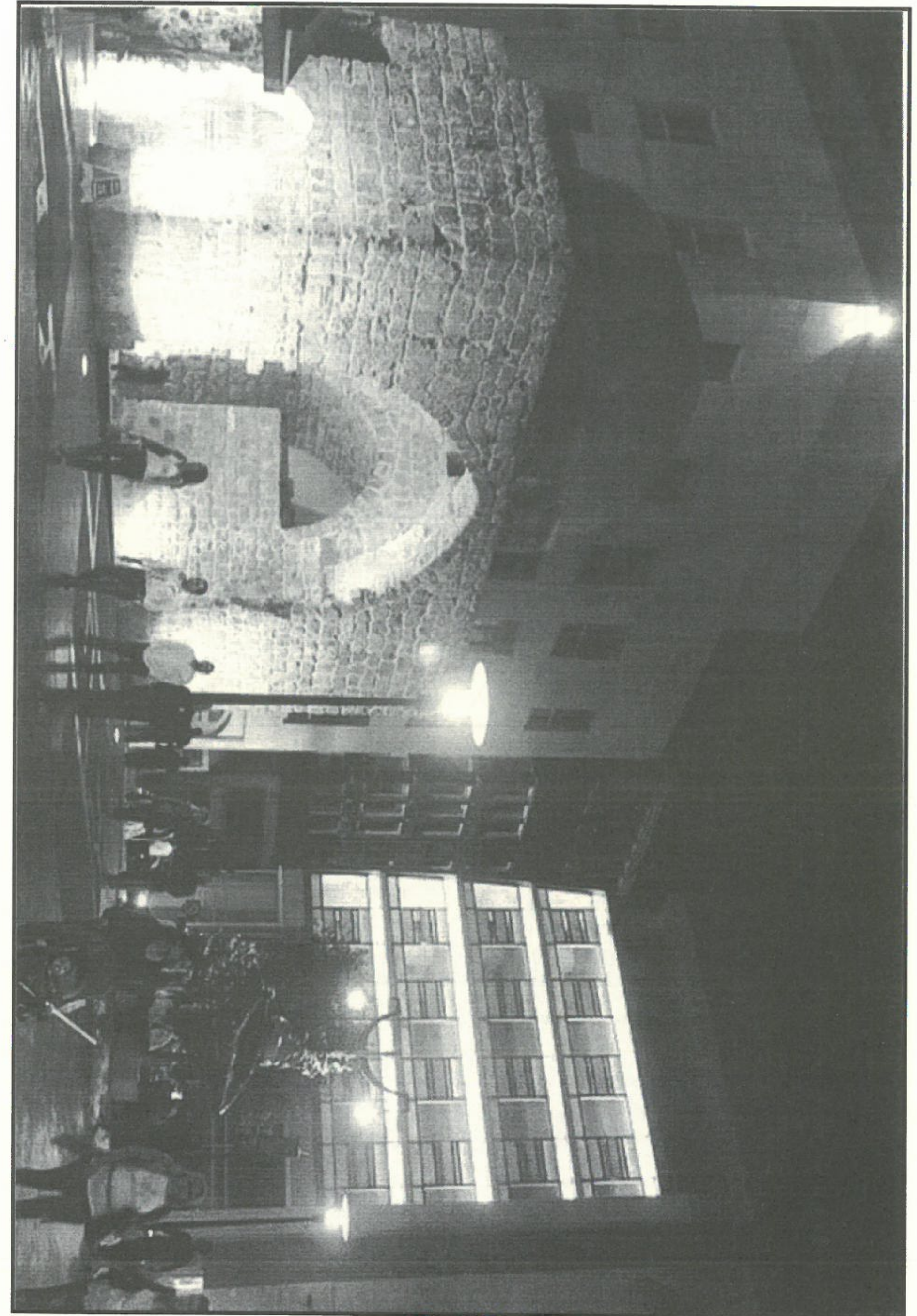
ويبدو أن الشبابيك الأربعة الصغيرة الموجودة في منتصف أضلاع رقبة القبة يعود طرازها لما بعد عصر الولاة، وله أشباه في الفترة الأخيرة من العصر الفاطمي بالقاهرة، واستمر إلى عصر المماليك، مما يجعلنا نرجح أن قبة ابن عراق أنشئت سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م على أيدي صناع وفنانين شاميين مهرة، قدموا مع ابن عِراق إلى بيروت، واشتغلوا في بناء الزاوية والقبة، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن قبة ابن عراق أقدم أثر معماري عربي موجود في بيروت.

□ مقام زاوية ابن عراق في مدخل سوق الطويلة □

في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت حضرت المرأة خديجة بنت الحاج مصطفى دبوسي البيروتية العثمانية العاقلة
الراشدة المعرفة بتعريف ابنها مصطفى ابن الحاج سعيد الثعالبي والحاج محمد ابن الحاج صالح ادريس البيروتيين
العثمانيين العارفين بها معرفة شرعية وكلت الحاضر معها في المجلس المزبور محمد حلبي ابن الحاج عبد الله [illegible]
ببيع ما تملكه وهو الثلث ثمانية قراريط من جميع الدار المشتملة الكائنة في [illegible] داخل مدينة
بيروت يحدها قبلة دار السيد محمد [illegible] وشمالا دار الشيخ احمد الهندي وشرقا الطريق السالك وغربا
زاوية الشيخ العراقي تتمة الحدود بيعا باتا من السيد محمد العلايلي بستة الاف قرش [illegible]
بقبض الثمن المحرر وكالة صحيحة شرعية مقبولة بالمواجهة قبولا شرعيا وبناء عليه صدر التوكيل
على الوجه المشروح صار التصديق عليه من طرف المحكمة الشرعية في غاية جمادى الاولى سنة
سبع وتسعين ومائتين والف ١٢٩٧

زاوية الشيخ العراقي (ابن عراق) ١٢٩٧هـ

قبة ابن عراق



زاوية بني زنتوت

اكتشاف زاوية بني زنتوت بجوار دير السنطة في سوق القطن

يقول داود كنعان بأن سوق القطن كان أعظم أسواق بيروت شأنًا لمبيع الجملة. وقد حدد موقعه بدءًا من مخفر الميناء صعودًا على خط مستقيم بشارع فوش حتى بناء البلدية الثانية (التي عرفت بمبنى المالية القديمة)، فيتفرع منه ثلاثة ممرات:

أولها: عند مدخل جامع الدباغة، حيث يتصل بخان شيخ المكارية (حسن الحص) وبوابة الدباغة، ومنها إلى مدافن الخارجي، وصولاً إلى ساحة الاتحاد (البرج).

والممران الآخران: يبتدئان من بناية البلدية الثانية، واحد للشرق ويدعى سوق الخمامير وزاروب سابا، وواحد للغرب يصل سوق القطن بسوق البياطرة، ومنه يصل إلى شارع (الفشخة) ويغان.

ويظهر من حوادث سنة ١٨٧٨م أن سوق القطن كان منخفضًا عن بقية الأسواق، بدليل أن مياه الأمطار دخلت سنتها عدة مرات إلى محلات السوق وأغرقتها، كما ذكر بأن قنوات السوق لم تكن مستترة، بحيث سقط فيها بعض العميان وتهشموا.

أما الزاوية الكائنة في سوق القطن فلم يكلف أحد نفسه من الذين كتبوا في تاريخ بيروت وأهلها بالتدقيق والتحري عن واقف الزاوية المذكورة وتاريخها. واكتفوا جميعًا بنقل ما كتبه آخرون بدون تدقيق أو تحليل، مما يؤكد ما قلناه ونقوله دائمًا بأن تاريخ بيروت المعماري والاجتماعي والثقافي وحتى الديني لم يكتب بعد، وأن الحاجة ماسة إلى تضافر الجهود المشتركة من أجل إزالة غبار السنين وركام العصور مثلما حصل في حفريات وسط بيروت ....

كان عبد الباسط الأنسي أقدم من ذكر زاوية القطن في «دليل بيروت» الذي أصدره سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩- ١٩١٠م وقال فيه: «لم يعلم تاريخ بنائها. يروى أن هذا المسجد بناه أحد المغاربة، ووقف له بعض مخازن هي الآن بأيدي المتولين عليها من أهل البلدة».

في حين أن الشيخ طه الولي قارب الموضوع في كتابه «تاريخ المساجد» فقال: بأن الزاوية هي عبارة عن دكان وقفها رجل من آل العريس لتكون مسجدًا يؤدي فيه تجار سوق القطن صلاتهم[1].

يذكر أن سوق القطن كان يضم عدة مخازن لتجار بيروت، إضافة إلى الدور والمؤسسات الدينية. فمن المخازن: المخزن المعقود بالمؤن والأحجار الخاص بالخواجة أيوب بن عبد الله الدهان، ومخزن متري وحنا ولدَي بشارة الدهان، ودكان معقودة مقابلة لدار أولاد وهبة يارد، وقفها

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، لطه الولي (ص٩١ هامش ٦).

صالح سعادة مع أملاك أخرى على أولاده في غرة ذي القعدة الحرام سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م[1].

ومخزن مسقوف بالجسور والأخشاب كان بتملك عمر آغا بن محمد رمضان باعه سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣م إلى أولاده سعدية وعابدة وعبد الغني ويوسف مرابعة فيما بينهم بمبلغ ستة عشر ألف قرش فضية أسدية. كما حوت السوق دكانة معقودة بالمؤن والأحجار تملك فيها عاتكة بنت مصطفى قليلات ستة قراريط، أوقفتها في شهر شوال ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م على قفة الخبز الموقوفة على الفقراء[2].

وكان الحاج محمد ابن الحاج صالح سوبرة زوج ليلى بنت الشيخ درويش الحوت (أي شقيقة العلامة الشيخ محمد الحوت) يملك فرنًا في سوق القطن، وقد أوصى في السابع والعشرين من شهر صفر الخير سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٥م ورتب بأن يؤخذ مئة وخمسين قرشًا سنويًّا من أجرة نصف الفرن المذكور إلى صالح البئر النابع الكائن في ملكه بمحلة القنطاري، الذي سبق له أن وقفه على بناته وزوجته، وذلك من أجل ترميم البئر وثمن حبال ودلاء وتعزيل[3].

وقد ضم سوق القطن دكانة كان نصفه جاريًا في وقف زاوية المغاربة، والنصف الآخر ملك جرجس مقبل، ودكانتين وقف بني حجاج.

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٣٥-٣٦).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٤هـ (ص١٤٩).

(٣) السجل الشرعي لسنة ١٢٧٢هـ (ص٢٧) تاريخ ٢٧ صفر ١٢٧٢هـ.

ومن دور محلة سوق القطن دار نقولا باز، ودار بني يارد، وفيها أقبية خاصتهم أيضًا، ودار جرجس القسيس صعب، ودار الياس سابا، وعبد القادر غندور.

وفي التاسع عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م باع محمد بن علي الحشوة وعائشة بنت أحمد حاسبيني أسهمًا شائعة في دار كائنة في زقاق الشيخ رسلان التابع لمحلة سوق القطن إلى رابعة بنت محمد الحشوة. وكانت دار ورثة فرنسيس يارد في السوق المذكورة أيضًا[1].

وقد أشارت بعض الوثائق الشرعية إلى أن سوق القطن كانت تضم ما عرف «بدير السنطة»، فقد ذكرت وثيقة بيع محمد الحشوة وعائشة حاسبيني أنه يحد الدار المبيعة غربًا «دير السنطة»، كما أن وثيقة بيع أيوب الدهان مخزنه في العشرين من شهر شوال المكرم سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧م ذكرت حدود المخزن بأنها «شرقًا الطريق السالك الآخذ إلى الأسكلة، وغربًا دير السنطة»[2].

ولا علاقة بين السنطة والسنطية، وقد كتبت بالطاء على طريقة البيارتة بتفخيم التاء وتخفيف الطاء في اللفظ، كما يقولون طوفيق بدل توفيق، ومتبخ بدل مطبخ، وبتيخ بدل بطيخ الخ. فدير السنطة يقصد به الدير الذي سكنه رهبان الأرض المقدسة «تيراسانتا» Tarra Sainta.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩١هـ رقم ١٧٠.

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٨٤هـ رقم ٢٠.

يذكر الدكتور بيار مكرزل: «بأن القديس فرنسيس الأسيزي أسس سنة ١٢٠٩م رهبنة الفرنسيسكان في الأرض المقدسة، وقد زار القديس فرنسيس نفسه الأراضي المقدسة، وأقام عدة شهور في مصر وسورية وفلسطين، ما بين عامي ١٢١٩ و١٢٢٠م، زار خلالها السلطان الأيوبي الكامل واجتمع به وتحاور معه. وبعد تلك الزيارة تأسست أديرة في معظم مدن الشام ومنها بيروت. وذلك حتى سنة ١٢٩١م حين خضعت البلاد لحكم المماليك.

وبعد سنة ١٣٧٠م سمح للرهبان الفرنسيسكان بالعودة إلى فلسطين وبيروت، وقاموا بمهمة الاهتمام بالحجاج الأوروبيين الذين كانوا يمرون في بيروت بطريقهم إلى فلسطين، وأقاموا علاقات صداقة مع سكان بيروت المسلمين، كما ذكر الأب سوريانو رئيس دير بيروت أواخر القرن الخامس عشر، ثم هجروا ديرهم وغادروا بيروت سنة ١٥٧١م، وعادوا إليها سنة ١٨٣٠م»[1].

يمكن اعتبار ورود الإشارة إلى دير السنطة في محلة سوق القطن في أواسط القرن التاسع عشر دليلًا على ممارسة الرهبان الفرنسيسكان مهمتهم في الدير المشار إليه، الذي لا يبعد كثيرًا عن دير المخلص القديم، علمًا بأنه ورد بأن الرهبان المشار إليهم اشتروا بيت مارون النقاش (في الصيفي) الذي مثل فيه أولى المسرحيات، واتخذوه ديرًا لهم على اسم القديس يوسف.

---

(١) تاريخ الرهبنة الفرنسيسكانية في الشرق، بيار مكرزل، موقع رعية اللاتين، الناصرة.

وبالعودة إلى زاوية سوق القطن فقد تمكنا من المقارنة بين الوثائق والمرويات إلى اكتشاف أن زاوية سوق القطن هي أصلًا زاوية بني زنتوت، وهم من الأسر البيروتية ذات الأصول المغربية.

ونبدأ من السجل الأول لمحكمة بيروت الشرعية التي افتتح سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م، وجرى فيه تدوين أوقاف المساجد والزوايا. فقد ورد الصفحة ٥٣ من السجل المشار إليه: «علم بيان أوقاف زاوية القطن الواقعة بالقرب من المينا باطن مدينة بيروت»، وتبين أن الأوقاف المذكورة هي عبارة عن: دكان في سوق العطارين أسفل دار بني الميقاتي، لصيق دكان بني النقاش، سكن الحاج محمد سلام والحاج عبد القادر العريس. ونصف دكان في سوق القطن لصيق الفرن شركة أولاد سعادة، بالنصف الثاني سكن المعلم يوسف المالطي الخياط[1].

وفي خزانتنا وثيقة شرعية محررة في غرة محرم الحرام سنة ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤م لدى قاضي بيروت الشرعي في حينه الشيخ عبد الهادي قرنفل، وتثبت «أنه حضر القاضي الشرعي المشار إليه الحاج بكري ابن المرحوم الشيخ حسن زنتوت الشهير نسبه الآن (أي بتاريخ الوثيقة) بالعريس ...، ووقف .... جميع الدكان المعروف سابقًا بدكان بني سلطاني، المعقود بالمؤن والأحجار الكائن أسفل دار بني الميقاتي في سوق العطارين المشهور باطن بيروت ... وقفًا صحيحًا شرعيًّا ... . أنشأ الواقف المذكور ضاعف الله له الأجور وقفه هذا على الزاوية المعروفة

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ (ص٥٣).

بزاوية بني زنتوت الملاصقة لمعصرة ... المشهورة باطن المدينة ... ثم بعد الزاوية إذا خربت يكون وقفًا على الحرمين الشريفين حرم مكة المشرفة وحرم المدينة المنورة ...».

وقد شهد على الوقف عدة أشخاص، منهم: الحاج عمر عويني، ومحمد أبو عبد القادر العويني النجار، والشيخ علي دندن، ويوسف سربيه، والحاج إبراهيم السبليني[1].

وهذه الدكان الموقوفة بموجب الوثيقة المشار إليها على زاوية بني زنتوت هي الدكان ذاتها الواردة ضمن أوقاف زاوية سوق القطن.

أما نصف الدكان الثانية الموقوفة على زاوية القطن والتي هي شركة أولاد سعادة بالنصف الآخر، فهي مثبتة بموجب وثيقة شرعية مؤرخة في الرابع من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٧١ هـ/ ١٨٥٤م (في خزانتنا نسخة منها)، والتي بموجبها باع الحاج حسين صالح سعادة إلى وقف زاوية القطن اثني عشر قيراطًا من أصل أربع وعشرين من دكان أسفل دار ورثة فرنسيس يارد في سوق القطن، بمبلغ ٣٥٠٠ غرش مقبوضة من مال الوقف، من يد الناظر عليه الحاج بكري جلبي ابن المرحوم الحاج أحمد العريس[2].

ويؤيد ما سبق أنه بتاريخ الرابع من شهر محرم الحرام سنة ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤م حضر إلى المجلس الشرعي عبد الغني ابن الحاج بكري ابن الحاج

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٤).

(٢) دفتر مديرية الأوقاف (ص١٤٥).

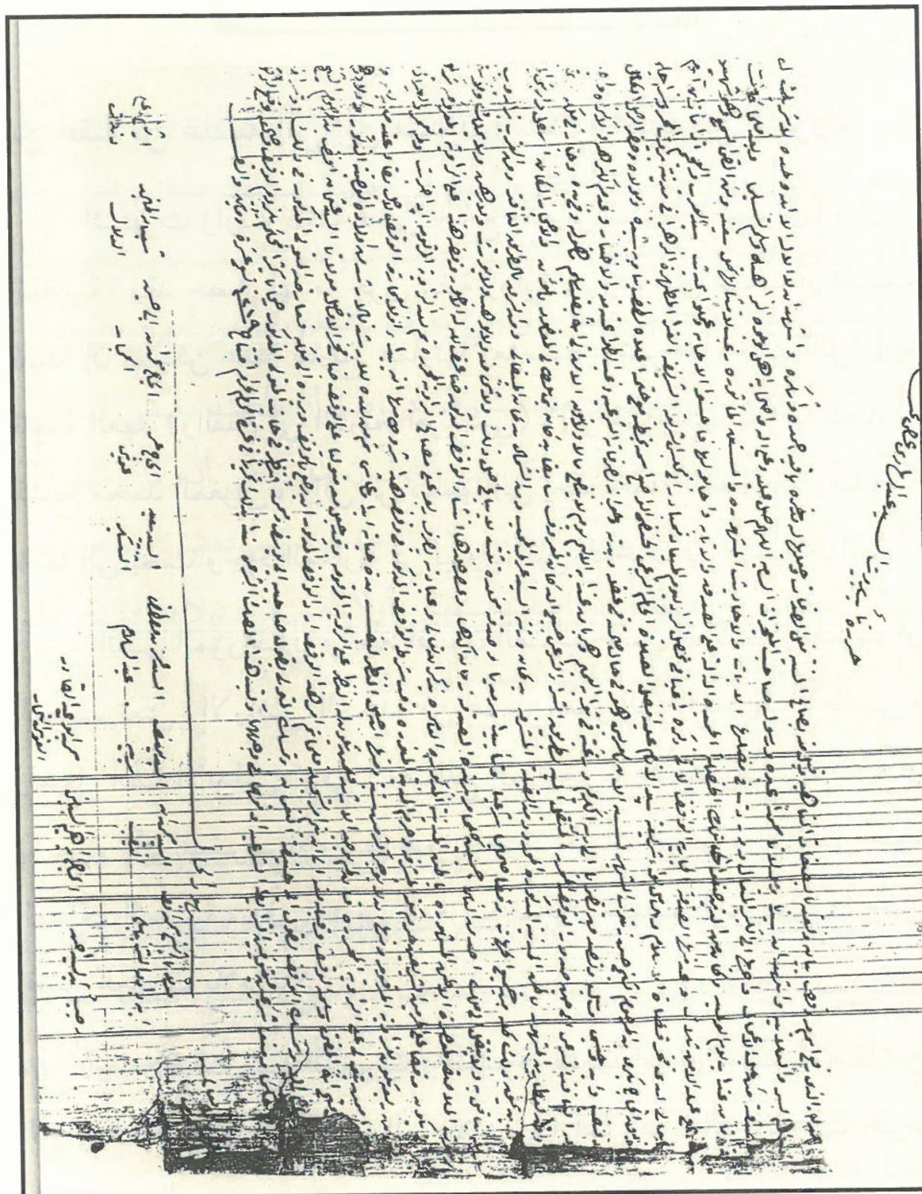
أحمد بن بكري زنتوت الشهير بالعريس الواقف الآتي ذكره وقرر أن «من الجاري بوقف جدي الأعلى الحاج بكري ابن الشيخ حسن زنتوت الشهير بالعريس الدكان المعروفة سابقًا بدكان بني سلطاني الكائنة أسفل دار بني الميقاتي في سوق العطارين ... وقفًا صحيحًا شرعيًّا على مصالح الزاوية المعروفة بزاوية بني زنتوت ...»(١).

وقد توفي الواقف، وتولى بعده على الوقف ولده الأرشد وقتئذ جدي أحمد المذكور، ثم توفي أحمد المرحوم وتولى بعده ابنه والدي الحاج بكري العريس، ثم توفي والدي المرحوم وبقي الوقف بلا متولٍّ ينظر في أموره ...، فبعد الإخبار عما قرره وعن لياقته وصلاحيته للتولية وأرشديته من فضيلتلو عبد الباسط أفندي الفاخوري مفتي بيروت حالًا ابن الشيخ علي الفاخوري، ومن مكرمتلو الشيخ رشيد أفندي الفاخوري محرر مقاولات مركز بيروت حالًا ابن الشيخ عبد القادر الفاخوري أقيم عبد الغني من قبل الشرع الشريف متوليًا على الوقف ...».

يذكر النسابون أن أسرة زنتوت من أسر بيروت ذات الأصل المغربي، مارس أبناؤها التجارة. تفرعت منها أسر: ناصر والعريس. وأقدم ما عرف عنهم قيام أحمد زنتوت في السادس من شهر محرم الحرام سنة ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠م بوقف داره الكائنة في محلة باب المصلى (باب السراي) بالقرب من حمام ابن معن الشهير بحمام الكبير، وذلك على أولاده الذكور دون الإناث، وقد انتقل الوقف إلى ابنه الشيخ ناصر، ثم

(١) دفتر مديرية الأوقاف (ص٣).

حفيده أحمد، فولدي هذا الأخير مصطفى ومحمد. وقد لقب هذا الأخير بشاهبندر تجار بيروت، وزوج ابنته مارية إلى عبدي آغا ابن حسن القصار الذي كان دزدارًا (ضابطًا) لقلعة بيروت.



زاوية المغاربة (سوبره)

من عقبة بن علقمة إلى ابن ميمون وسيدي أحمد بن شعرون

اشتهرت زاوية كائنة قبلي جامع الأمير عساف (السراي) بزاوية المغاربة. وقد حصل لها ما جرى لبقية زوايا بيروت من غياب أو تغييب قصدًا إن لم يكن عمدًا لتاريخ عمارتها ومؤسسها وشيوخها، فمن قائل: إنها قديمة العهد (والقدم في التاريخ أمر نسبي)، إلى من نسب بناءها للمدعو الشيخ محمد المغربي، وإلى من ينسبها إلى أحد أتقياء المغاربة. وهذا ما دعانا إلى بحث وجود المغاربة في بيروت قبل الدخول في دراسة الزاوية.

اتفق المؤرخون والجغرافيون العرب على أن كلمة الغرب أو المغرب تعني: الأراضي الممتدة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي، وتشمل أيضًا الأندلس. وفي المصطلح أن المغرب الأدنى هو: إفريقية أو تونس، وأن المغرب الأوسط هو: الجزائر، وأن المغرب الأقصى هو: المملكة المغربية، وفي جنوبي المغرب صحراء شنقيط (موريتانيا)، وفي أقصى الجنوب بلاد التكرور.

والعلاقات بين المغرب والمشرق قديمة منذ العصر الإسلامي الأول، تذكر كتب التاريخ والرحلات زيارات وهجرات قام بها أفراد

وجماعات من دول الغرب المذكورة إلى مصر وبلاد الشام وبقية الدول العربية بقصد الحج أو المجاورة، أو فرارًا من ضغط حاكم، أو نتيجة للأخطار التي تعرضوا لها، أو من ضعف رزق، أو طلبًا للعلم، أو إسهامًا في مرابطة وجهاد.

وكان حضور المغاربة قويًّا في المدن العربية أثناء الحروب الصليبية، فقد شارك ألف وخمسمئة متطوع منهم في جيش السلطان صلاح الدين، ثم في جيش السلطان المنصور قلاوون. وقد استوطنوا المدن بعد تحريرها، فلا تكاد تخلو مدينة من محلة أو حيّ يعرف بالمغاربة ومن أسرة مغربية.

وكان من الطبيعي بعد سقوط غرناطة أن يقصد بعض المغاربة والأندلسيين بلاد الشام، فقد ذكر ابن طولون الدمشقي أنه في شهر ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ (أيلول - سبتمبر ١٤٩٢م) ورد إلى دمشق جماعات من بلاد المغرب من مقاتلة غرناطة بعيالهم وأولادهم لاستيلاء الفرنج على بلادهم، ومن المحتمل انتقال بعضهم إلى بيروت(١).

دفاع المغاربة عن بيروت

في سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م هاجم الإفرنج مدينة بيروت، فأعلنت الدعوة للجهاد، وكان على رأس الذين استجابوا لها القاضي المالكي مع مجموعة من الأندلسيين المغاربة الموجودين في دمشق. يقول انطونيو هورتز: أن عددًا من الموريسكيين (مسلمي الأندلس) اتجه منذ سنة

---

(١) مفاكهة الخلان، ابن طولون (١٤٣/١).

١٦٠٩م إلى القاهرة وسالونيك، كما وجد عدد منهم «في الأرض التي تكوّن الجمهورية اللبنانية»[1].

وظهر التأثير العسكري للمغاربة أيام الدولة العثمانية عندما استخدمهم الولاة في بلاد الشام نظرًا لتمرسهم في القتال ...، فقد كان لدى الأمير منصور الشهابي عدد كبير منهم، ولدى الأمير بشير الشهابي ثلاثمئة مغربي، وكان أكثر جيش ضاهر العمر متسلم عكا من المغاربة. وكان لدى الأمير يوسف الشهابي عدد كبير من المغاربة، أرسل سنة ١٧٧١م ثلاثمئة منهم مع أحمد باشا الجزار لاستلام بيروت.

وفي سنة ١٨٨١م وصل إلى بلاد الشام ثمانية آلاف جزائري. كان من الطبيعي أن تكون بيروت إحدى المدن التي نزلها مغاربة سواء أكانوا محاربين أم متصوفة مرابطين.

المرابطون المغاربة في بيروت

يذكر أن أقدم مغاربة بيروت هو عقبة بن علقمة الفهري المعافري أبو سعيد البيروتي، أحد أصحاب الإمام الأوزاعي. أصله من المغرب، سكن دمشق ونزل بيروت فنسب إليها. روى عن الأوزاعي، وذكر سبب موته، وروى كثيرون عنه. توفي سنة ٢٠٤هـ.

أما أشهر الفاسيين الذين نزلوا بيروت سنة ١٥٠٦م فكان المتصوف الفاسي الشهير علي بن ميمون القرشي المغربي الغماري الفاسي الحسني

---

(١) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، علي أحمد (ص٣٠٧).

الإدريسي (١٤٥٠-١٥١١م) من العلماء الغزاة. اجتمع في بيروت بمحمد بن عراق في زاوية ابن الحمراء قبالة جامع النبي يحيى عليه السلام أي الجامع العمري الكبير، ثم سكن في قرية مجدل معوش (من قرى الشوف جبل لبنان). وقد توفي ودفن فيها سنة ٩١٧هـ.

ويتأكد قدم استقرار المغاربة في بيروت من خلال دفاتر الطابو العثمانية المحفوظة في الأرشيف العثماني، ولاسيما الدفاتر التي جرى فيها مسح أراضي السلطنة ومنها بيروت سنة ١٥٣٠م وما يليها، ومنها دفتر رقم ٤٠١، يذكر زقاقات بيروت، وكل زقاق على اسم شخص، ودفتر رقم ٣٨٣ يذكر أسماء محلات المدينة، وكل محلة على اسم شخص يفترض أنه وجيه المحلة أو شيخها أو عالمها.

ومن بين الزقاقات والمحلات: اسم زقاق ومحلة سيدي أحمد بن شعرون، وزقاق ومحلة حميدي ابن سور الهوا. ومن المتواتر أن شعرون وحميدي هي من الأسماء والشهرات السائدة في الدول المغاربية.

توارد المغاربة إلى بيروت

وقد تظاهرت الأخبار بأن عددًا كبيرًا من الأسر البيروتية تنتمي إلى قبائل عربية عدنانية وقحطانية قيسية ويمنية، قدم أجدادها منذ القرن العاشر الهجري من الأندلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى. قال الشيخ صبحي الصالح بأن الأسر التي تنتهي شهرتها بحرف الواو هي مغربية الأصل، مثل: كنيعو، شبارو، محيو، دبيبو. ويقول الشيخ عبد الله العلايلي بأن أصل الجذر المنتهي بواو بربري، وأن العرب زادوا عليه النون، فخلدو

وزيدو ونزهو وحمدو وعبدو وشعرو صارت خلدون وزيدون ونزهون وحمدون وعبدون وشعرون.

في سنة ١٧٧٢م قدم الجزار إلى بيروت مع ثلاثمئة مغربي عرف منهم أبو الموت أو أبو موت (حي أبو موت)، ورئيس العسكر ويدعى بالبخاري، والحاج حميدي صقر، ومحمد آغا الجبوري، الذي تولى حماية محلة السور/ الغلغول.

وممن ورد ذكرهم من المغاربة الذين نزلوا بيروت سنة ١٨١١م الشيخ سيد التكرور من أقصى المغرب والشيخ محمد الشنقيطي (موريتانيا)، والشيخ محمد المغربي الفيلالي. نزل بيروت سنة ١٨٢٠م (تونس).

ونزل بيروت سنة ١٨٢١م الشيخ عمر محمد المغربي التوزري الجريدي، وهومن بلدة توزر، وتزوج من إحدى بناتها.

واستقر الحاج حمدة محمد الحريشي الفاسي المغربي في بيروت سنة ١٨٢٢م، ومارس منها تجارته وغيرهم.

وآثار المغاربة كثيرة في بيروت، منها الزاوية التي أنشأها محمد بن عراق بطلب شيخه علي بن ميمون المغربي الفاسي. وزاويا المجذوب وبني زنتوت والبدوي والراعي والخلع (الفاخوري).

وبالنظر لكثرة المغاربة في بيروت القديمة كانت لهم مقبرة تعرف بمقبرة المغاربة.

قد تتهدم الزوايا والمآذن، وقد تغيب الآثار المعمارية، ولكن المأثورات الشعبية تبقى راسخة لدى العامة تنتقل من الجدود، ولاسيما الجدات إلى الأبناء والبنات والأحفاد. وتبقى رواسب هذه المأثورات في اللهجة والأطعمة والأمثال والحكايات ومشجرات الأنساب والعائلات السبع والمناسبات الدينية والاجتماعية.

زاوية بني سوبره أو زاوية المغاربة

الأمر الملفت للباحث أن الكثير مما يكتب في تاريخ بيروت تغلب عليه الصفة الاحتمالية والتقديرية والروائية، وغالب الذين يكتبون يتجنبون تطبيق قواعد التأريخ التي لا تختلف كثيرًا عن القواعد التي وضعها علماء الحديث وعرفت بمصطلح الحديث. فترى بعضهم ينقل عن بعضٍ الخبر غير الموثق ولا المؤيَّد، فيقدمون بناء كالسراب لا أساس له ولا كيان، كما يأنف بعضهم من الإشارة إلى المصدر أو المرجع الذي اعتمده، وكأن في الأمر إهانة لأكاديمية مزعومة وموضوعية موهومة. ولذلك نكرر أن تاريخ بيروت وأهلها لم يدوَّن بعد. وقد وجدنا صعوبة كبيرة في تتبع نشوء زوايا بيروت ومزاراتها، ومنها زاوية المغاربة.

ذكر تقويم الإقبال الذي أصدره عبد الباسط الأنسي سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩/ ١٠م أن زاوية المغاربة «واقعة جنوب جامع الأمير منذر - السراي». وهذا خطأ، لأن جامع السراي هو جامع الأمير منصور عساف، أما جامع الأمير منذر فهو جامع النوفرة، لوجود نوفرة في صحنه، كما عرف قديمًا بالجامع المعلق، إذ كان يطلق لفظ المعلق على المساجد

المرتفعة، وكان جامع الأمير منذر يصعد إليه بدرج من الجهة الشرقية التي كان فيها باب مدخله، أما الباب الغربي فقد فتح على شارع فخر الدين أو شارع المصارف عند توسيع شوارع بيروت.

ويضيف التقويم: «أن الزاوية قديمة العهد، لم يعرف تاريخ بنائها، وكان الشيخ محمد المغربي يقيم فيها، ولعله (؟) المدفون في زاوية الحمراء في رأس بيروت. وقد بني فوقها منذ عشرين سنة مكان لشيخ الطريقة السعدية ومريديها للقيام بالأذكار والأوراد الشريفة».

وهذه العبارات القصيرة والملتبسة نجدها منقولة في كتابات من كتب أو أرّخ لمساجد بيروت وزواياها دون أي تدقيق أو تحقيق، فالأنسي يجزم بأن الشيخ محمد المغربي كان مقيمًا فيها، وفي الخبر نفسه يشكك وينقل مكان دفن الشيخ المذكور إلى زاوية الحمراء؟ أما من نقل عن الأنسي فلم يكتف بإقامة الشيخ المغربي في الزاوية، بل اختصر قواعد التاريخ، واعتبر أن الشيخ محمد المغربي هو مؤسس الزاوية ... .

وفيما ذكر الشيخ طه الولي عن الأنسي أن موقع الزاوية هو مقابل الجهة الجنوبية لجامع الأمير منصور عساف (السراي) حدد شفيق طبارة الذي كان أول من تناول بعض الأوضاع الاجتماعية في بيروت «موقع الزاوية قبلي جامع السراي»[1].

---

(١) تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت، لطه الولي (ص٩٢)، والزوايا، لشفيق طبارة، أوراق لبنانية (١/٤٩٩).

وينسب طبارة بناء الزاوية إلى أحد أتقياء المغاربة. ويبدو أن احد الأتقياء هو الذي ذكره آل سوبره في كتابهم «بنو سوبره في تاريخ بيروت وحاضرها» الصادر سنة ٢٠٠١، من أن زاوية المغاربة كانت تعرف بزاوية آل سوبره المنسوبين إلى جدهم المغربي الأندلسي الذي كان يدعو ويردد لمن كان يقصده لاستشارته قائلًا ومطمئنًا «السّو - بره» (أي السوء بره)، كما لا تزال عاميتنا تردد الشّر بره وبعيد. والمعروف أن من عادة المغاربة عدم لفظ الهمزة في «سوء» وكذلك عدم لفظهم لها في «مؤمنة»[1]. ويتأيد رأي بني سوبره بأن أوقاف زاوية المغاربة تضمنت «حكرًا على بيت علي سوبره لصيق الزاوية»[2].

ويمكن تحديد موقع الزاوية من خلال الأوقاف الخاصة بها، والتي وردت في أول سجل شرعي في بيروت افتتح سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م. فكان من بين تلك الأوقاف دار بابها في حارة اليهود لصيق الزاوية، وكذلك قبو لصيق الزاوية من جهتها الغربية، ودكان لصيق الزاوية من جهتها الشمالية. وكان موقع حارة اليهود إلى الشرق والجنوب من جامع السرايا ومن السرايا نفسها. فمن المعلوم أن حارة أو محلة اليهود كانت دومًا في المدن الإسلامية قريبة أو مجاورة لسراي الحاكم مستظلة بحمايته. ولا يستغرب مجاورة زاوية المغاربة لمحلة اليهود، فمن الثابت أنه تم إجلاء اليهود عن الأندلس مع المسلمين، وأنهم أي اليهود انتقلوا إلى أراضي

---

(١) بنو سوبره في تاريخ بيروت وحاضرها سنة ٢٠٠١ (ص٩).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٥٩هـ (ص٣١).

الدولة العثمانية ومنها بيروت كما كنا قد أشرنا إلى قدوم عائلات من غرناطة إلى بلاد الشام؟

ويتبين من الوثيقة المؤرخة في ٢٧ شعبان ١٣٠٨هـ/ بتحرير تركة موسى ديمتري سرسق أن من ضمن أمواله أسهمًا في أرض كائنة بمحلة الشرقية بجوار سراي الحكومة محتوية على عدة بنايات ودور ومخازن ودكاكين (التي عرفت بسوق سرسق التي بنيت سنة ١٨٨٤)، يحدها غربًا طريق سالك و«**زاوية المغاربة**»[١].

وإطلاق صفة المغاربة على الزاوية يتوافق مع نسبة بنائها إلى أحد المغاربة، لاسيما وأن بعض الأسر المغربية الأصل كانت قديمًا مقيمة قرب الزاوية. ففي السادس من شهر محرم الحرام سنة ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠م وقف أحمد زنتوت داره الكائنة قرب حمام ابن معن القريب من السراي، وكان يحد الدار غربًا دار بني السيد حمود.

جرت العادة بعد ذلك أن مشايخ أسر بيروت المنحدرة من المغرب كالحاج علي الهبري والد الحاج محمد الهبري كانوا يواظبون على عقد اجتماعاتهم فيها لتلاوة الأوراد وإقامة الأذكار.

كما أن كثرة الأسر ذات الأصل المغاربي مبرر لاتخاذهم زاوية لهم أسوة بما قاموا به من تخصيص قسم من جبانة الخارجه ليكون مقبرة لهم عرفت بمقبرة المغاربة.

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٨/١٣١٠هـ (ص٦٥-٧٤).

ذكر شفيق طبارة أن من الأسر المغاربية في بيروت: آل زنتوت وحمود والمجذوب ومنيمنة وفتح الله والقصار وشاكر والداعوق والتنير والصغير والأنسي وإدريس والكوش وسنو وشقير وخرما (شقير) ودية وسوبرة وطبارة وعيتاني وقدورة والمدور ودبوس والهبري والطيارة وفرعها آل العجوز. وآل الجبالي والسردوك والقاطرجي وآل ياسين والبنداق وخطاب والجزائري، وكذلك آل الجزولي المنسوبين إلى جزولة. وآل بوعزة من الجزائر، الذي أنشأ الراحل عبد السلام بوعزة في بيروت أشهر شركة للنقل عرفت باسم نقليات الجزائري وغيرهم[١].

وليس لدى العائلات المذكورة وغيرها ممن يدعي مغاربيته وثيقة أو سند يمكن الركون إليه لإثبات أصول مغربيته، وإنما هي عنعنات متناقلة منقطعة السند. وهي بمثابة الشهرة كدليل على النسب الذي أقرته المذاهب الإسلامية. ومعنى الشهرة: أن تتداول الأخبار جماعة يمتنع اتفاقهم على الكذب عادة، ويعرف بالاستفاضة المأخوذة من فيض الماء لكثرته، وقد بلغت كثرة المنتسبين للمغرب درجة التواتر، ومعناه تتابع الخبر عن جماعة بلغوا بالكثرة إلى حيث حصل العلم بقولهم، وقد عرفته مجلة الأحكام العدلية في المادة ١٦٧٧ بأنه: «خبر جماعة لا يجوّز العقل اتفاقهم على الكذب»[٢].

---

(١) الزوايا، لشفيق طبارة، أوراق لبنانية (٤٩٩/١).

(٢) الاستشراف في أنساب السادة الأشراف، عبد اللطيف فاخوري (ص٧٧ وما يليها).

يذكر أن آخر المغاربة البيارتة هو الحافظ المحدث الشيخ محمد العربي العزوزي الفاسي، الذي استقر في بيروت بعد عودته من أداء فريضة الحج وتقطع السبل، نتيجة اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقد تولى أمانة الفتوى.

طراز عمارة الزاوية وأوقافها

لم يرد أي ذكر لطراز عمارة زاوية المغاربة ولا لمساحتها ومحتوياتها، وما إذا كانت لها قبة أو محرابًا، وقد أورد تقويم الإقبال أنه منذ عشرين سنة (قبل ١٩٠٩م) بني فوقها مكان لشيخ الطريقة السعدية.

أما أوقاف زاوية المغاربة فكانت معدودة وريعها يسير، منها دار في حارة اليهود، وبيت علي سوبره لصيق الزاوية، ودكان لصيق الزاوية سكن مصطفى المتقي، ودكانتين وفرن في سوق القطن، وحكر على بستانين خارج البلد، وقبو لصيق الزاوية سكن الحاج مصطفى صعب (أذكر أن إحدى الدكاكين الواقعة قبلي جامع السراي كانت بأشغال تاجر من آل صعب).

متولي أوقاف الزاوية وإمامها

يبدو أن ضعف موارد زاوية المغاربة لم يشجع على تولي خدمتها والقيام بالوظائف الدينية فيها، وقد عثرنا على وثيقة مؤرخة في السابع من شهر شوال سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٤م باللغة العثمانية تولت تعريبها لنا مشكورة الدكتورة ندى رياض ممتاز يتبين منها «أن الشيخ علي خليفة شيخ الطريقة السعدية في بيروت المقيد في محلة التوبة خانة رقم (١) قد توفي

في ٢٢ شعبان المعظم سنة ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٣م، وأنه كان يتولى عدة وظائف في زاوية المغاربة، ويتقاضى ٤٠ غرشًا كمتولي لأوقافها وتقديم الطعام شهريًّا في الزاوية المذكورة. وتولي مشيخة الذكر والتوحيد ليلتين أسبوعيًّا بموجب براءة مؤرخة في الخامس عشر من شهر صفر الخير سنة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م، وكذلك وظيفة إمام الصلوات الخمس في الزاوية لقاء ٦٠ غرشًا، كما تولى أيضًا وظيفة المؤذن لقاء ٥٠ غرشًا شهريًّا، ووظيفة القيّم بدون براءة، وذلك من مدة ثمانية عشر عامًا.

وتضيف الوثيقة بأن الشيخ علي توفي عن أولاده الصلبيين: سعد الدين أفندي، والشيخ عبد الرحيم، والشيخ رشيد. وبالنظر لتعطل الوظائف المذكورة فقد طلب الشيخ سعد الدين تعيينه كإمام وشيخ للزاوية، وقد وجد أهلًا لذلك بعد امتحانه من العلماء في مجلس الشرع في بيروت بحضور الشيخ أحمد الرفاعي ممثلًا محاسبجي أوقاف بيروت أحمد عطا أفندي، عملًا بالمادة ١٥ من نظام توجيه الجهات، وبناء للإخبار ووجد الابن الآخر السيد رشيد أهلًا لتولي مهمة القيم، وبناء لإخبار الموثوق بهم عين السيد عبد الرحيم في وظيفة المؤذن ...»[١].

أذكار وأوراد الطريقة السعدية في زاوية المغاربة

جاء في تقويم الإقبال أنه بني أواخر القرن التاسع عشر مكان فوق زاوية المغاربة لشيخ الطريقة السعدية ومريديها للقيام بالأذكار والأوراد الشريفة. ويفهم من هذه العبارة أن الطريقة السعدية لم يكن لها زاوية

---

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٠هـ رقم ١٧١.

مخصوصة، ويستفاد من وثيقة شرعية أن إقامة الذكر وإمامة الأوقات الخمسة ووظيفة المؤذن في زاوية المغاربة كانت بتولية الشيخ علي خليفة ومن بعده لأولاده.

والطريقة السعدية أو الشيبانية منسوبة إلى سعد الدين الجباوي (...-٦٢١ هـ) (... - ١٢٢٤ م) متصوف من أهل جبا (من قرى دمشق)، كان في بدء أمره من قطاع السبيل، ثم تاب وتنسك وأقام مع أبيه في زاوية بدمشق، وهو مدفون في جبا (الأعلام ٢/ ٨٤).

ويروي النبهاني عن النجم الغزي شهرة طريقتهم في شفاء بعض الأمراض. ونقل قول المحبي: أن الشيخ سعد الدين كان في زمن أبيه الشيخ يونس الشيباني قد شذ عن طاعته، واشتغل بلهوه وبطالته، وأقام في حوران يقطع الطريق، إلى أن استجاب الله تعالى دعاء والده، فاستغفر الله مما وقع في سالف أمره[١].

والطريقة السعدية قديمة في بيروت، ويبدو أنه أسرة بدران توارثت مشيخة الطريقة. ففي سنة ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢م طلب الشيخ علي محمد بدران خليفة طريقة الشيخ سعد الدين الجباوي (المعروفة بالسعدية والشيبانية) من مفتي بيروت وقاضيها الشيخ أحمد الأغر أن ينظم له مدحًا في القطب المذكور ينقش على هلال علم السعدية (فكما كان لكل شيخ طريقة كان لكل طريقة علمًا)، وكان الهلال صغير الحجم لا يسع من النقش إلا قليلًا، فنظم بيتين هما:

---

(١) جامع كرامات الأولياء، ليوسف النبهاني (٢/٢٢).

إن سعد الدين عالي قدره بين الرجالِ   وبه سعد مريديه علا فوق الهلالِ[١]

ثم بعد ذلك طلب من الشيخ الأغر تذييل البيتين المذكورين، فذيلهما بواحد وعشرين بيتًا[٢]. كما نظم الشيخ أحمد الأغر سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م بيتًا ينشد في ذكر أهل الطريقة السعدية الشيبانية كلازمة وهو:

عليكم بذكر الله وادعوه سرمدا   وصلوا على خير البرية أحمدا[٣]

وفي ديوان الأغر: «كان بعض أولاد الشيخ الأغر القلبية قد أطلعوه على أربعة أبيات محاسنها جلية من نظم أحد علماء العصر من السادة الشافعية، وهو من أهالي بلدتنا بيروت السيد الشيخ محمد الحوت الذي هو بالصلاح منعوت، وطلب منه تخميسها، فأجابه لمطلوبه وخمسها كما يلي:

يا آل شيبة في الإسلام مرتبة   لكم من الله قد عزت ومكرمة
بالنص قد جاءكم عزّ ومرحمة   أكرم بنص به فخر ومنقبة

لآل شيبة في ذكر الكرامات

نصًّا على فضلكم لا زال يغمركم   بأنكم دمتم الرحمن يشكركم
أهل الأمانات في الآيات يذكركم   وذلك النصّ أن الله يأمركم

إلى الضحا أن ادّوا الأمانات

---

(١) ديوان المفتي الشيخأحمد الأغر (ص١٤٣).

(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١٨١).

(٣) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص١٩٤).

لا زلتم أهل بيت تمنحوا المننا   من ربكم ولمن فيكم يلوذ غنى
ودمتم الدهر أبواب الإله لنا   كفاكم الفخر ردّ المصطفى علنا

مفاتح البيت تأتي بالمسرات

من أمّ ساحتكم يا سادتي وقصد   نال السرور وللخير العميم وجد
وحيث في فضلكم أي كتاب ورد   لا تبتغوا شاهدًا غير الكتاب فقد

أتاكم الفضل من ذكر وآيات

يذكر أننا كنا أول من ذكر نسبة هذه الأبيات للعلامة الشيخ محمد الحوت.

ثم طلب من الشيخ الأغر تذييل الأبيات بخامس مع تخميسه، وأن يشرفه بذكر الشيخ سعد الدين الجباوي الشيباني، فأجاب الطلب لذلك، وقال مذيّلًا ومخمسًا:

فانظرا كيف رب الناس قد نظرا   إليكم ولكم قد كان منتصرا
يكفيكم أن سعد الدين قد ظهرا   منكم وفيكم سمر حتى بدا

قمرًا مشعشعًا في سما أهل المقامات[١]

وقد تولى آل بدران مشيخة الطريقة السعدية في بيروت، وكانت لبعضهم علاقات جيدة مع حاشية السلطان عبد الحميد الثاني. يذكر أن وظيفة التدريس الثاني في جامع الدباغة وجهت سنة ١٨٩٥م ببراءة عالية

---

(١) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٢١٥).

على الشيخ أحمد بدران (وقد تكرم الصديق الدكتور فؤاد فوزي الطرابلسي بإهدائنا صورة إجازتين بالطريقة السعدية من شيخها أحمد حسين بدران). وتبين التواريخ أن الشيخ حسين بدران كان منذ سنة ١٨٥٧م شيخًا للطريقة السعدية عندما هنأه الشيخ عمر الأنسي بزفاف ابنه محمد، كما هنأه سنة ١٨٦٦م بحجه فقال:

لم يقنع المجد أن سماه بدر هدًى   بل قال بدران تكريمًا له وثنا[١]

كما مدح الشيخ قاسم الكستي حسين بدران بزفاف ابنه عبد الرحيم قائلًا:

طريقة سعد الدين قد سعدت حظًا   وأمسى بها للشرع متّبعا[٢]

وقد تولى عبد الرحيم بدران سنة ١٨٧٩م رئاسة مجلس تجارة بيروت، وكان عضوًا فاعلًا في الجمعية العلمية السورية التي تألفت سنة ١٨٦٨م من بعض أدباء بيروت ودمشق وحمص.

وفي سنة ١٨٩١م توفي «بقية الخلف الصالح من أهل الذكر والصلاح المرشد الكامل السيد الشيخ حسين بدران، شيخ سجادة الطريقة السعدية، وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري رفع نعشه بالتهليل والتكبير يتقدمه أفراد البوليس وجاوشية البلدية وعساكر الزاندرمه، ثم مشايخ الطرق العلية بأعلامهم والمأمورون إلى جبانة المصلى ...»[٣].

---

(١) ديوان الشيخ عمر الأنسي: المورد العذب (ص١٣٣ و٢٧٣).
(٢) ديوان الشيخ قاسم الكستي: ترجمان الأفكار (ص٦٦).
(٣) ثمرات الفنون، عدد ٨٤١ لسنة ١٨٩١م.

وتولى المشيخة الشيخ محمد بدران الذي كان بالوقت نفسه أي سنة ١٨٩١م عضو محكمة استئناف ولاية بيروت. وذكر أنه احتفل بعقد ابنه عبد الفتاح بحضور الوالي عزيز باشا وحاكم الشرع الشريف رامز بك. ويلاحظ أنه في حفلة العقد «شنفت الآذان بإنشاد أطرب الألحان على نغم العيدان»، ما يعني أن الطريقة السعدية كانت تجيز سماع الألحان على نغم العيدان[١].

وتولى آل العشي مشيخة الطريقة السعدية بعد آل بدران. فكان الشيخ سعد الدين العشي شيخ الزاوية السعدية سنة ١٨٩٥م[٢]، وقد توفي سنة ١٩٠٩م ودفن في المصلى، وذكر في حينه بأنه يتصل بالنسب إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما.

ثم تولى المشيخة الشيخ علي أفندي السعدي، الذي قام سنة ١٩١٢م بعد قصف الأسطول الإيطالي لبيروت في الزاوية بتلاوة الختم الشريف وإقامة الذكر المنيف، بحضور والي بيروت حازم بك، وقومندان الموقع العسكري هاشم باشا، وأركان الولاية وضباط البحرية وختمت الحفلة بإهداء الختم والذكر لأرواح شهداء الاعتداء[٣].

---

(١) لسان الحال، عدد ١٣٥٩ سنة ١٨٩١م.

(٢) لسان الحال، عدد ٢٠٣٢ سنة ١٨٩٥م.

(٣) المفيد، عدد ٩٣٢ سنة ١٩١٢م.

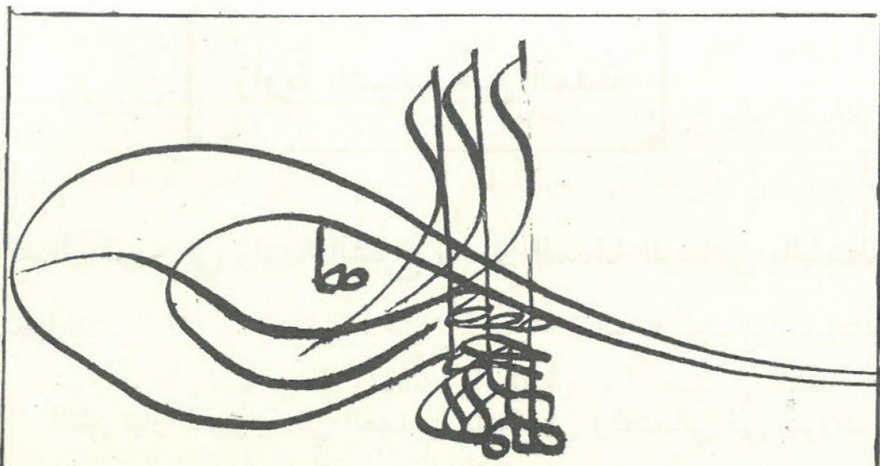
الشيخ علي خليفة إمام ومؤذن ومتولّي زاوية المغاربة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرشد لطاعته من أراد واصطفاه لخدمته ما بين مريد ومراد وفتح لهم من العبادة والسعادة كل باب مسدود واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ندخرها ليوم الموعود واشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب الحوض واللواء المعقود اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أهل المواثيق والعهود وسلم تسليما اما بعد فلما شرف بلدتنا بيروت العلامة الفاضل والمرشد الكامل السيد محمد بن السيد محمد الكتاني طلب مني أن اجيزه بطريقة سيدنا سعد الدين الجباوي الشيباني وبما رويا عن مشايخي الكرام أدخلهم الله دار السلام فاقول قد أجزت سيدنا ومولانا المرقوم بهذه الطريقة العلية السعدية وبكل ما يجوز لي روايته واذنت له ان يجيز ويبايع من اراد وقد اجازني بهذه الطريقة العلية السعدية سيدي الوالد السيد حسين بدران الحسيني شيخ سجادة السعدية في مدينة بيروت المحمية ولوالدي في هذه الطريقة عدة اسانيد اعلاها عن والده السيد علي بدران شيخ سجادة السعدية عن شيخه شيخ سجادة السعدية في دمشق الشام سعد السعدي عن ابيه وشيخه الشيخ محمد السعدي عن أخيه الشيخ عبد القادر عن والده الشيخ مصطفى عن والده الشيخ ابراهيم السعدي القبيباتي عن اخيه الشيخ اسماعيل عن والدهما الشيخ مصطفى عن اخيه الشيخ موسى عن والدهما الشيخ سعد الدين الاصغر عن والده الشيخ محمد عن اخيه شيخ المشايخ في وقته الشيخ ابراهيم الاطروشي الذي عمرت له الزاوية في محلة القبيبات بالقرب من باب الله بدمشق الشام عن والدهما الشيخ محمد سعد الدين عن والده الشيخ حسين عن والده الشيخ محمد القطب عن والده الشيخ ابي بكر عن والده العارف بالله سيدنا الشيخ علي الاكحل عن والده الشيخ محمد الكبير عن والده حضرة مولانا القطب الرباني ابي الفتوح الشيخ سعد الدين الجباوي الشيباني قدس الله سره النوراني وهو اخذ عن والده صاحب المدد الباهر وشيخ شيوخ اهل الباطن والظاهر سيدنا ومولانا الشيخ يونس الشيباني وهو اخذ عن شيخه ابي البركات عن ابي الفضل البغدادي عن الشيخ احمد الغزالي عن الشيخ ابي البركات عن الشيخ ابي بكر النساج عن الشيخ ابي القاسم الجرجاني عن الشيخ ابي عثمان المغربي عن الشيخ ابي علي الكاتب عن الشيخ علي الروذباري عن رئيس الطائفة الصوفية ابي القاسم الجنيد البغدادي عن خاله السري السقطي عن ابي محفوظ معروف الكرخي عن الامام علي بن موسى الرضا عن والده الامام موسى الكاظم عن الامام جعفر الصادق عن والده محمد الباقر عن والده الامام علي زين العابدين عن والده الامام الحسين عن والده اسد بني غالب ذي المفاخر والمناقب امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ارجو من مولانا المجاز المرقوم ان لا ينساني من دعواته في خلواته وجلواته وارجو الله تعالى ان يوفقني واياه لما يحبه ويرضاه آمين

قاله بفمه وكتبه بقلمه خادم العلم والسجادة السعدية احمد ابن السيد حسين بدران

إجازة بالطريقة السعدية من شيخها احمد حسين بدران من مجموعة الدكتور فؤاد فوزي الطرابلسي.



محلة سيدي أحمد شعرون من دفتر الطابو العثماني لبيروت

زاوية الشيخ يحيى المدقة

الجنرال غورو في زاوية الشيخ يحيى المدقة الرفاعي بالبسطة التحتا

انتشر تيار الصوفية في العهدين المملوكي والعثماني في بيروت، فكثرت الزوايا والتكايا والخانقاوات وتعددت الطرق وتفرعت حتى قيل إنها كانت تلبية لحاجات المجتمع وترويحًا لنفوس العامة ورغباتها الروحانية. واختلطت الممارسات الصوفية مع النشاطات الحرفية حتى اجتمعت مشيخة بعض الطرق مع مشيخة الحرف، وقد سبق أن بينا في مقال سابق التشابه أو التماثل في طقوس شد الأجير في الصنعة وفي تنسيب المريد في الطريقة.

وبتعدد كبار المتصوفة تعددت الزوايا الخاصة بكل منهم، فظهرت زوايا القادرية والرفاعية والخلوتية والبدوية والشاذلية والنقشبندية والسعدية الخ، وتوزع المريدون فيما بينها، وأصبح لكل طريقة علمها الخاص وأورادها وأناشيد الذكر والابتهالات. ويصح القول بأنها شكلت مرحلة استباقية لنشوء الاحزاب.

ولما كان للمرء أن ينتسب إلى أكثر من طريقة واحدة فكثيرًا ما كان يقع الخلاف بين شيوخ الطرق، ويمتد إلى المريدين لأسباب مختلفة.

وأدركت السلطة أهمية الدور الذي يقوم به شيوخ الطرق وتأثيرهم على عقول العامة وتصرفاتها، فمنحتهم الأراضي، وموّلت إنشاء الزوايا وخصت الشيوخ برواتب لهم ولأسرهم ضمانًا لولائهم. كما أمنّت رواتب لكثيرين من أهل الطرق عن طريق تعيينهم متولين على أوقاف المساجد والزوايا، ونظمت جهات الوظائف بين متولٍّ ومدرس وخطيب وإمام ومؤذن وقيم وخادم. وكان من حق الواحد منهم أن يتولى التدريس في مسجد والخطابة في مسجد آخر والإمامة في ثالث، ولكل مهمة راتب.

ورغم أن التصوف يعني أصلًا الزهد وتطبيق أحكام الكتاب والسنة وأداء الفروض وإرشاد العامة وتوعيتها والدفاع عن مصالحها بوجه حاكم جائر أو سلطان فاسد، فقد غدا التصوف في حين من الزمن مواكب في المناسبات الدينية وولائم في البيوت وعراضات استقبال حجاج أو تهنئة مولود، وانتشرت البدع المخالفة للدين، وانتشر التظاهر بالجذب والدروشة والقعود عن العمل. وأدى ضعف السلطة المركزية العثمانية إلى الاستفادة من سلطان شيوخ الطرق وتأثيرهم في قلوب المريدين من العامة والخاصة.

وللرغبة في ضبط استمرار الولاء قامت الدولة بتنظيم ممارسة الطرق الصوفية لنشاطاتها، وعمدت في القرن التاسع عشر إلى إنشاء ما سمي «جمعية مشايخ الطرق الصوفية»، في محاولة لاحتوائها والسيطرة عليها، وضمان ولائها، وتقليص دور قياداتها. وقد عرفت هذه الجمعية في بيروت سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، وكان لها رئيس عُرِف بشيخ مشايخ الطرق الصوفية.

ذكر الشيخ عبد القادر قباني في ذكرياته: «أن آخر من تولى رئاسة الجمعية كان الشيخ علي الفاخوري، ثم الشيخ محمد الحوت الكبير، ثم الشيخ عبد الله خالد، ثم الشيخ عبد الباسط الفاخوري الذي اجتمعت له وظيفتا الإفتاء ومشيخة المشايخ، ثم لم يكن بعده مشيخة لأحد». علمًا بأن المجتمع البيروتي محب للتصوف، وقد انتسب العلماء والمفتون في بيروت إلى مختلف الطرق الصوفية.

وقد نسب الكثير من المناقب إلى بعض الشيوخ، إلا أن ادعاء كرامات البعض بلغ حدًا غير معقول، من ذلك الكتاب الصادر سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م بعنوان: «طبقات العلامة الشيخ أحمد الشرنوبي وذكر مناقب الأولياء الأربعة وكرامات أصحاب الأشاير الأربع»، وقد ملئ الكتاب المذكور بكرامات منسوبة إلى أحمد البدوي وعبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وإبراهيم الدسوقي عندما اجتمعوا فوق سطح الكعبة.

واختلف صعود طريقة صوفية وانتشارها عن غيرها من الطرق بقدر قرب شيخها من قصر السلطان وحاشيته، إلا أن الطريقة الرفاعية كانت أوسع الطرق نفوذًا في القصر العثماني، وذلك بوصول الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي من خان شيخون (الذي ذاع صيته مؤخرًا) إلى قصر السلطان عبد الحميد الثاني أواخر القرن التاسع عشر. والذي استطاع جمع شيوخ الطرق تحت عباءته، وأصدر عدة كتب ورسائل، وكثر أتباع الطريقة الرفاعية في بيروت وغيرها، وأنشأ علاقات بينه وبين بعض أصحاب النفوذ في بيروت، منها إهداؤه بعض كتبه إلى المدرسة العثمانية

لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري، وقيام شقيقه بتسوية خلاف نشأ بين الطريقتين القادرية والرفاعية. وعندما قدم صهره من حماة حل ضيفًا في دار أمين مخيش، كما نزل شقيقه عند عبد القادر الدنا.

وفي سنة ١٩٠٤م نظم مصطفى بن أحمد ابن الشيخ مصطفى الرفاعي بوكالته عن أبي الهدى وكالة لعبد القادر مصطفى الدنا للمطالبة بثلاثة أرباع قهوة نعيم أفندي التي عرفت أيضًا بقهوة لوقا (مستأجرها)، وفيما بعد بقهوة الحمراء الملاصقة لمقبرة السنطية، وذلك بحجة أن زوجة نعيم أفندي أوصت بأموالها المنقولة وغير المنقولة (من ضمنها حصتها في القهوة) إلى أبي الهدى.

وفي آذار ١٨٨٦م ورد كتاب من أبي الهدى إلى الشيخ مصطفى الرفاعي بشره فيه بالإعفاء المطلق من الانتظام في سلك الجندية والرديف لسائر فروع الشجرة الرفاعية، وأوعز إليه بتحرير نسبهم الشريف المتصل بالشيخ أحمد الرفاعي في ثلاثة دفاتر مصدق عليها من القاضي الشرعي ومن قلم النفوس، على أن ترسل نسخة إلى حسن الصيادي شيخ مشايخ السجادة الرفاعية في حلب، وترسل الثانية إلى أبي الهدى، وتسلم الثالثة إلى دوائر الحكومة. فصار تلاوة المولد الشريف وقصة المعراج الشريف في تكية الشيخ مصطفى الرفاعي، وجرى مثله في تكية الشيخ عبد القادر الرفاعي بحضور الوالي والعلماء. وبتشجيع من الصيادي تكاثرت التكايا والزوايا الرفاعية حتى فاقت العشرات[1].

---

(١) ثمرات الفنون، عدد ٥٧٤ سنة ١٨٨٦م.

وتمكن شيوخ الرفاعية من تولي عدة وظائف في المساجد والزوايا، ففي سنة ١٨٤٧م كان الشيخ مصطفى عبد القادر الرفاعي متوليًا على زاوية الحمرا وسط بيروت، وعين متوليًا على أوقاف جامع الأمير منذر. وفي سنة ١٨٨٨م بعد وفاة متولي زاوية الدركاه الشيخ سعيد الرفاعي أقيم الشيخ عبد الله ابن الشيخ مصطفى الرفاعي متوليًا.

وفي سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م أقيم الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الرفاعي قيّمًا ومؤذنًا ومقيمًا للذكر الرفاعي في مسجد المجذوب، وبعد وفاته وجهت تلك الوظائف على ابنه الشيخ أحمد بناء لطلب نعيم أفندي مدير أوقاف إيالة صيدا وصهر أبي الهدى أفندي. كما أقيم الشيخ مصطفى الرفاعي متوليًا على أوقاف مقام الأوزاعي خارج بيروت.

ويذكر أن الرفاعية باستثناء زاوية الشيخ يحيى المدقة لم ينشوؤا أية زاوية أو تكية أو مسجد.

فمن الزوايا الرفاعية زاوية أنشأها الشيخ يحيى ابن الشيخ علي ابن الحاج مصطفى المدقة الصيداوي في محلة البسطة التحتا. ففي شهر شوال ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م حضر المذكور إلى المجلس الشرعي في بيروت، ووقف وحبس ما هو له وجارٍ في ملكه وبتصرفه الآيل إليه بالشراء الشرعي من فارس ابن إبراهيم آغا الجزاري، والموقوف هو «الأوطة (الغرفة) السفلية بمشتملاتها، مع الفسحة الواقعة أمامها أسفل دار فارس أفندي المذكور، شرقها الطريق السالك الآخذ إلى حرش بيروت ... وقفًا صحيحًا شرعيًا

لتكون تكية لإقامة الصلوات المفروضة وتلاوة الأذكار والأوراد على أصول الطريقة الرفاعية ...»[1].

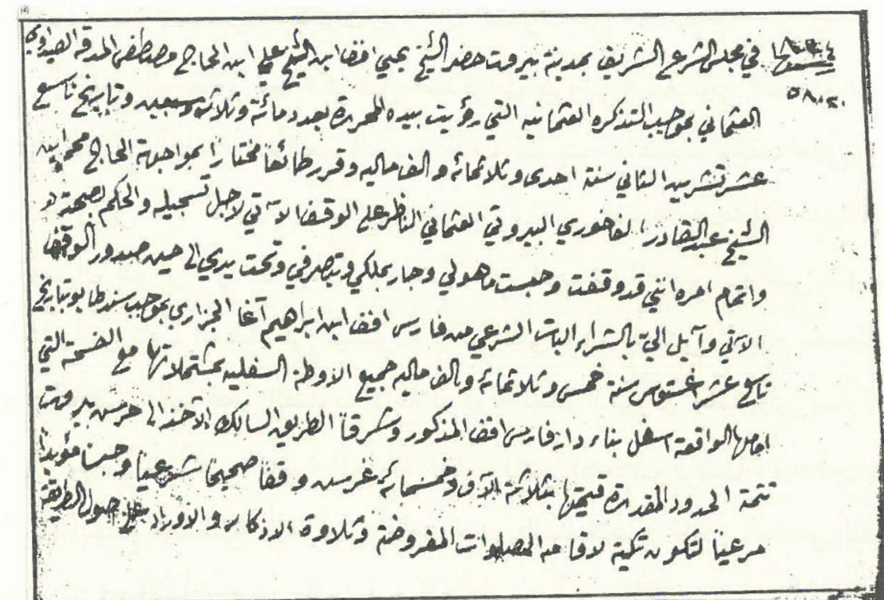
وكانت هذه التكية تحيي الذكر الرفاعيأثناء الانتداب الفرنسي. روى الحاج حسن الأسطه سنة ١٩٩٣ أن حلقات الذكر كانت تقام في الزاوية في محلة البسطة التحتا، وأنه - أي الحاج حسن - وأبو عفيف كريدية وأحمد الشرقاوي دعوا المفوض السامي الجنرال غورو إلى حلقة الذكر بحضور الشيخين القواص والتمساح (منار الهدى ٥/١٩٩٣). ولم يذكر ما إذا تم بحضوره القيام ببعض الخوارق كإدخال السيوف في الجسم؟

والجنرال غورو كما ذكر في «مذكرات بيروتي» للعيتاني الصادر سنة ١٩٥١ والذي أعادت الجامعة العربية طبعه لم يتورع عندما وقف على قبر صلاح الدين عن القول: «صلاح الدين ... نحن هنا هذه حملة جديدة». والجنرال غورو هو الذي قاد الحملة ضد الجيش العربي، والتي انتهت باستشهاد يوسف العظمة في ميسلون، وهو الذي هدد المفتي الشيخ مصطفى نجا بالحضور إلى قصر الصنوبر لإعلان دولة لبنان الكبير وأجلسه إلى يساره.

ورغم اعتراض غالبية البيارتة على رفض انتداب فرنسا وقد أجابوا بلسان الشيخ مصطفى نجا بأن «الوصاية هي التولية على قاصر، ونحن لسنا بقاصرين»، إلا أن بعض المشايخ كان لهم رأيهم الخاص في الانتداب وسايره بعضهم، ما دفع عمر الزعني إلى القول: «العيب ما هو شي عاللي لابسه. الكعب العالي وكمان الكورسه (المشد).العيب على اللي اطباعه شرسه. العيب على اللي خاتم لفرنسه. وعامل حالو إمام في الدين». وقيل إن الزعني تأثر في هذه القصيدة بالدور الذي نظمه الشاعر إسماعيل صبري

(١) السجل الشرعي لسنة ١٣٠٧هـ رقم ٨٣٤.

باشا بعنوان عشنا وشفنا سنين ...، والذي يقول في ختام القسم الأول منه: «كده العدل يا منصفين؟»، وأن الزعني نظم قصيدته في فترة تأثره باللهجة المصرية، بحضور أبي عفيف كريدية وأحمد الشرقاوي والجنرال غورو. علمًا بأن أحدًا من مؤرخي الزعني لم يذكر تاريخ هذه القصيدة ولا مناسبتها، وما إذا كان لها علاقة برأي بعض المشايخ بالانتداب أو بحضور الجنرال غورو للذكر الرفاعي في تكية الشيخ يحيى المدقة[1]؟



في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت حضر الشيخ يحيى افندي ابن الشيخ علي ابن الحاج مصطفى المدقة الصيادي
العثماني بموجب التذكرة العثمانية التي رؤيت بيده المحررة بعدد مائة وثلاثة وسبعة وتاريخ تاسع
عشر تشرين الثاني سنة احدى وثلاثمائة والف مالية وقرر طائعاً مختاراً بمواجهة الحاج محمد ابن
الشيخ عبد القادر الغندور البيروتي العثماني الناظر على الوقف الآتي لأجل تسجيله والحكم بصحته
واتمام امره انني قد وقفت وحبست ما هو لي وجار بملكي وتصرفي وتحت يدي الى حين صدور الوقف
الآتي وآيل الي بالشراء الثابت الشرعي من فارس افندي ابن ابراهيم آغا الجزائري بموجب سند طابو بتاريخ
تاسع عشر غشتوس سنة خمس وثلاثمائة والف مالية جميع الاوطة السفلية بمشتملاتها مع الخشخة التي
امام الواقعة اسفل بناء دار فارس افندي المذكور وشرقاً الطريق السالكة بيروت
تحت الحدود المقدرة قيمتها بثلاثة آلاف وخمسمائة غرش وقفاً صحيحاً شرعياً وحبساً مؤبداً
مرعياً لتكون تكية لإقامة الصلوات المفروضة وتلاوة الاذكار والاوراد على اصول الطريقة

وثيقة وقف تكية الشيخ يحيى المدقة الرفاعي

---

(١) مجلة منار الهدى، عدد ٥ سنة ١٩٩٣ (ص٢٠).

مسجد خشبي في قلعة بيروت

مسجد خشبي في قلعة بيروت البرية ومسجد حجري في القلعة البحرية

ألقى د. سيد علي قهرمان في مركز يونس أمرهِ الثقافي التركي في بيروت محاضرة حول رحلة الرحالة التركي أوليا شلبي الذي زار بيروت مرتين، كانت الأولى لتحصيل الخراج من المعنيين سنة ١٦٤٨م، وكانت الثانية سنة ١٦٧٠م أثناء توجهه لأداء فريضة الحج.

وقد خصّ بيروت بعدة صفحات من رحلته المدونة في عشرة مجلدات من أربعة آلاف صفحة باسم «سياحتنامه»، فذكر أسواق المدينة وجوامعها وحماماتها ومدارسها وأسواقها وخاناتها وطرقها الخ. وذكر جوامع المدينة وهي: عساف (السراي)، والأمير منذر، والعمري الكبير، وجامع قديم هو الجامع العمري. ونسارع إلى القول بأن المقصود بالجامع العمري الأخير هو جامع البحر أو جامع الدباغة الذي حلّ محله جامع أبي بكر الصديق، وهو بالتالي غير المسجد الخشبي الكائن أمام باب القلعة.

وذكر شلبي أن في بيروت قلعتان، واحدة بمثابة حاجز لأمواج البحر، مزودة بالمدافع، لا يدخلها إلّا حراسها والإمام والمؤذن، وفيها جامع وأحواض مياه. وأما القلعة الثانية فتحتوي على شجرتي نخيل شاهقتين، وعلى مسجد خشبي أمام بابها[1].

ويستدل من اللوحة التي رسمها بارتليت سنة ١٨٣٦م أن قلعة بيروت العليا البرية متصلة بالقلعة الصغيرة البحرية التي اعتبرت كحاجز للأمواج بواسطة جسر مؤلف من خمس أو ست قناطر. ويظهر جليًّا من الرسم أن القلعة البحرية تحتوي فعلًا على جامع، تظهر منه مئذنة حجرية أسطوانية، على غرار المآذن العثمانية، كما تبدو في الرسم أيضًا سارية لرفع العلم، مما يؤكد صحة رواية أوليا شلبي على وجود جامع في هذه القلعة البحرية.

فما هي دلالة هذا المسجد الخشبي؟ وهل يمكن القول بأن بعض مساجد بيروت أو زواياها كجامع الدركاه وتكية الغرباء (المصلى) أو بعض أبنيتها القديمة كانت مبنية من الخشب؟

تقع قلعة بيروت في الجنوب الشرقي من مدخل المرفأ، فوق تلة عرفت قديمًا بمحلة الخارجة، أي خارج المدينة، ولم تذكر المصادر تاريخ إنشائها، ولكن أقدم إشارة لها وردت أيام الحروب الصليبية، عندما تحصّن فيها جان إيبلان الأول سنة ١٢٣١م.

---

(١) ترجم د. جنكيز أروغلو الجزء الخاص ببيروت.

ويقول صالح بن يحيى: إن صلاح الدين الأيوبي دخل بيروت في ١٩ جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، ونصب السنجق السلطاني - أي: العلم - على قلعتها، وولّى عليها سيف الدين بن أحمد مقدّم الجيوش. وفي رجب سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م دخلها سنجر الشجاعي من قبل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ونزل فيها[1].

وقد أشار عبد الغني النابلسي عند زيارته بيروت سنة ١٧٠٠م إلى القلعة وموقعها فقال:

بقلعة بيروت مكانٌ ترفَّعا ... علا هو والنجم الذي في السما
يطل على تلك البلاد جميعها ... فيشرح صدرًا للأنام وأضلعا
جوانبه مطلقة في الجو فيا ... جوانب منه قيدت لي أربعا
يزيد النسيم الرطب فيه ترددا ... فيشفي فؤادًا في المحبة موجعا
وللبحر منه صفحة زاد بسطها ... مُنمنةً بالموج زادت توسعا[2]

شهدت القلعة عدة معارك حامية دفاعًا عن المدينة وعن أهلها، ولاسيما سنتي ١٧٧٢م و١٧٧٣م عندما حاصر الأسطول الروسي بيروت مدة أربعة أشهر، ودمرت مدفعيته سور القلعة، ثم أنزل الأسطول ٧٨٧ من الجنود النظامية.

وكان يطلق على قائد القلعة لقب «**الدزدار**»، وهي كلمة فارسية تعني: حارس القلعة أو حافظها. توالى على حراسة القلعة شجعان من عائلات بيروت حملوا لقب دزدار القلعة، منهم عبدي آغا ابن الحاج حسن

---

(١) تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى (ص١٩).
(٢) التحفة النابلسية، للنابلسي (ص٤٠).

القصار، الذي كان دزدارًا سنة ١٧٢٠م، ومنهم إبراهيم آغا الذي كان دزدارًا سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م. ومن محافظي القلعة عدة أشخاص من عائلة دية، منهم علي آغا دية، وصادق دية، وعبد الله آغا دية ابن علي[١].

لا تشير الوثائق المعروفة إلى طراز عمارة القلعة وتقسيماتها وأبراجها، وما عرف من ذلك ورد في تقرير مفصل أرسله أحد عيون إبراهيم باشا في بيروت سنة ١٨٣٢م، ذكر فيه مدافع القلعة وذخائرها. جاء فيه: أن برج القلعة يحكم المدينة والبحر، وأن فيه تسعة مدافع وهاونان، أربعة مدافع منها من عيار آقتين، ومدفعان من عيار آقة ونصف، واثنان من عيار آقة، والتاسع من عيار آقة لكنه أطول من الآخرين. أما الهاونان فهما من عيار أربعة أصابع طراز قديم. ومن ذخائر برج القلعة: خمس قمبرات، ومئتان وخمسون قنبلة مختلفة القطر، ومغلاقان، وبريمتان، ورافعتان. ويشير التقرير إلى أن في القلعة عساكر من الألاي الثامن، بقيادة الصاغ قول آغا حسن أفندي، وأن القلعة تعتمد على تخزين ماء المطر.

وقد تهدمت القلعة بقصف القوى المتحالفة سنة ١٨٤٠م، وبقيت بعض أطلالها إلى عهد قريب.

تفيد الوثائق أن محيط القلعة كان عامرًا بالدكان والسكان، فمن مجاوريها آل الحلواني وغندور وبيهم والداعوق وبسترس وتويني، وكذلك عمر بن درويش الغزاوي، وكانت داره غرب القلعة، انتقلت إليه من عبد الغني عمر رمضان.

---

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٤٢).

أما أكبر عقار ملاصق لدرج القلعة الغربي فكان البستان المعروف بجنينة صالح طبارة. ورُوي أن سعود (أو سعدية) بنت صالح طبارة زوجة قاسم القوتلي كانت ممن شارك بالتصدي للقراصنة، وأنها انتزعت خلال المعركة السيف من أحدهم، لا يزال أحفادها يحتفظون به.

وفي ديوان الشيخ أحمد الأغر بيتان يشيران إلى هذه الواقعة:

قد جاء يطلب دينه ... وقال لي قم فادفع
فقلت هلّا أمسنا ... سمعت صوت المدفع[١]

ويدل بناء جامع من الخشب عند باب القلعة على توفر تلك المادة في بيروت. فقد نشرت لجنة من الأدباء سنة ١٣٣٤ (مالية) ١٩١٨م كتاب «لبنان مباحث علمية واجتماعية»، بهمّة وطلب إسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان، وكانت الأحراج أحد فقرات الكتاب، ويتبين منها أن سلسلة لبنان من الشمال إلى الجنوب وفي جميع أطرافها كانت في سالف الزمن مكسوة بالأشجار، وعد بعضها من أعظم أنواع النبات، كالأرز والشوح والصنوبر والسنديان والبلوط والسنط (الأكاسيا) والدلب والجوز والحور والجمّيز واللزّاب الخ.

وكانت بعض تلك الأشجار مرغوبة من الأجانب، فكان الفراعنة وملوك آشور وبابل يفرضون دفعها كجزية، واستعمل خشب الأرز في الأبنية والأعمدة والجسور وعوارض البيوت، واستعمله سليمان الحكيم في بناء القصور والهياكل.

---

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٤٣-٤٤).

قيل: إن اسم بيروت مشتق من بروتا الآرامية، ومعناها: السرو، أو الصنوبر، لوجود أشجارهما منذ القدم في جوار بيروت. وذكر داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ/ ١٥٩٩م في «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» بأن الجميّز (سيقمور) هو: «شجر عظيم جدًّا، كثير الفروع»، وأضاف: «ورأيت منه ببيروت أشجارًا قليلة ...»(١).

ولا أدلّ من قدم بعض الأشجار المعمرة في بيروت من أن بعض محلات المدينة كانت منسوبة إلى أشجار، كالجميزة والصنوبرة والتينة والسنطية والخروبة الخ.

وذكر صالح بن يحيى في حوادث شهر محرم الحرام سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م «أن الأمير بيدمر الخوارزمي نائب دمشق أمر بالتوجه إلى بيروت ليعمر من حرشها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص. فحضر إلى بيروت، وأحضر صناعًا كثيرة من سائر الممالك، فكانوا جمًّا غفيرًا ...، وعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبة، عرفت به إلى الآن، وكانت المراكب تعمل عندها على بعد من البحر ...

وحضر عسكر الشام مجردًا، فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذرًا من مراكب صاحب قبرص، لئلا يحضروا حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب ...»(٢).

---

(١) التذكرة، لداود الأنطاكي (١٠٨/١).

(٢) تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى (ص٣٠).

يذكر أن في بيروت محلة في منطقة المصيطبة (تصغير مصطبة أو مسطبة) قرب الجامع ومنزل آل سلام ومحطة الفيومي كانت لا تزال حتى عهد قريب معروفة لدى البيارتة باسم «حي العمارة»، وكان البيارتة يرددون: رايحين عالعمارة وطالعين عالعمارة. والعمارة تعني: الأسطول. فقد عرفت بلاد مصر والشام بما سمي ديوان العمائر، المختص بالإشراف على صناعة الأسطول والمراكب، وكان الديوان يضم عددًا كبيرًا من الحواصل لعمارة المراكب.

يذكر أنه منذ أواخر الدولة الأيوبية أخذت العناية بالأحراج تتضاءل تدريجيًا، وصار العوام والخواص يقطعون منها ما يحتاجونه، ما اضطر الدولة إلى استيراد الخشب من الأناضول.

روى ابن بطوطة عند كلامه على مدينة العلايا الواقعة على ساحل الأناضول «أنها كثيرة الخشب، ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر»، كما ذكر بأن الخشب أحضر أيضًا من الجون، أي مدينة ببر التركية، الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط في الأناضول». يذكر أنه تم قطع العديد من أشجار الجمّيز في بيروت أثناء احتلال إبراهيم باشا لاستعمالها كمخابط للأرز.

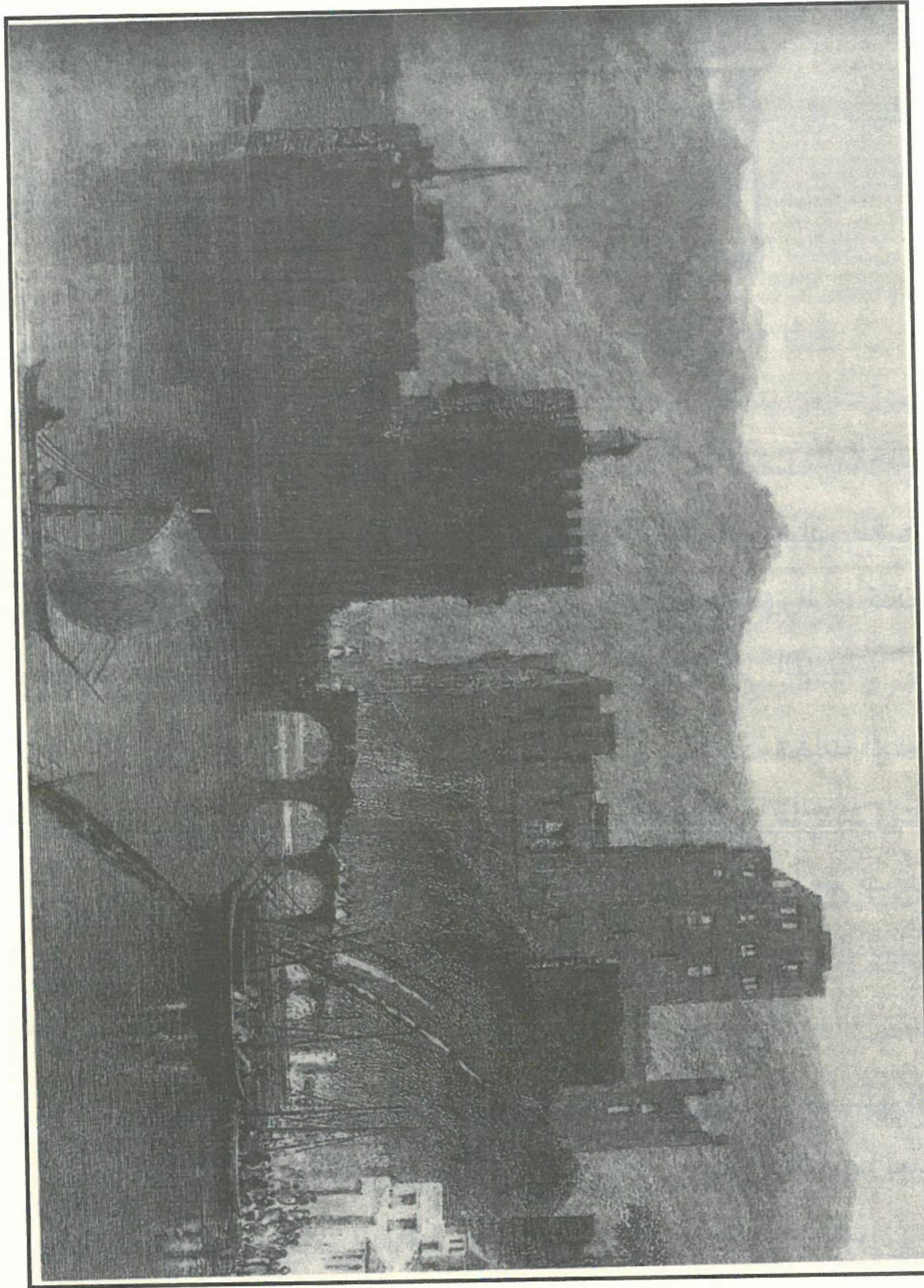
وتأتي أهمية ذكر أوليا شلبي لمسجد خشبي في القلعة البرية ومسجد في القلعة البحرية (لم يذكر طراز بنائه لأنه كان على الأرجح من الحجر، كما يبدو جليًّا من رسم بارتليت) من أنها المرة الأولى التي يشار فيها إلى وجود مسجد في كل من القلعتين، أحدهما خشبي، علمًا بأنه لم يكن

يسمح بالدخول إلى القلعة إلا للحراس والإمام والمؤذن، اللذين لم يذكر شلبي اسميهما.

يذكر أن عبد الغني النابلسي الذي زار بيروت مرتين سنتي ١٦٩٣ و١٧٠٠م لم يشر إلى المسجدين المشار إليهما، ولعل تفرد شلبي بذلك لأنه كان من الموظفين الرسميين، المكلف بمهمة رسمية، وتمكن بذلك من دخول القلاع. كما يمكن القول من جهة ثانية بأن وجود المسجد الخشبي لفت نظر الرحالة شلبي، ما ذكّره بالمساجد الخشبية التي شاعت في آسيا الوسطى السلجوقية، وانتقلت منها إلى الأناضول كالمسجد الخشبي في قرية مات شاهال على حدود جورجيا.

والمرجح أنه لم تكن لمسجد القلعة الخشبي مئذنة أو منبر. ولم يتبين ما إذا كانت تقام فيه صلاة الجمعة. وقد استعمل في بنائه الخشب القطراني المستورد من الأناضول، لأنه مقاوم للعواصف والأنواء والأمطار والحشرات. وكان مستعملاً في أبنية بيروت القديمة، وفي المقاهي المجاورة للبحر في المدور وميناء الحسن والزيتونة، كمقهى الحاج داود خطاب وغيره.





مسجد خشبي في قلعة بيروت

مقام النبي يحيى عليه السلام
في الجامع العمري الكبير

الجامع العمري الكبير سجل لتاريخ بيروت

أقام بلدوين الأول Boldawin١ بعد احتلاله لبيروت سنة ١١١٢م كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان على أنقاض معهد روماني قديم اكتشفت آثاره سنة ١٩١٥م من قبل مهندس نمساوي يدعي دورفلر، كان يعمل في بلدية بيروت أثناء الحفريات التي جرت لهدم المباني القديمة.

وعرفت الكنيسة بكتدرائية مار يوحنا المعمدان، وبقيت كذلك أثناء حكم الصليبيين حتى سنة ١١٨٧م عندما استولى صلاح الدين على بيروت ورفع رايته على قلعتها، وحوّل الكنيسة إلى جامع عرف باسم جامع فتوح الإسلام، أو جامع النبي يحيى، أو الجامع العمري الكبير، لذكرى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

أما صفة الكبير فلتمييزه عن الجامع الصغير الذي أنشأه المسلمون عند فتح المدينة سنة ١٥ للهجرة، وسموه الجامع العمري، وعرف فيما بعد بجامع البحر، ثم جامع الدباغة، والذي هدم أثناء تخطيط الشوارع، وأعطيت الأوقاف قطعة أرض مجاورة بني عليها جامع أبي بكر الصديق الحالي آخر شارع فوش.

إلا أن الصليبيين استعادوا المدينة سنة ١١٩٧م، فأعادوا المسجد كنيسة إلى سنة ١٢٩١م، عندما غدت بأيدي المسلمين نهائيًا على أيدي المماليك بقيادة سنجر الشجاعي، بأمر من السلطان الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون.

يقول صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت»: «لما قدر الله بنزع بيروت من يد الفرنج استقرت كنيستهم جامعًا، وكان بها صور (على طراز الكنائس)، فطلاها المسلمون بالطين، وبقي الطين إلى يوم الجد (أي جد صالح بن يحيى)، فبيّضه وأزال عنه آثار تلك الصور».

وذكر أن على شمال الداخل إلى الجامع من الباب الغربي (أي من سوق العطارين) محراب صغير، عليه كتابة يونانية معناها «إن صوت الرب على الحياة».

وثمة رواية نقلها الشيخ طه الولي عن المستشرق الإيطالي رونكاليا نقلها هذا الأخير عن سائح أجنبي، مؤداها أن خلافًا نشب بين اليهود والنصارى إثر تسلل يهودي تظاهر بالنصرانية إلى الكنيسة ودنس قدسيتها، فحصل نزاع بين جمهور الطائفتين، أدى إلى رفع الأمر للقاضي المسلم، الذي رأى حسم النزاع بتحويلها إلى جامع، لعدم وجود جامع بها.

ففي أثناء الاحتلال الصليبي كان المسلمون كما قال صالح بن يحيى يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا أربعين (العدد المطلوب لإقامة صلاة الجمعة على المذهب الشافعي) فيصلي بهم الخطيب ظهرًا في بعض الأوقات، وفي بعضها يكملوا بمن حضر من الضواحي، فيصلي بهم

جمعة، ثم تكاثر المسلمون بها، جعلها الله دار إسلام وإيمان إلى يوم الدين».

معالم الجامع الأثرية

لا نغالي إذا قلنا إن اللوحات الموجودة في الجامع تعتبر بمثابة سجل تاريخي للكثير من الوقائع البيروتية منها:

١ - نقيشة في الجدار الغربي الداخلي ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أنشا هذا المكان المبارك الفقير إلى الله سبحانه وتعالى عبد الله ابن الشيخ إبراهيم الخطيب، الإمام في الجامع فتوح الإسلام، في شهر رمضان المبارك من شهور سنة سبع وستين وألف: يا جامع الحسنين قد أنفقت مالي من حلال بفضل مولانا الكريم، ذو الهلال ١٠٦٧، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»

(١٠٦٧هـ - ١٦٥٦م). يذكر أن وثيقة وقف الشيخ علي القصار لزاويته المسجل لدى قاضي بيروت بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٠٩١ هـ - ١٦٨٠م تذكر من الشهود «مولانا الشيخ إبراهيم الإمام...»، و«الشيخ حسين خطيب الجامع».

٢ - نقيشة على عمود إلى يمين الباب الذي يفضي إلى حرم الجامع، نصها: «بتاريخ ستة وثمانمائة قرر الجناب العالي الجمالي المؤيدي باب السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة، أعز الله أنصاره، أن

يبطل ما كان استحدث على الخبازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة، وهو في كل شهر على كل فرن خمسة أمداد، وما كان الخبز بالأجرة أيضًا أمر بإبطال ذلك، وأن لا أحد يأخذ رسمًا باسمه، لا يحدث خلافه، وملعون ابن ملعون من يعود يجدد ذلك، أو ياخذ منهم شيئًا، ولا يأخذ المحتسب إلا جامكيته، فلو أخذ شيئًا غير جامكيته يكون عليها مسؤولًا فليلعن».

وقد ذكر الدكتور صالح لمعي في دراسة عن مساجد بيروت أن صاحب النص هو الأمير علاء الدين آقبغا الجمالي، الشهير بالأطروش نائب دمشق المتوفى سنة ٨٠٦هـ، بينما أكد طه الولي أن نائب دمشق شيخ المحمودي تقلد نيابة دمشق في شهر ربيع ١ سنة ٨٠٥، وهو ما تؤيده سيرة هذا الأخير، الذي كتبها بدر الدين العيني بعنوان: «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي».

وكان حفر هذا الأمر على أحد أعمدة الجامع أفضل وسيلة ثابتة دائمة لإعلانه وإبلاغه لكل من يؤم الجامع، كي يعلم بمضمونه القاضي بمنع الضريبة أو الرسم الذي كان «بمثابة رشوة» فرضت لنائب المحتسب... .

٣ - نقيشة من الرخام من داخل جدار حجرة الأثر الشريف، تؤرخ تجديد الغرفة ونصها:

«السيد أحمد عزّ الدين — جدد ذا المحل
لله كان فأرخوا — ولذكره عز وجل
١٠٧٧ هـ»

والذين كتبوا عن الجامع لم يطلعوا على رحلة النابلسي الكبرى المسماة «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز»، والذي أوضح النابلسي فيها من هو أحمد عز الدين المذكور في النقيشة، علمًا بأن وثائق وقفيات الشيخ علي القصار على زاويته تذكر من بين الشهود «الفقير إليه عز الدين» دون بيان اسمه أو اسم عائلته، مما يدل على شهرته التي تغني عما عداها.

وقد عرفنا من الرحلة أن النابلسي اجتمع في بيروت سنة ١٧٠٠م بالسيد أحمد عز الدين – الذي بلغ من العمر في حينه الثالثة والثمانين الخ.

٤ – نقيشة من الرخام الأبيض فوق الباب المؤدي إلى المئذنة، كتب فيها بحروف نافرة بالخط النسخي أربعة سطور، تتضمن تاريخ بناء المئذنة، ومن بنيت في عهده ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذه المنارة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى الشرفي الموسوي بن المرحوم الزيني مسلم داودار الجناب العالي المولوي الأميري الكبير الناصري محمد بن الحنش، أعزهما الله، بنية صالحة وعزيمة صادقة ورغبة في الثواب وافرة، تقربًا إلى ربه الكريم، وطلبًا لثوابه العميم، أثابه الله الجنة بمنّه وكرمه، بتاريخ مستهل المحرم الحرام افتتاح سنة أربعة عشر وتسعماية. والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

يذكر أن محمد بن الحنش كان حاكمًا على البقاع وبيروت بين سنتي ٩١٠ و٩٢٣هـ أيام حكم السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك.

يذكر أن هذه المئذنة المربعة ليست أول مئذنة أنشئت في بيروت، فقد سبقتها مئذنة جامع البحر (العمري الصغير) أو جامع الدباغة على الطراز المغربي، ومئذنة جامع البدوي.

٥ – نقيشة رخامية في الحجرة الكائنة في الزاوية الغربية الجنوبية من الجامع، وكانت هذه الحجرة مخصصة للتدريس، وأصبحت تعرف بحجرة الأثر الشريف، وفيها محراب صغير وضع فيه الصندوق الذي حفظت فيه الشعرات النبوية الشريفة. والنقيشة في ثلاثة سطور نصها: «أهدى هذا الأثر الشريف ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان، وعهد بخدمته الشريفة لآل فاخوري، أهدي سنة ١٢٧٦هـ. حرر في رمضان المبارك سنة ١٣٢٨هـ».

يذكر أن الشعرات الشريفة أهديت إلى بيروت تكريمًا لموقف أهلها سنة ١٨٦٠م من الفتنة الطائفية.

محتويات الجامع

١ – احتوى الجامع العمري على ركن مسور بدرابزين من الخشب، كان في الأصل بمثابة مقصورة، خصصت أثناء العهد العثماني لوالي بيروت، يستقبل فيها المصلين في صلاة الجمعة أو العيدين وغيرها من

المناسبات الدينية، وقد أزيلت فيما بعد، وبقي ما يدل عليها نقيشة من الرخام في الحائط فيها خمسة أبيات هي:

«لله جامعنا المعظم جامعًا   أنوار فضل الله فادخل واحتسب
أذن الإله بأن يكون مجددًا   وعليه نور من بهاه منسكب
بشرى لمن صلى به بسكينة   ومن جنى الخيرات منه يكتسب
حرم لنا حق وبيت الله قل   أمن لمن يهم إليه ويرتقب
ومنشئه بالخير أرّخ واحد   بسناء نور فيه واسجد واقترب

في ذي الحجة الحرام ختام سنة إحدى وستين ومايتين وألف»، ١٨٤٥م. وشاع يومها أن سبب إنشاء المقصورة أن السلطان عبد المجيد قد يزور بيروت بعد إخراج إبراهيم باشا منها سنة ١٨٤٠م.

٢- توجد بعد المقصورة المشار إليها مقصورة عرفت بمقام النبي يحيى، وهي عبارة عن قفص حديدي مزخرف بالنقوش كالهلال والنجمة الخماسية (شعار الدولة العثمانية)، وفوق المقصورة قبة نصفية يعلوها سهم أثبت فيه هلال تتوسطه نجمة، وداخل المقام بناء بعلو ذراع، عليه كسوة من المخمل الأخضر، طرزت فيها آية الكرسي. وقد وجد الشيخ طه الولي داخل المقام حجرين لشاهدي قبرين لا علاقة لهما بالمقام.

يذكر أن القفص الحديدي قدم سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧م من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، فتم نقل القفص الخشبي (من الخشب المخروط) الذي كان فوق المقام ووضع على ضريح الإمام الأوزاعي ولا يزال.

يذكر أن الفرنج عندما احتلوا البلاد أنشؤوا كنائس على اسم يوحنا المعمدان (النبي يحيى)، ووضعوا فيها ما قيل إنه من ذخائره، فرأسه في مشهد النبي يحيى في الجامع الأموي بدمشق. ومن الشائع أن مقام النبي يحيى في الجامع العمري ببيروت يحتوي الكف اليسرى ليوحنا المعمدان، وقد ثبت لنا هذا التواتر من خلال ديوانَي مفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف فتح الله ومفتيها وقاضيها الشيخ أحمد الأغر (المخطوط في خزانتنا).

ففي سنة ١٨١٣م زار الشيخ عبد الرحمن الكزبري بيروت وحل ضيفًا على المفتي فتح الله، فمدحه بقصيدة جاء فيها على ذكر الأماكن والمزارات التي زارها اكزبري ومما قال:

وزار بها يحيى الحصور يساره   بجامعها المشهور بالذكر يرغبُ[1]

أما الشيخ الاغر فقال:

إن في بيروت كفًّا   لنبي الله يحيى
من غدا برًّا بوالد   يه في الدارين يحيا[2]

٣- وللجامع منبر حديث العهد أنشىء سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤م على نفقة إبراهيم غندور المصري، وهو مصنوع من الرخام، وله تسع درجات، وعلى جانبيه علمان مطرزان بالآيات القرآنية، والبيارتة يطلقون على العلم السنجق، ويقال: إنه يرمز إلى سنجق سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (١/٣٩٠).
(٢) ديوان المفتي الشيخ أحمد الأغر (ص٣٠١).

الذي فتحت بيروت في عهده. ولم يعرف مصير المنبر القديم الذي قيل إنه كان من رخام أيضًا.

٤ - أما محراب الجامع فهو حنية مجوفة من الرخام الأبيض، على جانبيه عمودان أسطوانيان، وفي أعلى المحراب نقيشة نصها: «﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ صدق الله العظيم».

وتقتضي الملاحظة هنا بأن العادة جرت في بعض المساجد على أن ينقش فوق المحاريب الآية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾[1].

صحن الجامع وميضأته

يتصل بيت الصلاة في الجامع بصحنه في الجهة الشمالية بباب نقش فوقه التاريخ ١١٨٣هـ، مما قد يدل على أن تاريخ إنشاء الصحن في العهد العثماني. وباب الصحن من خشب الجوز، زينت قنطرته بالحجارة الملونة، وحفر في وسطها رسم لشجرة سرو باللون الأسود، وإلى يمين الباب: «لا اله إلا الله»، وإلى اليسار: «محمد رسول الله». وإلى الشرق والغرب من الصحن رواقان مسقوفان. في الرواق الشرقي محراب على جانبيه عمودان إلى جانب أحدهما عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة سنة ١١٩٣»، وإلى الجانب الآخر: «الزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح سنة ١١٩٣» هـ (تقابل ١٧٧٩ م).

(١) آل عمران: ٣٧.

والأسماء المشار إليها هي أسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة.

يذكر أن الصحن المشار إليه كان يتضمن بركة مضلعة الجدران كانت معدة للوضوء، أقيمت فوقها سنة ١٢٢٩ هـ/ ١٨١٣-١٨١٤م قبة من الخشب مرصفة لتقي الماء والمتوضئين من البرد والحر، أرخها المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله:

يا حسنَ قبة بركةٍ قد أنشئت	من فوقها تسمو ونعم المنشأُ
فكأنها قصرٌ مشيد قد سما	والماء تحت ظلاله يتيّأ
تحميه من برد ومن حرّ فلا	شمس بضمن خلاله تتلألأ
فتوضؤوا فالماء أصبح قائلًا	يا فوزَ من أرّخت بي يتوضأ[1]

ولدى توسيع سوق الفشخة الذي سمي بالشارع الجديد (واليوم شارع ويغان) فتح الباب الشمالي للجامع وأزيلت البركة وبنيت ميضأة جديدة.

اهتمام البيارتة بالجامع العمري

للجامع العمري الكبير محبة خاصة في نفوس البيارتة منذ أن تحوّل مسجدًا، ثّم استرداده، إضافة إلى كونه أكبر جوامع المدينة وأهمها، وكان يحتفل فيه بالأعياد والمواسم، وتقام فيه الصلوات والجنازات. فكان اهتمام ولاة الأمر بتحسينه وتوسعته.

ففي سنة ١٨٩٤م بعد توسيع سوق الفشخة إلى عشرين ذراعًا وتسميته بالشارع الجديد (ويغان اليوم) جرى فتح الباب الشمالي للجامع ما

(١) ديوان المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله (٤١٤/١).

سهّل الوصول إليه، وكان والي بيروت عبد الخالق نصوحي بك أول من ركب عربته وسار بها حتى وصل إلى الباب المذكور ودخل منه إلى الجامع. وقد تبيّن فيما بعد أن الباب المذكور كان يفتح أيام الجمعة والأعياد فقط.

وعندما كان الوالي المذكور متصرفًا على بيروت (قبل أن تصبح عاصمة ولاية) سار في شهر تموز ١٨٨٦ إلى الجامع، ونظر في توسيعه وإصلاح حرمه وصحنه، كما نظر في توسعة مقام سيدنا يحيى عليه السلام، وكان من رأيه بناء منارة ثانية كجوامع الآستانة.

وصدر في السنة التالية (١٨٨٧م) أمر السلطان عبد الحميد الثاني بتوسيع وتنميق مقام النبي يحيى عليه السلام، فانتقل الوالي إلى الجامع برفقة المتصرف، وفوضا الأمر بذلك إلى الحاج محيي الدين بيهم. وتبع ذلك إهداء خليل وأنيس البربير سنة ١٨٩٤م ثريا ذات ثماني شمعات إلى حجرة الأثر النبوي الشريف (الشعرات). وفي سنة ١٨٩٩م تمّ فرش الجامع بالبسط والزرابي بتبرعات من الوالي والأهالي، فبلغت ١٢٦٠٠ قرشًا كما يلي:

٣٠٠٠ ق والي بيروت.

٥٠٠ ق نائب بيروت (القاضي).

١٠٠٠ ق الدفتردار.

١٠٠٠ ق محيي الدين بيهم.

١٠٠٠ ق آل بيهم.

١٥٠ ق مدير التلغراف والبوسطة.

٥٠٠ ق إبراهيم الطيارة.

٣٠٠ ق عبد الرحمن باشا بيضون.

٥٠٠ ق أمين مخيش.

٥٠٠ ق أرسلان دمشقية.

٦٠٠ ق سعد الدين ومصباح الغندور.

٥٠٠ ق محمد أياس.

٥٠٠ ق حسن الحلبوني.

٢٥٠ ق محيي الدين القاضي.

٥٠٠ ق الأفندية خرسا.

٣٠٠ ق هاشم طبارة.

٥٠٠ ق عبد القادر قباني.

١٢٦٠٠ قرش.

وعندما بدأت الإنارة بالغاز الهوائي سنة ١٩٠٩م أذنت نظارة الأوقاف لمدير أوقاف ولاية بيروت عبد اللطيف حمادة بتنوير الجامع العمري وجامعي السرايا والنوفرة بالغاز الهوائي، وبتأمين الثريات اللازمة لذلك.

تربدارية مقام النبي يحيى عليه السلام

نالت المقامات والأضرحة هالة من التكريم، وكان يتولى كل مقام فيه ضريح منسوب لولي أو نبي ناظر أو خادم يقوم بما يتطلبه المقام من صيانة ونظافة، وقد عبر عن وظيفة خادم الضريح بكلمة «تربة دار»، وهي من العربية التركية، مثل بيرق دار وسنجق دار ودزدار وخزنة دار الخ.

عرفنا من متولي تربة دار مقام النبي يحيى عليه السلام: عبد الله بكداش، وكان تقيًّا ورعًا، توفي سنة ١٨٧٨م. فتولاها بعده الشيخ عبد الرحمن بكداش الذي عاد سنة ١٨٩٨م من الآستانة محرزًا البراءة الشريفة بخدمة المقام، وكان يقوم بتلك الخدمة سنة ١٩٠٧م. وتولاها سنة ١٨٩٥م الشيخ عبد الغني البنداق صهر نقيب الأشراف الشيخ عبد الرحمن النحاس إلى سنة ١٨٩٨م.

خطيب الجامع العمري وإمامه

لا يوجد ثبت بمن تولى الخطابة في الجامع العمري، وما تبين من وثائق وقفيات الشيخ علي القصار على زاويته أنه في سنة ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م كان حسين الخطيب هو خطيب الجامع، وكان إمامه الشيخ إبراهيم الإمام. وتبين من الوثيقة الشرعية الصادرة بتاريخ العاشر من شهر شعبان سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣م أن وظيفة خطيب الجامع العمري كانت موجهة على الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر خليفة، وذلك لصلاة الجمعة والعيدين.

وتوالى على الخطبة والإمامة الكثير من الأئمة، كالشيخ علي الفاخوري (الذي كان متوليًا أوقاف الجامع)، والشيوخ محمد الحوت وأحمد الأغر. وفي العصر المتأخر الشيخ محيي الدين المكاوي، والشيخ شفيق يموت.

وفي سنة ١٩٠٨م دعي الشيخ رشيد رضا للتدريس والخطابة، فتلى درسًا بالعمري وآخر بالنوفرة.

التوقيت بالجامع العمري لآل عز الدين الميقاتي

من الوظائف الدينية وظيفة المؤقت الذي يحدد أوقات الصلاة والمناسبات الدينية والأعياد، وقد كان في كل مدينة إسلامية مؤقت عرف بالميقاتي.

ففي غرة شعبان المعظم سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦٢م صار تنظيم إعلام شرعي من قبل قاضي بيروت سعيد أفندي يتضمن أن وظيفة التوقيت في الجامع الكبير العمري موجهة على الحاج سعيد والحاج عبد الغني ولدَي أمين الميقاتي، بموجب براءة شريفة مؤرخة في ١٣ محرم الحرام سنة ١٢٧٣ هـ/١٨٥٦م، وأن الحاج سعيد توفي سنة ١٢٧٨هـ ووجد ابنه حسن به اللياقة لوظيفة أبيه، وأن الحاج عبد الغني حضر وقتئذ إلى المجلس الشرعي ومعه ابنه محمد من أهالي بيروت في محلة الحدرة مولده سنة ١٢٥٦هـ، وحضر معه ابن أخيه حسن، وقرر أنه صار عاجزًا بسبب الشيخوخة عن القيام بالوظيفة المرقومة، والتمس قصر يده عنها لولده

محمد مشاركًا لحسن، فصار عمل إعلام بالتماس براءة شريفة بتوجيه الوظيفة المرقومة على محمد وحسن بالاشتراك، إلا أن الإرادة السنية صدرت بتوجيه وظيفة التوقيت على حسن خاصة دون ابن عمه محمد لكونه لم يتجاوز أسنان (سنّ) العسكرية.

ففي رمضان ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦٢م صار إجراء القرعة العسكرية، وطلب محمد للقرعة، فوجد عند المعاينة أن به علة الفتاق، فأعفي من القرعة، فعند ذلك حضر في ١٧ رمضان المبارك إلى القاضي الشرعي الحاج عبد الغني ومعه ابنه محمد وابن اخيه حسن، وقرر حسن أنه عاجز عن القيام بالوظيفة وحده، والتمس ضم ابن عمه محمد شريكًا له فيها وتوجيهها عليهما معًا ببراءة شريفة، كونها متوجهة على والديهما وعلى أجدادهم، فصار تنظيم إعلام بذلك.

مؤذن الجامع العمري

من الطبيعي أن يكون للجامع مؤذن أو أكثر حسب أهمية الجامع وكبره، يتقدمهم رئيس ما يعرف بسر المؤذنين. عرف من وثيقة مؤرخة في ٢٠ محرم الحرام سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠م تبين أن وظيفة سرّ المؤذنين مع أذان التسبيح الأول والثاني ليلًا في الجامع الكبير العمري بمعاش شهري قدره مئة وخمسين قرشًا موجهة على محمد سعيد أفندي ابن الشيخ حسن الجندي، المقيد بمحلة الحدرة، ومولده سنة ١٢٦١هـ، وهو قائم بالوظيفة المذكورة بعد وفاة أبيه الذي كان قائمًا بها قبله من مدة مديدة، وليس بيده براءة الشريفة بتوجيه الوظيفة عليه، فتمّ تنظيم إعلام شرعي بطلب توجيهها عليه.

يذكر أن الشيخ محمد سعيد الجندي كان أحد الذين أسهموا سنة ١٨٧٨م بتأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت (راجع سيرته في كتابنا نور الفجر الصادق).

قيّم الجامع العمري

ولما كان لكل جامع قيّم، ففي ١٧ شعبان المعظم سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م تبين أن وظيفة قيّم أول في الجامع العمري الكبير في بيروت بماهية قدرها مئة غرش شهريًّا موجهة من قديم على حسن بن مصطفى شاكر البيروتي، مولده ١٢٥٨هـ، ولما لم يكن بيده براءة شريفة بالوظيفة وفيه اللياقة والصلاحية لها وهو قائم بها حق الاستقامة، وكان طلب للقرعة العسكرية فوجد به علة الفتاق، فتمّ تنظيم إعلام شرعي بإخراج براءة بتوجيه الوظيفة عليه.

التدريس في الجامع العمري

درج البيارتة على حضور مجالس ودروس التفسير والوعظ والإرشاد التي كان علماء المدينة أو من ينزلها من العلماء يلقونها في الجامع العمري الكبير، ولا سيما خلال شهر رمضان المبارك. فيتحلقون قاعدين القرفصاء حول الشيخ القاعد في صدر الجامع وأمامه الكرسي الذي يوضع عليه المصحف الشريف. وكان التفسير يتضمن شرح بعض أحكام القرآن الكريم وما يتعلق بها من الحديث الشريف، ويتخلله ذكر بعض حكايات الزهاد، وبعض شعر المديح والتصوف.

كان الشيخ محمد المسيري عالم الإسكندرية وشيخها قد هاجر إثر نزول الإنكليز فيها إلى طرابلس الشام مع أهله وإخوانه، ثم انتقل سنة ١٨٠٨م إلى بيروت وتوطن فيها، فرحب به علماؤها، وتتلمذ الكثير منهم عليه، أخذ عنه الشيخ محمد الحوت ومدحه المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله والمفتي الشيخ أحمد الأغر.

وقد قعد المسيري للتفسير في الجامع العمري الكبير. ومن كراماته فيه ما رواه الشيخ عبد الغني البنداق البيروتي من أن الحاج عبد الله بيهم قال: «حضرت درس الشيخ محمد المسيري الإسكندري في الجامع الكبير العمري في بيروت يومًا، فأخذ الشيخ يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[1]، وكان الوقت شتاءً، فقال بعدما شرع في تفسير الآية: يا إخواننا هذه النحلة قد جاءت - وإذ بنحلة أقبلت، فمد لها إصبعه الشاهد فوقعت عليه -، وصار الشيخ المسيري يفسر كيفية عملها البيوت والشمع والعسل، ويشير إليها إلى أن أتم كلامه عن ذلك، فطارت».

ومما رواه الشيخ المسيري أن رجلًا جاء إلى بعض الصالحين فشكى إليه كثرة العيال وقلة ذات اليد، فقال: اذهب إلى بيتك فكلّ مَن وجدت رزقه عليك فأخرجه من بيتك، وكل من وجدت رزقه على الله فدعه مكانه. فقال له: ما منهم إلا ورزقه على الله، قال: هو ذاك.

وقيل: إن المسيري كان ينفق من الغيب، وقد توفي سنة ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣م، ودفن في جبانة السنطية.

---

(١) النحل: ٦٨.

وفي سنة ١٨٢٠م عاد الشيخ محمد الحوت من دمشق، فأشار عليه الشيخ علي الفاخوري بأن يدرس في الجامع العمري الكبير «رغبة بنفع الخاص والعام، لما شاهد أن كلًّا من الأهالي ببحار جهله قد عام». فأخذ يدرس في جوار مقام النبي يحيى عليه السلام في الجامع المذكور، وقد فسر في أحد مجالسه الآيات الواردة في سورة الحج، وقصة الغرانيق، كما فسر في مجلس آخر الفرق بين مذهبي الإمام الشافعي في العراق ومصر.

وبعد وفاة الشيخ الحوت تصدى للتدريس والوعظ تلميذه المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري. وقد وصلتنا مجالس التفسير التي ألقاها المفتي المذكور في الجامع العمري الكبير خلال شهر رمضان سنة ١٢٩١ هجرية/ ١٨٧٤ ميلادية، وتدور حول تفسير بعض أحكام الصوم والصلاة، وما جاء حول ليلة القدر، والتنبيه عما كان يقع في المجتمع والمساجد من بدع يجب اجتنابها.

ففي المجلس السابع قال المفتي: «ومن البدع: ما أحدثوه من التصفيق حال الخطبة أو قبلها، وما اعتادوه من تفرقة أجزاء الربعة حين اجتماع الناس لصلاة الجمعة، فإذا كان عند الأذان قام الذي يفرقها ليجمع الأجزاء، فيتخطى رقاب الناس بسبب أخذها». والربعة من ربّع الشيء: صيَّره أربعة أجزاء. أطلقت أيام المماليك على أجزاء المصحف. وقد وجدت قديمًا في المساجد ولاسيما قبل طباعة المصحف وظيفة «حمّال الربعة» لمن كان يوزع الربعات أيام الجمع، ثم يتولى جمعها ورفعها إلى خزانتها.

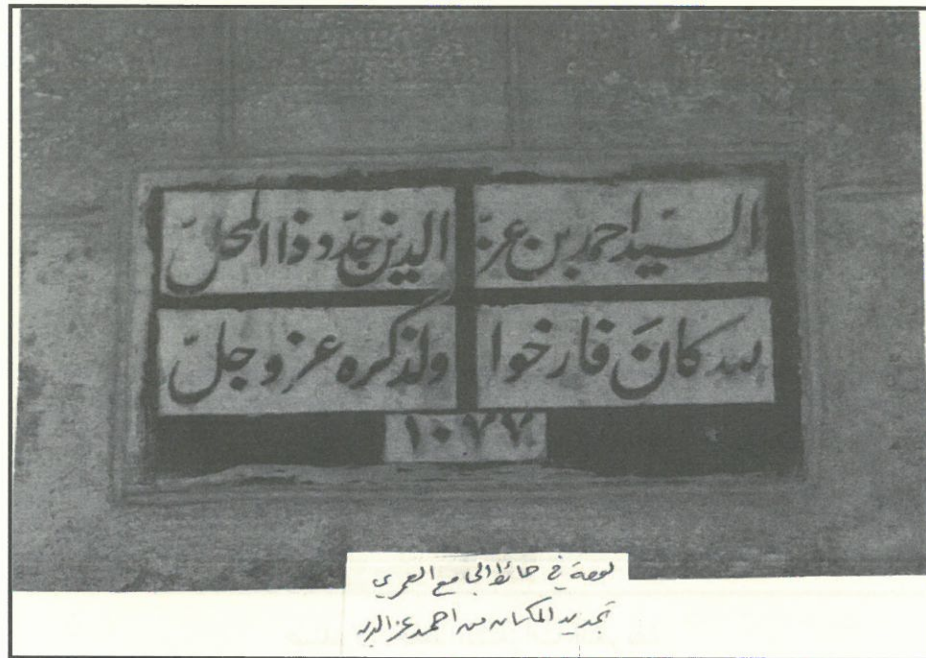
ورد في سجلات بيروت ذكر لعائلة «**حمّال الربعة**»، ويبدو أن هذه الشهرة اقتصرت أثناء الإحصاء على الربعة.

يذكر أن المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري قام بالتدريس في الجامع العمري لأكثر من خمسين عامًا، وذلك حسبة لوجه الله تعالى. وكان الشيخ محيي الدين اليافي مفتي بيروت الأسبق يقوم بوظيفة التدريس على مذهب الحنفية في الجامع بمعاش شهري قدره مئتي غرش، بموجب براءة مؤرخة في ٢ محرم الحرام سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م، وبعد وفاته في رجب ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م وجهت الوظيفة على المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري. وبعد وفاة هذا الأخير وجهت وظيفة التدريس على الشيخ عبد الحميد الفاخوري.

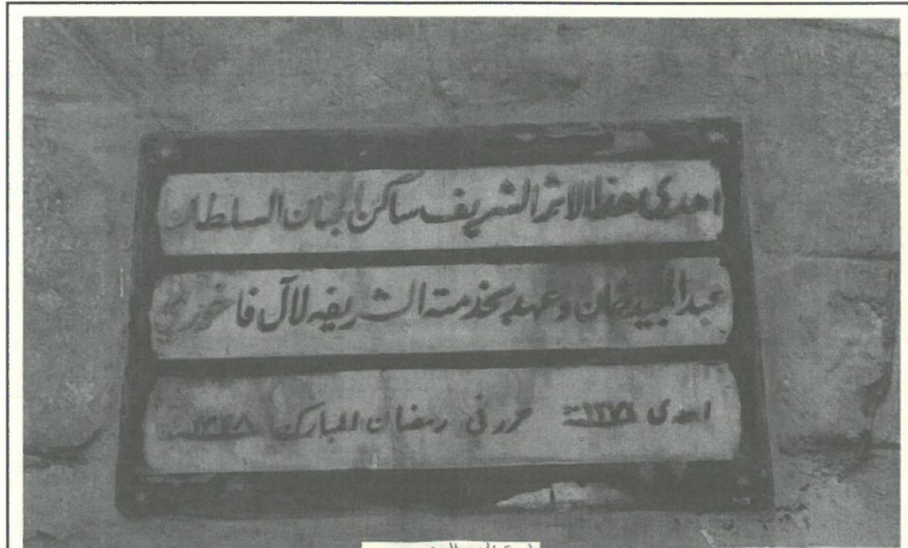
وإذا كان الجامع العمري بني ككنيسة على أساس معبد روماني، فقد ضم ذخيرة النبي يحيى عليه السلام المقدس من المسلمين والمسيحيين، وترددت في ردهاته تراتيل وقداديس وصلوات وتكبيرات، ما منح الجامع روحانية خاصة تجلت في العيش المشترك للبيارتة.

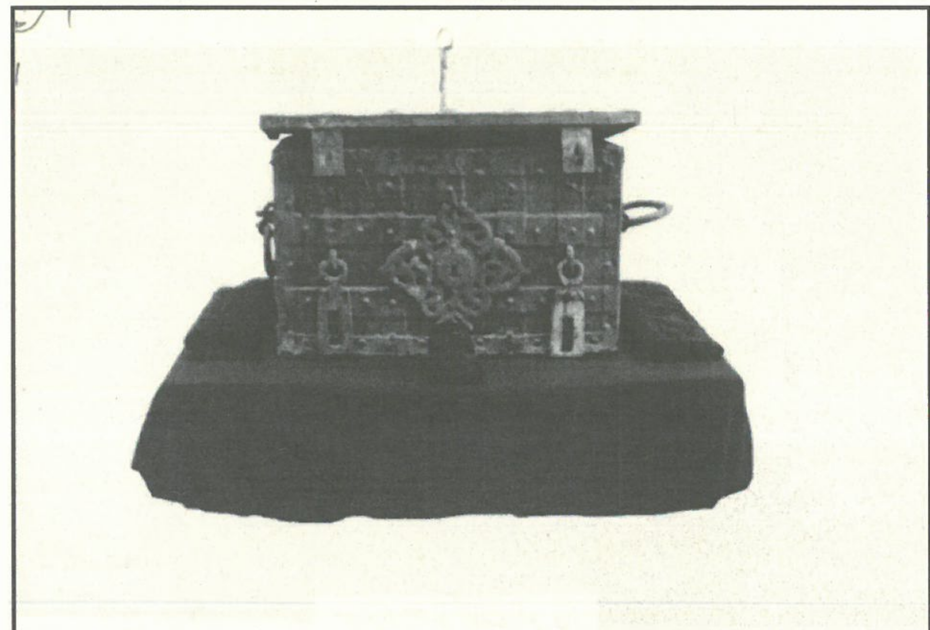
❋ ❋ ❋ ❋


الجامع العمري الكبير من الداخل وتبدو مقصورة النبي يحيى المعدنية الى اليمين

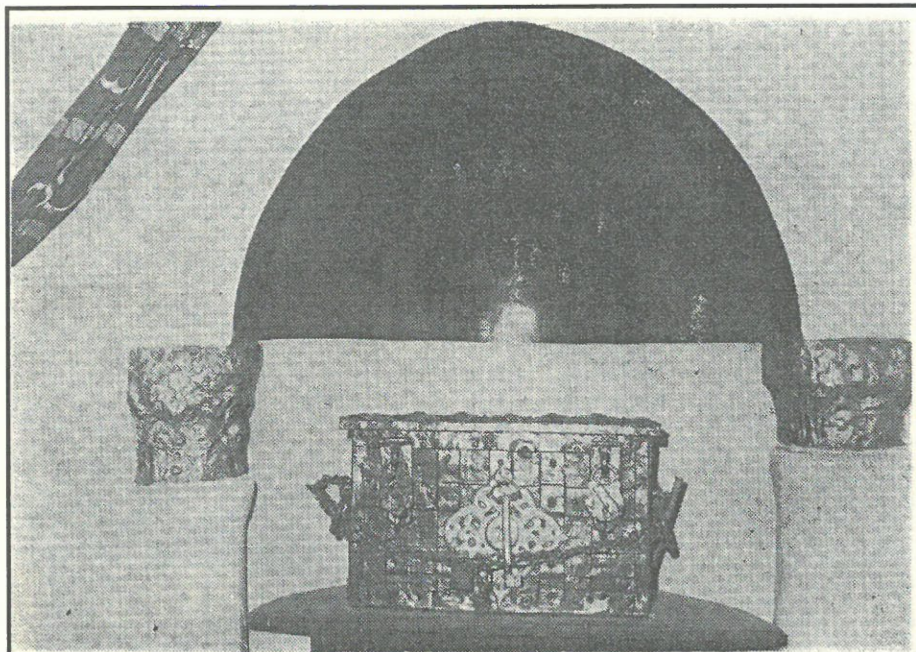


لوحة في حائط الجامع العمري
تجديد المكان من احمد عز الدين

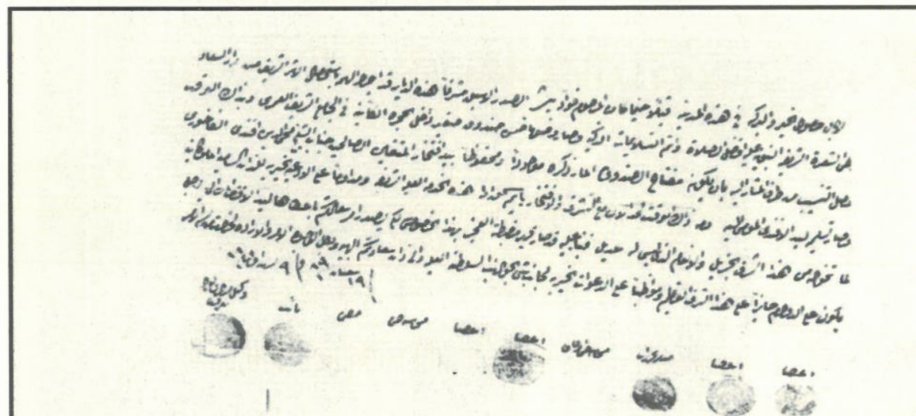




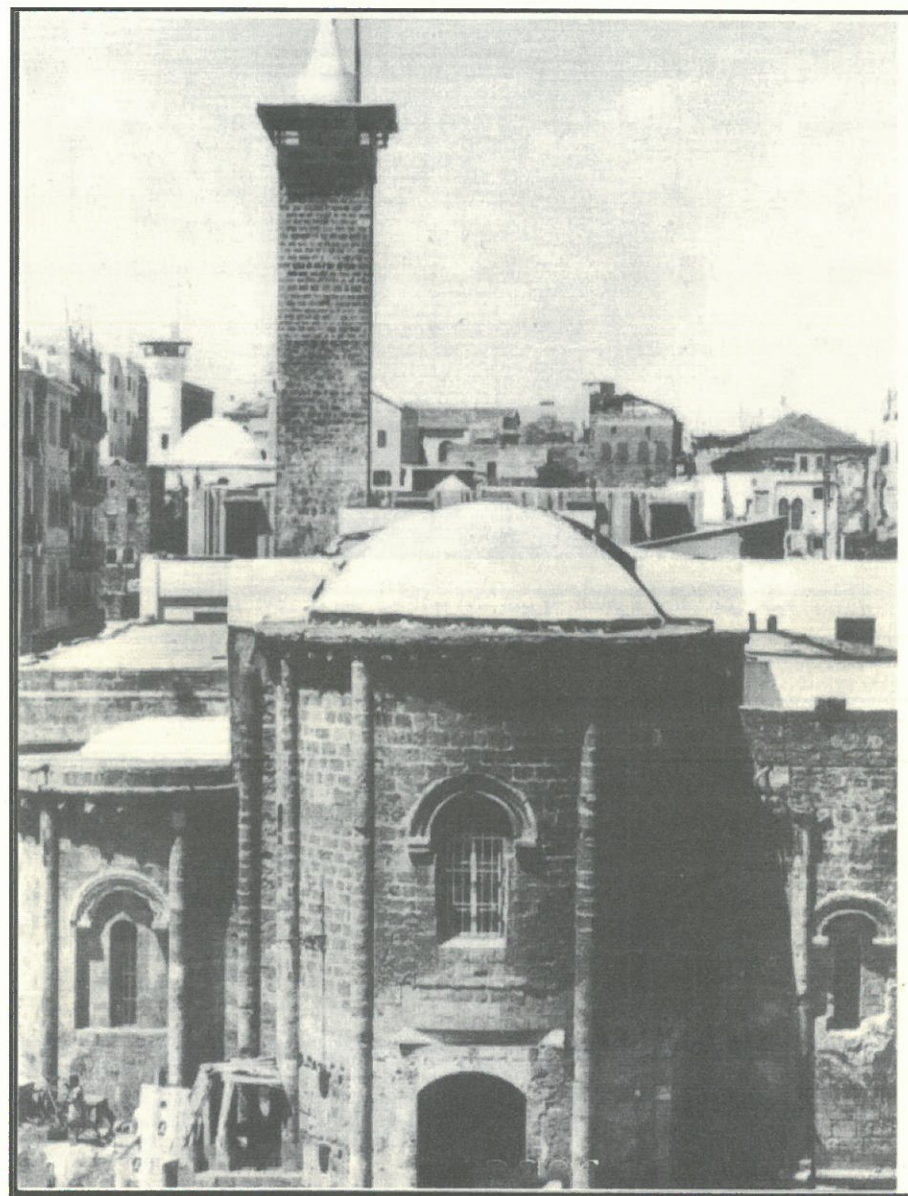
صندوق حفظ الشعرات الشريفة



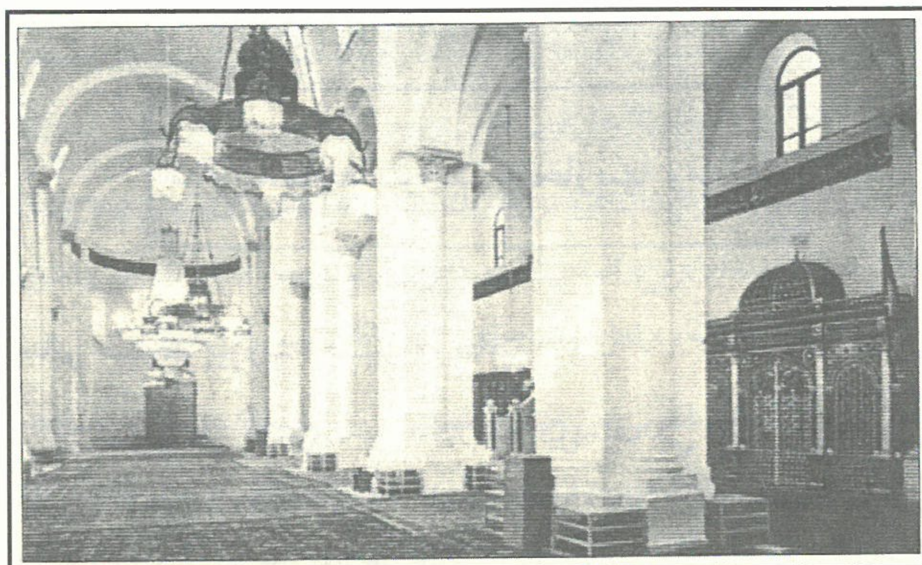
الصندوق الذي توجد فيه الشعرات النبوية الطاهرة وقد علق عليه المفتاح القديم وهو يرجع إلى أيام السلطان عبد المجيد « العثماني »



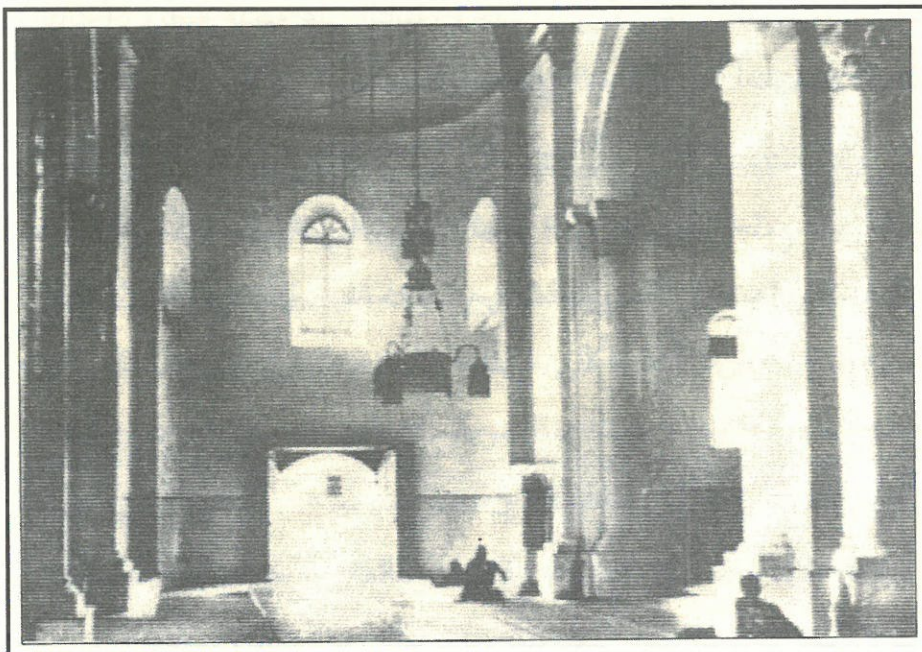
تولي الشيخ محيي الدين الفاخوري خدمة الشعرات الشريفة



الجامع العمري الكبير



مقصورة مقام النبي يحيى عليه السلام



الجامع العمري

منابر مساجد بيروت ومحاريبها ومآذنها

منابر مساجد بيروت خشبية ورخامية

وما قيل في المحراب من اختلافات قيل مثله في المنبر. فقد روى الطبري أن الرسول ﷺ كان أثناء الخطب يتكىء على جذع نخلة مثبت في الأرض، وعمل له منبر في السنة السابعة من الهجرة من خشب الأثل Teak، وكان من ثلاث درجات، يجلس الرسول ﷺ على الدرجة العليا (الثالثة)، ويضع قدميه على الثانية. وجلس أبو بكر على الدرجة الثانية، وجلس عمر على الأولى واضعاً قدميه على الأرض، ثم أصبحت البيعة تحصل للخلفاء والولاة وهم جالسون على منبر[١].

وأقدم منبر باقٍ حتى اليوم في العالم العربي هو منبر جامع القيروان، والذي لا يزال في حالة جيدة، وهو يعود لما بين سنتي (٨٥٦- ٨٦٣م)، ويقال: إنه أحضر من بغداد، وثبت ذلك من الألواح التي اكتشفت قرب بغداد، ومنها زخارف محفورة بالأسلوب نفسه التي حفرت على منبر جامع القيروان.

ولما اتخذ عمرو بن العاص منبرًا في مسجده بالفسطاط نهاه الخليفة عمر بن الخطاب وكتب إليه: «أما بعد، فقد بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى

---

(١) الجمع بين الصحيحين، محمد العربي العزوزي (ص٣٧٠-٣٧٣).

به على رقاب المسلمين، أو ما يكفيك أن تكون قائمًا والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك إلا ما كسرته».

وروى المقريزي بأن قرة بن شريك عمر المسجد، ونصب فيه سنة ٩٤هـ منبرًا جديدًا، ونزع المنبر الذي كان في المسجد. وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه، ولعل ذلك حصل بعد وفاة عمر بن الخطاب.

وتفنن النجار العربي في صناعة المنابر، ولا سيما المنبر الذي صنعه بدر الجمالي لمشهد الحسين في عسقلان، والذي نقل إلى مسجد الخليل عليه السلام. ومن تحف المنابر منبر جامع ابن طولون في القاهرة، المصنوع من خشب الساج والآبنوس، والمزخرف بالأشكال النباتية، وكذلك منبر الكتبية في مراكش، وما تضمنه من رسوم نباتية وحشوات مرصعة بالعاج، وعليه كتابات كوفية مورقة.

وقد صنعت إبان العصر المملوكي بعض المنابر من الرخام. وصف ابن بطوطة سنة (٧٢٦هـ) رسوم خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة على عهد السلطان المملوكي الملك الناصر فقال: «كان المنبر يلصق إلى واجهة الكعبة بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويأتي الخطيب لابسًا السواد، بين رايتين سوداوين، وبين يديه من يضرب بالسوط في الهواء تنبيهًا لحضور الخطيب، وعندما يقترب هذا الأخير من المنبر يقبل الحجر الأسود، ويدعو عنده، ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه على عاتقه السيف».

ولمنبر القدس قصة مهمة، فلما فتحت القدس من قبل صلاح الدين أمر بتعمير المحراب وترخيمه، ووضع منبرًا رسميًا، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق وبجماله شائق وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه العادل نور الدين محمود بن زنكي لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب، فحُمِل.

وكان بحلب نجار يعرف بالأختريني من ضيعة الأخترين لم يلق له في براعته وصنعته قريب، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس، وأتمه في سنين. يذكر أن جامع حلب احترق في أيام النورية، فاحتيج إلى منبر فنصب ذلك المنبر، وتولى النجار عمل المحراب على الرقم ومشابه للمنبر في الرسم (قاله العماد في الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية).

يذكر أننا في زيارة لحلب جال بنا المهندس الرفاعي الذي أشرف على ترميم المدينة وأسهم في ترميم خان الصابون في صيدا، جال بنا في أبنية حلب التراثية، وشاهدنا المحراب الخشبي الذي صنع لبيت المقدس وبقي في حلب حين أرسل المنبر كما ذكرنا، وهذا المنبر احترق عندما افتعل حريق المسجد الأقصى.

أما غالب منابر مساجد بيروت فكانت إلى يمين المحراب (إلا مسجد المجيدية)، وهي مصنوعة من الخشب المزخرف، وكان بعض هذه المنابر على غرار منابر مدينة فاس، تسحب وتوضع جانبًا منعًا من قطع صفوف المصلين بالمنابر الثابتة عند الصلاة، ثم حلت محلها المنابر الثابتة المبنية

بالرخام، كمنبري جامعي الأمير عساف (السرايا) والأمير منذر (النوفرة) وغيرهما.

وكانت منابر بيروت من تسع درجات، يستريح الخطيب في العليا منها، ثم يخطب واقفًا على الدرجة التي تليها. وكان السلف قد جعل تسع درجات للمنبر، منها ثلاث هي درجات المنبر النبوي، إلا أن هذا العدد لا يلحظ في المساجد اليوم.

وقد درجت مؤخرًا عادة إنشاء منابر لاسيما الخشبية، يصعد الخطيب إليها من درجين، ويكون المحراب تحتهما. وقد يرجح سبب اختيار هذا الأسلوب إلى ضيق المساحة المعدة للصلاة، التي لا تسمح بوضع منبر عادي متعدد الدرجات (من ست إلى تسع). أو قد يقال: إن هذه المنابر تمنع قطع صفوف المصلين. والمنابر المشار اليها موجودة على سبيل المثال في مساجد الخاشقجي وعبد الناصر والشهداء وخليل شهاب والخلية السعودية وفي مسجد رأس النبع القديم (ذي النورين قبل التوسعة).

عرف نظام الدرجين في المداخل بأسلوب الباروك Baroque، واتبع في القصور والأبنية العامة التي تستقطب عددًا كبيرًا من الزوار عادة في وقت واحد، بحيث يخفف هذا النوع من السلالم الازدحام كالقصور والجامعات والمباني الرسمية، كالمستشفى العسكري (الخسته خانه) الذي تحول إلى مقر للمحاكم اللبنانية، وهو الآن مقر لمجلس الإنماء والإعمار، وكذلك الشرفة الشمالية الخارجية للسراي الكبير.

وقد عرفت بيروت هذا الأسلوب (مبنى وزارة الخارجية) والمدرسة البطركية والمدرسة السلطانية (كلية المقاصد للبنات في الباشورة)، ومدرسة راهبات البزنسون ودير مار الياس بالطينة، ومتحف سرسق وقصور عمر الداعوق في رأس بيروت، وعارف النعماني في الباشورة، وآل سلام بالمصيطبة، ومختار مخيش في زقاق البلاط وغيرها. كما يوجد أمثالها في بكركي وفي مستشفى الروم القديمة في الأشرفية. علمًا بأنه من المفترض عدم اعتلاء منابر المساجد إلا للإمام أو المؤذن أو الخطيب، ولا حاجة بالتالي لدرجين. والأغلب أنه تقليد ليس إلا.

وأكثر منابر مساجد بيروت خشبية، كما في مساجد القنطاري وعماش والمصيطبة وعين المريسة والمجيدية وبوبس وسليم سلام والقنطاري والعرب، وبعضها رخامي كمنابر مساجد العمري والأمير عساف والأمير منذر (النوفرة) وقريطم والفاتح والشهداء.

ومما يلفت النظر أن جامع محمد الأمين ينفرد بمنبر معلق يصعد إليه الخطيب من وراء جدار القبلة.

يصف غاستون فييت المنابر الخشبية فيقول: «إنها تضم مجموعات من الحشوات الصغيرة المتباينة الأشكال، جمع بعضها إلى بعض وإن احتفظت كل واحدة منها بشخصيتها المستقلة، حتى لكأنها لا تؤدي دورًا في الشكل العام، وتتابع الدوائر والمربعات والمعينات والنجوم والأطباق النجمية متداخلًا بعضها ببعض عن طريق التعشيق حتى يمكن تجميعها أو تفريقها دون أن يزول أثرها أو يتضاءل. وللزائر المتأمل أن يتصورها مجتمعًا

بعضها إلى بعض إذا شاء، وله أن يكتفي بتأمل ما يقع عليه بصره منها فيراه شيئًا منفصلًا قائمًا بذاته، ففي الحق إن تجميع تلك العناصر لا يجعل منها وحدة حقيقية. وحتى يتسنى للمرء أن يوفيها حقها فإن عليه أن يدرس في عناية سائر التفصيلات الدقيقة التي تربط العناصر والوحدات بعضها إلى بعض».

وقد صدق هنري فوسيون عندما قال: «ما إخال شيئًا يمكنه أن يجرد الحياة من ثوبها الظاهر وينقلنا إلى مضمونها الدفين مثل التشكيلات الهندسية للزخارف الإسلامية. فليست هذه التشكيلات سوى ثمرة لتفكير رياضي قائم على الحساب الدقيق، قد يتحول إلى نوع من الرسوم البيانية لأفكار فلسفية ومعانٍ روحية، غير أنه ينبغي ألا يفوتنا أنه خلال هذا الإطار التجريدي تنطلق حياة متدفقة عبر الخطوط، فتؤلف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد، مفترقة مرة ومجتمعة مرات، وكأن هناك روحًا هائمة هي التي تمزج تلك التكوينات وتباعد بينها، ثم تجمعها من جديد، فكل تكوين منها يصلح لأكثر من تأويل يتوقف على ما يصوب عليه المرء نظره ويتأمله منها. وجميعها تخفي وتكشف في آن واحد عن سر ما تتضمنه من إمكانات وطاقات بلا حدود».

محاريب مساجد بيروت بين آيات من سور آل عمران والتوبة والجنّ

ثلاثة عناصر في عمارة المساجد عامة وفي مساجد بيروت خاصة وهي: المحراب والمنبر والمئذنة، ونتناول في هذه الفقرة المحراب.

بقدر ما تضمنت روايات المؤرخين العرب القدماء من ثغرات في موضوع نشأة المحراب وأصله بقدر ما عمد المستشرقون وعلماء الآثار إلى تفسيرها بما يلائم نظرياتهم، وذلك بدءًا مما دار من نقاش حول محراب مسجد الرسول عليه السلام في المدينة، وما جرى عندما أعيد بناؤه في ولاية عمر بن عبد العزيز على الحجاز بناءً لطلب الوليد بن عبد الملك.

وقد ترددت في كتابات المؤرخين العرب عبارة تقول: إن بدعة أحدثت في ذلك الوقت «أن أول من عمل محرابًا على هيئة حنية (أي مجوف) هو عمر بن عبد العزيز عندما أعاد بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة».

ونقل لامنس عن السيوطي: أن عمل المحراب كان محرمًا، إذ كان من شأن الكنائس، ونقل غيره عن ابن الحاج أن على الإمام أن يتحاشى الوقوف بداخل المحراب، مما يوحي بأن الإسلام اقتبس المحراب عن الكنائس.

إلا أن أفضل من درس الموضوع هو الدكتور فريد شافعي في دراسته للعمارة العربية في مصر في عهد الولاة، فقد بحث الأمر وأثبت الأصل الإسلامي للمحراب، وقام بالتدقيق في الروايات، واعتمد ما يرجحه العقل والمنطق منها، وأهمل ما لا يصمد منها أمام النقد التي يجعلها أوهى من خيوط العنكبوت[1].

---

(١) العمارة العربية، فريد شافعي (ص٥٨٣ وما يليها).

وكان لامنس استند إلى قول بعض المؤرخين بأن الوليد استعان في إعادة بناء المسجد بعمال من الروم لربط عملهم بالمحراب، علمًا بأن المقصود بالروم: أهل الشام الذين أسلموا وبقوا يسمون بالروم، إلا أن أحدًا من العلماء المعاصرين لم يبحث عما إذا كان لمسجد رسول الله ﷺ محراب وما كان شكله.

ففي «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»: «أن الرسول ﷺ كان أول من وضع حجرًا في قبلة المسجد، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه، ثم جاء عمر فوضع إلى جنب حجر أبي بكر حجرًا، ثم أخذ الناس في البنيان».

ويبدو من هذا النص وجود علامة لتعيين اتجاه القبلة منذ السنة الثانية للهجرة، أي بعد استقرار الاتجاه في الصلاة نحو الكعبة بدل بيت المقدس، وهذه العلامة هي أصل المحراب، وقد جاءت مختلفة عن بقية جدار القبلة، وناتجة عن الفرق بين حجارة الجدار المبني من اللبن وبين حجارة المحراب الأكثر سمكًا، التي وضعها الرسول ﷺ والصحابة. وتطور هذا الفرق مع الزمن وازداد عمقًا وانحناء.

وقد أوضح المهندس شافعي بأن ما فهمه المستشرقون مخالف لما قيل، فقد نقلوا عن ابن الحاج قوله بأن المحراب هو أقل الأجزاء قدسية في المسجد، وعلى الإمام أن يتحاشى الوقوف بداخله، في حين أن العودة إلى عبارة ابن الحاج الذي يقول: «ينبغي أن يغير ما أحدثوه من الزخرفة في المحراب وغيره، فإنه من البدع»، وقد كره الإمام مالك ما عمل في

مسجد المدينة من التزويق في قبلته لأنه يشغلهم بالنظر إليه وقال: «اكره أن يكتب في قبلة المسجد شيء من القرآن والتزويق»، وقال: «إن ذلك يشغل المصلي».

جمع الزبيدي صاحب «تاج العروس» المعاني المختلفة للمحراب، فلم يأت فيها أنه من شأن الكنائس: فالمحراب: الغرفة، والموضع العالي، وصدر البيت وأكرم مواضعه، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[1]، وقال: المحراب: أرفع بيت في الدار وأشرف الأماكن وأشرف المجالس. والمحاريب في لسان العرب: صدور المجالس، وفي الآية: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾[2] قالوا: من المسجد.

وقد جاء ذكر المحراب في آيتين واضحتي المعنى والدلالة: الآية الحادية عشرة من سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وفي الآية السادسة والثلاثين من سورة آل عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[3].

ويتضح من نص الآيتين كما يقول شافعي: أن معنى المحراب فيهما يدل على صومعة أو حجرة يؤدي فيها المتعبد شعائر الصلاة ومناجاة الله والتقرب إليه، ثم اقتبست بالنسبة للمسجد كعلامة تعيين اتجاه أقدس مكان، سواء كان على هيئة رسم مسطح أو غائر أو بارز. ولا يغيب عن

---

(١) ص: ٢١.

(٢) مريم: ١١.

(٣) آل عمران: ٣٧.

الذهن أن الحنايا المجوفة للكنائس لم تكن ابتكارًا مسيحيًا، بل هي عناصر وثنية عملها الرومان في معابدهم وحماماتهم ومساكنهم.

وفي مطلق الأحوال فقد كانت حنية محاريب المساجد صغيرة لا يسمح بوقوف أكثر من شخص واحد هو الخليفة أو الوالي أو من يعين من قبلهم لإمامة المسلمين في الصلاة. (مع الإشارة إلى أن محراب مسجد قرطبة يتسع لأكثر من شخص؟). ولم يكن من الضروري أن يقف داخل تجويف المحراب، علمًا بأن محاريب هياكل الكنائس كانت كبيرة تتسع للمذبح والرهبان ومساعديهم.

ومن الظواهر الأولى في المحاريب الإسلامية وجود زاوية عائدة إلى يمين المحراب ويساره، يوضع في كل منها عمود، وإلى وجود محاريب مسطحة كالموجود منها تحت قبة الصخرة بالقدس وكذلك خمسة محاريب في جامع ابن طولون بالقاهرة، ثلاثة منها تعود للعصر الفاطمي، واثنان للعصر المملوكي.

إلا أن كراهة كتابة شيء في قبلة المساجد لم تستمر طويلًا، فقد درج المسلمون على تزيين حنية المحراب بآيات قرآنية، فعلى محراب الجامع الأموي بدمشق الآية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، (يذكر أن الجامع الأموي يضم مقصورة النبي يحيى عليه السلام)، وفي أعلى المحراب العتيق في الجامع الأزهر من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]. وحفر على

---

(١) الأنعام: ١٦٢- ١٦٣.

العقد الخارجي للمحراب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[١].

وفي جامع السلطان حسن بالقاهرة حنيتان نقش في أعلاهما: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾[٢]، تعلوهما تربيعتان كتب بإحداهما: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الثانية: «أبو بكر عمر عثمان علي».

أما المحاريب في المساجد العثمانية فوردت في غالبها الآية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ (السليمانية)، أو ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾[٣].

ونقشت في المساجد الفاطمية أعلى المحراب الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[٤] (محراب مشهد السيدة رقية). وتم بناءً لأمر الخليفة الفاطمي الآمر بالله عمل محراب من الخشب كتب فوقه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٥]، و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٦]، ومثله محراب المستنصر الفاطمي.

(١) المؤمنون: ١ - ٣.
(٢) الفتح: ١ - ٢.
(٣) آل عمران: ٣٩.
(٤) الأحزاب: ٣٣.
(٥) البقرة: ٢٣٨.
(٦) النساء: ١٠٣.

واستعملت في محاريب بعض المساجد آيات تشير إلى توجيه القبلة نحو المسجد الحرام، ففي مسجد باريس خط في صدر حنية المحراب الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١]. وقد جددت وزارة الأوقاف في الكويت سنة ١٣٧٩هـ مسجد شملان بن يحيى آل يوسف ومحرابه مزّين بالآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[٢]، وهي الآية التي وردت على محراب مسجد بوبس في بيروت.

محاريب مساجد بيروت

أما في مساجد بيروت فإن أقدم ما وصلنا هو ما كتب على محراب الجامع العمري الكبير، فقد زار أوليا شلبي بيروت سنة ١٦٧٠م وقال في كتاب رحلته «سياحتنامه» أنه كتب على محراب الجامع الآية الثامنة عشرة من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٣]، ولا يزال حتى اليوم.

أما في جامع الإمام الأوزاعي في السوق الطويلة فقد كان مكتوبًا على محرابه الآية الثامنة عشرة من سورة الجن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[٤].

(١) البقرة: ١٤٤.
(٢) البقرة: ١٤٤.
(٣) التوبة: ١٨.
(٤) الجن: ١٨.

العقـد الخـارجي للمحـراب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1].

وفي جامع السلطان حسن بالقاهرة حنيتان نقش في أعلاهما: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾[2]، تعلوهما تربيعتان كتب بإحداهما: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي الثانية: «أبو بكر عمر عثمان علي».

أما المحاريب في المساجد العثمانية فوردت في غالبها الآية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ (السليمانية)، أو ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾[3].

ونقشت في المساجد الفاطمية أعلى المحراب الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[4] (محراب مشهد السيدة رقية). وتم بناءً لأمر الخليفة الفاطمي الآمر بالله عمل محراب من الخشب كتب فوقه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[5]، و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[6]، ومثله محراب المستنصر الفاطمي.

---

(١) المؤمنون: ١ - ٣.

(٢) الفتح: ١ - ٢.

(٣) آل عمران: ٣٩.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

(٥) البقرة: ٢٣٨.

(٦) النساء: ١٠٣.

واستعملت في محاريب بعض المساجد آيات تشير إلى توجيه القبلة نحو المسجد الحرام، ففي مسجد باريس خط في صدر حنية المحراب الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1]. وقد جددت وزارة الأوقاف في الكويت سنة ١٣٧٩هـ مسجد شملان بن يحيى آل يوسف ومحرابه مزّين بالآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[2]، وهي الآية التي وردت على محراب مسجد بوبس في بيروت.

محاريب مساجد بيروت

أما في مساجد بيروت فإن أقدم ما وصلنا هو ما كتب على محراب الجامع العمري الكبير، فقد زار أوليا شلبي بيروت سنة ١٦٧٠م وقال في كتاب رحلته «سياحتنامه» أنه كتب على محراب الجامع الآية الثامنة عشرة من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3]، ولا يزال حتى اليوم.

أما في جامع الإمام الأوزاعي في السوق الطويلة فقد كان مكتوبًا على محرابه الآية الثامنة عشرة من سورة الجن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[4].

---

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) التوبة: ١٨.

(٤) الجن: ١٨.

وقد تصدرت الآية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ محاريب مساجد رأس النبع – ذي النورين ومسجد الفاروق الزيدانية وعين المريسة (بيهم). أما في محراب مسجد الدباغة القديم وكان من أجمل المحاريب فالآية السابعة والثلاثون من سورة آل عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾. وفي المحراب الجميل الحديث لجامع محمد الأمين في سطرين الأول: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، وتحته: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

ولم نتبين المعيار في اختيار آية معينة من الآيات التي ذكرناها (باستثناء المحاريب الفاطمية)، وما إذا كان اختيار آية سورة آل عمران تم لوجود كلمة محراب فيها، أو أن اختيار آيتي التوبة والجن قصد به الكنائس التي حولت إلى مساجد؟ والأمر مطروح للبحث.

مآذن مساجد بيروت: صوامع ومنارات ورباطات مربعة وأسطوانية

ومثلما أسند أصل المحراب والمنبر في المساجد إلى مصادر غير إسلامية، كذلك قيل في أصل المآذن. فالبلاذري (ت٨٥٩م) أقدم من ذكر المآذن عند كلامه عن مئذنة جامع البصرة، ذكر أن زياد بن أبيه والي العراق من قبل معاوية بن أبي سفيان بنى «منارة» سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥م من حجر لجامع البصرة، عندما أعاد بناء الجامع القديم.

ثم ذكر المقريزي أن مسلمة بن مخلد والي مصر بنى سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٢م أربع «صوامع» في أركان جامع عمرو بن العاص في الفسطاط لغرض الأذان[1].

وقد استغلت هذه الرواية للقول بأن هذه الصوامع الأربع كانت اقتباسًا من الأركان الأربعة لمعبد دمشق الروماني الذي أصبح جامعًا شيده الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م، وأن مآذن دمشق كانت أبراجًا للمراقبة. يقول فريد شافعي بأن تلك الصوامع لم تكن تعلو إلا قليلًا عن سطح الجامع، فلم تكن تصلح للدعوة للصلاة في عاصمة كبيرة مثل دمشق، ولكنها تركت على حالها لأنها كانت تصلح لأن تكون بمثابة قواعد رفعت فوقها منارات عاليي أو مآذن روعي فيها أن يتاح للمؤذن أن يصعد إلى شرفة عالية يدور فيها وينادي للصلاة.

وقد نسبت مآذن الغرب الإسلامي أيضًا إلى الأصل الروماني، فأطلقت كلمة «صوامع» على مآذن تلك الأقطار ذات المسقط المربع، كما هي مئذنة جامع القيروان. وينفي شافعي أن تكون تلك المآذن الأولى قد تأثرت بأبراج الكنائس، لأن هذه المنارات «تكاد تكون منفصلة عن المسجد فلا تتصل به في بعض الأحيان، أو تتصل به بواسطة الجدران الخارجية في أحيان أخرى، لاسيما وأن برج الكنيسة يعد عضوًا جوهريًّا ضمن التكوين المعماري كله».

---

(١) السلوك (٢/٢٤٧-٢٤٨).

علمًا بأن فكرة الأبراج المربعة المسقط ليست ابتكارًا رومانيًّا أو بيزنطيًّا، وإنما هي عنصر معماري معروف منذ زمن بعيد، علمًا بأن النهاية العليا للمآذن تختلف عن الشكل الذي توضع فيه النواقيس في الكنائس، كما أن شكل النهاية العليا يخضع لبيئة المنطقة، فتوضع في الأقطار الممطرة شرفة مغطاة بمظلة.

ولم تكن المئذنة معروفة على عهد النبي ﷺ، فقد أمر بلال بن رباح أن يؤذن داعيًا إلى الصلاة، فكان يؤذن من فوق سطح بيت عال قرب مسجد النبي ﷺ.

وقد تميزت مآذن الشام حتى القرن الثالث عشر الميلادي بمسقطها المربع، في حين كان الشكل الأسطواني غالبًا على مآذن العراق وفارس. ويلاحظ أن المآذن التي تقام على شواطىء البحار هدف منها هداية السفن، أو إرسال إشارات تحذيرية بالنيران ليلًا وبالدخان نهارًا، فيضجّ النفير ويخرج الناس بالسلاح والقوة، فعرفت بالمنارات.

وازداد عدد المآذن أيام العثمانيين، فبلغ ست مآذن أضاف إليها السلطان أحمد للمسجد المعروف باسمه في إسطنبول مئذنة سابعة عندما اعترض عليه الفقهاء لبنائه ست مآذن لمسجده بحجة أن هذا العدد خاص بمآذن الحرم المكي. وتميزت المآذن العثمانية بأنها أسطوانية متعددة الشرفات، وتنتهي برأس كقلم الرصاص، وكأنما هي تعكس الآية الكريمة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

---

(١) العلق: ٤ – ٥.

واعتمد في الأزهر اختيار مؤذن كفيف لإمكانية إشرافه على البيوت المحيطة بالمسجد.

مآذن مساجد بيروت

إذا صحّ الرسم المعروف لجامع الدباغة، فإن هذا الجامع يتميز بأنه أول مسجد في بيروت ضمّ مئذنة مبنية فوق سور المدينة، تنفتح في الأجزاء العليا من جدران المئذنة أربع نوافذ يؤذن منها. علمًا بأن المئذنة لم تكن تحوي شرفة لوقوف المؤذن. وتكاد هذه المئذنة أن تكون نسخة طبق الأصل عن أول مئذنة بنيت في جامع مدينة فاس العتيقة، مما يوحي بأن المغاربة الذين عرفتهم بلاد الشام عامة وبيروت خاصة أسهموا في بناء الجامع، فتركوا بصماتهم فيه.

ومئذنة مسجد بيروت المذكور كانت أول مئذنة في بيروت بنيت حوالي سنة ١٣٤٣م، ومما يلفت النظر أن مئذنة جامع البدوي كانت مغربية الطراز - على غرار مئذنة جامع الدباغة - أي: مربعة تنتهي في أعلاها بشبابيك يؤذن منها وتشكل برجًا ومنارة لمراقبة الشاطىء ورصد أية تحركات غريبة ترسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر، وتعلو المئذنة - المنارة - قبة صغيرة تحل محل العمامة غطاء رأس العلماء والأولياء.

يذكر أن الجامع العمري الكبير بقي حتى سنة ١٥٠٨م بدون مئذنة، ثم أنشئت بعد أكثر من مئتي سنة على تحويل كنيسة يوحنا المعمدان إلى الجامع العمري. وهي تشبه مئذنة الجامع الأموي بدمشق حين أنشئت مئذنة ذات مسقط مربع وأنشئت عليها شرفة لوقوف المؤذن.

ومما يلفت النظر أن الرحالة الفرنسي Laurent D ARVIWUX زار بيروت سنة ١٦٦٠م ولا يعلم صحة ما ذكر بأن أعلى مئذنة الجامع العمري هلال ضمنه صليب[1]؟

وبنيت مئذنة جامع الأمير عساف السراي مع الجامع بعد سنة ١٥٢٤م. وبنيت مئذنة جامع الأمير منذر أي جامع النوفرة أو الجامع المعلق مع إنشاء الجامع سنة ١٦٢٠م.

كما تتميز مئذنة جامع الدركاه بأن شرفتها التي يقف عليها المؤذن كانت مختلفة عن الشرفات التقليدية، فقد استعيض عن الشرفة بنافذتين من كل جهة، تعلو كل نافذة منهما قنطرة على شكل حدوة الفرس، في حين كانت نوافذ مئذنة جامعي البدوي والدباغة عادية. ويعلو القناطر غطاء مخروطي. ومن المعروف أن القناطر بشكل حدوة فرس شاعت في أبنية المغرب العربي والأندلس. وتبدو هذه المئذنة بشرفتها ونوافذها تقليداً لأبراج المغرب والأندلس ولقصورهما. ولما كان باب الدركاه يعني باب القصر، فقد جاءت هذه المئذنة وشرفتها ونوافذها تقليداً للقصور الأندلسية والمغربية.

ويبدو أن مآذن بيروت أخذت منذ العهد العثماني الشكل الأسطواني الكامل أو الأسطواني المضلع، كجامع الأمير منذر (النوفرة) وجامع الأمير عساف (السراي) الذي أنشىء بين سنتي ١٥٢٤ و١٥٨٠م، فكانت مئذنته بدون سقف. وفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م «عمل سقف منارة جامع السرايا، وطلب من المفتي عبد اللطيف فتح الله تأريخ ذلك فقال:

(١) دارفيو (٢/١٤٤).

يـا حسن سقف منارة ... فيها إله الخلق يُذكرُ
ورسوله خير الورى ... مختارُه طه المطهّر
وبها الأذان لذكره ... متواصل يبدو ويظهر
والذكر أرخ دايم ... أذّن وقل: الله أكبر[1]

وشاعت في بيروت أواخر القرن التاسع عشر «**عادة التوحيش**» في شهر رمضان، وهي من الوحشة التي يشعر بها الصائم لمفارقة شهر الصيام. وكأنما قد أصبحت هذه العادة من لوازم الصيام. وقد حصل جدل في حينه بين الشيخ عبد القادر قباني صاحب «جريدة ثمرات الفنون» ومحمد رشيد الدنا صاحب «جريدة بيروت» حول العادات التي كانت تمارس في العشر الأواخر.

ودعت «الثمرات» إلى نبذ العادة السيئة مما جرى في المآذن من الزينة وإنشاد القصائد والموشحات بأصوات مطربة وألحان معجبة. فيما رأت «صحيفة بيروت» بأن التوحيش والتوديع كان بمرأى من الحكومة، وأن هذه لو رأته مخالفاً لإرادتها ومبايناً للمراسم الشريفة لما تغافلت عنه، وأن ما وقع تلك السنة (١٨٨٦م) لا يوجب سوء الظن.

وأوضحت الصحيفة بأن الدولة العثمانية سنت للمؤذنين الإعلام بيوم الجمعة ثلاث مرات في المآذن، وسنت لهم التوديع في الليالي الأخيرة من رمضان، وأمرت المؤذنين بأن يكثروا من التسبيح والتهليل وإنشاد قصائد المديح النبوي.

(١) ديوان الشيخ المفتي عبد اللطيف فتح الله (١/٤٧٣).

يـذكر أن مسـاجد بيـروت الحديثـة توزعـت بـين المسـاقط المربعـة، كجوامع علم الشرق وعبد الناصر وعائشة بكار وشاتيلا وعماش وعباد الرحمن والخلية السعودية والخاشقجي وعمر بن عبد العزيز وعلي بن طالب (الجديدة)، بينما أخذت المآذن في مساجد أخرى شكلًا أسطوانيًا وأحيانًا مضلعًا كمساجد النوفرة وعساف وخليل شهاب وخالد بن الوليد وبوبس والقصار والشهداء وعبد الرحمن بن عوف (الصيداني) والداعوق والبسطتين الفوقا والتحتا (الباشورة) والخضر والمصيطبة والأشرفية (القديم) ورأس النبع (ذي النورين) والحرج ورأس بيروت ودار المريسة (بيهم) والمجيدية والصديق والقنطاري وزقاق البلاط الخ. ولأكثر هذه المآذن شرفة واحدة.

والجدير بالملاحظة أن مئذنة جامع أنيس طبارة في الصنائع تجمع بين الطرازين، فقاعدتها مربعة يليها جزء مثمن والجزء العلوي أسطواني.

يذكر أن أدراج المآذن لولبية، قال فيها محمود حمزة مفتي دمشق:

النّاس للخير ما أحلى ظواهرهم ... وفي بواطنهم للشر إخراجُ
مثل المنارة تلقى العدل ظاهرها ... وفي بواطنها عوج وأدراج[1]

وفي مطلق الأحوال فقد افتقدنا وقوف المؤذن ورفعه الأذان من شرفة المنارات، بعدما حلّت مكبرات الصوت محله لنقل الأذان بآلة تسجيل، وبقي من المآذن الشكل فقط.

---

(١) منتخبات التواريخ لدمشق، الحصني (ص٧٧١).

سيف وسدة ومقصورة وحمّال الربعة في مساجد بيروت

السيف

السيف من أعظم آلات الحرب وأشرفها عند العرب، ولذلك كانت له أسماء تفوق على الألف، وكثرة الأسماء تدل غالبًا على شرف المُسَمّى. واشتهر من السيوف سيف عنترة:

وسيفي كان في الهيجا طبيبًا ... يداوي رأس من يشكو الصّداعا

وسيف المعتصم فاتح عمورية الذي قال فيه أبو تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

روي عن عمرو الحميري أن أحب السيوف إليه الصقيل الحسام، والباتر المجذا (جذم: قطع)، والماضي السهام (حد السيف)، والمرهف الصمصام (الذي لا ينثني).

وكان للنبي ﷺ سيوف متعددة، منها ما قيل له المأثور، وهو أول سيف ملكه عن أبيه، وله من السيوف أيضًا القضيب، والقلعي، وبتار، والحتف، والمخذم، والرسوب، وذو الفقار. (بعض سيوف النبي ﷺ والصحابة محفوظة في غرفة الآثار الشريفة في متحف طوب كابي بإستانبول).

حدّث ابن عمير الليثي قال: «دخل الحجاج المسجد الجامع في الكوفة معتمًّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلدًا سيفًا متنكبًا قوسًا يوم المنبر، وألقى خطبته الشهيرة التي بدأها بـ:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وقال فيها: إني أرى رؤوسًا قد أينعت وحال قطافها، وإني لصاحبها ... يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ... . وقد مات الحجاج ولم يخلف إلا سيفًا ومصحفًا وعشرة دراهم فضة.

كان السلطان المملوكي يتقلد سيفًا مستقيمًا مذهبًا حول وسطه، أو يعلق بصدر المكان الذي يجلس فيه. وقد وصفه ابن إياس بأنه السيف البدوي أو العربي، وقيل: إنه سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يذكر أن ابن بطوطة وصف سنة ٧٢٦هـ رسوم خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة على عهد السلطان المملوكي الملك الناصر فقال: «كان المنبر يلصق إلى واجهة الكعبة بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويأتي الخطيب لابسًا السواد بين رايتين سوداوين، ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه على عاتقه السيف، وعندما يبدأ الخطيب في صعود درج المنبر يقلده المؤذن السيف، فيضرب بنصله ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالثة أخرى. وعندما يصل إلى أعلى الدرجات يضرب ضربة رابعة ويقف داعيًا ويسلم عن يمينه وعن شماله، ثم يقعد.

وكان البيارتة يضعون عند باب المنبر سيفًا يحمله الخطيب في الجمعة والعيدين، ويعتمد عليه أثناء الخطبة. وقيل: إن السيف وجد في مساجد المدن التي افتتحت عنوة.

وقد ذكر الشيخ طه الولي أن هذه العادة أهملت في السنوات الأخيرة، ولم يكن قد بقي إلا السيف الذي كان في جامع المجيدية قبل أن تنتقل التولية على الجامع إلى مديرية الأوقا.

يذكر أن العثمانيين كانوا أصلًا قبائل محاربة، فلما فتحت القسطنطينية من محمد الفاتح وكان في أيامه قاضٍ واحد للعسكر، كثرت الأعمال، فقسم القضاء إلى قاضي عسكر الروملي (أي الأراضي الواقعة في أوروبا) وقاضي عسكر الأناضولي (لآسية)، ونصب خضر بك قاضيًا على إستانبول ومفتيًا في مقر السلطنة، وأطلق فيما بعد على منصب الإفتاء مقام المشيخة الإسلامية الذي كان فوق منصب قاضيَي عسكر الروملي والأناضول.

ووفقًا للقانون العثماني كان على الوزراء الأول (الصدور العظام) وقضاة العسكر مرافقة السلطان في حملاته، كما كان شيوخ الإسلام يشتركون في الحملات العسكرية ويندفعون بين صفوف الضباط والجنود لتشجيعهم.

وبموجب قانون تشكيل الولايات الصادر في ١٨٦٤/١١/٨م قسمت أراضي السلطنة إلى ثلاثين ولاية، يرأس كل منها والٍ، وقسمت الولاية إلى ألوية، يرأس كل لواء متصرف.

ومن ضمن الولايات ولاية سورية التي ضمت بيروت التي أصبحت ولاية سنـــة ١٨٨٧م، وكان مجلس إدارة الولاية مؤلفًا من أعضاء طبيعيين وأعضاء منتخبين، والأعضاء الطبيعيون كانوا الدفتردار والقاضي والمفتي والمكتوبجي. وفي لواء بيروت كان القاضي والمفتي والمحاسبجي والمكتوبجي أعضاء طبيعيين.

ويبدو أن اشتراك شيوخ الإسلام والمفتين والقضاة في الحملات العسكرية كرس اعتبارهم أعضاء طبيعيين في مجالس إدارة الولاية واللواء، واستمرت عادة تقليد كلٍّ منهم سيفًا للتذكير بدورهم الإيجابي في الحملات العسكرية قديمًا.

فمفتي ولاية بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري كان له سيف لا يزال محفوظًا لدى حفيده الأخ سعد الله حسن فاخوري.

السُّدّة

وجدت سدّة في بعض المساجد، وكان المؤذن يستعملها قديمًا حينما يرفع الأذان الثاني بين يدي الخطيب، وأصبح المؤذن الآن يرفع الأذان بين يدي الخطيب قرب المنبر.

ففي الحائط الشمالي تجاه حائط القبلة في الجامع العمري الكبير سدّة من الخشب المخروط مزينة بزخارف هندسية ونباتية ملونة ومذهبة. وفي جامع الأمير عساف سدّة مرفوعة على أربعة أعمدة خشبية، وهي مزينة بزخارف ملونة ومذهّبة. وتوجد سدّة خشبية أعلى باب مدخل جامع الأمير منذر، ومنها يمرّ المؤذن إلى المئذنة. وسدّة جامع المجيدية خشبية أيضًا،

ولكنها محجوبة بحاجز خشبي. ومثلها سدّتي جامع رأس النبع (ذي النورين) والمصيطبة وعبد الله بيهم (عين المريسة).

مقصورة الجامع العمري الكبير

ونشأت في المسجد مقصورة بناء لرغبة الخلفاء والولاة بالصلاة في مكان منفصل خوفًا على حياتهم، فقد سبق أن اغتيل الخليفتان عمر وعلي رضي الله عنهما في المسجد . وقيل: إن ذلك دفع معاوية بن أبي سفيان أو مروان بن الحكم لاتخاذ مقصورة. والمقصورة مجرد مساحة عند جدار القبلة، تحيط بها حواجز خشبية، يدخل إليها من باب خاص، أو من باب بيت الصلاة. وأصبحت فيما بعد غرفة. ونسب إلى الخليفة المهدي أنه أمر بتعميم المقاصير في المساجد الجامعة، وقيل: بل إنه أمر بإزالة المقاصير من المساجد . واشتهرت مقصورة مسجد قرطبة الجامع.

وقال القرطبي في شرح مسلم: «لا يجوز اتخاذها، ولا يصلى فيها لتفريق الصفوف وحيلولة التمكن من المشاهدة»، لأنها تقطع الصف الأول من المصلين، كما يحصل من المنبر.

يذكر أن مقصورة الجامع العمري الكبير أنشئت عندما شاع خبر زيارة السلطان عبد المجيد لبيروت (بعد إخراج إبراهيم باشا منها سنة ١٨٤٠م)، وكانت مسورة بدرابزين خشبي في الزاوية الغربية الجنوبية لبيت الصلاة. وقد زالت هذه المقصورة وبقيت في حائط القبلة لوحة رخامية تحدد تاريخ الإنشاء في ذي الحجة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م من خمسة أبيات[١].

---

(١) انظر: مقام النبي يحيى عليه السلام.

خزانة المصاحف وحمّال الربعة

وتحتوي المساجد عادة خزانة معدّةً لحفظ نسخ القرآن الكريم التي يتداولها المصلون في الجامع، وكان أكثرها مخطوطًا، وكان يتولى أحد العاملين في المسجد توزيع الربعات الشريفة (أجزاء القرآن) في حلقات التدريس وعلى المصلين يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يقوم بجمعها بعد الصلاة وإيداعها الخزانة، وكان هذا الشخص يدعى «حمّال الربعة». والربعة من ربّع الشيء: صيّره أربعة أجزاء، أطلقت أيام المماليك على أجزاء المصحف، والربعة كذلك بمعنى: صندوق فيه أجزاء المصحف الشريف.

يذكر أن مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط الفاخوري كان يعقد في شهر رمضان مجالس للوعظ والتفسير والإرشاد في الجامع العمري، وقد جمعت مجالس شهر رمضان لسنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م وطبعت، وقد ورد في المجلس السابع منها قوله: «ومن البدع ما أحدثوه (البيارتة) من التصفيق حال الخطبة أو قبلها، وما اعتادوه من تفرقة أجزاء الربعة بين اجتماع الناس لصلاة الجمعة، فإذا كان عند الأذان قام الذي يفرقها يجمع الأجزاء فيتخطى رقاب الناس بسبب أخذها»[١].

وقد وردت في السجلات الشرعية أسماء الحاج محمد وهبه حمّال الربعة، وحسن مصطفى جمعه حمّال الربعة. ويبدو أنه عند إحصاء النفوس كانت وظيفة حمل الربعات وتوزيعها قد زالت، فتمّ تسجيل الشهرة «الربعة»، كما بينا في كتابنا تاريخ القضاء الشرعي في بيروت.

---

(١) المجالس السنية (ص٥٩).

سنجق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مساجد بيروت

كان العرب يعقدون لواء الحرب في الكعبة، وكان قصي قد جعل اللواء مع الحجابة والسقاية إلى عبد الدار، وهو منصب يعادل منصب وزير الدفاع في عصرنا. فإذا أخرج اللواء اجتمعت عنده صناديد قريش، ووجدت عادة العرب على اتخاذ اللواء في الحروب.

وقد تعددت مصطلحات اللواء والراية والعصبة والعقاب، ففي «المخصص»: العلَم هو: الراية، والعقاب هو: العلَم الكبير. وفي معلقة عمرو بن كلثوم:

وإنا نورد الرايات بيضًا ونصدرهن حمرًا قد روينا

وقيل: اللواء غير الراية، فاللواء: ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، والراية: ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح. وفي تاريخ جودت باشا التركي الشهير (عرَّبه عبد القادر الدنا): أن السر في إحداث السنجق واللواء هو أنه إذا اجتمع قوم تحت لواء واحد يجعل بينهم الاتحاد، فيكون اللواء علامة على اجتماع كلمتهم، ودلالة على اتحاد قلوبهم. فإذا كانوا في معركة لا ييأسون من الظفر ما دام لواؤهم منشورًا. وكما أن الموسيقى

العسكرية تنعش أرواحهم وتحثهم على الإقدام والشجاعة، كذلك مناظر الألوية وتموجها تحدث فيهم دواعي العزة.

يذكر أن الرسول ﷺ اتخذ رايتين سوداوين، أحدهما من كساء من الصوف لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وكانت للرسول ﷺ راية بيضاء ذراعًا في ذراع، مكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وكان أول لواء عقد في الإسلام عند دخول الرسول ﷺ المدينة مهاجرًا عندما نشر أحد الأنصار عمامته على رمحه وسار بها أمام موكب الرسول ﷺ.

وكان الرسول ﷺ إذا بعث قائدًا يعقد له اللواء ويسلمه له، فيركزه هذا في مسجد الرسول ﷺ أو أمام بيته، فيجتمع عنده من يخرج للحرب. وكان في مقدمة المسلمين عند فتح مكة علمان أسود وأبيض، ودخلها الرسول ﷺ ورايته سوداء، ركزها في الموضع الذي أقيم عليه «مسجد الراية». وسار الخلفاء على سيرة النبي ﷺ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعقد اللواء ويسلمه للقائد، ثم يخاطب الجند قائلًا: «بسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله والنصر».

وقد اختلفت ألوان الرايات، فاختار الأمويون الراية البيضاء، واختار العباسيون السوداء كتب عليها «محمد رسول الله». وقام أحد الخلفاء العباسيين بوضع هلال من النحاس المذهب على رأس رايتهم. وكتب الفاطميون «نصر من الله وفتح قريب» وركزوا علمين على المنبر. وتميزت رايات الأندلسيين باللون الأخضر، وكتبوا عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله لا غالب إلا الله».

وصف ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ رسوم خطبة الجمعة في المسجد الحرام بمكة المكرمة على عهد السلطان المملوكي الملك الناصر فقال: «كان المنبر يلصق إلى واجهة الكعبة بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويأتي الخطيب لابسًا السواد بين رايتين سوداوين، وبين يديه من يضرب بالسوط في الهواء تنبيهًا لحضور الخطيب، وعندما يقترب من المنبر يقبل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه على عاتقه السيف. وتركز الرايتان على جانبي المنبر، وعندها يؤذن المؤذنون، فيخطب الخطيب ...، وعند الفراغ من الصلاة ينصرف الخطيب والرايتان، ويعاد المنبر إلى مكانه».

وكان رفع العلم على قلعة المدينة وساريتها إعلانًا على الحكم الجديد. فعندما حرر صلاح الدين بيروت من الصليبيين في ١٩ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ رفع على قلعتها «السنجق السلطاني».

وتسمى الرايات الملكية السناجق، أو الصناجق السلطانية، وهي رايات صفراء لا ترفع إلا في الحرب، والسنجقدار: هو الذي يحمل السنجق السلطاني، حيث يقف السلطان في الحرب تحته. وهو مركب من لفظتين: أحدهما تركي وهو سنجق، ومعناه: الرمح، وهو في لغتهم مصدر طعن، فعبّر به عن الرمح الذي يطعن به. والثاني دار، معناه: مُمسِك، ويكون المعنى: مُمسِك السنجق وهو الرمح، والمراد: الراية التي جعلت في أعلى الرمح، عبّر بالرمح نفسه عنها.

وعبِّر عن بعض الرايات بالعصائب، جمع عصابة، وهي: الألوية أخذًا من عصابة الرأس، لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه.

ومع سيطرة الأعاجم على العالم العربي دخلت في القاموس كلمات تركية فارسية، مثل بيرق وسنجق. فالبيرق أو البيراق تعني: العلم، وبيرق دار: صاحب العلم أو الراية. والسنجق أو سنجاق من الفارسية سنجوق، وتعني أصلًا: الراية، ثم صارت تعني تقسيمًا إداريًّا بمثابة لواء أو محافظ، فيقال سنجق القدس وسنجق عجلون وسنجق غزة الخ، ثم صار السنجق من أرباب الوظائف السياسية.

وقد عرف البيارتة محمود بك السنجق، الذي بنى جامعًا باسمه في طرابلس، ووقف عدة عقارات شاسعة كانت عائلات بيروتية كثيرة تستفيد من ريع تلك الأوقاف.

ولا تزال في بيروت وصيدا وطرابلس عائلات تحمل شهرة السنجقدار، وهو الذي يحمل العلم الكبير الأخضر أمام موكب الوالي، والبيرقدار الذي يحمل العلم الأبيض. (وردت في سجلات الأحوال الشخصية في بيروت عائلة باسم الشامي البيرقدار).

وقد ترجم الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة لسعد بن مالك الأزدي، وقال: عن ابن يونس أن رسول الله ﷺ عقد له راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض. فيؤخذ من ذلك أصل رسم الهلال في الراية الإسلامية.

وقد ذكر الكتاني في التراتيب الإدارية[1] أن رسم صورة الهلال على رؤوس منارات المساجد تداولها ملوك الدولة العثمانية علامة رسمية عن

---

(١) (١/٢٦٥، الأرقم).

فيليب المقدوني لما هاجم القسطنطينية في بعض الليالي ودافع أهلها وطردوه، وصادف ذلك وقت السحر فتفاءلوا به واتخذوا رسم الهلال في علمهم الرسمي تذكيرًا للحادثة.

وقد جرت عادة البيارتة مثل غيرهم من المسلمين على أن يضعوا في المساجد على طرفي المنبر من الجهة العليا ما عرف لديهم بالسنجق، وهو عبارة عن علم كبير مصنوع من الحرير ذي اللون الأخضر وعليه بعض الآيات القرآنية مطرزة بالذهب مثل كلمة التوحيد أو البسملة، أو ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أو ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ومثبت في وسطه بعمود من الخشب ينتهي برأس فضي.

ويعود تقليد وضع السناجق إلى أيام العبيديين، أخذها الأيوبيون ثم المماليك، واستمر العمل بها أيام العثمانيين وحتى الآن.

وجرت عادة البيارتة أيضًا على رفع أعلى المئذنة عند كل أذان رايةً حمراء مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله، وذلك للفت نظر المؤمنين إلى حلول وقت الصلاة قبل أن تقوم مكبرات الصوت بهذا الدور.

وقد جرت العادة في دمشق أن يحتفل ثالث أيام العيد بإخراج السنجق الشريف المعتاد إخراجه في كل موسم، وكان قطعة من لواء سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما اعتيد في بيروت أيام الأزمات والمحن على إخراج ما عرف «بسنجق سيدنا عمر» من المسجد في دعوة للتضامن.

ولعل نسبة السنجق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنظر لكون بلاد الشام ومنها بيروت فتحت أثناء خلافته. يذكر أن أول مسجد أنشأه

المسلمون في بيروت بعد الفتح كان باسم الجامع العمري، ثم عرف بجامع البحر، ثم جامع الدباغة كما ذكرنا في محله، كما أن البيارتة أطلقوا على مقبرة الباشورة (القديمة) مقبرة الصحابة أو مقبرة سيدنا عمر.

إثر خسارة تركيا الحرب ومغادرة والي بيروت عزمي بك ألَّف عمر بك الداعوق رئيس مجلس بلدية بيروت الحكومة العربية، وعلى إثر انسحاب الجيش التركي من بيروت أحاط البيارتة الترك وموظفيهم وأفراد عائلاتهم بالحماية والرعاية، وسهلوا سفرهم وعودتهم إلى بلادهم معززين مكرمين، خلافًا لما حصل وقتئذ في بعض المدن العربية.

وظل عدد كبير من البيارتة بعد حلول الانتداب الفرنسي يتمنى عودة الحكم التركي، حتى إن كثيرين امتنعوا عن تسديد ما يترتب عليهم من ضرائب ورسوم لعدم اعترافهم بالانتداب وما عقبه.

يذكر أن مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا وكان مقيماً في محلة برج أبي حيدر عندما سئل من قبل لجنة كنغ - كراين عن الدولة التي يفضل أن تكون وصية أو منتدبة على البلاد. أجاب بأن الوصاية في الشرع هي التولية على قاصر، وأن الشعب ليس قاصرًا ولا بحاجة إلى وصاية من أحد.

أما الحاج عبد الله الكبي - عمّ الدكتور جميل كبّي رحمهما الله - والذي كان مقيمًا بجوار بيت المفتي الشيخ مصطفى نجا، فقد ظل كما أخبرني الدكتور جميل يتمنى عودة الحكم العثماني، وكان يتابع تطور الأحداث في تركيا. وقد علم يومًا بأن قائدًا عثمانيًّا مشهورًا سوف يصل إلى ميناء بيروت، فأخرج السنجق من جامع برج أبي حيدر، وهو علم أخضر خطت عليه الشهادتان، وحمله وسار به باتجاه المرفأ. وكان كثيرون

طيلة الطريق من بيته في برج أبي حيدر إلى المرفأ يحذرونه من مغبة حمل السنجق، وما قد يتعرض له من الملاحقة والتوقيف من قبل السلطة المنتدبة ولكنه لم يبال بالتحذير، فاضطر أصدقاؤه إلى تحميله علمًا فرنسيًّا صغيرًا، فحمله منكسًا.

وأضاف الدكتور جميل بأن خبر حمل الحاج عبد الله الكبي للسنجق ترحيبًا بالقائد العثماني سار في الآفاق، ووصل إلى تركيا، وأن أهل الحاج عبد الله ظلوا مدة طويلة موضع ترحيب في تركيا، وكان يقال لهم: أنتم أقرباء حامل السنجق.



مقبرة سيدنا عمر رضي الله عنه
أو مقبرة الصحابة والتابعين في ساحة بيروت

أعلن مفتي الجمهورية سماحة الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني عن اكتشاف مقبرة تاريخية تعود إلى العصر الأموي في موقع العقار الكائن في ساحة رياض الصلح. وقد ظهرت أثناء الحفر رفات وعظام جمعت في أكثر من عشرين كيسًا. وليست هذه المرة الأولى التي يجري العبث فيها برفات البيارتة، فقد سبق أن جرى مثل ذلك في مقبرة السنطية.

وفي نبذة عن مقبرة ساحة رياض الصلح نقول: بعد فتح دمشق الذي تم في شهر رجب سنة ١٤هـ خرج يزيد بن أبي سفيان وبصحبته أخوه معاوية نحو الساحل، ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي ثغور ساحلية، فتم فتحها فتحًا يسيرًا وجلا كثير من أهلها[(١)]، وذلك سنة ١٤ هـ/٦٣٤م في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولم تكن بيروت عندما دخلها المسلمون لأول مرة ذات أهمية، لقلة عدد سكانها وضعف عمرانها. وصفها ابن حوقل بأنها «مدينة على ساحل بحر الروم، وهي فرضته، وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها، وينفرون إليها عند استنفارهم»[(٢)].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (١٠/١٥٠).

(٢) صورة الأرض (ص١٦٢).

كانت بيروت بقايا متناثرة من الأنقاض التي تخلفت عن الزلزال المدمر الذي ضرب المدينة في العقد السادس من القرن السادس الميلادي (٥٥١م).

وقد وجه الخلفاء الراشدون عنايتهم إلى ساحل الشام عامة وإلى بيروت خاصة، وأوعزوا إلى عمالهم بأن يعمروه ويشحنوه بالجنود، وأن يمنح هؤلاء الجنود إقطاعات وعطايا من أجل السكن وصد هجمات الروم.

والمعلومات ضئيلة حول المعابد الدينية التي أقامها المسلمون في بيروت عندما فتحوها لأول مرة، ومثل ذلك المواقع التي رابطوا فيها. ويبدو أن المؤرخين لم يجدوا في حينه ما يلفت انتباههم.

عندما زار عبد الغني النابلسي بيروت سنة ١٧٠٠م وجد في بيروت أربعة جوامع، قال عن أحدها: «جامع البحر، **ويسمى جامع العمري**، لأنه كما هو مشهور عندهم (أي عند البيارتة) من زمان عمر بن الخطاب، وهو أصغر الجوامع التي في بيروت، وهو مرتفع مطل على البحر، يصعد إلى فنائه بسلم حجر نحو خمسة عشر درجة، ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات ...»[(١)]. ويؤكد هذه الرواية المتواترة أن البيارتة عندما حولوا كنيسة يوحنا المعمدان إلى جامع، أطلقوا عليه **الجامع الكبير العمري**، لتمييزه عن الجامع الصغير العمري الأول.

وبعد أن أنشئت الدباغات قرب الجامع أصبح يعرف بجامع الدباغة بدل جامع البحر، وبعد تنظيم أسواق بيروت القديمة، هدم جامع الدباغة وبني مكانه جامع أبي بكر الصديق الواقع حاليًّا آخر شارع فوش.

---

(١) عبد الغني النابلسي. التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية.

يذكر أن الروم استردوا بيروت سنة ٢٢هـ، وعاد معاوية بن أبي سفيان واستردها منهم سنة ٢٤هـ. وتحولت بيروت وغيرها من الثغور الساحلية إلى رباط للصحابة رضي الله عنهم وللمجاهدين في سبيل الله. والرباط في الثغور كبيروت يفضل الرباط في السواحل الأخرى لتعرضها للخطر الدائم كما نقل ابن عساكر.

قدم الكثير من الصحابة والتابعين إلى بيروت للمرابطة والدفاع عن الساحل، وكان منهم:

- أبو الدرداء رضي الله عنه، وهو الصحابي الأنصاري عويمر بن مالك، نزل في بيروت مرابطًا عقب الفتح[١].
- سلمان الفارسي، لحق بأبي الدرداء إلى بيروت برفقة عبد الملك بن أبي ذر الغفاري. وفي «التاريخ الكبير»[٢] للبخاري أن سلمان حين نزل بيروت اجتمع عليه المسلمون في مسجدها فحدثهم قائلًا: «يا أهل بيروت، ألا أحدثكم حديثًا يذهب الله به عنكم غرض الرباط؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا في سبيل الله أجير من فتنة القبر، وأجري له ما كان يعمل إلى يوم القيامة»».
- جنادة بن أبي أمية، أمير البحر في بيروت، وهو صحابي حدّث وأفتى في بيروت ودمشق[٣].

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار (ص١٢٢).

(٢) (١٣٥/٤).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠٨/٣-٣٠٩).

- عبد الرحمن بن سليم الكلبي، تولى منصب أمير بيروت[١].
- أيوب بن خالد الجهني، أمير بيروت أيضًا[٢].
- مجاهد بن جبر، كان يقص في بيروت ويقرئ القرآن الكريم[٣].
- سعيد المقبري والدرداء بن أبي الدرداء وزوجته الغميصاء بنت ملحان الأنصارية الشهيرة بأم حرام[٤].
- حيّان بن وبرة المرّي صاحب أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان يجتمع عليه الناس في مسجد بيروت ليسمعوا منه وهو يلبس قميص من كرابيس (قطن) إلى نصف ساقيه وقلنسوة صغيرة وثيابًا رثة[٥].

وكان من الطبيعي أن يدرك الموت بعض الصحابة والتابعين وغيرهم ممن رابط في بيروت. ومن الطبيعي أن يتم دفنهم في أول موقع يلي العمران. وكانت ساحة رياض الصلح وما حولها خالية من العمران والسكان. وبوقوعها خارج سور المدينة القديم جعلها لأن تكون آخر الدنيا وأول الآخرة بالنسبة لمن يتوفاه الله من السكان القريبين منها.

ولم تشر أخبار الفتح الإسلامي إلى أن الجيش الفاتح صادف حصونًا وأسوارًا عند فتح بيروت، ثم دفعت هجمات الروم على المرابطين إلى

(١) تاريخ دمشق (٥٩٥/٢٢).

(٢) تاريخ دمشق (٢٠٤/٣).

(٣) تاريخ دمشق (٤٣١/١٠).

(٤) تاريخ دمشق (٩٢/١٦، ٣٧٨/٢٤).

(٥) تاريخ دمشق (٣٧١/١٥).

تحصين المدينة بسور. أشار ابن حوقل إلى أن «بيروت حصينة خصيبة متينة السور»[1].

وعندما قصدها بغدوين سنة ٤٧٥هـ امتنعت عليه، وتحصن أهلها داخل أسوارهم. وتعرض السور للهدم وإعادة البناء عدة مرات، إلى أن ظهرت حدوده أثناء تنظيم شوارع بيروت وهدم الأبنية القديمة سنة ١٩١٥م، وهو السور الذي رممه ودعمه أحمد باشا الجزار سنة ١٧٧١م، فكان يمتد من الشمال الشرقي للمدينة إلى باب السراي (أول شارع فوش)، ومن هناك شرقًا إلى باب أبي النصر، ثم يتجه غربًا إلى باب الدركة (رأس شارع المعرض)، فباب يعقوب (طلعة الأميركان)، ثم يمتد شمالًا حتى جامع المجيدية (كان جامع المجيدية مرتفعًا عن سطح البحر، وكان جداره الغربي ملاصقًا للسور). فساحة رياض الصلح حيث عثر على الرفات والعظام كانت خارج السور حتى سنة ١٨٣٢ عندما أباح إبراهيم باشا البناء خارج السور.

مقبرة الصحابة والتابعين

يمكن تحديد مقابر بيروت من خلال عدد سكانها. ولا توجد معلومات دقيقة عن عدد السكان أيام الفتوح الإسلامية الأولى. وكان هذا العدد يزداد ويتناقص تبعًا للحملات العسكرية على المدينة، أو لما يقع فيها من أوبئة.

---

(١) صورة الأرض (ص١٦٢).

يذكر صالح بن يحيى في حوادث بيروت أيام الصليبيين «أن بيروت لما كان الفرنج بها، كان بها جماعة من المسلمين مستوطنين بمساكنة الفرنج، وكان (المسلمون) يجتمعون لصلاة الجمعة، فلم يكملوا أربعين (العدد اللازم لصلاة الجمعة عند الشافعية)، فيصلي بهم الخطيب ظهرًا في بعض الأوقات، وفي معظمها يكملوا بما حضر من الضواحي، فيصلي بهم جمعة»[1]. يذكر أن مدة استيلاء الفرنج على بيروت دامت خمسة وتسعين سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا.

وفي مجلة المشرق (مجلد ٢٤ ص ١١٦) أن عدد أهل بيروت قلّ أيام المماليك إلى عشرة آلاف لما أصابها من الطواعين. وفيها (المشرق ٣١ ص ٧٢٧) أنه لم يكن في بيروت أيام الأمير فخر الدين المعني في القرن السابع عشر وأيام الجزار في القرن الثامن عشر إلا ستة آلاف نسمة. وبلغوا سنة ١٨٢٠ ثمانية آلاف نفس. وكان للمسلمين في بيروت حتى أواسط القرن التاسع عشر عدة مدافن هي:

- مقبرة الخارجة: سميت كذلك لوقوعها ظاهر المدينة. قامت مكانها بناية بيبلوس بعدما أوقف الدفن فيها أيام الانتداب، ونقل الرفات الباقي فيها إلى مقبرة الباشورة.
- مقبرة الغربا (كانوا يلفظونها دون همزة في آخرها)، لدفن الغرباء من المسلمين الذين كانوا يأتون إلى بيروت أو يمرون فيها.

---

(١) تاريخ بيروت (ص٢٣).

- مقبرة المغاربة، وهي مثل الغربا، كانت جزءًا من مقبرة الخارجة، وكان يدفن فيها أبناء المغرب العربي.

- مقبرة المجيدية، وكانت روضة صغيرة بجوار مسجد المجيدية، توزعت فيها قبور قليلة ممن تولى خدمة المسجد الذي كان أصلًا زاوية للطريقة القادرية أنشأها قبلان باشا الوالي سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩م.

- مقبرة السنطية، بمحاذاة ساحل البحر عند محلة الزيتونة، زارها الشيخ عبد الغني النابلسي سنة ١٦٩٣م، وقال: إن فيها قبر الشيخ جبارة من أولاد الشيخ حسن الراعي القطناني.

- مقبرة الباشورة، كلمة الباشورة أو الباشوراء من المصطلحات العسكرية المرتبطة بالاستحكامات الحربية ومنشآت الدفاع. جمعها بواشير، أي: حصن بارز. قال كاترمير: إن الباشورة تسمى بالفرنسية bastion. قال المقريزي (السلوك ١/١٠٥): «ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر ليكون مثل الباشورة». وقال دوزي في «تكملة المعاجم العربية»: أن الباشورة: سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام إلى مواضع المحاربين. ولأن المشارقة لم يعرفوا الحصون البارزة، فهو بالأحرى حصن مشرف غير منتظم الشكل منعزل عن باقي الموقع، وهي أيضًا جصن منعزل تعلوه سطيحة يشيد في الأرض الخلاء المكشوفة لمنع تقدم العدو والتفوق عليه في الحرب. وموقع مقبرة الباشورة الحالي مرتفع عن مستوى الطريق كما يظهر من جدار المقبرة الشمالي.

فالباشورة من المصطلحات المحدثة ولا توجد في لسان العرب. وبالتالي لم تكن مستعملة أيام الفتح الإسلامي لبيروت.

- قال الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه: «حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر»: إن أبناء بيروت من أهل الماضي كانوا يسمون هذه المقبرة «مقبرة سيدنا عمر»، كما **سمي أول مسجد بنوه في بيروت بعد الفتح «بالجامع العمري»**. وأغلب الظن أن مقبرة سيدنا عمر رضي الله عنه كانت في الموقع الذي اكتشفت فيه الرفات والعظام مؤخرًا في ساحة رياض الصلح، قبل أن ينقل موضع الدفن إلى مقبرة الباشورة الحالي. وذلك لعدة أسباب هي:

١- أن هذا الموقع المكتشف الآن كان خارج العمران وخارج سور المدينة.

٢- ذكر كتاب **«محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي»** تأليف أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن زيد الموصلي الدمشقي المشهور بابن زيد (ت٨٧٠هـ) أن الأوزاعي قال: «أعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء في القبور، فقلت لها: أين العمارة يا هنتاه؟ (هنت لغة في أنت)، فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه، وأشارت إلى القبور، وإن كنت تريد الخراب فأمامك، وأشارت إلى البلد، فعزمت على الإقامة فيها...»[1]، **ما يشير إلى أن هذه المقبرة هي أول مقبرة للمسلمين من أول الفتح الإسلامي لبيروت، والمشهورة بأنها مقبرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.**

---

(١) محاسن المساعي (ص٨٢).

٣- ولد الأوزاعي في بعلبك سنة ٨٨هـ، ولما نزعت نفسه إلى التقرب من الله بالجهاد والرباط شد الرحال إلى بيروت مرابطًا فيها سنة ١٣٣هـ، وتوفي فيها سنة ١٥٧هـ.

٤- كان الاوزاعي محسوبًا من رجال الدولة الأموية، فلم ينظر العباسيون إليه نظرة رضى. وروي أن عمال الدولة الجدد اضطهدوه، وسمع بأذنه من يشتمه منهم. ويبدو لي أنهم منعوا دفنه في مقبرة سيدنا عمر، أي مقبرة الصحابة والتابعين في ساحة رياض الصلح، وفرضوا دفنه في مكان بعيد عن بيروت (وفي المحلة التي أصبحت اليوم تعرف بالأوزاعي).

٥- عاش الأوزاعي في بيروت، ودرّس فيها، وهو عاصر طبقة أتباع التابعين، وشهد خلافة عمر بن عبد العزيز. ولد له في بيروت ابن وثلاث بنات، ومن الطبيعي أن يكونوا دفنوا في بيروت في مقبرة سيدنا عمر في الموقع المكتشف حاليًا. وولده محمد كان عالمًا زاهدًا ورعًا. قال صالح بن يحيى: «وكان يظنّ فيه أنه من الأبدال». روى محمد عن أبيه قال: «قال لي أبي: يا بني، أريد أن أحدثك بشيء، ولا أفعل حتى تعطيني موثقًا أنك لا تحدث به ما دمتُ حيًّا. قال: فقلت: أفعل يا أبه. قال: إني رأيت فيما يرى النائم أني دخلت الجنة، فإذا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر، وهم يعالجون مصراع باب الجنة، فإذا ردوه زال. قال: فقال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمن ألا تمسك معنا؟ قال: فجئت فأمسكت معهم فثبت». ومن بنات الأوزاعي واحدة اسمها رواحة البيروتية، روت عن أبيها بسنده عن أبي أمامة عن النبي ﷺ. وقد تزوجت من عبد الغفار بن عفان البيروتي الذي روى عن عمه حكايات. وروى عنه العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي. ومن أحفاد الأوزاعي عبد الله بن إسماعيل، المكنى بأبي عمرو

البيروتي، وقد حدث عن أبيه عن جده الأوزاعي. وممن أخذ عن الأوزاعي: الوليد بن مسلم، ويزيد ابن المذكور. وعمرو بن أبي مسلمة التنّيسي. وأبو إسحاق الفزاري. وعبد الله بن المبارك، وعقبة بن علقمة البيروتي وغيرهم.

٦- أن الحفريات الجارية في الموقع الذي اكتشفت فيه البقايا تعتبر أول أعمال الحفر التي جرت في الموقع بالعمق الحالي. فمن المعروف أن طبقات من التراب تراكمت على الموقع على مرور الزمن. وكانت المحلة الواقعة خارج السور (أي ساحة رياض الصلح وما حولها) خالية من البناء، بدليل أن الجزار عندما حكم بيروت منذ سنة ١٧٧١م أقطع محمد آغا الجبوري الذي قدم معه قطعة أرض كبيرة عرفت ببستان الجبوري، وقفها في ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٠٢هـ. وكانت بجوارها قطعة أرض كبيرة جدًّا مزروعة بأغراس التوت، باع منها صاحبها علي أحمد الجمال سنة ١٢٧٩هـ قطعة بلغت مساحتها ٩٩٢٥٠ ذراعًا[1]. وعرف في هذا الموقع زاروب الجمال، وشارع الأمير أمين ومحلة الغلغول[2].

٧- ويمكن في الفحص الكيميائي للرفات والعظام تحديد عمرها.

في أن الموقع هو مقبرة موقوفة لا يجوز نبشها ولا الانتفاع بها

جاء في الفتاوى الهندية: «إذا دفن الناس في المقبرة، زال الملك، ويكتفى بالواحد لتعذر فعل الجنس كله»[3]. «وسئل عن المقبرة في القرى

(١) سجل ١٢٧٩ هـ رقم ٢٥٥.
(٢) الفتاوى الهندية (٢/٤٦٥).
(٣) الفتاوى الهندية (٢/٤٧٠-٤٧١).

إذا اندرست ولم يبق فيها أثر الموتى، لا العظم ولا غيره، هل يجوز زرعها واستغلالها؟ قال: لا، ولها حكم المقبرة»[١].

وهذا لا يتناقض مع ما قاله الزيلعي في باب الجنائز من أن الميت إذا بلي وصار ترابًا جاز زرعه والبناء عليه، «لأن ذلك لا يعمل به إذا كان المحل موقوفًا على الدفن، فلا يجوز استعماله في غيره»[٢].

عن أبي يوسف ومحمد رحمهما الله «إن دفِن اثنان في الأرض تعتبر وقفًا لا رجوع فيها»[٣]. وروى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة: «أنه لا يرجع في المقبرة في الموضع الذي دفن فيه، ويرجع فيما سوى ذلك، لأن النبش قبيح».

وجاء في الهندية: «مقبرة قديمة لمحلة لم يبق فيها آثار المقبرة، هل يباح لأهل المحلة الانتفاع بها؟ قال أبو نصر رحمه الله: لا يباح ...، فإن كان فيها حشيش؟ قال: يحتش فيها ويخرج إلى الدواب ...»[٤].

وجاء فيها أيضًا: «الموضع الذي دفن فيه الميت هو وقف لا يجوز الرجوع فيه. ووقف المقبرة جائز، ولا يشترط فيه التسليم إلى المتولي، لأن التسليم يتم بدفن الموتى. وإذا أمر المالك برفع من دفن ميته فيه وسأل القاضي أن يأمره بتفريغ أرضه، فيأمر المالك بقصر يده عنه، ويحكم بصحة الوقف ولزومه[٥].

---

(١) الفتاوى الخانية بهامش الهندية (٢/٤٧١).
(٢) الفتاوى الخانية بهامش الهندية (٣/٢٩٠).
(٣) المصدر نفسه (٣/٢٩٤).
(٤) المصدر نفسه (٣/٣١٤).
(٥) الفتاوى الهندية (٦/٣٧٤).

تكية المصلى والخارجة والغربا

ما زالت أرض بيروت تبوح بأسرارها، ففي موقع سينما ريفولي تجري حفريات لما يقال إنه سيكون متحف بيروت، والذي نأمل أن لا يكون مشوهًا لتاريخ بيروت، على غرار ما سمي تجاوزًا بيت بيروت، وتشير تلك الحفريات إلى ظهور أحافير لرفات أموات دفنوا في تلك البقعة التي كانت جزءًا من مدافن بيروت القديمة المعروفة بالمصلى أو الخارجة والغرباء والمغاربة.

في «المغني لابن قدامة» أن السنّة أن يصلى العيد في المصلى، وأن النبي ﷺ كان يخرج إلى المصلى ويدع مسجده، وكذلك الخلفاء بعده. وأن الناس في كل عصر ومصر يخرجون إلى المصلى فيصلّون العيد في المصلى مع سعة المسجد وضيقه. ويستحب أن يخرج إلى العيد ماشيًا، وعليه السكينة والوقار، ويكبّر في طريق العيد ويرفع صوته بالتكبير.

وفي ذكريات الشيخ عبد القادر قباني: «أن البيارتة كانوا يقيمون الصلاة في ساحة باب المصلى. وكانت ساحته مفروشة بالحصر، وكان يفرش لأرباب المقامات سجادات الصلاة كلًّا بحسبه. وكان يؤتى بمنبر نقّال، وبعد الصلاة وسماع الخطبة يعايد الأهالي بعضهم بعضًا»[١].

---

(١) بيروت حياتها ...، عبد القادر القباني، مجلة الكشاف سنة ١٩٢٧.

وساحة المُصلى أو ساحة باب السراي يحدها من الغرب سراي الحكومة القديمة التي بيعت سنة ١٨٨٢م بالمزاد، وأقيمت محلها أبنية عرفت بسوق سرسق وتويني وشركاهم، ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلة المدور، ومن الجنوب خان الوحوش - قرب سينما أوبرا - وسهلات البرج.

وقد جاء وصفٌ مفصّل لساحة المصلّى على لسان رحالة روسي زار بيروت سنة ١٨٤٤م قال: «تنبسط وراء بوابة المدينة مباشرة ساحة مستديرة كبيرة، تتوسطها شجرة ضخمة (جميزة المصلّى)، تمتد أغصانها من حولها إلى مسافة بعيدة على شكل خيمة كبيرة، يجلس تحتها باستمرار في أيام الحرّ بضعة أشخاص من الأغنياء الذي لا عمل لهم، والهاربين من أجواء المدينة الخانقة، للترويح عن أنفسهم والاستمتاع بالنسيم البارد والهواء النقي. كذلك يأتي الفقراء الذين أنهكهم العمل والحرّ الشديد ليستريحوا في ظلها المنعش وينسوا أحزانهم ومتاعبهم ولو للحظات يسيرة.

وعندما تعتدل درجة الحرارة، يخرج الشبان العرب جماعات جماعات للهو والمرح. فترى في كل مكان بعض المسلمين، وقد بدا عليهم الوقار، يفترشون بعض السجاجيد ويؤدون عليها صلاة المغرب. بينما يتوضأ آخرون استعدادًا للصلاة، فيغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم بماء عذب يؤخذ من نافورة ماء مقبرة لا تنضب. وعلى طرف الساحة من ناحية المدينة تمتد مقبرة صغيرة تظهر فيها بين الحين والآخر نساءٌ مسلمات يرتدين أثوابًا بيضاء فضفاضة متشابهة تغطيهن من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين حتى لنحسبهن تماثيل من المرمر فوق القبور»[1].

(١) منزول بيروت، عبد اللطيف فاخوري (ص٧١).

وكانت هذه الساحة قسمًا من جبانة المصلّى، استولى عليها نعيم أفندي عندما كان ناظر الأوقاف. وكان من الطبيعي أن تسلم من وضع يده الأوقاف المرتبة على الجبانات والزوايا والمساجد.

ومن هذه الزوايا التي أنقذت التكية التي كانت موجودة بجوار جبانات المصلى والخارجة والغرباء، وقد أنشىء بالقرب منها بركة ماء بنافورة جعلت سبيلًا، وفق ما ذكر الرحالة الروسي. ومما يؤسف له أنه لم تتوفر أية معلومات عن تاريخ إنشاء النافورة التي تعود لما قبل ١٨٤٤م، ولا عن تاريخ إنشاء التكية، ولا عن عمارتها والغاية منها، والمرجح أنها كانت بجوار مقبرة الغرباء التي يدل اسمها على أنها كانت مخصصة لدفن الموتى من الغرباء عن المدينة، سواء كانوا من القرى اللبنانية أو من الأجانب. وكان من الطبيعي أن يدفن فيها من الغرباء من كان مسلمًا أو مسيحيًّا، ويستنتج ذلك من كون أهالي بيروت المسلمين والمسيحيين كانت لهم مدافن خاصة، منها للمسلمين السنطية والباشورة والمصلى والخارجة.

عبد الله خرما متولي وقف تكية مقبرة المصلى

كما يستنتج مما ذكر أن وجود نبع ماء في ساحة المصلى أدى إلى إنشاء سبيل أو بركة تستقي منه العامة، ويؤخذ منه لحاجات زائري القبور ودفن الغرباء، بعد غسل الميت وتجهيزه وتكفينه ودفنه ثم الصلاة عليه في التكية المذكورة.

ومن المؤكد أنه كانت للتكية وقفية يصرف من ريعها على صيانة التكية وإطعام من يلجأ إليها من الغرباء أو الفقراء أو دفنهم، بدليل أن الوثيقة المؤرخة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول الأنور ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م تفيد «أن عبد الله ابن الحاج محمد خرما كان متوليًا على وقف التكية الكائنة عند بوابة المصلى، وأنه أجر قطعة أرض من الوقف إلى

متولي جوامع العمري والدباغة وعساف/ السراي بلغت مساحتها ١٥١٧ ذراعًا (مما يدل على كبر الوقف)[1].

يذكر أن هذا الوقف كان من ضمن الأوقاف التي سلمت لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عند تأسيسها كما أوضح الجدول المذكور في كتيب «الفجر الصادق» الذي نشرته الجمعية.

وتعلمنا عن تلك المدافن الوثيقة المؤرخة في غرة ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٧ هـ/ ١٨٨٠م وتفيد أن عبد الله محمد خرمه الناظر على الترب المعروفة بتربة الباشورة وتربة الصنطية (على طريقة البيارتة تلفظ السين صادًا) وتربة المصلى والخارجة ...، وأنه حضر إلى المجلس الشرعي، واعتزل النظارة عن الترب المذكورة، فأقيم حسن محرم بك ابن إسماعيل بك رئيس جمعية المقاصد الخيرية في بيروت ناظرًا على الترب المذكورة الخ[2].

ويلفت النظر أن كل مدفن ذكر في الوثيقة المذكورة سبقته كلمة تربة، في حين سبقت كلمة تربة لمقبرتي المصلى والخارجة معًا؟ ما يعني أن مقبرة المصلى هي أيضًا مقبرة الخارجة، وسميت كذلك لأنها كانت أصلًا بظاهر بيروت، أي خارج السور شرقًا، حيث كان مبنى البيبلوس (المخازن الكبرى) والمطعم الفرنسي وسوق الخضار بالجملة، وعرفت بمقبرة المصلى لوقوعها قرب ساحة المصلى، أي الساحة أو الفسحة خارج السراي القديمة والسور والتي كانت تقام فيها صلاة العيدين.

وقد جاء في الوثيقة المؤرخة في ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩١م الخاصة بثبوت انتقال ملكية عقارات موسى ديمتري نصور سرسق

(١) السجل الشرعي لسنة ١٢٦٢هـ (ص١٧٥).

(٢) السجل الشرعي لسنة ١٢٩٧هـ/١٢٩٨هـ، غرة ذي القعدة ١٢٩٧هـ.

إلى أبنائه جرجي وميخائيل والفرت (الفرد) سرسق، أن من ضمن تلك العقارات قطعة أرض في محلة الصيفي، فيها بناء سفلي وعلوي، يحدها شمالًا وشرقًا «مقبرة المصلى، وغربًا بعضه تكية المقبرة المذكورة وقبلة الطريق السالك الآخر إلى البحر ...».

مقبرة الغربا وسوق الغربا

وفي عنعنات البيارتة أن قسمًا من أراضي المصلى أو الخارجة عرف بمقبرة المغاربة، لدفن موتى العائلات المنحدرة من المغرب وتونس والجزائر وليبيا وموريتانيا والتكرور ...، كما أن قسمًا من أرض المصلى خصص لدفن الغرباء عن المدينة، ولفظها البيارتة الغربا (من غير همزة في آخرها)، وأن هذا القسم واقع شمالي ساحة الشهداء (البرج) في موقع سينما ريفولي (أي: شمالي السراي الصغير).

ويتأيد ذلك من الوثيقة المؤرخة في آخر شوال المكرم سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩١م والخاصة بانتقال عقارات جرجس يوسف طنوس التويني إلى أبنائه نخلة وجبرائيل وحنا والفرد التويني، وكان من ضمنها خان بمحلة الدباغة، يحده شمالًا بعضه الطريق الآخذ إلى الأسكلة وشرقًا «مقبرة الغرباء ...» والدار الكائنة «بسوق الغرباء» من محلة الدباغة ....

ومن المعروف أن إطلاق لفظ «الغربا» على السوق يدل على أن غالب زبائنه كانوا من الغرباء (كما هي حالة سوق الأحد في أيامنا)، وكما أطلق لفظ مقبرة الغرباء لمن لم يكن من أهالي البلدة المسلمين أو المسيحيين لا فرق.

يذكر أن سلطات الانتداب قامت في أول حكمها بمنع الدفن في المقابر المذكورة، فقام القادرون من المسلمين بنقل رفات أقربائهم إلى مقبرة الباشورة. ولما لم يكن للغرباء أقرباء في المدينة بقيت رفاتهم في

مكانها وأقيمت فوقها سينما ريفولي. وهذه الرفات هي التي تبوح بها الحفريات الجارية حاليًّا في الموقع المشار إليه.

يذكر أن رفات المدفونين في مقبرة السنطية رميت في البحر، أو رميت في مكب النورمادي ودخلت في أساسات الأبنية التي بنيت وستبنى في المنطقة المسماة بالبيال.

وفي تحديد أدق لما سمي بتكية الغرباء يفيدنا الإعلان الصادر عن مديرية المعارف في بيروت في آب ١٨٩٣م بتأجير الأملاك المختص إيرادها بالمكاتب الابتدائية بالمزايدة، ومن هذه الأملاك خان ودكانين «أمام تكية الغرباء ...».

وكان يطلق على هذه المقبرة «تربة الدباغة» لقرب حدها الشمالي من باب الدباغة. ويذكر أن بعض اللصوص اختلسوا في أيار ١٨٧٩م عشرين ليرة عثمانية وعمدوا إلى دفنها «في تربة الدباغة»، وصار القبض عليهم من آغا الضبطية سعيد آغا الحاسبيني.

وجاء في وثيقة وقف عبد الخالق نصوحي بك قطعة أرض ما عرف بوقف العلماء، أنه يحد تلك القطعة «قبلة مقبرة الإسلام المعروفة بالخارجة ...».

وضمت مقبرة المصلى رفات العديد من أهالي بيروت، منهم المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري (١٩٠٥م)، وعمر غزاوي (١٨٨٥م)، ومحمد أبو بكري البواب (١٩٠٨م) وغيرهم، وكان فيها مقام لأم حرام الصحابية رضي الله عنها.

* * * *

فهرس الموضوعات



دار الحديث الكتانية

المملكة المغربية : طنجة - شارع لبنان -إقامة يامنة- الطابق الثالث رقم ٤٧
هاتف ٠٠٢١٢٦٥٦٩٩٣١٤٧

الجمهورية اللبنانية ، بيروت - شارع برج أبي حيدر - ص.ب ٥٥٥٦-١٤ بيروت
هاتف ٠٠٩٦١-١-٨٤١٦٣٦/٠٠٩٦١-٣-٢٨٧٨١٩

e-mail. dar.alkatani@gmail.com